

Work can only be obtained from temperature differences between systems in contact with each other. When work is done, such systems tend to even out; and that loss of heat occurs in the form of entropy.

مدحت محفوظ

The entropy of an isolated system not at equilibrium will tend to increase over time, approaching a maximum value. The second law of thermodynamics states that the entropy of a closed system can never decrease and evolves naturally towards a maximum value.

سهم كيويبيد

(رواية ليست رومانسية بالضرورة !)

Every Roman was surrounded by slaves. The slave and his psychology flooded ancient Italy, and every Roman became a slave, and of course unthinkingly, a slave. Because living in a world of slaves, he became infected with the unconscious of slaves. No one could shield himself from such an influence.

Carl Gustav Jung

On Analytical Psychology (1916)



١- الثلث الداني

تحذير قانوني
شخصيات هذه الرواية قد تفصح عن
آراء ربما يعتبرها البعض صادمة اجتماعيا
أو دينيا أو عرقيا أو جنسيا .
القارئ ، والذي يشترط فيه أن يكون
قد بلغ السن الرائدة قانونا ، يتحمل وحده
دون المؤلف أو الناشر- كامل مسئولية
قرار قراءتها ، ولا يحق له بحال العودة
على أي منهما بأية تبعات .

To the first person from whom I've learned the meaning of the word 'Arabs' ...
MY MOTHER

► **First draft: Saturday, September 02, 2006.**

First PDF publishing of the complete draft (limited): Tuesday, January 30, 2007.

► **First PDF publishing of the final document: Saturday, March 10, 2007.**

This version's date: Tuesday, January 24, 2023 (some minor formal, linguistic and/or typing corrections have been made).

Before you read or print, it's highly recommended to download the latest version from this location:

http://www.everyscreen.com/views/pdf/SahmCupid_01.pdf

► © 2006 - 2023 Medhat Mahfouz. All Rights Reserved.

► Reproduction, full or partial, in any form, printed or electronic, recent or future, is strictly forbidden without a thorough written permission from the author.

► Production of electronic edition: Author's Office (*MSoft*)

For Best Printing Results:

I) **Print on both sides:**

Step 1: Select even range of pages, e.g. 1 to 50, or the whole document (which we adjusted to end with even page number).

Step 2: Print 'Odd pages only.'

Step 3: Flip paper stack and print (for the same range, of course) 'Even pages only' with 'Reverse pages' option ticked.

II) Some PDF advanced printing options for older versions of Adobe Acrobat Reader:

'Print as image' may help avoiding some rare Arabic printing glitches, such as deflected display of the cashidas.



أحمد لطفى السيد باشا كان من اختار لآمال اسمها . كل مصر عرفت هذا بعد قليل ، حين بدأت آمال الطفلة التمثيل للسينما . كان صديق والدها ، وكانت الأسترتان تلتقيان مرة فى الأسبوع على الأقل . تخرج نور الدين والد آمال من إحدى كليات الهندسة البريطانية ، وكانت رغبة أبية له أن يصبح أول مدير مصرى لهيئة السكك الحديدية المصرية ، التى كانت مفخرة كبرى أن يقال إنها ثانى خطوط حديدية أنشأت فى العالم . لم يتحقق حلم جد آمال لابنه بالضبط . التحق بالفعل للاشتغال كمهندس بالسكك الحديدية ، لكن ما حدث هو أن طلبه ذات يوم طلعت حرب باشا لمقابلته فى مكتبه ، وعرض عليه أن يكون أول مدير هندسى مصرى لستوديو مصر الذى أسسه . كان الألمان قد انتهوا من تصميم وإنشاء الستوديو ، وكانت المعدات متقدمة للغاية بمقاييس عصرها ، وفى حاجة لمهندس كفء لإدارتها . وقرر طلعت حرب الذى اشتهر بأنه يجمع الكفاءات حوله فى مكتبه كما يجمع التحف حوله فى منزله ، أن الوقت قد حان للمخاطرة بإقحام خبرة مصرية لهذا الحقل . لحسن الحظ كانت المقابلة رائعة ، حيث علم طلعت حرب أن مرشحه مولع بالسينما كآلة فى حد ذاتها ، وأنها كانت أول ماكينة سحر بها فى طفولته حيث قام بتفكيك تلك التى كانت لديهم بالمنزل . وهى التى حسمت مبكرا توجهاته ، وقبوله الفورى لفكرة والده له بدراسة الهندسة .

من هواية والدها ، وحتى من قبل احترافه ، اكتسبت الطفلة آمال الشغف بالسينما والأفلام ، وإن لم تكتسب كل اسمه . أصبحت تعرف بآمال نور فقط ، ربما بسبب قصر وموسيقية الاسم ، وربما أيضا بسبب بعض مواقفها الدينية وولعها الشديد بالقراءة عن تجربة كمال أتاتورك فى علمنة تركيا . من أمها الإنجليزية اكتسبت القوام المشوق والوجه خارق الملامح والشعر الكستنائى المنسدل (الذى يتغير طبعاً طولاً ولونا وتسريحة حسب الأفلام) . ومن الكاتب الكبير صديق والدها اكتسبت الأفكار العصرية الحدائثية المتحررة . كذلك اكتسبت ازدراء حزب الوفد . رغم أنها لم تعاصر سعد زغلول ، بل ولدت بعد موته بثلاث سنوات كاملة ، سنة ١٩٣٠ ، إلا أنها كانت تزدرية ، وتزدرى كل من خلفوه ، لأنها كانت تزدرى ما يمثلونه . كانت تقول دوما عن سعد إنه أجبين شخص سمعت عنه فى حياتها . دجال مصفى ، إزاي أزهري وقارئ قرآن وهو ينطق القاف كاف ؟ أكيد إالى كان يقرأه موش قرآن ، إنما قرآن . وتقلب السخرية إلى غيظ يتملكها ، كلما تذكرت كيف خان كل زملائه ، وعلى رأسهم عدلى يكن ، إذ كانوا قد خططوا بدقة لأن تبقى مصر تحت الحماية البريطانية ، فى مقابل التسريع فى حصولها على مساعدة الإنجليز فى تحديث التعليم والصناعة وبناء الاقتصاد . كرهت كل من يلجأ للدهماء ليستخدمهم كورقة ابتزاز وإشباع لطموحات الصعود الطبقي والزعامة والسلطة . من خلال زعيم الوفد هذا ازدرت -إن لم نقل كرهت- كل الأزهريين ، وكل المحامين ، وكل الانتهازيين ، وكل ذوى الأصول الوضيعة ، بل وحتى كل السياسيين ؛ لدرجة أن أحدا لم يفهم تقريبا لماذا فترت علاقتها بأبيها الروحى يوم أصبح عضوا بالبرلمان ، ولم يعد مجرد كاتب صاحب 'رسالة' بعد . هو عظيم ككاتب وكأستاذ جامعة وحتى كوزير للمعارف ، لكن أن يرشح نفسه فى الانتخابات ، فهذا خطأ فادح . ذكرته بتجربته الأولى قائلة : ' هذا شعب جاهل وسوف يخذلك ' . إلا أنه صمم ونجح ، أما هى فلم تغير رأيها ، على الأقل من قبيل عناد اليافعات وغرورهن . للأسف من ساعتها لم تعد علاقتها بمعلمها بذات حميميتها القديمة أبدا . كانت متأكدة أن الأيام سوف تثبت صحة موقفها ، وأن بدخول هذا المفكر العظيم لمعتزك السياسة وتنازلاتها وألاعيبها سيضحى بالكثير دون أن ينجز شيئا يذكر .

حين أصبحت آمال أعظم وأشهر ممثلة فى مصر ، وأصبح كل المصريين يحبونها ويعشقونها ، اكتشفت إنها لا تكره هذا الشعب ؛ بالعكس ، هى طالما آمنت بأن أفلامها تهدف للارتقاء بثقافته وسلوكياته ، بتفاصيل حياته بطريقة كلامه ولبسه . ولعل أشهر ما يروى عنها مشهد تربط فيه الكرافتة لحبيبتها ، قدمته بالتفصيل . ويقال إن المصريين لم يكونوا يقبلون كثيرا على ارتداء الكرافتات ، مع كونها غير باهظة الأسعار جدا ، أو كانوا يرتدونها بطريقة مضحكة ، رغم أنها شئ شائع بين وجهاء المجتمع وبين نجوم السينما . لكن آمال قلبت كل شئ ، من خلال مشهد سينمائى واحد ، حلت فيه ما كان عموم الناس يعتبرونه لغزا غامضا ، ألا وهو كيفية تنفيذ تلك الربطة السحرية الغربية . فقط فيما يخص الشعب ، كانت ترفض أن تزج به لخلبة المشاركة فى القرار السياسى ، وهو بعد فقير جاهل . ولطالما قالت إن المطلوب -أولا- ديمقراطية البيت وديموقراطية المدرسة وديموقراطية المسجد وطبعاً ديمقراطية الاقتصاد ؛ أى الرأسمالية الحرة المفتوحة ، تلك كلها قبل أن نفكر فى الديمقراطية السياسية ، وأن يعهد للشعب بالمفاضلة بين هذا البرنامج وذاك ، أو بين هذا الزعيم وذاك . وعن الانتخابات صرحت ذات مرة أن سؤال شعب متخلف فى مواضيع متخصصة دقيقة وصعبة ، كالاقتصاد أو الاستقلال أو العلاقات الدولية ، أشبه بطفل فشل فى امتحان الابتدائية ، فنقول لنجرب معه الدكتوراة . كذلك لم تستوعب جدا فكرة مثل مجانية التعليم ، التى بدأها وهى بعد صغيرة الدكتور طه حسين بقوله الشهير التعليم يجب أن يكون حقا كالماء

والهواء ، وكانت أميل لأستاذها تقول المهم النوعية ، وتضيف : ' لو خيرت بين كوب ماء نظيف وبين بركة قدرة لاخترت الأول ، والميزانية التي تخصص لبناء مدرسة لن تنفيذ البلد قدر إرسال طالب واحد للحصول على تعليم راق في الخارج ' .



كل شيء قد أجهز عليه بالفعل في ١٩١٩ ، وما تفعله طغمة يوليوي ليس إلا تحصيل حاصل .

مع ذلك كان غضب آمال على استيلاء الأقلية العربية على السلطة في مصر

بواسطة الانقلاب العسكرى لما تسميه تنظيم الضباط الأعرار الأعراب

أضعاف غضبها على استيلاء الدهماء المصريين عليها -بالقوة أيضا- لحساب الأفاق سعد زغلول !

أحبت آمال وتزوجت من ضابط للجيش ترك وظيفته ليشتغل موجهها (مخرجا) للأفلام لدى والدها . كان وجدى الديب موجهها قديرا تحقق أفلامه أعلى الإيرادات . هى نفسها يحقق الفيلم الذى يخرجها لها ضعف ما تحققه أفلامها الأخرى . كان مولعا لحد الجنون بالسينما ، درسها بالخارج ، وولع بعظماء موجهيها العالميين ، لكنه لم يكن صاحب موقف سياسى دقيق أو عنيد مثلها . رغم أن آمال كانت تطلق على سعد زغلول اسم البلشفي ، وكان البعض يعتقد أنها ربما لا تفهم الفارق بين الوفد وبين الأيديولوجية الشيوعية ، لكن الحقيقة أنها كانت تعرف كل ذلك بدقة ، وكانت أبعد في رؤيتها من الجميع . مع ذلك كانت نضاليتها الزائدة فى تحدى ريجيم ١٩٥٢ ، تدل على حماس وانفعال أكثر منه على وعى وتعقل ؛ فهى فى خضم حماسها لتجربة الليبرالية المصرية ، تناست عدة أشياء . تناست أن الأمور لم تكن حقا فى ذروتها قبيل ١٩٥٢ ، تناست أن فترة الذروة الحقيقية لمشروع الحداثة المصرى الذى بدأ بسعيد وإسماعيل ، كانت ما بين ١٨٩٨ و ١٩١٤ ، هذه التى بدأت بتحرير الملكية الزراعية وتأسيس البنك الأهلى المصرى ، ثم تأسيس أول جامعة مصرية فظهور أفكار أحمد لطفى السيد عبر ' الجريدة ' ، أو إعطاء الاعتبار لأمثال قاسم أمين ، وأخيرا ، الذروة الأكبر إطلاقا لها كلها : بسط الحماية الإنجليزية على مصر ، ميلاد أول صيغة رسمية لأن باتت مصر جزءا من إمبراطورية الحضارة ، ١٩١٤ ، لحظة السنام الأعظم فى كامل مشروع الحداثة المصرى ، مشروع الأمل . أو هكذا على الأقل تمثلته بعض النخبة المصرية فى حينه . تناست أن ما جرى فى ١٩٥٢ لم يكن بحال تغيرا نوعيا . لم يكن إلا الخطوة المنطقية التالية . كان فقط اختلافا فى الدرجة ، مدا للخطوط على استقامتها ، نتيجة وليس سببا . حاول من هم أكبر منها سنا وخبرة إفهامها أن كل شيء كان قد انتهى وقضى ، وهو بعد فى المههد تقريبا . كل شيء قد أجهز عليه بالفعل فى ١٩١٩ ، وما تفعله طغمة يوليوي ليس إلا تحصيل حاصل . مع ذلك كان غضب آمال على استيلاء الأقلية العربية على السلطة فى مصر بواسطة الانقلاب العسكرى لما تسميه تنظيم الضباط الأعرار الأعراب أضعاف غضبها على استيلاء الدهماء المصريين عليها -بالقوة أيضا- لحساب الأفاق سعد زغلول ! أشفقوا عليها أنها حين تحاربهم إنما تحارب طواحين الهواء . ببساطة ، من حيث الجوهر ، كل المظاهرات منذ ١٩١٩ حتى ١٩٥٢ ، أو كل ما يوصف زورا بالحيوية السياسية ، لم تكن تطالب إلا بشيء واحد : ١٩٥٢ ! للأسف ، روح آمال النضالية أعمتها -على الأقل فى ذلك الوقت- عن مثل هذه الحقيقة المؤلمة !

حين جاء ضباط يوليوي للسلطة أصبحت تسميهم العصابة ، لكن زوجها لم يكن ذا رأى محدد . هنا بدأت الخلافات تدب تدريجيا بينهما . كان يرى أن التغيير قد يأتي بفائدة فى حد ذاته ، أو يقول لنتنظر ونرى ، وكانت هى تتور فى كل مرة وترد عليه مثلا أن الملوك ربما يصابون بالخرف أحيانا ، وربما يولدون أغبياء أحيانا ، وربما ينجرفون وراء نزواتهم الشخصية أحيانا . لكن كل هذا كوم ، وأن نسلم أمر حكمنا للأوباش كوم آخر . حتى لو جن كل الملوك ، لا يصح أن نعطي الحكم للشعب أبدا ؛ إنه ليس حلا على وجه الإطلاق . كانت ترى فى مواقف زوجها علامات ضعف شخصية ، أو لعلها أيضا كانت تقول فى قرارة نفسها : ' أنت مخرج وبس ، من أين لك أن تفهم فى السياسة ؟ ' . لذا حين عرض عليها مشروع الفيلم الجديد عن الثورة ، كما أصبح الكل يسميها ، وأن تصبح بطلة ، أصابها انخيار عصبي فى التو واللحظة ، ولم تهدأ إلا بعد أن أتى المأذون فى تلك الليلة ووقع الطلاق .



عراي زى ما بيسميه المصريين كان هوجة واحد واطى طماع جاهل وراحت لحالها ،

مصطفى كامل كان عميل عثمانلى وسافل كلام موش أكثر ،

سعد زغلول كان وغد بلطجى محترف إجرام ، إنما البكباشى ده موش لاقية له وصف !

هذا الأعرابي الجربوع سليل بنى مر قرر أن يستجلب أسلافه من جديد لاحتلال ونهب مصر ، وليدمر عمدا تراثها وتاريخها ،

هذا الذى يذكره بضالة أجداده الأحقاف الأجلاف الرعاع الهمج ، الحفاة الجفافة العراة الجوعى ، الذين غزوها قبل ١٤٠٠ سنة !

حصان طروادة الداعر هذا يقول إنه أول مصرى حكم مصر منذ أيام الفراعنة ، والحقيقة أنه ليس مصرى أصلا بل ابن عربانى وليبية ،

وأول عودة لحكم الحثالة العرب لمصر ، الأمر الذى اعتقدنا أنه انتهى للأبد منذ أن حررنا منه ابن طولون والمعز قبل ١١٠٠ سنة !

وحيد هو ابن آمال الوحيد من زواجها هذا ، كان بعد رضيعا تحطى عامه الأول بعدة شهور ، وبطبيعة الحال هى حاضنته . قالت لنفسها هذه هى اللحظة المناسبة لتحويل الاعتزال المؤقت منذ منتصف شهور الحمل إلى اعتزال نهائى . مؤخرا فعلتها ليلى مراد حين شككوا فى مصريتها وكثر الحديث عن يهوديتها ، ومن قبلها فعلتها جريتا جاربو وكثيرات . ذهبت للراهبة ناظرة المدرسة التى تخرجت منها . استقبلتها بترحاب كبير ، وبالعبارة التقليدية : ' أهلا بأشهر من تخرج من مدرستنا ! ' . كانت آمال تحرص على حضور حفل المدرسة السنوى ، ومشاركة الخريجات الجديديات يوم تخرجهن . وهذا التقليد وحده كان كافيا لجعل الجميع لا يذكر المدرسة باسم القديسة المكتوب على بوابتها ، والذى كان اسما طويلا على أية حال ، بقدر ما أصبحت تسمى مدرسة آمال نور . كذلك كانت تحرص دوما على أن تقدم بعض التبرعات سواء طلب منها أو لم يطلب . قالت آمال للأم : ' لقد أتيتك اليوم فى خدمة ' . ردت عليها بابتسامة عريضة : ' بكل سرور ، إننى تأمرى يا آمال ! ' .

- أنا قررت الاعتزال ، وناوية آخذ وحيد ونعيش فى بيروت .

- (ضاحكة :) فيه حد يعتزل فى سن ٢٧ سنة ؟ ! ده حتى راقصات البالية ما بيعملوهاش !

- ده قرار نهائى ، يا ريت تعرفى من خلال كنيستكم فى بيروت حد ممكن يؤجر لنا بيت صغير وهادئ .

ذعرت الأم وقالت لها بلهجة تعنيف لم تستخدمها معها حتى وهى بعد طالبة : ' إزاي تعتزلى ؟ كلنا عارفين قيمة أفلامك وبنحبها ، حتى الفيلمين أو ثلاثة إلى كان فيهم بعض التحفظات الأخلاقية أو عملتى فيهم دور واحدة موش كويسة ، ما حاولش المركز بتاعنا إلىلى بيتابع السينما ، إنه يخلى حد ما يشوفهمش . أنتى عارفة الأستاذ فريد المزراوى بيقدرك أد إيه . ده حتى إدوكى جائزة عن واحد منهم . كلنا بنقدرك ، كل مصر بتقدرك وتحبك . أنتى غيرتى كل حاجة فى مصر ، إننى حتى غيرتى فى أفكار كنيستنا نفسها . حاجات كانت طول عمرها ثابتة ، خلتينا نبص لها نظرة جديدة . ها أقول لك سر جاز ما تعرفيهوش ؛ قبلك ما كانش فيه ولا واحدة من بنات العائلات اشتغلت بالتمثيل ، ولما پاپاكى خلاكى تمثلى فى أجازة الصيف ، بعض الأخوات قالوا إحنا لازم نطردها من المدرسة ، وأنا إلىلى رفضت وقلت السينما زى أى حاجة ممكن تكون وسيلة للصلاح . كل مصر بتحبك يا آمال ، ولا يمكن ها تسمح لك تعملى حاجة زى كده . ده ها يعملوا مظاهرات قدام بيتك ! ' .

قالت آمال بحزم : ' مظاهرات إيه يا ماذر ؟ ! المظاهرات دلوقتى بتعمل علشان واحد بس إننى عارفاه ؟ واحد أخرى فى سرواله ونزل جرى علشان يخطب فى الأزهر ، والنهارده بيقول إنه هزم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على بعض ، وأنا متأكدة أنه ما يقدرش يهزم صرصار ، لو شاف واحد فى الحمام ها يطلع يجرى ينادى على عساكر الحراسة . واحد نقل تمثال رمسيس الثانى من مكانه الأصيلى ونصبه أمام محطة السكك الحديدية كى يثبت جبروته وجبروت حكمه ، لكن ما حدث هو أن قام بنشره لسته أجزاء ، فدمر للأبد ما به من جبروت حقيقى . لم يستطع مجرد نقله وليس صنعه . يا ماذر ، عراي زى ما بيسميه المصريين كان هوجة واحد واطى طماع جاهل وراحت لحالها ، مصطفى كامل كان عميل عثمانلى وسافل كلام موش أكثر ، سعد زغلول كان وغد بلطجى محترف إجرام ، إنما البكباشى ده موش لاقية له وصف ! هذا الأعرابي الجربوع سليل بنى مر قرر أن يستجلب أسلافه من جديد لاحتلال ونهب مصر ، وليدمر عمدا تراثها وتاريخها ، هذا الذى يذكره بضالة أجداده الأحقاف الأجلاف الرعاع الهمج ، الحفاة الجفافة العراة الجوعى ، الذين غزوها قبل ١٤٠٠ سنة ! حصان طروادة الداعر هذا يقول إنه أول مصرى حكم مصر منذ أيام الفراعنة ، والحقيقة أن من طردهم هم أكثر مصرية ووطنية منه ، بل بالأحرى هو ليس مصرى أصلا بل ابن عربانى وليبية ، وأول عودة لحكم الحثالة العرب لمصر ، الأمر الذى اعتقدنا أنه انتهى للأبد منذ أن حررنا منه ابن طولون والمعز قبل ١١٠٠ سنة ! إنه ليس مجرد صبي أخرج أراد أن يثبت أنه جبار فأثبت أنه قزم ، لكن لا جديد : إنما ذاتها طباع أجداده الجرذان العرب الغزاة الذين راح يحالفهم هذا الوضع وكنا قد

نسيناهم ، بنوا قلاعهم وجوامعهم التي فرضوا بها قهرهم على المصريين ، من تفكيك أحجار أهرامات صغار موظفي مصر الفرعونية ، أو حتى من مجرد تقشير طلاء الهرم الأكبر ؛ وعرفوا لبس النعال لأول مرة من جلود مخطوطات مكتباتنا التي حرقوها . (وتدمع عيناها :) هم يا ماذر من أتلفوا التمثال وليس الزمن . سأمحيني ده قرار نهائي ، وبعدين كمان أنا اتطلقت خلاص ' .

أخذت الأم من حدة كلامها في السياسة لكن صعقت بالكامل بمجرد سماع لفظة الطلاق . تجمدت لبرهة ، ثم راحت لدقائق تدور وتدور في المكتب وتتمتم بكلمات غير مفهوم معظمها . وتركتها آمال تأخذ وقتها في استيعاب الموقف . وحين عادت للجلوس ، قالت لها : ' أنا لى طلب واحد بس ' . لم ترد الأم . فواصلت آمال : ' أنا موش عاوزة حد يعرف بحكاية بيروت دى ' . قالت الأم بعد سكوت طويل ، وقد استعادت بعض هدونها : ' حاضر ، بس موش أنا إल्ली ها أعمل كده ، أنا ها أكلم أبونا مظلوم بتاع مدرسة الأولاد ، هو إल्ली يعرف آباء في بيروت وغير بيروت ويبسافر لهم ' .



قال بعضهم لنيكسون

إن الحكومة المصرية هي التي دفعت هؤلاء الناس للشوارع

حرصت آمال على أن تكون لغة وحيد الثانية -أو بالأحرى الأولى- هي الإنجليزية ، فقد كانت العامية المصرية هي لغته الثانية . تذكرت أن والدها كان يستشرف المستقبل سلفا ، يوم أصر على أن تدرسها في وقت كان فيه معظم التعليم الأجنبي في مصر بالفرنسية ، وكانت الإنجليزية عبارة عن فصل وحيد في ذات المدرسة ، وفي عدد نادر من المدارس الأجنبية ككل . اكتشفت وقدرت أن الإنجليز لا يهتمهم نقل ثقافتهم أو لغتهم بقدر ما يهتمهم أن تتعلم الشعوب أشياء مادية ملموسة ، كالتقنيات الجديدة أو تبنى الاقتصاد الحر الحديث . حين واجهت نفس الوضع في بيروت ، تذكرت أيضا كم كان لها تحفظاتها الشخصية الكثيرة على فرنسا وعلى الثقافة الفرنسية ، تحديدا منذ قرأت في طفولتها رواية ' قصة مدينتين ' المرعبة ، وعرفت أن الثورة الفرنسية هي أصل كل الجمهوريات ، وأنها أصل كل حكم للدهماء في العالم . المهم قالت إنه ما باليد حيله ، وبيروت أيا ما كانت مساوئها ، لا تقارن مطلقا بجحيم مصر تحت حكم زعيم العروبة الملهم .

أتم وحيد دراسته الثانوية في صيف ١٩٧٣ ، والتحق بقسم الصحافة بالجامعة الأميركية ببيروت . حين قارب عامه الدراسي الأول على الانتهاء ، وكانت آمال قد شارفت آنذاك الرابعة والأربعين من عمرها ، قالت هذه هي اللحظة المناسبة للعودة لمصر . الأحوال تغيرت ، وذهب الكابوس ، والرئيس السادات يبدو مختلفا كثيرا . إذا كان فعلا سيفتح القناة كما يقول ، وسيعيد المهجرين لمدن القناة ويعيد بناءها ، فهذا معناه أن ملف الحروب مع إسرائيل قد أغلق للأبد سواء عادت سيناء أو لم تعد . هكذا قدرت آمال الوضع ، وتوصلت منه ليقين بأن قرار السادات بات واضحا : التنمية وعيش الناس أهم من الشعارات أو حتى من الأرض . أيضا أنا لا أريد أن أموت بعيدا عن بلدى ، ولا أريد لوحد أن يتحول لبنانيا شيئا فشيئا .

تذكرت في هذه اللحظة الأم الراهبة ، وكيف حصلت على مسكنها البيروتى هذا ، لكن تفكيرها راح بسرعة لمنزلها القديم الذى أهدها لها والدها ، ويقع قرب طريق المطار ، الطريق الذى يعرف باسم پالاس أفينيو ، والمقصود بالپالاس أكبر قصور الشارع ، قصر البارون بالطبع . لم تكن تعرف آمال أن اسمه قد أصبح صلاح سالم والعروبة وأسماء كثيرة من هذا النوع ، بحيث لم يعد أحد يعرف اليوم على أى اسم استقر ضباط ٥٢ بعد أن استتب لهم مصادرة معظم ما وجدوا على جانبيه . كانت فيللا آمال ذات موقع مميز جدا ، في منطقة وسيطة هادئة ، المنطقة التي لا تزال تتمتع برائحة مصر الجديدة المميزة ، رائحة الياسمين الذى كانت تتدلى فروعها خارجة من أسوار كل فيللاتها يوما ، ولم تعد تجده في بقية الحى إلا متفرقا في بعض الشوارع الجانبية ، حيث لا تزال هناك فيلات لم تتحول بعد لعمارات ، ولا يزال هناك من يعتنى بزراعة شىء في حدائقها . الفيلا يمكنها أن ترى من إحدى الجهات فندق القصر هذا ، ومن الجهة الأخرى ترى بوضوح قصر البارون ، وإن على بعض البعد . نعم ، الفيلا لم تؤم ، وكان هناك من يربحها من أقاربها ، وتعرف أنها لا تزال بحالة جيدة ، لكن كيف سيكون مذاق العودة ، هذا ما ظل يشغل بالها طيلة الأسابيع التالية .

بعد أيام قليلة من انتهاء وحيد من امتحانات النصف الثانى للعام الدراسى ، ولم تكن النتيجة قد ظهرت بعد ، أو تحديدا صبيحة الأربعاء ١٢ يونيو ١٩٧٤ ، جلست آمال ووحيد في المقعد الخلفى لسيارة الأجرة الميرسيديس السياحية . قبلها بدقائق لم ترتح آمال لكثافة الإجراءات الأمنية

في المطار ، إذ كانت تمنى أو تتصور أن ترى مصر مختلفة عما تركتها عليه . خارج المطار كانت المفاجأة أكبر ؛ حشود من الجماهير تهتف وتلوح بالأعلام . لا يمكن للمرء استبعاد أنه قد خطر ببالها ولو للحظة أنها ربما تكون هي المقصودة بهذا الاستقبال . سألت السائق بسرعة : ' هو فيه إيه يا أسطى ؟ ' ، فرد : ' نيكسون جاي النهارده يا مدام ! ' ، وراح يتأملها من خلال المرآة المرة تلو الأخرى لبضع دقائق ، هذا الصوت ليس غريبا ، وربما الوجه أيضا ، لكنه فشل في التعرف عليها بسبب النظارة السوداء الواسعة ، وربما أيضا بسبب ما فعله الزمن على امتداد قرابة عقدين منه .

ما أن وصلت للبيت ، حتى هرعت للمذيع القديم ، وعرفت أن خمسة ملايين قد خرجوا لاستقبال رئيس أميركا ، وهو خمسة أضعاف العدد الذي خرج ليطلب من ' الزعيم الخالد ' عدم التنحي أو خروجوا لجنازته ، مع اختلاف يضرب فارق العددين في ١٠ ، أو بالأحرى فيما لا تحاية ، هو أن من خرجوا ' للكبكباشى العريانىجى ' حركهم دائما أبدا الانفعال الأهوج الأعمى وغسيل المخ القسرى الجنونى ، بينما لم يخرج أحد لنيكسون إلا بعقله . تمددت على السرير ، وأخذت نفسا وعميقا ، وارتسمت على وجهها ابتسامة عميقة ، فلو كان الاستقبال المشهود هذا لها هي شخصا ، لربما ما فرحت به هكذا .

لم تغير العودة كثيرا من حياتها ؛ هي ماضية في قرار الاعتزال ، ونفذته فعلا ، بحيث لم تخرج للعلن سوى مرتين فيما يمكن ذكره ، وفيما يمكن القول إنه لم تستطع فيهما الصمت .

المرّة الأولى يوم قرر العرب مقاطعة مصر ، حيث قالت بجدّة إن هذا أفضل بكثير . تحدثت عن ذكرياتها عن زيارة نيكسون ، وروت طرفة نمت إليها من أحد السفراء ، هي أن قال بعضهم لنيكسون إن الحكومة المصرية هي التي دفعت هؤلاء الناس للشوارع ، فرد متسائلا : ' ومن الذي وضع الفرحة على وجوههم ؟ ! ' . وأضافت بأن الكل يعلم أن أعداد الشعب التي خرجت فرحة بالسلام قد فاقت أعداد من خرجوا لاستقبال نيكسون المشهود ، وقالت إنه في حدود من تعرف ومن تقابل تستطيع الجزم بأن كل الشعب المصرى مع السلام ، من خرجوا من أهوال الحروب ، ومن لم يخوضوها ويحملون بفرص شغل مجزية غير حكومية ، أو على الأقل يأملون بتخفيف أو ربما إلغاء التجنيد الإجبارى .

الظهور العلنى الثانى لآمال كان فى التسعينيات ، أيضا من خلال لقاء تليفزيونى ، لكن كان أكثر استفزازا . راحت تقرع بشدة الممثلات المحجبات ، وتجاوزت حتى العبارة الشهيرة لأمينة رزق ' هل تريدون إيهامى أنى كنت على خطأ سبعين عاما ؟ ' ، بأن انتقلت من الدفاع للهجوم . اندفعت لمناقشة دقائق أسلوب حياة هؤلاء وتفصيل مرجعيتهم الفكرية ، حيث أظهرت دراية كبيرة بكلا الأمرين . ولشهور قامت مصر ولم تقعد ، وحاول بعض المحامين المتدينين رفع قضايا ضدها ، لكن النائب العام أجهضها جميعا فى مهدها .



اعرف وأنت مغمض أن كل الكلام الحلو (أفلاطون) يقودك لجهنم .

فقط الكلام الوحش (أرسطو) هو المعبر عن الحقيقة المرة : قوانين الطبيعة !

تخرج وحيد من قسم الصحافة بالجامعة الأميركية بالقاهرة ، لكن مع الحرص على أن يكون ما يسمى بدراسته الصغرى هو ولاية البيزنس ، أو ما يترجمونه بالعربية إدارة الأعمال . لم تفهم أمه هذا ، وكانت تقول على أيامنا لم يكن أحد يدرس شيئين بالتوازي فى نفس الشهادة ، وكان يرد إن دراسة البيزنس بالذات تجعل صاحبها يحصل على مرة ونصف ضعف الأجر ؛ فالشركات لن تكون مضطرة لتعيين مدير فوق رأسه . بمجرد تخرجه عرض عليه الاشتغال فى صحيفة جديدة تحت التأسيس فى دولة الكويت .

خلال فترة صباه البيروتية تفاعل لفترة مع الأفكار الشيوعية التي كانت ملء الأسماع والأبصار ، لكنه لفظها بسرعة ، ليس فقط بالوراثة عن أمه ، إنما لأنه كما يقول اكتشف أن ماركس نفسه ليس بالماركسية الكافية ، ويوم أصدر ' المانيفستو ' قد خان الماركسية وأصبح شيوعيا ! ، إذ لو كان مؤمنا بالمادية حقا ، لما بشر بأن المستقبل يكمن فى نقل الوعى لطبقة الشغيلة ؛ فالمادية هي المادية ، التقنية والاقتصاد والمخترعات ، أما الثقافة والوعى والفكر فهي عوامل ثانوية فى صنع التاريخ . تلويث المادية بما يسمى بالديالكتيك ، الذى هو ظاهرة إنسانية وليست كونية ، هو غثاء وإلغاء لها . ثم كيف يكونون ماديين وكل كلامهم عن الفقراء كلام عاطفى طوال الوقت -هكذا كان يختم محاججته عادة ، مستنكرا أن بمجرد ما أن يحاول سياسى يمينى التواصل مع عموم الناس ترفع فى وجهه على الفور فزاعة أنه ' شعبوى ' !



المادية المادية

من كثرة ما كان يقول إن أرسطو أحسن من ماركس ، وإنه مهما اخترع الأخير أو غيره من مادية ديالكتيكية أو مادية تاريخية أو غيرها من ماديات فسيظل هو على عهد مادية أرسطو ، المادية المادية ، كانوا يغيظونه بأن واحدا فقط هو الذى استحق لقب ' أستاذ ، وأنتم فى مصر أسميتهم أحمد لطفى السيد بالأستاذ مجرد أنه ترجم كتابا للأستاذ الحقيقى . كان يدافع بضراوة عن صديق جده ، بأنه يمثل لمصر نفس ما يمثله أرسطو للعالم . وفى النهاية ، حين أدركوا مدى عمق إيمان وحيد وفهمه لأفكار أرسطو ، أسموه هو نفسه أرسطو ، وينادونه : ' هلا أرسطو ! ' ، ' هيك أرسطو ! ' ، ' كرما لأرسطو ' ، ' باى أرسطو ! ' . وأصبحوا يتناقلون عبارة له تقول ' اعرف وأنت مغمض أن كل الكلام الخلو (أفلاطون) يقودك لجهنم . فقط الكلام الوحش (أرسطو) هو المعبر عن الحقيقة المرة : قوانين الطبيعة ! ' . وطبعا لم يكونوا يرددونها على سبيل الإعجاب ، إنما مجرد أنه كانت مرادفا لعبارة أخرى كان يحاجج بها المسيحيين اللبنانيين ، أنه يستطيع بمنتهى السهولة رص نص أروع من الموعظة على الجبل ليسوع الملقب بالمسيح ، لكن المشكلة أن أحدا لن يستطيع تنفيذ شىء منه على أرض الواقع . بل كان يتطرف أحيانا فى كلام يزدري الفكر ازدراء مطلقا ، ويعتبره نباتا شيطانيا دخيلا على الطبيعة ، ومآله الاندثار حتما !



لا يسعدنى وصفى بالمفكر ولا الانتماء لمن يوصفون بالمفكرين ؛

أنا أفضل صفة أكثر تواضعا بكثير : ناطق غير رسمى بلسان أمتنا الطبيعة !

حتى اليوم عرف عن وحيد إيمانه المطلق بالفلسفة المادية لدرجة أنه يستهجن أن يوصف هو نفسه بالمفكر ، ويقول : ' الأفكار والأيدولوجيات والفلسفات فى كفة ، والمادية فى الكفة الأخرى . مهما بدت أفكارى أو أفكار من يشبهنى شديدة الجموح أو الابتكار أو الصدمة ، فالفارق بينها وبين كل المدارس الأخرى أنها -ومهما كان مجهودنا الذهني نحن الماديون هائلا فى التوصل إليها- ليست فكرا إنسانيا صنعناه ، إنما جوهر وإرادة المادة التى يتكون منها الكون والموجودان منذ الأزل ، وكل ما نفعله ونريده فى النهاية أن ننطق بلسانها ، وهذا ليس بفكر إنما قد يسمى فى أقصى تقدير بالتفكر . . . لا يسعدنى وصفى بالمفكر ولا الانتماء لمن يوصفون بالمفكرين ؛ أنا أفضل صفة أكثر تواضعا بكثير : ناطق غير رسمى بلسان أمتنا الطبيعة ! ' .

بالتالى ، هو يؤمن بالطبع بالحدائثة بمعناها المادى العميق والضيق معا الذى لا يغالى فى تقدير قيمة الإنسان ، ومن ثم من كلماته الشهيرة أيضا : ' الحدائثة هى الحدائثة ، وما بعد-الحدائثة خواء . هذه الأخيرة تشبه زعم البعض بخلق الجيل السادس أو السابع للحاسوب ، بينما الجيل الخامس لم ينجز بعد ! . . . لا شىء بعد الحدائثة ، لأن ما بعدها هو فقط : ما بعد-الإنسان ! ' ، ويقصد بالطبع الذكاء الآلى والكائنات المنمأة جينينا أو ما يستجد غيرها من كائنات حية أخرى فائقة الذكاء .



كانوا أول من كتب بالعربية كلمات عولمة وإنترنت وخليوى وكيبول وساتيليت

تدرجيا أصبح وحيد مؤمنا بالرأسمالية مطلقة التنافس ، وبالطبع بدأ يشعر بالاغتراب بين أقرانه هؤلاء ، بالذات فى فترة بوادر الحرب الأهلية واحتدام الصراعات الفكرية . من كل هذا وذاك كان قراره بأن يدرس البيزنس بجانب الصحافة ، ثم طلبه أن يصبح مسئولا عن صفحة الاقتصاد فى الصحيفة الجديدة . سرعان ما أطلقت عليه ألقاب من قبيل رائد الأرسطية الجديدة أو زعيم الليبراليين الجدد ، وبالمثل كان تعليقه إنه لا يفهم أصلا هذه المصطلحات ، فليس من قديم أو جديد فى الأرسطية أو الليبرالية ، بل فوقية المادى على المعنوى وحتمية التنافس والصراع أمور لا يد لأحد فيها ، إنما هى من خصائص المادة التى صنعنا منها ، إليكترونات وبروتونات . . . إلخ ، وهى أزلية أزل الكون نفسه ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأشخاص بأعينهم ، وقطعا لا علاقة لها بالعرق البشرى .

مع اقتراب عقد الثمانينيات من نهايته ، شعر بأنه ترك أمه أكثر مما يجب ، وأن عليه العودة ، ليحتفل معها بعيد ميلادها الستين وتكون هديته لها بتلك المناسبة قراره بالاستقرار النهائى فى مصر . تمسك به صاحب الجريدة بقوة ، وتمسك هو أيضا ، فإذا بالأول يقدم له عرضا لا يمكن رفضه : أن تكون رئيس تحرير أول جريدة اقتصادية يومية ناطقة بالعربية ، وأن يكون مقرها القاهرة .

رغم أن كثيرا ما راوده الندم من حين لآخر لأنه لم يتجه للسلك الأكاديمي ، إلا أنه بدأ ينظر للأمر بطريقة مختلفة عندما تعرف على ابن لأحد أصدقاء أمه القدامى ، جاء لتحتيتها . هذا تخرج من إحدى كليات الهندسة الحكومية ، ولم يعين معيدا وسط اعتقاده واعتقاد الجميع أن السبب التعصب المتصاعد ضد المسيحيين في السبعينيات ، إلا أنه يتمحيز الأمر بينهما كون وحيد نظرية أخرى : الغيرة . السبب الحقيقي للفظ أساتذته له هو تفوقه الفائق ، لم يكن في حاجة لاستذكار الدروس قط ، حتى الليالي السابقة على الامتحانات كان يقضيها في مشاهدة الأفلام في دور العرض السينمائية . كانت الهندسة في دمه وحضور المحاضرات كان كافيا جدا لا يخرج منها إلا مصرا على الإلمام التام بكل الموضوع الذي تدور حوله . أسئلته الكثيرة وأحيانا المخرجة خلالها ، جعلت أساتذته يخشون نبوغه الذي لم يشهده تاريخ الكلية قط ، خاصة وأنه كان مغرورا وسليط اللسان يندفع لمجادلتهم وكشف أخطاءهم ناسيا أنه مجرد تلميذهم . عندما سمع من وحيد هذه النظرية تملل وجهه وقفز واقفا وقال لقد حللت لي لغزا لم أفهمه منذ كنت طالبا بالثانوية . مدرس الإنجليزية قطع فجأة الدرس وذهب للسبورة ليكتب بحروف ضخمة مملأها كلمة CONCEIT وهو يرمقني بنظرات غاضبة ، بينما لم أفهم أبدا سببا لما فعل لأني لم أفعل شيئا يستوجب وصفى بالغرور ناهيك عن أن يستوجب الغضب ، إلا الآن . على أية حال ، هذا الصديق لم يحزن قط لما حدث من رؤساء قسم الهندسة الميكانيكية في كليته وسارع للاتحاق بشركة أميركية للتبريد والتكييف افتتحت فرعها لها للتو في مصر في بداية سنوات الانفتاح الاقتصادى ، وبالفعل سرعان ما ارتقى سريعا في وظائفها ، وصار نموذجا للشباب الناجح يفكر الآن في تأسيس شركة خاصة به .

ذلك الهاجس الأكاديمي الذي كان يراود وحيد من حين لآخر نسي تماما منذ مع توليه جريدة ' الاقتصاد اليوم ' . ليس فقط لأنه كأبناء جيله فضل خوض غمار الحياة العملية والاشتغال في الشركات الخاصة ... إلخ ، لكن لأن التجربة جاءت أكثر إشباعا بكثير مما توقع . فالكتابة الصحفية المتخصصة يمكن لو أرادت أن تبارى بمجديتها الكتابة الأكاديمية ، بل قد تفوقها بما لا يتوفر في هذه الأخيرة ، وهو الرؤية واتساع الأفق كنعقوض للقيود الأكاديمية البليدة العقيمة . لم يشعر وحيد الديب بالاعتزاز بذاته في حياته قدر اعتزازه بوظيفة رئيس التحرير لهذه الجريدة ؛ صبغها بمنهج وبأسلوب الفايانانشيال تايمز اللندنية ، لدرجة أن اختار اللون البرتقالى للورقة الخارجية مثلها . كانوا يكتبون عن كل الاتجاهات الاقتصادية الجديدة ، وعن كل المخترعات التقنية القادمة ، ومن خلالها كانوا يقدمون نظرة عميقة لعالم السياسة ولدنيا المستقبل . كانوا أول من كتب بالعربية كلمات عولمة وإنترنت وخليوى وكيبول وساتيليت وتفاعلية وطريق فائق ووسائط متعددة ودى فى دى وصور مولدة حاسوبيا ، وغيرها كثير . كانوا أول من عرف القارئ العربى بريويرت ميردوك وتيد تيرنر وبيبل جيتس ، والقائمة طويلة أيضا . كانوا يتابعون كيف ارتاد أحد هؤلاء عالم السموات المفتوحة ، وكيف اخترع الثانى من الصفر فكرة القنوات الإخبارية فقنوات الأفلام المتخصصة ومن ثم كل مفهوم القنوات المتخصصة عامة ، وكيف وعد الثالث بحاسوب فوق كل نضد في كل مكتب وكل بيت في العالم . كانت روح اتفاقية الجات تملكهم . كانوا يتحدثون عن العالم وكأنه أصبح بالفعل قرية صغيرة ، وكان الحماس هو الصفة الغالبة على كل طاقم الجريدة ، فقد طبعهم وحيد بطابعه وأفكاره وحيويته .

لم تكن مصر سيئة جدا ؛ بالعكس كانت فيما يسمى في الأدبيات الاقتصادية الغربية سوقا بارزة . كان رئيس وزرائها عاطف صدقى يعكف لسنوات طويلة على إنشاء بنية تحتية هائلة ، شملت كل المرافق ، وكان يعتقد الجميع أنه في لحظة معينة ستحدث انطلاقة اقتصادية كبيرة . بالفعل ارتفعت كثيرا التوقعات بمجىء الدكتور الجنزورى لرئاسة الوزراء في مطلع سنة ١٩٩٦ ، وكان أبرز سمات وزارته خروج محمد الرزاز وزير الجباية الشهير جدا . لقد انتهى عصر جى الضرائب ، وحن وقت جذب الاستثمارات الأجنبية ، ولم يكن الدكتور الجنزورى يخفى في أى حديث له مع الصحافة الأجنبية بالذات ، أن طموحه هو أن تستقطب مصر ٤٠ بليون دولار سنويا ، فهى على حد قوله المتكرر ليست أقل من ماليزيا فى شىء ، بل وكان يوحى ضمنا بشىء من الاستخفاف بتجربة هذه الأخيرة .



الصدقة المتنامية بين الأمير الوليد بن طلال وبين ساندى وايلل

كانت الصحيفة تغطى مختلف البيزنسات كما تغطى سائر الأخبار الاقتصادية المصرية والعالمية ، لكن في آخر سنة ١٩٩٨ بدأ وحيد سلسلة من المقالات يتحدث فيها بقسوة عن الاقتصاد الإسلامى . روى تجربة سوق المناخ في الكويت ، وروى تجربة شركات توظيف الأموال في مصر ، وروى قصة انهيار بنك الائتمان والتجارة اللندنى ، بسبب فساد تصرفات الأموال السعودية فيه . هذه كانت كلها قصصا معروفة ، لكن الجديد أنه حاول أن يربط بين طريقة التفكير في الريح السريع لدى الأموال العربية وبين العقلية السائدة لدى شعوب المنطقة . كرر شرح نظرية أن العملة

الرديفة تطرد العملة الجيدة ، أيضا كان ثمة إلماحات دينية هنا وهناك ، كأن كتب في واحدة من تلك المقالات أن أحد مديري البنوك الإسلامية قال له فيما بدا مزاحا لكنه - كما قال - يعلم يقينا أنه لم يكن يمزح على وجه الإطلاق ، إن الله قال إنه أحل البيع ولم يقل أحل الإنتاج ، قال لا تغش الميزان ولم يقل لا تغش السلعة ، قال حرمت الربا ولم يقل حرمت النصب .

كانت المقالات في مجملها حملة ضخمة تحاول مناقشة أكثر المفاهيم قاعدية في الاقتصاد الإسلامي . دافع عن ' الربا ' باعتباره عقدا هو شريعة بين المتعاقدين ولا إجبار فيه ، وأن بديله هو النصب باسم الدين ، والارتكان للتهاون وازدراء العلم ، باعتبار أن لا شيء يلزم صاحب البنك بتحقيق ربح . وخلص لأن تحريم الربا قد فتح في المقابل بوابات جهنم لما هو أسوأ بألاف المرات . استخدم كلمة اقتصاد قدر أكثر من مرة لوصف هذا النوع من الاقتصادات البدائية ، وعرف الاقتصاد القدر بالاقتصاد القائم على الأموال السهلة والربح السريع دونما قاعدة بناء وطيدة . وكان واضحا أى اقتصاد يقصد ، رغم أنه بذل جهدا في كل مرة للتأكيد أن كلمة قدر هذه مصطلح علمي وليست شتيمة .

كل هذا أثار بعض الجدل ، ووصلت الجريدة بعض الردود الغاضبة ، لكنه لم يتحول لقضية رأى عمومي ، على الأقل بسبب أن ' الاقتصاد اليوم ' كانت في خاتمة المطاف صحيفة متخصصة ولا يقرأها الجمهور العام . على أن القشة التي قصمت ظهر البعير هي الجزء الأخير من هذه السلسلة . كانت المناسبة التي كتب في الأصل بسببها وحيد كل سلسلة المقالات هي صدور قانون أميركي يسمح للبنوك التجارية بالاشتغال في حقل الاستثمار ؛ أى امتلاك أسهم الشركات ، وتقديم الاستشارات المالية ، هذا بعد أن كانت وظيفتها هي ' تجارة ' المال ؛ أى أخذه من راغبي الإيداع وتسليفه لراغبي الاقتراض ، أى ضخه داخل الشركات الصناعية مباشرة ، لا تمويلها من الخارج بطرح اكتتابات لها و' الاستثمار ' في أسهمها . الكل كان يعلم أن ساندى وايلل رئيس السيتي جرووب هو الذى ضغط نحو صدور هذا القانون الذى يسمح بتوسيع نشاط البنوك التجارية ، الأمر الذى كان يعد حتى تلك اللحظة من الكبائر في الاقتصادات الحديثة ، وحظرت أميركا بشدة قانونا فيما سمي بـ Glass-Steagall Act سنة ١٩٣٣ . كانت صور ساندى وايلل تملأ أغلفة كل المجلات الكبرى ، باعتباره عبقريا لا يجود الزمان بمثله . لكن في تلك الأيام كان كلينتون اليسارى هو الرئيس فى البيت الأبيض ، فأصبح الاقتصاد كله فى وول ستريت اقتصادا فقاعيا ، الدعاية فيه أكثر من الشغل ، والورق أكثر من الخرسانة ، وكانت الأجواء مرعبة جدا ككل بإلغاء مثل ذلك التقليد القديم البالى الموروث عن بريطانيا العجوز . كان الحماس كبيرا ، لدرجة أن آلان جرينسبان نفسه ، المدير شديد الرصانة لبنك الاحتياطي الفيدرالى ، انضم لقائمة المؤيدين لمثل ذلك القانون (وإن كان للرجل أسبابه المختلفة ، فهو يؤمن بالحرية المطلقة للسوق ، وليفعل كل ما شاء فقط بشرط أن يتحمل نتائج قراراته ، وألا يولول لاحقا طالبا الانقاذ الحكومى !) .

فى مقاله أثار وحيد عددا من الشبهات حول الصداقة المتنامية بين الأمير الوليد بن طلال وبين ساندى وايلل خلال تلك السنة . قال إن الوليد ربما هو الذى أوحى لساندى وايلل بالدفع نحو مثل هذا القانون . على أن المقال لم يشير مطلقا إلى أن الأمر ينطوى على أى سوء نية من أى منهما ، وقال إن الأمر ربما جاء ببساطة شديدة ، لمجرد أن الأمير جاء من بيئة لا ترى ضيرا على الإطلاق فى المزج بين النشاط المصرفى التجارى والنشاط المصرفى الاستثمارى . خروج وحيد بمثل هذه النظرية الغريبة ، أدى لاستقالته من ' الاقتصاد اليوم ' . لم يحتمل الملاك الخليجيون للجريدة الأمر ، وكان المقال مجرد أطروحة نظرية لا يسندها أى دليل متماسك ، ثم إنه يسبىء بطريق غير مباشر لشخص أقرب للرمز فى البلاد العربية ، وطالما اعتبرته حتى ' الاقتصاد اليوم ' نفسها مثالا للعصرية والحداثة وللعقل العربى الجديد والمتفتح . الأمر الأهم أن وحيد رغم خبرته ، فاته أمر على جانب كبير من الأهمية ، هو أن استثمارات الوليد تختلف جذريا عن كل تلك الكوارث التى تحدث عنها ، ذلك أن الوليد - فى حدود ما عرف عنه وأكده هو مرارا - لم يحدث وأن استخدم يوما ، ما يسمى بأموال الآخرين *other people's money* ، التى هى سمة قاعدية فى كل المشاريع الاستثمارية الشهيرة التى تنسب نفسها للشريعة الإسلامية ، والتى عادة ما تكون بنسبة ١٠٠٪ من رأس المال .

مع ذلك أثبتت الأيام أن مخاوف وحيد كانت فى محلها ، إذ سرعان ما أفلست شركة الاتصالات الأميركية العملاقة وورلدكوم التى كانت السيتي جرووب تديرها استثماريا وتجاريا معا ، بمعنى استثماريا كأسهم وكاستشارات للمستثمرين وبنكيا كقروض وكتمويل . ولاحقا ألغى بالفعل الكونجرس ذلك القانون لدى إفلاس شركة أخرى لذات السبب هى شركة الطاقة هائلة الحجم إنرون . حتى اليوم لا تزال نظرية وحيد المشعومة عن صداقة الوليد-ساندى وايلل هى أحد أكبر الألغاز فى دنيا الاقتصاد . ورغم الكثير من الكتب والمذكرات التى صدرت ، لا أحد يعرف بعد ، هل كان للوليد دور بالفعل فيما حدث ، أم أن كل شيء كان من عنديات رئيس السيتي جرووب الطموح غير المبالى بالمبادئ والتقاليد . هل كان كل

الأمر جوا عاما نبع فساده الأخلاقي من طبائع الأفاقين ساكني البيت الأبيض في تلك الحقبة ، أم لعله نبع من شباب وادى السيليكون الذى لا يقيم وزنا لقيم أو مبادئ أو تقاليد أو أصول ؟ كثيرون كتبوا أشياء كهذه ، لكن أحدا حتى اليوم لا يملك الجزم .



هنا جاءت واقعة التنطيط الشهيرة

التي ارتكبتها توم كروز فوق أريكة أوبرا وينفري

منذ ترك وحيد الجريدة ولم تعد على حالها . باعها المالك الكويتي لثلاثة رجال بيزنس مصريين ، لم تكن لهم أية خبرة تقريبا ، لا بالصحافة ولا بالصحفيين . بسرعة انخفضت مواردها وأجورها ، بل وحتى اختاروا لها بعد قليل ، ودون أن يتنبهوا ، رئيس تحرير اشتراكيا . لم تمر له أيام في وظيفته حتى جاءته الفرصة لأن يحول الجريدة لمنشور معادى لمنتدى ديفوس المنعقد في ذلك الحين ، ومدافعا عن منتدى آخر مغمور شبه شيوعى يجمع الاقتصاديين المعادين للجلوبة -أى توحيد العالم- ويسموها الهيمنة الأمريكية والرأسمالية المتوحشة وأشياء من هذا القبيل . بعدها سرعان ما أصبحت الجريدة منبرا يساريا صريحا معاديا لتحرير الاقتصاد وللخصخصة . كلما حدث فشل أو مشكلة أو حتى كارثة طبيعية أو انتحار فتاة ، كان السؤال الوحيد أين دور الدولة . إذا بيعت شركة خاسرة ، قالوا هذا ثمن بخس . وإذا تم التركيز عليها وأصلحت أحوالها ، قالوا لماذا تبيعونها وهى تريح ، ولم يحدث مرة واحدة أن صارحوا أنفسهم ولا قرائهم ، بأن هذه الشركات لو تركت مطولا مرة أخرى في يد الإدارة الحكومية لفسدت وخسرت من جديد حتما .

فكر وحيد أن الخطوة المنطقية التالية هى أن يبدأ بيزنسه الخصوصى هو نفسه . شىء داخلى تقريبا ، هو الذى جعله يقرر أن يغير تخصصه وينشئ شركة لإنتاج الأفلام ، وهذه كانت غلظته الكبيرة الثانية ، وربما الضربة القاضية التى أجهزت عليه . السينما كانت مهنة أمه وأبيه وحتى جده ، وأحس أنه سيفعل شيئا قد يشعر أمه بالعرفان لو أقدم على ذلك . من ناحية أخرى لم ينس قط أن أمه لم تكن سعيدة جدا بذهابه للكويت أو حتى برئاسته للاقتصاد اليوم ، فتوجسها من العرق العرى كان يفوق الحد ، والمؤلم أن ثبت أنها كانت على حق ؛ بينما لم يعط هو وزنا كبيرا لتحذيراتها ، وقدر -على الأقل بطموح الشباب وتفاؤلهم- أن الدنيا تغيرت ، أو أن كل ما لديها هو عقدة من الحقبة الناصرية لا أكثر .

قال لنفسه إنه منذ نجاح فيلم ' إسماعيلية رايح جاي ' ١٩٩٧ ، وأصبحت السينما المصرية شيئا واعدا جدا ، وأصبح مستوى الإيرادات كبيرا جدا عما سبق . فتحت شاشات عرض كثيرة ، بالذات من خلال المولات التجارية ، ميزانيات الأفلام بدأت تكبر ، والسوق حسب اعتقاده سوف ترحب بإنتاجات أكبر وأكبر . كان من المدهش للكثيرين أن أنشأ هذه الشركة برأسمال ٥٠٠ مليون جنيه ، جمع معظمها من ممولين مصريين . فقط -وحتى لا يكرر غلطة الاقتصاد اليوم- اشترط الإبقاء على سلطة الإدارة له هو بالكامل ، وكان يقول لكل واحد منهم إن المستثمرين العرب يتفقون فى ميردوك ويمنحونه البلايين دون أى مقعد فى مجلس الإدارة ، فلماذا لا تفكرون بالثقة فى أنا بعشرين أو ثلاثين مليون جنيه مصرى فقط ، ولاحقا حين وصفته مجلة فارابى بميردوك النيل راح يذكركم بما كان يقوله لهم .

هكذا أكمل وحيد رأسمال الشركة ، طبعا وسط احتجاجات هائلة من الجيل القديم من السينمائيين ، وكانوا يقولون هذا احتكار ، ووصل الأمر لحد أن صمم أحد أشهرهم -واسمه يوسف شاهين- على ربط نفسه بالسلاسل لسور مكتب الدكتور الجنزورى . لم تكن هى الشركة الوحيدة العملاقة التى ظهرت طبقا للقانون الذى سنه رئيس الوزراء الأسبق هذا ، ووزيره الداهية طلعت حماد ، ولم تكن حتى الأولى زمنيا ، لكنها تميزت دون الباقيات بطموحاتها الأكبر . بدأت نشاطها بسلسلة من نحو خمسة أفلام كان كل واحد منها يسجل رقما جديدا للتكلفة لم تشهد من قبل السينما المصرية . كانت الإيرادات داخل مصر جيدة ، وأحيانا قياسية ، لكن لا تكفى لتغطية التكاليف الهائلة . التوزيع الخارجى كان أفضل من كل الأفلام المصرية السابقة ، لكن يظل أيضا كل شىء دون مستوى التكلفة .

حين قرأ وحيد رواية چون لوكاربه الجديدة فى صيف عام ٢٠٠٤ ، قرر أن ينتجها . كانت معظم الأحداث تدور فى مصر ، ومن ثم سافر إلى لندن للحصول على حقوقها ، ودفع عشرة ملايين من الجنيهات الستيرلينية ، بينما كان يتقاضى كتاب القمة هؤلاء عشرة ملايين دولار فقط كحد أقصى فى العادة . على الفور كلف كاتب سيناريو أميركى شهير بكتابتها ، وفى ربيع عام ٢٠٠٥ كانت المخطوطة قد قاربت على الانتهاء . هنا جاءت واقعة التنطيط الشهيرة التى ارتكبتها توم كروز فوق أريكة أوبرا وينفري ، وأسفرت عن أن لفظته هولليوود . رأى وحيد فى هذه فرصة العمر ، وأسرع لتوقيع عقد معه بذات أجره المعتاد ، ٢٥ مليون دولار .

بمجرد أن أعلن وحيد في مؤتمر صحفى عالمى عن مشروع فيلمه الجديد ، انمالت عليه الانتقادات من كل مكان . اليساريون قالوا هذه هى سيطرة رأس المال على السينما والرأى ، والناصريون قالوا هذا هو الغزو الثقافى الأمريكى الإمبريالى ، والإسلاميون قالوا هذا تبشير وإن هناك موافقة حكومية سرية على افتتاح كينيس للسايتوتولوجى (ديانة كروز) فى مصر . لم يلتفت وحيد لأى من كل هذا ، ولا حتى لكل مساعديه من حوله ممن حذروه من المخاطر البيزنسية للمشروع . قالوا له إن هولليوود نفسها تحسر ، فكيف تكسب أنت وقد دفعت أكثر من مرة ونصف ما تدفعه هى للرواية ، ودفعت لنجم انتهى أمره ما تدفعه هى له وهو فى قمته . قال لا يهم ، تكاليفنا ستكون أقل حيث معظم التصوير فى مصر ، ثم إن الجمهور الأمريكى الذى تأتى منه معظم الإيرادات سيتفاعل مع شخصية البطل الأمريكى ، هذا هو الشرط المهم ، أن يكون ال protagonist أميركيا . وطبعا سأنفق مع ستوديو هولليوودى كبير وسيوزع الفيلم ، تماما كما توزع الأفلام الأمريكية فى كل الدنيا ، ثم على الأقل الإيرادات التى ستأتى من مصر والبلاد العربية ، لن تقل عن ١٠ أضعاف ما يحققه أى فيلم أجنبى فى العادة فيها .

يبدو أن سر الطبخة السينمائية شىء تعرفه هولليوود وحدها . أفلامها التى تنجح ، تنجح لأسباب تقترب من الميتافيزياء ، وكل فيلم يصنع خارجها يحاول أن يحاكيها فى ضخامة الإنتاج ، أو بنفس النجوم ، أو حتى بنفس كتاب السيناريو والموجهين ، يفشل فشلا ذريعا . المهم ، عرض الفيلم بالفعل فى أواخر صيف ٢٠٠٧ ، وفشل فشلا ذريعا ، وأفلست الشركة . أصيب وحيد بشلل خطير فى وجهه وفى معظم نصف جسمه ، ولم يتبق له شىء بعد تصفية الشركة ورد أموال مموليه العرب إليهم . حتى شقته الفسيحة فى حى المهندسين المفضل لدى المقيمين والزوار العرب ، والتى كان قد اختارها لقربها من دائرة مالكي ' الاقتصاد اليوم ' ، اضطر للتخلى عنها ، حتى سيارته فعل نفس الشىء بها . وجاء للعيش بقبيللا أمه فى الكورية ، أقدم وأعرق مناطق حى مصر الجديدة .

يبطء أبدى وحيد استجابة للعلاج ، وحين اكتمل شفاؤه كانت آخر نصيحة وجهها له الطبيب ، هى أن لا يصح مطلقا أن تعيش فى وحدة ، الكلام نفسه ضرورى لعضلات وجهك ، عليك أن تعود لشغلك ، أو على الأقل لأصدقائك ، وتكثر من الالتقاء بهم . جرح وحيد من الهزيمة والفشل كان أعمق من أن تحتمله كبرياؤه المجروحة ، لم ينصع لنصيحة الأطباء ، قال سأبقى مع أمى ، يكفينى مسامرتها ، زائد أن من واجبي أن أرد لها بعض الجميل بأن أرهاها فى شيخوختها . آخر ما خطر بباله هو أن يأتى هذا الجميل بالأثر العكسى تماما عليها . لم يجزئها فى حياتها شىء ، قدر أن ترى ابنها قعيد البيت فى تقاعد مبكر غير مبرر كهذا ، كان حزنها عليه يغور ويعمق وهو لا يلحظ ولا يفهم . لم يدرك أنه لم يكن يرعاها ، إنما كان يقتلها . لم تحتمل أن تراه طويلا على هذه الحال ، فغلبها المرض وسرعان ما رحلت ، وكان ذلك فى خريف ٢٠٠٨ . وتجرع من الألم عليها ما يقزم كل ألم سابق مر به .



ذكرى ميلاده الرابعة والخمسون ، ٢ أغسطس ٢٠٠٩ !

لستة شهور أخرى عاوده الشلل بدرجات جزئية متفاوتة ، وأخيرا بدأ يأخذ على محمل الجد نصيحة الأطباء . الاشتغال ككاتب من جديد شىء خارج تماما عن كل الحسابات ؛ إذ قرر أن لا مصداقية له فى الكتابة فى البيزنس بعد اليوم إن كان هو نفسه قد فشل فيه . ثانيا أصدقاؤه ليسوا كثيرين ، كلهم مشغول بحاله ، ولا يزوره فعليا سوى اثنين أو ثلاثة من الصحفيين والصحفيات الصغار الذين يعتبرونه أستاذهم وصاحب أكبر فضل عليهم ، ويكنون له الاحترام والعرفان ، وهى ليست بالصفات التى تتوافر فى الكثير من أقرانهم . ثالثا هو مكتئب ، ولا يكاد يتصور بعد أن شيئا فى الدنيا يمكن أن يجعله ' لا يكف عن الكلام ' كما أمره الطبيب . لمعت له فكرة وجد فيها الحل لكل تلك الأشياء معا ؛ لقد تلقى فى الفترة الأخيرة عددا من العروض لشراء القبيللا ، سيسكن فى شقة مفروشة متوسطة الحال ، وسيستثمر أمواله فى البورصة . فى شركة السمسرة لن يكف عن الكلام مع بقية العملاء . أصلا بمجرد أن يعرفوا من هو لن يتركوه صامتا . ثم إن استثمار النقود سيأتيه بعائد يغطى به تكاليف المعيشة ، بعد أن أصبح معتزلا لكل شىء ولا يريد العودة لشىء .

عاود الاتصال بطالبي الشراء ، وطلب عروضهم . تراوحت كلها بين ٥ و ٦ ملايين جنيهات . هو لا يجب المساومة ، ويعرف كيف يدار البيزنس المحترم فى بقية العالم ، ولطالما تذكر القصة التى كانت ترويه أمه كلما جاء الحديث على ذكر تاريخ اليهود بمصر ، أو عما فعله عبمعصور بهم . كانت كثيرا ما تقول إن اليهود من أقدم شعوب هذه المنطقة وإنهم أصحاب حق فى أن يعيشوا فيها ، وفى أن يرفضوا وضعية ما يسمى بأهل الذمة تحت نير العرب الهمج بل فى دولة متقدمة هم أسياها إن حدث وأرادوا هذا ، وعن مصر بالذات تقول نحن شعب ودود متسامح بطبعه

وكان اليهود يعيشون بيننا ونعيش بينهم في حب وسلام إلى أن جاء ذلك الأعرابي اللص ونهبهم وطردهم ، ثم تردف عادة بقصة اصطحاب والدها لها ذات مرة لعمل نظارة طبية لنفسه ، لدى محل في حى العتبة ، وإنها تعجبت من بعد المكان ، ومن تواضعه ، فقال لها : ' هذا رجل يهودى ، يديكى حاجة ممتازة وبأقل سعر ، وكمان ما عندهوش فصال ' . وتضيف أن زمان كانت محال اليهود فقط هى التى تكتب العبارة الجديدة الغربية فى ذلك الوقت ' السعر محدد ' ، وحكاهم بعض الآخرين بعد ذلك ، ومن هنا صك المصريون كلمة ' تحاود ' ، يقولونها لدى المساومة على سعر شىء ما ، بمعنى كن كاليهود لينا عادلا فى أسعارك . وجد وحيد نفسه قد ارتاح لشخصية أحد المشترين ، أحس فيه بعراقة رجل البيزنس القديم ، سأله : ' طبعا ستبنيها برجا عملاقا ؟ ' .

- يا ريت ! هو فيه أبراج تطل على قصر جمهورى ؟ وإللى كان موجود اتهدم . ده كفاية كل شبر فى المكان بيفضل تحت أمن الرئاسة ، حتى لو دور واحد ، حتى لو أرض فاضية .

هذه الإجابة كانت الحاسمة فى قبول وحيد لعرض الملايين الستة ، هذا وضع طبيعى أن يعانى أى ساكن فى المنطقة من ارتباك أمنى ، لعلى لم أستشعر هذا لقللة دخولى وخروجى ، أو لقللة المترددين علينا ، أو لعلهم شاءوا أن يجعلوا الرقابة غير ملحوظة إكراما لأمى ، أو لى من بعدها . على العكس تعجب من أن العرض قد يكون أسخى مما يجب ، فواصل السؤال :

- أمال ها تعملوا إيه ؟

- ها نبني قبلا أكبر ، ها نوسع مسطح المباني حوالى مرة ونص ، ها نعلى دورين زيادة ، ها نكون أكثر عملية ، بارترفاع الأدوار الثلاثة الحاليين ها نطلع ٥ أدوار . لو بطرازها الحالى كان ممكن تسميها قصر ، لكن طبعا ها تكون بناء حديث ، وبه جماليات معمارية عصرية ، خطوط جريئة وكده . تقريبا المسطحات المسقوفة ، ها تكون ضعف المساحة الحالية ، ها تصمم كمبنى مكاتب ، وها نؤجرها لشركة أجنبية .

مرة أخرى كان وقع كلمة الإيجار طيبا وأكثر حسما على وحيد وعلى قراره ؛ فهو لديه نظرية كتبها فى تلك المقالات سيئة الصيت ، أن المال العربى يشتغل فى شيئين لا ثالث لهما ، الأوراق المالية والعقارات ، والفكرة هى أن لا أرض دائمة له ، الورق يباع فى لحظة ، ومشروع عقارات التملك يبنى ويبيع فى عامين أو ثلاثة ، ويبدأ القنص من جديد فى مكان جديد .

دمعت عينا وحيد يوم استلم التشيك بمبلغ البيع ، دمعنا لحظة أن نظر للتاريخ المكتوب ، مكتشفا أنه ذكرى ميلاده الرابعة والخمسون ، ٢ أغسطس ٢٠٠٩ ! امتلا بالحسرة أن محصلة كل حياته المهنية هى صفر ، وأن كل ما تبقى له هو فقط ميراثه عن والدته ، ثم أخذه الفكر ليلاحظ لأول مرة أن هذه هى سيرة أمه أيضا . ما تركته بعد رحيلها كان هو عينه الميراث الوحيد عن أبيها ، القليل . هذا لم يخفف عنه ، بل بالعكس . ثم إن الحزن الأكبر هو أن القليل نفسها ستهدم ، بينما كان الواجب عليه أن يحولها مثلا لمتحف لمقتنيات أمه نجمة السينما المصرية الأشهر ، مع ركن يخلد ذكرى والديها أو شىء كهذا .

... ذهب فى نوبة اكتئاب عميقة ، كان هاجسه الكبير فيها لماذا بات هذا هو مصير هذه الأسرة ، ولماذا هذا العقم وقلة الإنجاز .



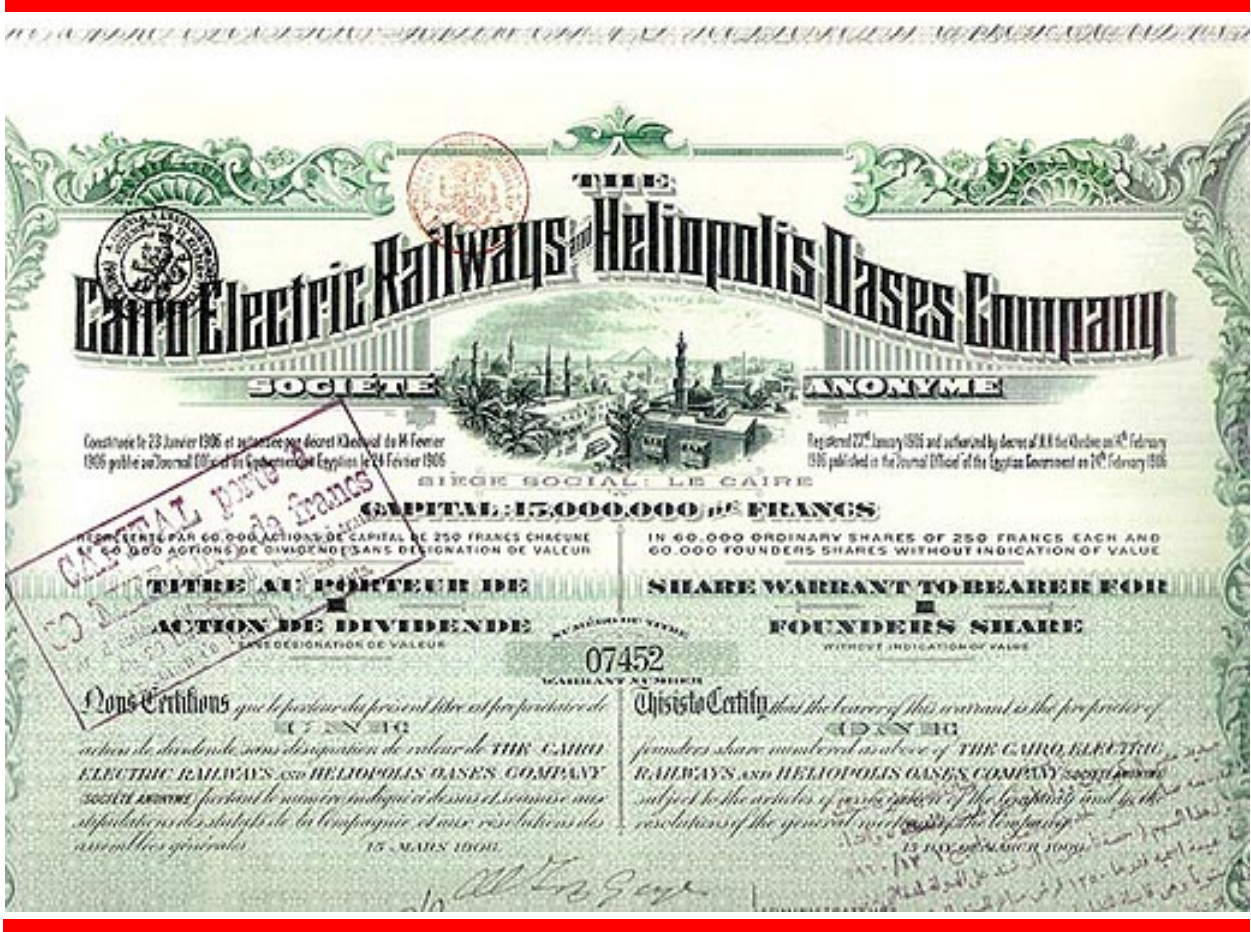
باقتضاب يناقض كل النصائح الطبية

فتح وحيد باب المصعد ، وخرج ببذلته الثمينة شبه اللامعة ، ويقامته المديدة الرشيقة ، وشعره المتميع ذات اليمين وذات اليسار بلون الزيتق -فوق جبهة ناصعة البياض- إلا من مفرقة رمزية فى منتصف الرأس . للحظة وقف أمام اللافتة التى تقول : شركة رمسيس للسمسرة فى الأوراق المالية . مسح حذائه باعثناء شديد فى المسحة الأنيقة ، ثم دخل بثبات . رحب به صاحبها -الذى تصادف وجوده بالبهو- بحرارة مفرطة وقد عرفه على الفور ، كان سعيدا جدا به وراح يروى كيف تأثر بكتابات عن البيزنس الخصوصى ، وأنها السبب وراء قراره بافتتاح هذه الشركة ، وكان بعد موظفا فى أحد البنوك . قاطعه وحيد وكأنه لا يريد أن يسمع أى كلام من أى نوع عن ماضيه ، وأخرج من جيبيه تشيكا ، دفعه على المكتب قائلا باقتضاب يناقض كل النصائح الطبية :

- هذا مبلغ ٦ مليون جنيه ، وهذه بطاقة هويتى ، وأريد أن تشتري لى بالمبلغ أسهما فى شركة كيوبيد !



٢ رئيس



متى يأتي الغد ويصبح بوسعى تداول أسهمى بالبورصة ؟

في الحقيقة لم يكن جد وحيد يريد في الأصل السكنى في مصر الجديدة . كان يراها ذات طابع ثقافى زائد عن الحد ، بحكم انتماء مؤسسها البلجيكي للثقافة الناطقة بالفرنسية ، واختياره لمبانيه بطراز أشيع أنه هجين وأنه سمى لدى البعض ' إسلاميا حديثا ' ، وإن كان في الحقيقة طرازا هنديا بالأساس ، أو بالأدق -حسبما يقول الخبراء- ما جاء للهند من شرقها المجولى أو بقية ضواحيها ، مستشهدين في ذلك بقصره هو نفسه ذى المعمار الكمبودى الموشى بلمسات تاملية . كان يفضل المعادى عليها لطبيعتها الأنجلو-يهودية الإمبريالية الأرستقراطية الوقور . فقط اختيار صديقه أحمد لطفى السيد للسكنى في مصر الجديدة -في قلبها في شارع فينيكس- هو الذى شجعه . لم يكن هذا ميلا من الكاتب الشهير للثقافة الفرنسية التى اطلع عليها بالسفر والقراءة . كان دائما أبدا مترفعا عليها ويعى -دونا عن كل المثقفين المصريين سابقه ولاحقيه- أزمة الفرنسيين التاريخية كأمة مأزومة مهزومة فاشلة ، تتجرع كأس الدل والمر والهوان منذ ووترلوو وربما إلى أبد الدهر . فقط كان يرى مصر الجديدة مكانا أكثر شبابا وحيوية وبهجة من المعادى شديدة البرود . رغم كل أفكاره الحدائية المحلقة لم يصل لمستوى الارتياح لبيوتها التى تبدو كمصانع صممت لسكنى الآلات لا البشر . كان يرر لنور الدين إعجابه بمصر الجديدة بتزاهمها الكهربى في مقابل خط حلوان البخارى التقليدى ، ويتوقع أنها ستصبح قبلة لأهل الفكر والفن والثقافة والذوق الرفيع ، ولم يقو صديق العمر على معارضة شخص حرفته الكلام .

مواقف أحمد لطفى السيد معروفة : مواقف صارمة ضد شعبية سعد زغلول واستدعائه الشعب للمعترك السياسى لحسابه هو الشخصى شديد الانتهازية والفجور ، مفضلا على ذلك أولا طريقا طويلا شاقا من التعليم وبناء الإنسان ، ربما يحسب بالقرون لا بالعقود . مواقف صارمة أخرى ضد الخلافة الإسلامية ، وثالثة ضد ما أسماه تعريبا الهان أرابيزم pan-Arabism ، ولم تكن ترجمت أو عدلت بعد إلى ' القومية العربية ' ، إذ كان

الرجل علمانيا ومؤمنا بمصريته قبل أى شىء آخر ، ولو أن ثم مكانا لمشروع عربى أو إقليمى ، فلا بأس ، لكن الفيصل فيه شىء واحد : الحداثة وربطنا عضويا بالعالم المتقدم .

أيضا هناك مواقفه المتكررة المشيدة بدور الإنجليز الاقتصادى فى بناء وتحديث مصر ، وقد جلب عليه كل السخط والويلات أن قال فى غير ذات مرة إن التعليم أهم من الاستقلال . لقد تطلب منه هذا شجاعة هائلة ، بينما ويلسون نفسه رئيس أميركا كان يطالب فى نفس الوقت بما سمى حق الشعوب الصغيرة فى تقرير المصير . فقط تحفظ تحفظا خجولا من وقت لآخر ، ولا يناسب حدته المعتادة فى كافة القضايا ، على طريقة الإنجليز فى التعامل مع السياسة المصرية . من ناحية لأنه بالطبع كان يتمنى فى نهاية مشوار الحداثة المضنى الطويل أن تصبح مصر بلدا مستقلا ندا لكل ما عداها ، وطبعاً لم يكن يخطر بباله -حتى وإن كان مترجم كتاب ' السياسة ' وغيره من كتب أرسطو- ما يعلمه كثيرون الآن بسهولة ، من أن الاستقلال سيأتى على الشعوب بالكوارث ألف ضعف من كل ما قيل أو يقال عن ' الاحتلال ' من عيوب . ومن ناحية -وإن لم تكن السافرة جدا لكن لعلها الحقيقية- لأنه رأى فيها ممالأة ووضوحا لا يتزاحم السفهاء ممن لا قيمة حقيقية لهم كزعماء حزب الوفد الرعاع . أو كأنه تمنى الاستقلال -لو كان قد تمناه حقا يوما- خلاصا من جهل الإنجليز ولا مبدأيتهم أو حسن طويتهم فى عدم الحزم تجاه هؤلاء المحرضين الديماجوجيين الفاسدين عديمى الموهبة . هؤلاء الذين لا يهمهم إلا احتكار المناصب ، يوم يخلو البلد إلا لهم ، من رقيب أو مدير ذى عقلية متقدمة يفهم كيف يجب أن تدار الأشياء ، ويصارع الناس بأن التقدم يأتى بالكدم المسالم والتعلم المتواضع وتقبيل اليد المحسنة لا عضها ، لا بالخطب المتباجحة بمجد تليد لم يكن أبدا ، وبكراهية للعالم لن تصل بنا لأى مكان .

عامه ، لم يكن لنور الدين آراء يمكن وصفها بالمخالفة لصديقه ، بالذات وأنه لم يكن يوما ضليعا فى السياسة ، أو بالأقل يوح بأرائه فيها ؛ لذا فالخلاف بينهما فى المفاضلة بين المعادى وهليوبوليس ، هو فى الأرجح نابع فقط من خلفيتهما المهنية ، وما جبل عليه عقل كل منهما : كاتب يود الاطلاع على جميع الثقافات والعيش المتواصل فى بيئة منعشة للفكر ، ومهندس يرى فى النموذج الإنجليزى الكمال المطلق بلا تحفظات ، ويفضل العيش فى بيئة هندسية عتية صارمة الدقة بلا زخرف ولا سفاسف ، ويعتبر فى قرارة نفسه أن التقنية هى تعريف الحضارة ، والثقافات ما هى إلا التخلف . وفى الواقع سرعان ما نسى الأمر حين لاقى فى مصر الجديدة من الإنجليزية أكثر من الفرنسية ، بما فى ذلك أول ما طالع فيها ، اسم شركتها The Cairo Electric Railways and Heliopolis Oases Company التى تقدم لها لشراء قبلا . كان يجد الاسم دوما مكتوبا بالإنجليزية ، حتى داخل الجزء الفرنسى الصغير من صكوك أسهمها نفسها يوم اشترى بعضها منها . وطبعاً كان معتزا بترامها الكهربى ، الذى ذكره بلجم أبيه القديم فى أن يصبح مديرا للسكك الحديدية ، وكان بالفعل أكثر ما شجعه على مسابرة صديقه فى اختبار ' الواحات ' كمسكن .

تمادت كل هذه الذكريات على ذهن وحيد ، وهو عائد من شركة رمسيس ، أو بالأحرى وقد راحت عيناه تتفحصان مباني مصر الجديدة ، فى أول يوم خروج له فى شوارعها ، وأمه ليست فيها . تجول لوقت غير قليل فى شوارع الكورية ، شجعه عليه جو بدايات الخريف المعتدل ؛ على أن ما نغص عليه هذه المرة وجبة الغذاء التى طلبها فى المطعم الأنيق بشوارع الأهرام ، هو أنه أراد تذكر السبب الذى دفع كل هذه الخواطر للتدافع لرأسه . بعد أن خرج شعر بضيق آخر ؛ لأنه كان شاردا ، وربما لم يشكر النادل ما وجب من شكر . المذهل أنه بمجرد خروجه من المطعم تذكر السبب . مرة أخرى يقع بصره على لافتة متجر مكتوبة بالإنجليزية لكن بها خطأ فى الهجاء . يسمون المحلات ونجمات الغناء لورين وچاكلين وكارولان وكلوديا وسيندريللا وميليسا وشهر زاد ودومينيك ويوسى ونيكول وروبي وپاميللا ، ومائة اسم أخرى ، ويصممون على كتابتها بالحروف اللاتينية ، تباهايا بالثقافة الغربية والدخول لعصر الجلوبة ، لكنهم لا يعرفون الهجاء الصحيح ، فيصبحون فضائح حية مطبوعة بحروف حجم أنباطها بالآلاف بارتفاع بنايات كاملة . ما فائدة كل هذا التعليم الأجنبي إذا كانت وكالات الإعلان التى تصمم واجهات المحلات وإعلانات الأغاني ليس بها من يعرف هجاء أسماء الأعلام ؟ ثم زاد غيظه ، وكادت تتمماته أن تسمع وهو يهز رأسه متقطب الوجه احتجاجا : ' قطعاً لم تكن مصر الجديدة هكذا فى شبابها ! حتى فى تلك السنوات القليلة التى عشتها فيها فى نصف السبعينيات الثانى ، كانت لا تزال تحتفظ برونقها الأصيلى لدرجة معقولة ' .

تنقل لمقهى ثم لبار ، ولاحظ أن الوقت لا يمر . راح يلف على دور السينما كعادته وهو طالب فى وسط بيروت . اكتشف أن الكثير منها قد اختفى ، والبعض الجديد قد ظهر . لكنه فى كل الأحوال لم يجد مزاجا مناسباً لالتقاط شطر من هذا الترفيه . هو لم يشعر بالملل يوما فى حياته ؛

العكس دائما هو الصحيح . ما يعانیه ليس مللا . ما يعانیه هو اكتئاب . هو ليس ساذجا لدرجة أن تنظلي عليه خدعة صديقه الطبيب الذى قال له إن عليه العودة للناس من أجل مرونة عضلات وجهه . كان يقصد كى لا أصاب بالاكتئاب . شعر برهبة وبامتعاض ، وأحس أيضا بانقباض لم يسبق أن ألفه فى حياته . غرق وحيد من جديد فى دوامة شريط الذكريات المؤلم الذى لا يملك سواه . ما أنا إلا حطام ! لا شىء ! لا أحرك ساكنا ولا أسكن متحركا ! الشخص الذى كان أشد من بشر بالتنافسية واقتصاد الدغل ، ها هو الآن يتعيش من ميراثه عن أمه ؛ بالضبط ذات المال السهل الذى طالما ازدراه ووصفه بالقدر ، تماما كأموال الربيع ، الأرض والبتترول وما شابه ، أو كالوظائف الحكومية أو حتى غير الحكومية . فالدخل الثابتة هى أيضا نوع من الربيع ، والربيع رؤية متكاملة للحياة ، رؤية ستاتية للثروة لا تنافسية ولا روح فيها . حياة -ككل- عنوانها الفشل والهزيمة ، قلة الإنجاز ، الاغتراب عن الفكر السائد ، وحتى الوحدة بمعنى ما .

إنها -الوحدة- الشىء الذى لم يعرفه أبدا فى حياته الحافلة ، وتقريبا لا يعرفه الآن ، لكن ماذا حين يصاب باكتئاب يصد نفسه عن شاغله الأساس الذى اعتاد أن يملأ كل حياته ، ويتمنى لو أصبح كل يوم ٤٨ ساعة لا ٢٤ فقط ، شاغل القراءة ؟ ألا توجد حبة دواء تصلح لوقف المخ عن الاشتغال ؛ حبة تنقذني من تلك الآلام الرهيبة ؟ الخمر لم تجد يوما معنى فى غياب الوعى . هل أجرب العقاقير المخدرة ؟ كلا ، لقد جربتني فى شبابي . جربت كل شىء ، وليس أى منها الدواء الذى أريد الآن . أنا لا أسكر ولا ' أنسطل ' أبدا . مستحيل ! ذات مرة قال لى صديق فى الجامعة حين رآنى أشرب أضعافهم ولا أسكر أبدا : ' انس ! قرار السكر لا يكمن فى الخمر . يكمن فيك أنت . طالما أن عقلك يشتغل طوال الوقت ، لا أمل لك فى التحليق مثلا . السكر ليس كيمياء ! السكر إرادة ! ' . لم أفهم ، ولا زلت لا أفهم . إذا لم تسم ما أنا فيه الآن بإرادة فبماذا تسميه إذن ؟

حين عاد لشقته المفروشة ، ألقى بنفسه على الأريكة ، وبدأ يتمتم : ' لقد قال لى صاحب الشركة إن ' تكويد ' العملاء فى البورصة يتم الآن إلكترونيا فى لحظات ، وليس خلال أسابيع كماضى الأيام . الرقم القومى جعل كل الأشياء سهلة ، كما أن شركات السمسرة نفسها تتحمل مسئولية صحة البيانات . لقد باتوا يعتبرونها تضاهى البنوك فى مسئوليتها وحيثيتها ' .

... متى يأتى الغد ويصبح بوسعى تداول أسهمى بالبورصة ؟ بوسعى مراقبة تحركاتها المثيرة ؟ بوسعى مناقشة العملاء الآخرين فيما يحدث وفى جديد الشركات والاقتصاد ؟

... لن أشعر بالملل أو بغير الملل ساعتها !



لم يكن إدوارد مضطرا فى الحقيقة للإبلاغ عن تشيك تسلمه

صاح إدوارد فى موظفه سامر : ' عليك أن تذهب بصورة البطاقة هذه للبورصة من أجل استكمال ملف صاحبها عندهم ، ثم فى خلال عودتك تمر على مباحث الأموال العمومية ، وتسلمهم صورة التشيك ده أبو ٦ مليون ، بالجواب إالى ها تاخده من ميرفت وأنت خارج . فاهم ؟ ' . لم يفهم سامر بالضبط سبب الصباح ، أو تخيل وراءه شيئا معينا ، إلا حين أردف إدوارد قائلا : ' بسرعة لو سمحت ، علشان تلحق توصل البورصة قبل الجلسة ما تبدأ ! ' ، فرد وهو يهرول : ' آه ، طبعاً ! ' .

فى الحقيقة لا يجب سامر الأيام التى يؤمر فيها بالذهاب للبورصة . يتمنى لو جاء اليوم الذى طالما وعدوا به من نقل كل ما يخص البورصة لمدينة السادات ، وإلغاء التداول من داخل قاعتها التقليدية بوسط مدينة القاهرة . لكن يبدو لأسباب حنينية ، لم تجرؤ إدارة البورصة على اتخاذ مثل تلك الخطوة أبدا . نقلوا كل شىء ، إلا أنهم لم يشأوا إلغاء تقاليد السنوات الطويلة ، على الأقل ما عرف عن القاعة من قداسة من حيث ملابس السماسرة وحظر تناول المشروبات أو التدخين إلا فى أماكن معينة ، أو ما عرف لها من لحظات تاريخية يذكرها الجميع ، مثل أيام يصفق السماسرة لارتفاع سريع فى سعر سهم معين نتيجة إنجاز ضخم حققته شركته ، أو أيام يوقف التداول بسبب انهيار شامل للأسعار ، أو ربما أن لم تجرؤ إدارة البورصة أن تلغى بجرة قلم ، ذلك الإحساس الخاص للرنين المهيب لجرسى الافتتاح والإغلاق !

دائما ما يحاج سامر صاحب شركته بأن كل شىء يمكن تنفيذه من الطرفيات الحاسوبية المتاحة فى مقر الشركة ، لكن إدوارد يصر : ' طالما نحن مضطرون لإرسالك للبورصة أو لوسط البلد لإنجاز غرض معين ، فلتقتض بقية اليوم فى قاعة التداول ' . وجود سمسار فى البورصة مفيد تحوطا لأى طارئ ، كانقطاع الاتصال بين طرفيات التنفيذ بالشركات وبين ' الخادم ' المركزى للبورصة ، أو انقطاع التيار الكهربى فى مقر الشركة نفسه ،

حيث يمكن للأجهزة الاشتغال لدقائق قليلة على أجهزة المظاهرة ثم تتوقف . وبالفعل يوم يطرأ شيء كهذا أو ذاك ، يضطرون لإرسال سامر على عجل إليها . أيضا من فوائد تواجد سمسار للشركة داخل قاعة التداول أنه يضع هذا المنفذ في أجواء وأخبار السوق (بالأحرى شائعات السوق ، فالأخبار الرسمية تبث في كل الأحوال من خلال تلك الطرقات أيضا) . وطبعا يريد إدوارد أن يضع عملاءه في أجواء البورصة بنقل ما يسمعه سامر إليهم ، مع التأكيد في كل مرة أن تلك ربما كانت إشاعات ولا أساس لها . عامة أهم خبر إطلاقا هو دوما معرفة هل هناك صندوق استثمار أو محفظة مالية كبيرة ، أو مجرد مضارب فرد ذى ملاءة مالية ، ينتوى شراء أو بيع كمية ضخمة من سهم ما . معرفتك المسبقة بشيء كهذا تتيح لك الشراء أو البيع وأنت تعلم أن ثمة حركة ملحوظة سوف تطرأ على السعر وتعرف الاتجاه التي ستكون عليه . ورغم أن الكشف عن مثل هذه الأوامر قبل إدخالها بالفعل ، هو جريمة متكاملة الأركان تحرمها بشدة قوانين ولوائح أسواق المال في مصر ، إلا أن ذلك لم يمنع قط أن يتداول السماسرة تلك المعلومات على سبيل الصداقة والخدمات الشخصية المتبادلة ، كأن يوصى أحدهم قريبا له بشراء كمية من هذا السهم أو ذاك ، طبعا في حدود ضيقة لا ينكشف معها الأمر ، أو تؤثر على صاحب الصفقة الأصلي .

بالمثل ، لم يكن إدوارد مضطرا في الحقيقة للإبلاغ عن تشيك تسلمه ؛ التشيك لا يمكن أن يحمل شبهة غسيل أموال ، هو تشيك بالفعل ، بمعنى أنه ينتمي لحساب بنكي ، أى أموال بيضاء نظيفة بالفعل ، أو فى أسوأ الأحوال غسلت وشبعت غسيلة . لكن تلك هى طبيعته ، لا يريد أن تأتيه المشاكل من أية ناحية .

معروف مثلا عن كثير من الشركات ، أنها قد تمول المشتريات الزائدة للعملاء من أموال أصحابها الخصوصية نظير فائدة يومية ، بينما هناك دفاتر أخرى موازية تحوى الحسابات الحقيقية ؛ أى أن تكون الدفاتر الرسمية دقيقة لا يظهر فيها اللون الأحمر للحسابات المدينة الذى يمنعه من المنبع برنامج التداول الحاسوبى الجديد ، وقبل إدخاله كانت يجرمه التفتيش على الشركات ويعتبره تلاعبا بحسابات العملاء ويسأل كيف تم تمويل تلك المشتريات . إدوارد لا يسمح بحدوث مثل ذلك أبدا ، رغم أن هذا يكلفه إحيانا هرب بعض العملاء ، إلا أنه لا يريد أن تأتيه المشاكل من أية ناحية .

أما لماذا لا يحب سامر الأيام التى يذهب فيها للبورصة ، فالسبب أيضا معروف ؛ إنه واقع فى غرام زميلته ميرفت ، موظفة خدمة العملاء ، ويود البقاء بجوارها معظم اليوم ، يترك غرفة التنفيذ الداخلية ويأتى ليسحب كرسى ويشاركها الجلوس لمكتبها ، ولا ينهض إلا حين يعطى أحد العملاء أمرا بالشراء أو البيع ، فينهض لتنفيذه من طرفية التنفيذ الحاسوبية بالداخل ، ويعود هاتفا قوله التقليدى : ' ع الشاشة يا باشا ! ' ، ويجلس من جديد . يبدو سامر قصير القامة قوى البنية ، حريصا على نحو خاص على دقة الملابس وإحكام ربطة العنق . وتبدو ميرفت فتاة رقيقة الملامح خميرية اللون ذات شعر أسود طويل منسدل تجيد تصفيفه وتغذيته والعناية به ، وملابسها فى الغالب عبارة عن بنطلون وبلوزة ، وأحيانا تاييرا ، لكن المميز دائما فيها أن هناك فوقها جميعا ما يشبه الروب المفتوح أو فستانا مغلقا فضفاضا بلا أكمام صنع من قماش رقيق شفاف ، شيء يعطى مظهرها لمسة إضافية من الشفافية والبراءة والرقية ، وكأنها إحدى شخصيات أساطير ديزنى ، سنو وايت أو سيندريللا مثلا .

حصل سامر على وظيفته من اليوم الأول لتأسيس شركة رمسيس للسمسرة ، وحصلت ميرفت عليها بعده بخمس سنوات ، هذا حين كبرت أشغال الشركة وزاد عدد عملائها ، واحتاجت لموظف جديد . عين كلاهما بعد تخرجه مباشرة تقريبا ، وساعدهما على ذلك تقدير ' جيد جدا ' الذى تخرجا به من كلية التجارة . ورغم أن رمسيس شركة صغيرة ، تدفع مرتبات أقصى ما توصف به أنها ' عادية ' ، ولا تتيح اتصالا مباشرا بين السمسار والعملاء ، الشيء المعتاد الذى عادة ما يحصل السماسرة من جرائه على عمولة شخصية خاصة ، إلا أنهما -سامر وميرفت- لم يفكرا أبدا فى البحث عن وظيفة أخرى . أحد الأسباب هو ذلك الرباط الذى جمعهما ، والذى لا يزيد ظاهريا عن ارتياح واستلطاف وصداقة ، لكنها جميعا مؤكدة عميقة واضحة ، بحيث لا يشك أيهما فى أنه يجب الآخر وأن الآخر يحبه ، ويشاطرهما كل من يراها فى رمسيس ذات الاعتقاد .

كاد سامر بسبب تطلعه المتكرر لساعته أن يصطدم فى هروله بالأستاذ نبيل هذا الذى كان يتحسس خطواته ببطء لداخل الشركة . يرفع نبيل عكازه فى الهواء ويقول بلهجة ودود : ' فيه إيه يا سامر يا بنى ؟ ' .

- لا مؤاخذاة يا مستر نبيل . صباح الخير سيادتك . أنا آسف !

وهرول ليلحق بالمصعد الواقف قبل أن يجره أحد إليه فى هذه الساعة البكيرة الزحيمة .



أول عميل يطرق باب شركة رمسيس

لماذا يأتي المستر نبيل كل يوم في التاسعة والنصف ، بينما موعد جلسة التداول هو العاشرة والنصف (أو بالأحرى الحادية عشرة والنصف ، هذا قبل أن تعدل في مطلع سنة ٢٠٠٧) ؟ هذه قصة قديمة ، بدأت تقريبا منذ اليوم الأول لافتتاح الشركة .

تقع شركة رمسيس خلف شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير ، أى في الشارع التالى لشارع عباس (الآن إبراهيم اللقاني) وموازيا له ، وفي نفس الوقت إلى القرب من تقاطعه من شارع الأهرام الأكثر تجارية في كل مصر الجديدة ، والذي يمر به المترو الذى ينتهى في منطقة الزهة كما يدل عليه اسمه منذ عقود . الفارق أنها تقع في واحدة من العمارات العالية ذات السبعة أدوار ، التى بدأت تنبت في منطقة بنيت أصلا كلها من ثلاثة أدوار ؛ ولأن شركة مصر الجديدة نفسها تقع بحكم تاريخها في واحدة من تلك البنايات القصيرة العريضة ، ولأن كل جاراتها كانت كذلك بحكم طول العمر ، أو استسلاما لجيرة قصر أصبح جمهوريا ، وإن بالمصادرة لا بالإصالة ، فإن من يطل من شرفات تلك العمارة العالية ، يستطيع أن يمد بصره ، حتى الضفة الأخرى لطريق المطار ، وبالأخص معلمها الكبير قصر البارون ، ودونه الكثير من الشيلات والقصور الأصغر ، والمسطح الكبير لنادى هليوبوليس ، وطبعا معالم القصر الجمهورى نفسه ، الأقرب منها جميعا ، لكن البعيد بما يكفى لئلا تمثل مثل هذه العمائر خطرا أمنيا .

نبيل كان أول عميل يطرق باب شركة رمسيس لدى تأسيسها في خريف ١٩٩٥ . إدوارد كان بالطبع قد أخبر كل أقرابه ومعارفه بافتتاح الشركة ، لكنه ظل بعضا من أسبوع لم يسمع جوابا ، حتى جاءه هذا الأستاذ الكهل ، وعرفه بنفسه .

- نبيل رأفت قرياقص ، مدرس إنجلش في سان جوزيف ، دلوقت بالمعاش . تقدر تقول عنى أنى بأعانى من الفراغ ، لا أو من بالدروس الخصوصية ، وكنت دائما أقول للتلميذ إالى عاوز درس : ' كل إالى عندى قلته في الحصة ، ولا تتوقع شيئا جديدا في الدرس الخصوصى ! ' . من زمان بأمارس الترجمة بالقطعة لحساب مكتب ترجمة معتمد ، هواية دخلت في احتراف شوية ، أصل أنا خريج ألسن من بتوع زمان . وبالصبح لو ها تسمح لى ، أسلى نفسى معاكم هنا .

نبيل كهل نخيل أشيب الشعر ، يرتدى بذلات فاتحة اللون دائما ، وتميزه تلك حمالة الأكتاف التى يشد بها سرواله ، فهو أحد هؤلاء الناس الذين لم يقتنعوا قط أن الأحزمة اختراع كاف لمنع البنطلونات من السقوط . إدوارد يبدو شخصا طويلا أميل للامتلاء ، ذو بشرة بيضاء وشعر أسود مجعد لكن لا يظهر منه هذا أبدا حرصه على فرده وحسن تمشيطة . أبدى فرحة كبيرة بقدوم نبيل لدرجة أن ضرب قبضته اليمنى بقوة في قلب راحته اليسرى . بالوضع في الاعتبار الخصائص البدنية الجيدة لإدوارد ، كانت هذه ضربة مسموعة الصوت غير مفهومة المعنى بالنسبة لنبيل ؛ لم يكن السبب أن مجرد أن الزبون رقم ١ قد طرق الباب ، إنما لأنه وضع نظرية بخصوص افتتاح الشركة في حى مصر الجديدة تحديدا ، ها هي تتحقق حرفيا .

كان إدوارد موظفا في بنك القاهرة الذى ألغى لاحقا بالاندماج ، حتى جاءه يوما والده ليقول له إيه رأيك تعمل مشروع ؟

- مشروع ؟ إوعى تقول لى تجارة البلح ؟

- لآ ! لآ ! أى مشروع ، أنا خلاص نويت أصفى وأبيع الوكالة ، أنت ما لكش في البلح ، ومينا ما لهوش في أى حاجة . إعمل مشروع ، وخذ مينا مرته فيه ، أهو زيك خريج تجارة ، والفلوس موجودة .

لم يرتح إدوارد لفكرة الميراث المبكر هذه ، على الأقل لأنه لم يفكر فيها قط . كان سعيدا باستقلاله وشقه طريقه بنفسه ، وقد تزوج وانتقل لإحدى عمارات أغا خان السامقة في كورنيش شبرا ، والميراث بالنسبة له ، يأتى حينما يأتى ، وليست لديه له أية خطط ، ربما فقط يقرر أن يحتفظ به كما هو لأبنائه . لم يفكر قط أن يصبح صاحب أو مدير بيزنس . لقد توقفت طفرة الأجيال في تفكيره عند أن يكون صاحب شهادة عليا تجارية يشتغل بها في بنك كبير ، مقارنة بأبيه خريج مدرسة الزراعة التوفيقية ، والذي تقريبا لم يستفد من تعليمه فيها شيئا ، إنما فقط ورث تجارة أسرته العريقة في ساحل شبرا .

سرعان ما استملح إدوارد الفكرة ؛ لم لا ؟ لم لا يخطو قانون التطور خطوتين لا خطوة واحدة . في تلك الأوقات من سنة ١٩٩٥ لم يكن للصحف ولا لأروقة البنوك ، من كلام إلا عن عزم الحكومة إحياء سوق المال من جديد في مصر .



راح يقص عليه حكاية مصر الجديدة كلها

راح إدوارد يستقصى أبعاد مشروع شركة السمسة ، تكاليفه وجدواه ، وحين اقتنع تماما ، قرر أن يسارع في التنفيذ ، وأن يكون من أوائل الشركات التي تطلب الترخيص ، إن لم يكن أولها . للحق هو فكر قليلا في البحث عن شقة إيجار ، لكنه وجد أنها إما تقع في عمارات قديمة متهاكة لا تليق ، أو كمسطحات تجارية في عمارات جديدة ، ليست فقط باهظة الإيجار ، بل نادرا ما يوجد فيها المسطح الكبير المتصل الذي يريد . ثم لا مشكلة في رأس المال ، وشراء شقة . بالفعل وجد هذه الشقة ، عمارة أو شك بناؤها أن ينتهي ؛ موقع ممتاز في قلب المركز القديم لمصر الجديدة . الشارع اسمه رمسيس ، وهو نفسه اسم إدوارد رمسيس ، والشركة سيكون اسمها رمسيس ، أو للحق هذا الاسم الأخير كان مقررا سلفا ، بفرمان عائلي لحظة أن باح باقتراح أن يسمى الشركة هليوپوليس مثلا . كل ذلك دون أن يخطر بباله أن في مصر الجديدة أيضا شارع اسمه رمسيس ، سقط سهوا من ثوار يوليو تغييره ، بعد أن استغلوا الاسم بالفعل ليضفوه على شارع آخر باسم عباس ، لكنه الشارع الأضخم والأشهر في كل القاهرة ، هذا الذي يمتد من وسطها التجاري متجها لشمالها الشرقي ، أى العباسية .

إدوارد لا يعرف هذا ، ولا يعرف أن هذه العباسية نفسها سقط سهوا تغيير اسمها ، مثلها مثل التوفيقية مثلا ، أو مثل التزعة الإبراهيمية ، ولم يحدث أن سمى أيها فلسطين أو لومومبا مثلا ، ولا يعرف مثلا (طبعا لو نحينا جانبا أسماء المدن الأعصى نسبيا على التغيير كالإسماعيلية وپور سعيد) ، أن لاقى ذات مصير المحو أسماء أثرياء اليهود التي التصقت بميدان سوارس بالمعادي وبعربات السوارس في المعادي وغير المعادي ، أو بكل ما اسمه منشية في كامل أرجاء القطر المصري ، نسبة إلى ليقي منشى . إدوارد لا يعرف شيئا ! هذه كلها أشياء لم تشغل باله يوما ، لكن قطعا الأكبر سنا في أسرته ، الشراوية المسيحية ، رجالا ونساء ، يتذكرون هذه الأشياء كثيرا ، بل وأكثر من اللزوم أحيانا . وكان لا يعطيهم أذانا كثيرة ، معتقدا أن كل هذا قد ولى وانقضى ، تماما كما أنساه حصوله على بكالوريوس التجارة ووظيفة البنك المحسودة ، أن لديه ميراثا هائلا من الثروة ؛ فقط اكتفى بالصباح يوم وقع عقد الشقة : ' شارع رمسيس ! يا لها من صدفة سعيدة تنبئ ببداية موفقة ! ' .

أما النظرية التي ضرب بسببها إدوارد قبضته في راحته ، فهي أن مصر الجديدة التي وقع اختياره عليها هي ' حى المعاشات ' . وها هو أول عميل يأتيه ، يعرفه بنفسه بأنه من أرباب المعاشات ، حرفيا كما خطط ، وأما لماذا يأتي المستر نبيل مبكرا فهي كما قلنا قصة أخرى ، أيضا ترجع لذلك اليوم الأول لجيئه للشركة .

بعد ' نبيل رأفت قرياقص ، مدرس إنجلش في سان جوزيف ... ' . أردف قائلا : ' مبروك الشركة الجديدة ! ' .

- عجبك يا مستر نبيل ؟ اتفضل اتفرج عليها .

ما أن خرج نبيل للشرفة ، حتى صعق لمنظر القصور ، الذى لم يره من عل هكذا أبدا ، ولم يرها في إطار واحد على هذا النحو قط .

- شقتك دى فريدة جدا ! حضرتك ساكن في نفس العمارة برضه ؟

- لا ، لا ، إحنا من شبرا ، ومصر الجديدة بالنسبة لى ذكريات صياغة ، موش أكثر !

- باعتبارك لسه ضيف على مصر الجديدة ، تسمح لى أقوم معاك بدور مرشد سياحى ؟

- ها تتعب نفسك يا مستر ؟

- أتعب إيه ؟ بلكوتك دى موش عاوزه تعب خالص .

في ذلك الصباح الصحو ، راح يقص عليه حكاية مصر الجديدة كلها - ما يرى وما لا يرى - ذلك من الشرفة الذهبية ، الشرفة التي عادة لا تفضل الشركات الاحتفاظ بمثلها ، باعتبارها مساحات غير مستغلة . فندق القصر الذى كان يقارن في حينه بتاج محل الهندى ، وكان أفخم من أن يستمر كفندق ، وطبعا من أن يترك دون مصادرة ، وظل له دور ثانوى كمقر لقيادة مشروع مضحك كان يسمى اتحاد الجمهوريات العربية ، لم يعد يذكر أحد حتى أسماء تلك ' الجمهوريات ' المشاركة فيه . هذا إلى أن اختاره لاحقا الرئيس حسنى مبارك مقرا له ، فأصبح ثاني من يحكم مصر من حى مصر الجديدة ، بعد السلطان حسين كامل . هذا الأمر الذى حدث في سنة ١٩١٤ قبل مبارك ب ٦٧ عاما ، ومن قصر السلطان غير البعيد المواجه لقصر البارون ، وأيضا غير البعيد عن المصادرة ، كقيادة عسكرية هذه المرة ، ثم عندما وجدوا قصرا أكبر للمصادرة أحالوه

مدرسة ثانوية للبنات ، يطالعنك اليوم في شرفته بزى موحد -تلميذات ومدرسات- هو الخمار الأبيض . هذا يعد مفارقة كبيرة بالنظر لاسم صاحبه ، هذا الذى أتت به بريطانيا حاكما لمصر بالتزامن مع إعلانها الحماية عليها ، وعزلها لسابقه الاستقلالى المتخلف الأخرق عباس حلمى ، ومن ثم ارتفاع سقف آمال العصرنة بذروة جديدة لم تعرفها في كل تاريخها الحديث . إن مجرد نقل الرجل لمركز الحكم في مصر إلى ضاحية شديدة العصرية كهليوبوليس كان في حد ذاته رمزا مقصودا ، ربما يعادل في رمزيته جبروت أن أولى الخديوى إسماعيل دبر حصان أبيه إبراهيم باشا (في التمثال الشهير الذى صنعه له) ، إلى القاهرة الفاطمية القديمة (أو إلى مكة ، لم يخبرنا بالضبط) ، متطلعا -أى الأب- بإصبعه غربا إلى قاهرته الجديدة (قاهرة إسماعيل ، وسط القاهرة الحالى) ، أو ربما غربا إلى الغرب في حد ذاته !

... أما قصر البارون ، أهم معالم مصر الجديدة إطلاقا ، فهو قصة حافلة بالأساطير ويطول شرحها . لقد أثقلت عليك اليوم ، ونؤجلها ليوم آخر . أغدق نبيل على إدوارد بفيض من معلومات من هذه الشاكلة ، مستئذنا في نهاية الحوار أن يأتي مبكرا كل يوم ليجلس في الشرفة لبعض الوقت ، مستمتعا بما لا تتيح له ثقته المدفونة في طابق خفيض بعيد ، بعد عدة شوارع أخرى في عمق الحى العريق .



حقيبتان ورقبتان من ذوات اللون العسلى القديم

مما كان يعتقد أنها طريقة للتغليف اندثرت منذ ظهور عصر الشنط البلاستيك

- إيه معنى كلمة كورية يا مستر نبيل ؟

- هناك أكثر من قول ، أنا رأيى هي تعريب لكلمة كوريوريشن ، المقصود شركة مصر الجديدة يعنى . البعض يقول لك دى كلمة لاتينية معناها الجسم أو الشيء الملتف ، والكورية تقع عند التفاف طريق الخليفة المأمون القادم من القاهرة ، هذا صحيح ، لكن في نفس الوقت هذه الكلمة نفسها هي أصل كلمة كوريوريشن الإنجليزي ، لأنها الجسد الذى يضم مساهمين كثر .

بينه نبيل وحيد ، وهما يتمشيان سويا عبر شوارع الكورية ، لبعض المعالم البارزة ، لعل أكثرها إثارة للفضول عدد من علامات نجمة داود الموجودة على بعض المباني القديمة ، وعلى أسماء بعض المحال التي تحمل أسماء يهودية صريحة . أيضا تطرقا بطبيعة الحال أكثر من مرة للهجاء الخاطيء لأسماء الأعلام وللكلمات عامة ، سواء بالإنجليزية أو العربية . يتركان شوارع الكورية العتيقة خلفهما ، يعبر الاثنان أشهر ميادين مصر الجديدة ، ميدان كنيسة البازيليك (نسبة لطرازها المعماري حيث السقف قطعين ناقصين أو نصف أسطوانة أفقية بطول المكان ، وإن كانت هذه بالتحديد هجينا مع الطراز التقليدى للكنائس ذى القباب) ، والتي بدورها أهم كنائس مصر الجديدة ، وأحد أهم كاتدرائيات مصر إطلاقا . إذا كان ثمة شارعان رئيسان يقسمان مصر الجديدة الأصلية على هيئة صليب ضخم ، فهما شارعا الأهرام والبازيليك (الأول لا يزال يحتفظ باسمه والثاني تغير) ، وفي هذا القلب تقع كنيسة طائفة الروم الكاثوليك هذه ، والتي أردادها إيمان ثانى أهم معلم للضاحية بعد قصره هو الشخصى ، واختار أن يدفن فيها . هذه كانت بعض المعلومات التي راح نبيل يلقتها لوافد مصر الجديدة القديم-الجديد .

واصلا السير حتى البقالات القديمة في شارع هارون الرشيد . البقالات القديمة موجودة في كل مكان في مصر الجديدة-القديمة ، يوجد سوق في الخليفة المأمون وآخر في صلاح الدين وثالث في تريومف وهكذا . أنا أحب شارع هارون الرشيد ، وإن ليست محلاته بالضبط في قلب سوق صلاح الدين إنما على هامشه . هي لا تقل عراقة ، لكن تاريخها أكثر أرستقراطية . لم يستمع وحيد جيدا لكل ما قاله نبيل لأن مرورهما غير المقصود بمدرسة والدته جعله يسرح في ذكريات معها . أول ما لاحظته وحيد في محل البقالة الفسيح ، هو صور باباوات روما التي تزيح كل واحدة الأقدم منها جانبا بوحدة أكبر حجما وأزهى ألوانا وأفخم إطارا ، وتشكل كلها معا مثلثا حوافه صور صغيرة بالأبيض والأسود ترجع لبدايات القرن العشرين . نبيل نفسه كاثوليكى ، وإن ليس من اللاتين الكاثوليك ، إنما كاثوليكى شرقى ، ' روم ' ، والمقصود يونان .

تنبه وحيد حين لكزه نبيل قائلا : ' ما تشتريه من السوپرماركت لا يمكن أن يسمى بقالة ، أنا أزور المحلات الكبيرة تلك ، وأول ما أذهب له قسم البقالة ، والرائحة وحدها تخبرنى إن كان هذا المتجر متوسطا أم ردينا ، لكن قطعاً لا يوجد سوپرماركت يبيع بقالة حقيقية بمعنى الكلمة . ماذا تعتقد هذه الرائحة ؟ '

فكر وحيد قليلا وقال متصنعا الخبرة وبلهجة غير المرتاح لطريقة المدرس التي يهواها نبيل : ' بسطمة طبعا ! ' .

- خطأ ، وخطأ كبير ، هذه روائح كثيرة وليست رائحة واحدة .

- صح !

- البسطرمة هي الرائحة الغالبة ، لكن أليست رائحة الطرشى واضحة أيضا ؟ انظر لكل إناء طرشى واسأل نفسك أليست رائحته تعبق الجو أيضا : الليمون بالعصفر ، البصل ، الفلفل الأخضر ، الزيتون الأسود والأخضر ، وغيره ، وغيره .
صاح وحيد باندهاش : ' فعلا كلها موجودة ! ' .

- ركز أيضا في رائحة الأجبان المختلفة ، دقق ستجدها أيضا ، فباب ثلاجة العرض هذه الخلفى يفتح من حين لآخر ويث الروائح بعناد يقاوم كل الحواجز ، ثم ماذا عن بقية اللحوم المحفوظة أو الرنجة والأنشوجة .

طلب من نبيل أنه يجهز له مشتروات مثله بالضبط ، وقال نبيل : ' المرة دى على ، ولو عاوز تدفع ماشى ، بس تعريفى لك بالحل بـ ٥ آلاف جنيه ، يا إما تدفع الكل يا إما الكل هدية منى ! ' . ضحك وحيد وتركه مع البائع يجهز المشتروات ، حقيبتان ورقيتان من ذوات اللون العسلى القديم مما كان يعتقد أنها طريقة للتغليف اندثرت منذ ظهور عصر الشنط البلاستيك ، وذهب هو لقسم الخمور ، كامل الضفة الأخرى اليمنى للمحل الغائر للدخل . مشى طويلا ممنيا نفسه بأن يجد نبيذا مستوردا ، لكنه كالعادة وجد أن أعلى قنينة تقع دون المائة جنيه . انتقى قنيتين من هذا النوع ، ملاحظا حتى أن الأسعار تقل بضعة جنيهات عما اعتاد شراءها . بعد مناقشة قصيرة مع الكاشير حول النبيذ المستورد ، قال له إنه لا يباع رسميا بسبب الضرائب الهائلة ، لكن محل الخمور المجاور يأتيك به لو شئت ، فهو مشهور بأنه يشتري كل ما يعرض عليه من خمور يأتي بها أصحابها من المطار ، ولا يشربونها . تعجب وحيد لسماع هذا ، وتمتم في صمت : ' جازي ! شرب الخمر هو الحرام ، إنما يبيعه ليس كذلك ، ربما هناك فتوى جديدة تسمح بهذا ! ' . دفع الثمن وناول نبيل واحدة من الزجاجتين الملفوفتين في نفس نوعية الورق العسلى . وسحب منه أحد كيسى البقالة قائلا بحماس ضاحك : ' شكرا على البقالة وشكرا على معرفة المحل ! وتمتم مرة أخرى قائلا : أنا تقريبا غريب عن مصر الجديدة . قضيت فيها أيام الجامعة بس ! ' .

قبل أن يغادرا سأل وحيد عن عطلة المحل فعرف أنها الأحد ، فعاهد نفسه أن تكون هذه هي تمشية عصر يوم الجمعة ، حيث مصر الجديدة هادئة إلا من صوت المترو الهادر ، بسبب تمالك الخط الحديدى الأرضى ، مرة كل نحو نصف ساعة .



لعلها الطريقة المتفق عليها فيما بينهم للتعزية !

قاعة المستثمرين في شركة رمسيس ، عبارة عن قاعة فسيحة هي أول ما تقودك إليه الطريقة القادمة من الباب الخارجى . بعد ذلك توجد طرقة داخلية تقودك إلى ثلاث غرف مكاتب أخرى ، مكتب إدوارد ، مكتب لشاشتى التنفيذ المتصلتين بالبورصة ، وعادة ما يجلس به مينا وسامر ، وأخيرا مكتب للمحاسب لا يكاد يحظى بأى احتكاك مباشر مع العملاء . بمجرد ما أن تدخل من الباب الخارجى للشقة ، حتى تهاجم أنفك حزمة من الروائح الدسمة ، المتشاكلة معا من أجل تكوين رائحة واحدة فريدة ، ربما يجدر تسجيل حقوقها باسم هذه الشركة . دخان التبغ الكثيف بأنواعه ، وقد اختلط بعطور النساء الفواحة ، زائد نكهة بمار إضافية تمتح تفردا يختلف من يوم إلى يوم لجو القاعة . إنها رائحة ما يأتي به الحاج ضهرى يوميا من مزارعه بالقناطر الخيرية . حزمة الزهور أو النباتات العطرية التي تتغير يوميا من الورد إلى الفل إلى الريحان إلى الياسمين إلى النعناع إلى العتر إلى القرنفل وهكذا . وكان من المنافسات الشهيرة أن يحاول كل من يأتي التعرف على تلك الرائحة اليومية الإضافية بمجرد دخوله ، فيقول نهارنا ورد ، أو نهارنا فل ، أو نهارنا ياسمين ، أو نهارنا ريحان ، حسبما يحيل لأنفه من وجود هذا النبات أو ذاك .

ومما يزيد من نفاذية عبق القاعة ، هو أنها مغلقة المنافذ تقريبا ؛ السبب أنه منذ تركيب بروجكتور لإسقاط صورة برنامج الحاسوب الخاص بالمعلومات اللحظية للأسهم ، وأضحى من المحتوم إظلام المكان . باستثناء مصباح مكتب فلوروسينتى صغير أمام ميرفت ، بات المكان كقاعة السينما المحكمة ؛ لا يفتح فيها منفذ ، إلا في تمام الثانية والنصف (الثالثة والنصف سابقا حين كانت الجلسة الرئيسة تنتهى عندها وكانت جلسة سوق الأوامر تعقد في الصباح الباكر) ، حين تنهض ميرفت بسرعة وقد فاض بها الكيل مفاضه من رائحة السجائر ، وتضىء الأنوار وتصيح : ' الفيلم خلص خلاص ! ' ، وتذهب للشبايبك لتفتحها ، ثم تعود لمكتبها لمواصلة تلك الجلسة الصغيرة المسماة بجلسة المشتقات والمستقبلات والخيرات وأشياء أخرى غامضة ، نادرا ما يهتم بها عملاء رمسيس ؛ إما لأنها كما قلنا غامضة عليهم ، وإما لأنها تحتاج لمبالغ فوق طاقتهم (الأولى تعنى ورقة مالية ' مشتقة ' عن مجموعة من أوراق أخرى ، والثانية تعنى السلع الأولية التي لم يحن موعد حصادها أو تسليمها بعد وأشهرها علميا

البتترول . والأخيرة تعنى السلع الأولية كبضاعة حاضرة وفي مقدمتها بالنسبة لمصر القطن الذى ألقى مؤخرا أيضا من بورصته العريقة بالأسكندرية التى ظلت تمارسه لقرابة القرن ونصف ، لكنه فى محاولة لإعادته من جديد للازدهار ، تحول وهو وسلع زراعية كثيرة أخرى للتداول الإلكتروني (الآن) . وفى كل الأحوال يكفى هؤلاء المهتمون الجلوس إلى الحاسوب المكتبى المواجه لميراث لتابعها (كانت هذه الفترة مخصصة من قبل للتداول على الشركات المغلقة أو التى عجزت عن تلبية متطلبات الشفافية بإصدار ميزانية منتظمة ، هذا فيما يسمى بسوق الأوامر أو خارج المقصورة ، وكانت قبل سنة ٢٠٠٧ تعقد لمدة ٤٥ دقيقة صباحا قبل الجلسة الرئيسة . لكن ها هى سوق الأوامر قد ألغيت بالكامل مؤخرا ، أو بالأحرى حولت أسهمها لما تسمى بسوق الصفقات ، أى مما لا تتداول خلال جلسة علنية مفتوحة محددة التوقيت . وحلت محلها جلسة الأسواق المتخصصة المذكورة ، هذا كله فى إطار إحساس البورصة المصرية بالتوسع والتنوع والكبر وارتفاع المكانة عالميا ، ومن ثم 'تففيشها' لكثير من الشركات الصغيرة التى كانت قد سبق ورحبت بها وأدرجتها فى جداولها على مدى العقد الأول لتأسيسها مع منتصف التسعينيات) .

من عادة زهري أيضا أن يأتى كل يوم بجميع الصحف والمجلات المصرية والعربية . ولما لاحظ وحيد هذا من يومه الأول فى الشركة أصبح يحرص على أن يأتى بدوره بالصحف والمجلات الأجنبية الناطقة بالإنجليزية . ليست كثيرة جدا على أية حال ، بعد تحول معظم مجلات العالم وصحفه الكبرى لمجرد إصدارات إلكترونية على الإنترنت . لكن هذه الأخيرة متاحة بدورها عبر الهواتف الخليوية والحواسيب التى يحملها الكثيرون من عملاء رمسيس ، ومن هنا تظل -هذه وتلك- أطعمة شهية تتناولها الأيدي ، لعلها تجد فيها خيرا عن شركة ما يحفزهم لقرار استثمارى مريح ، وإن كان الأغلب أن تستأثر قصة جريمة ما أو واقعة انتحار على الحديث بقية اليوم .

يفترض فى شركات السمسرة سرية تعاملات العملاء . هذا لا ينطبق بحال على شركة رمسيس . قديما كانت الصفقات تدار على المقاهى ، ومن هنا جاءت تسمية كثير من المقاهى بالبورصة . رمسيس شركة صغيرة ذات جو عائلى حميى ، والمفارقة أنها أقرب لمقهى منه لشركة عصرية حديثة . خلافا لكل الأعراف المصرفية أو أعراف شركات السمسرة الكبيرة ، لا يخفى شىء على أحد فى قاعة المستثمرين فى شركة رمسيس ؛ كل شىء يتم فى العلن . خدمة العملاء عبارة عن ذلك المكتب الصغير المتعاقد على مكتب ونس-روميو ، ويتناوب الجلوس عليه سامر أو ميرفت حسب مقتضى الحال ، أو سويا حين لا يقتضى الحال شيئا . كل الأوراق موضوعة عليه بحيث ينظر لها من شاء متى شاء وكيفما شاء . العملاء أنفسهم اعتادوا تلمية أوامرهم بصوت عال كى تنقل عبر التليفون الداخلى بسرعة من خدمة العملاء للمنفذ كى يدخلها بدوره من خلال طرفيته لنظام التداول الخاص بالبورصة . ويأتى عادة رد سامر عاليا من الغرفة الداخلية ، أو يأتى هو بنفسه ، حاملا دوما بصمته المميزة : 'ع الشاشة يا باشا !' ، ردا موسيقيا نمطيا لا يتغير أبدا حتى لو كانت صاحبة الأمر سيدة . بعد ذلك ينهضون على مهل لتحويل هذا الأمر لمحرر رسمى مكتوب ، أو لو تقاعسوا أو تناسوا أو نسوا ، تكتبه لهم ميرفت ، وتأتيهم به فى أماكنهم لمجرد التوقيع . وأيضا لا حرج أن تسأل أى أحد أنت معاك أسهم إيه دلوقت ، ولا يعتبر هذا تدخلا منك فى خصوصياته . يعتبر أنه يسألك لأن الوقت الصحيح للسؤال قد جاء ، وليس لأى هدف آخر ، ذلك كى يقترح عليك إما بيع نصف الكمية وإما ثلثها .

قبل أيام قال وحيد لنفسه إن التحركات المثيرة لأسعار الأسهم هى التى ستذهب عنه الملل . الواقع أنه كان يكذب على نفسه . هو لم يحدث أن استمتع بشىء قط إلا فى اللحظة التى يبدأ يصبح فيها هذا الشىء روتينيا فى حياته . المفاجآت هى أسوأ الأشياء التى يمكن أن تحز عالمه العقلى دقيق البناء . فى البداية صدم بما يحدث ، لكنه سرعان ما استمرأ هو نفسه هذه الأجواء . الجميع أشبه بأسرة واحدة أو قل بفصل مدرسى واحد . وجد ألفة فى كونهم يعرفون عن ظهر قلب محتويات محافظ بعضهم البعض . يتشاركون الفرحة لربح أحدهم ، يتسابقون لإبلاغه بأعلى وأسرع صوت ، أن السهم الفلانى قد ارتفع . أو يتشاركون التعازى فى حال الهبوط ، أو بالأحرى هم لا يتبادلون أبدا التعازى بالمعنى المعروف للكلمة ، إنما ببساطة يعايبون بعضهم البعض بالخسائر ، أو لعلها الطريقة المتفق عليها فيما بينهم للتعزية ! 'أنت يا بتاع سهم سيدى عطعوط يا خايب !' ، 'حد يشتري سهم شركة اسمها سيدى عطعوط ؟' ، 'ما لها ؟ شركة استثمار أد الدنيا' ، 'برضه تحلى شيخ نصاب يضحك عليك ويأخذ فلوسك !' ، 'ها ، هى جات على ده ، ده أهون واحد وحياتك !' ، 'من كان منكم بلا خسارة فليرجعها بحجر' ، 'سيدى عطعوط ، يا سيدى أمرك أمرك يا سيدى !' ، أو هكذا ينتهى الأمر عادة فى كل مرة : التحول للغناء !

إن سر تألفهم واضح ، أنهم جميعا ركاب قارب واحد يواجهون عدوا واحدا ، مسخا بحريا هائلا لا يعرف الرحمة لا يمكن أبدا التنبؤ بنفحاته الكريمة أو بصولاته الشريرة ، مسخ اسمه السوق !

المزاح ، زائد الغناء الجماعى ، لا ينتهيان طوال ساعات جلسة البورصة الأربع ، زائد امتدادات تطول أو تقصر قبلها وبعدها ؛ بحيث قد يخيّل للدخول الجديد (لا سيما مع كثافة الدخان الذى يقاوم مرور ضوء الپروچكتور إلى الحائط المقابل) ، أنه أخطأ العنوان وطرق على ستوديو للتسجيلات أو على ناد ليلى . أيضا الرهانات على أين يتجه ' القطيع ' ، قطع المستثمرين ، أى أسعار الأسهم ، لا تنتهى طوال الوقت . وتبدأ بالرهان على سيجارة كحد أدنى ، حتى سيجار فاخر أو عشاء باهظ الكلفة كحد أقصى . كل الأحاديث ترتبط بالأسهم على نحو أو آخر . مثلا إذا طرأ تغير مهم على أسعار شركات الإنتاج التليفزيونى يتحول الكلام للقنوات والمسلسلات والبرامج والأغانى ، كل يستعرض ثقافته وصوته -القيح غالبا- فى الغناء . أو يتسابقون لفتاوى شرعية لا يطبقونها أبدا ، مثل أن هذه أسهم هز الوسط وقلة الأدب . وأن لا غرابة أنها صاحبة التاريخ الأسود سعة فى البورصة ، لأنها صعّدت بسرعة هائلة لدى طرحها (طبعا بسبب كثرة كلام التليفزيون عنها) ، ثم انهارت فجأة .

من ذلك أيضا أن حين يقترّب سهم ما من الحدود القصوى عليا أو دنيا وتصبح العروض أو الطلبات صفرا ، إذا سأل أحدهم : ' صفر ؟ ' [بتشديد الفاء] ، يردون عليه بصوت واحد : ' لسه ! ' ، على طريقة لصوص على بابا (هذا التقليد كان قد اختلف لفترة قصيرة ، بعد أن ألغيت الحدود السعرية على جميع الأسهم سنة ٢٠٠٧ ، لكنه سرعان ما عاد بعد إعادة فرض الحدود السعرية من جديد إثر هجمة مضاربة جديدة للأموال العربية فى نفس السنة) . حين يفرح أحدهم بربح ينعصونه عليه : ' شفت الأسلاك عملت إيه ؟ ' ، ' أسلاك مين يا عم ، دى شركة لو باعوها أراضى موش ها تحب الديون إالى عليها ؟ ' ، ' إحنا ما لنا خسرانة ولا كسبانية ؟ المهم فى السهم الصيت ولا الغنى ' . وحين يغضبون من سهم يكيلون له الشتائم : ' سهم نجس ' أو ' سهم ابن كذا أو كذا ' أو ' سهم مشموم ' أو ' سهم معفن ' ، أو ' سهم مخبيخ ' ، وهذه الأخيرة هى المفضلة لدى عم ونس لأنها تؤشر لخبرته بصناعة سبابة المعادن باعتباره مهندسا . أو من عادتهم مثلا وصف الصعود التدريجى للأسعار بأنه ' سوق بيدرج ' ، فيرد أحد القادمين الجدد حديثى العهد بمصطلحاتهم : ' يدرج ؟ هو إحنا هنا فى صالون حلاقة ؟ ' ، ' أنت جيت هنا إزاي يا بنى ؟ من يوم ما اتفتحت مدرسة الحلاقين وسهمها دخل البورصة ، لازم تعدى عليها الأول قبل ما تيجى تتصنف فى البورصة ! ها ! ها ! .

كذلك يوم انهارت أسعار إحدى شركات القطن ، كان كل الحديث عن ' هذه ' الورقة ' أكلتها الدودة ! ' ، أو ' خسرنا كل فلوسنا ولازم نحجز من دلوقت مكان فى تنقية اللطع ! ' ، أو ' خلاص ! إحنا كده اتخطينا فى الشونة ! ' ، أو ' ما تقلقش ، الميزانية قربت وها يولعوا فينا ! ' ، أو حتى ' جازي يستفيدوا م البذرة بتاعتك ويعملوها علف ! ' . أو مثلا يوم صعّدت أسهم شركة السكر ولم يكن قد سبق لأيهم شراؤها ، تمازحوا متمنعين على الشراء : ' أنا يا عم بأخاف من النمل ! ' ، ' أنا ما أحبش إيدى تتلبك ! ' ، ' أنا أحب أمص قصب أحسن ! ' ، ' سهم تشتريه من هنا وتاخذ إنسولين من هنا ! ' ، ' أنا ها أجيب لكم شنطة بنجر بكرة ! ' ، ' أنت راجل سكر ! ' ، ' وأنتى ست عسل ! ' . وفى كل الحالات تشارك السيدات بالضحك ، وأحيانا يشاركن فى الحوارات نفسها (وربما الغناء كذلك) .

هناك كثير من العملاء لا تكاد تشعر بهم ، سواء أتوا كل يوم أو أتوا لماما . لا يتكلمون أبدا . حتى ربما لا يطلبون مشروبات من نصر الله ، الساعى . يكتبون أوامرهم فى صمت ، أو يكتبون بالفرجة على الشاشة . إذا كان يمكن القول إن هناك شخص على العكس من كل هؤلاء على طول الخط ، فهو عبد النبى محمد عبد المعبود عبد الجبار ، وعبد النبى محمد هو اسمه المركب هو وحده ، وونس هو اسم الشهرة . إنه المهندس الذى فرض وجوده على الجميع فى قاعة المستثمرين فى شركة رمسيس . جسد منفوخ ضخم ، رأس هائل أصلع ، لا تستطيع اليدان الإحاطة بالكروش ، لا تستطيع العينان رؤية الساقين ، ولا تستطيع القدمان لمس بعضهما البعض ؛ كأنما بالوونا مطاطيا نفخ إلى أشده ، بحيث تباعدت أطرافه ، ويكاد يوشك على الانفجار . من داخله يخرج صوته عميقا جدا غليظا جدا جهوريا جدا ، كل حرف يأتى مشددا وعظيم الوضوح . فقط حين يتحشرج تعرف على الفور أنه مصاب بالبرد اليوم .

رغم غلظة صوت ونس ، فهو دائما قائد الغناء . كل سهم وكل موقف يوجد أغنية لديه . ' مين يشتري السهم منى ، وأنا بأنادى وأدلل ؟ ' و ' بالصمتووو الرهيووو ' (جاءت يوم قال نبيل dead calm ، واصفا الصمت الواجم الذى حل بالجميع فجأة لحظة هبوط هائل للأسعار ، فكان واجبا على ونس أن يترجمها بسرعة لأغنية ، وعبد الحليم حافظ هو الأقرب لذهنه عادة حين يكون الموقف مفاجئا كهذا !) . أو طبعا حين لا يكون مفاجئا تتكرر ' فى يوم فى شهر فى سنة تعلقى الأسهم وتبان ، وعمر خسارتى أنا أكبر من الأيام ' . على أنه بالرغم من عدم إعجاب

أحد بصوت ونس ، ورغم تشاؤمهم من غنائه ، ' بلاش وحياتك يا عم ونس ، الأسهم دى عاملة زى الحية ، لما تغنى لها تلدغك ! ' ، فإنه تعود أن لا يستجيب أبدا لأية تضرعات ، ذلك أنه يعلم ببساطة أن الكل سينضم إلى جوقته بعد لحظات !

روميو نفسه ، جاره الدائم ، نسى الضغائن الأولى بينهما (بسبب انتزاع ونس لمكانه أمام حاسوب المعلومات اللحظية) ، وأصبح أكثر المدافعين عنه وعن غنائه . ذات مرة انفجر سخطا على اعتراض البعض على الغناء فصاح فى ميرثت ، بطريقة يصعب أحيانا التمييز بين الجد والهزل فيها : ' يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدبنى فلوسى . ها أفتح قناة ساتيلايت لكلاسيات الفيديو كليب العربى من ٩٨ و١٩٩٩ ، وزى كده ؛ مثلا حاجات سميرة سعيد ونوال الزغبى الأولانية ، أغنية إليسا إالى كلها ع الكرسى ، أغانى ' عينى ' و ' يا نور العين ' ، شاكيرا عروسة بحر ، والحاجات دى ! ' . وطبعاً كان الاقتراح كنزاً سخياً لونس ، إذ دله على برنامج كامل لأغاني ذلك الأسبوع !

الأغاني نفسها تتحور طبقاً لمصطلحات البورصة أو بالأحرى مصطلحات ونس بالذات . ذات مرة كان يغنى : ' دسنة مناديل منظرها جميل ... مع صحبة من الورد هدية ... ' ، ثم قطعها فجأة ليقول إن ما يحدث الآن هو ' طلعة تسليك ' ، فإذا بكل الحاضرين يردون عليه غناء فى نفس واحد : ' طلعة تسليك منظرها جميل ... ' . وأحيانا يفضلون إدخال بعض الكلمات الأجنبية : ' طلعة تسليك منظرها sleek ... ' . وهكذا تدريجياً تتحور الأغنية الواحدة فى أكثر من اتجاه ، كأن يقال مثلاً : ' طلعة تصريف منظرها ظريف ... ' . قد تثبت عند الكلمات الجديدة لفترة ، وقد يصبح للأغنية الواحدة أكثر من نسخة . الفيصل الوحيد هنا هو آليات قانون التطور ، مبدأ التحيؤ للأليق Survival of the Fittest . بالنسبة لمصير هذه الأغنية تحديدا ما حدث هو أن أعلنت شركة صلب التسليح ذات مرة عن توزيع كوبون أرباح جيد وراح سعر السهم يرتفع ، فغنى الجميع : ' طلعة تسليح منظرها مليح مع صحبة من الكوبونات هدية ' ، وفى النهاية أصبحت بحالتها ' النهائية ' هذه ، نشيداً مميذا لتلك الشركة تحديدا . وهكذا يسير الحال ، فتبدو الأغاني وكأنها كتبت خصيصاً للبورصة وأسهمها وأسماء شركاتها . ومن نتيجة هذا أن القادم الجديد يرتبك ويسأل نفسه حين يسمع إحدى تلك الأغاني أين سمع هذا اللحن من قبل ، هذا من فرط ابتعاد الكلمات عن أزجال الأغنية الأصلية !



من عادة ونس المضاربة على خمسة أسهم بعينها

كان بعد نحو أسبوع من قدوم وحيد للشركة ، أن بدأ يحضر معه جهاز الحاسوب الخاص به . وطلب من إدوارد أن يأتيه باشتراك فى خدمة المعلومات اللحظية ؛ بحيث يمكنه توضيب الشاشة كما يحلو له ، بعيداً عن ونس ومشاكسات العملاء له الذين لا يكفون عن الاحتجاج على استنثاره بمعظم الشاشة للأسهم التى يتداول عليها .

- إالى أنا طالبة منك دلوقت يا أستاذ إدوارد أنك تطلب لى شركة بيانات البورصة يركبوا لى البرنامج على الـ laptop بتاعى ، ويعملوا لى وصلة معاك من الساتيليت .

- يا سلام أنت تأمرنى . إحنا نعملها على حسابنا كمان . بسيطة يا أستاذ وحيد ، وبالمره ها نخط كمبيوتر تانى فى الهول له وصلة لوحده علشان ممكن مجموعة تقعد عليه تظبط الأسهم إالى هى عاوازاها .

ويفهم ونس المقصود : ' هو كان فيه حد اشتكى لك منى ؟ ' .

فيرد إدوارد ضاحكاً : ' كلهم ! ' .

وينظر ونس لوحيد : ' يا عم يا ريت لنا شوية رضا زى إالى ليك . إدوارد ده له ناس ناس . فضلنا نتحايل عليه شهر علشان يجيب البروجكتور ، وأنت بكلمة منك ، تطلع الكمبيوترات الجديدة واشتراكات الساتيليت الجديدة ' .

فيعلق إدوارد كى يزيد غيظه : ' وكمان بكرة ها تلقى هنا مكتب مخصوص للأستاذ وحيد ! ' .

فى الصباح التالى وجد وحيد مائدة دائرية فى ذات المكان الذى اعتاد الجلوس فيه ، الركن الآخر لموخرة القاعة مجاورة للمكتب المخصص على نحو دائم لونس وذلك الشاب الآخر - أو هكذا يبدو - روميو . وتشرح ميرثت : ' الأستاذ إدوارد أمر نجيبها من مكتب الأستاذ تادرس ، علشان

سيادتك تحط عليها الكمبيوتر بتاعك ' . والأستاذ تادرس هو ذلك المحاسب الكهل -أو هكذا يبدو- الذى يشغل تلك الحجرة الداخلية الصغيرة -أو هكذا تبدو- المكدسة بالأضابير ، وليس مجرد جهاز حاسوب كما قد تتوقع ، والتي نادرا ما يخرج منها أو حتى يفتح بابها .

أصبحت شاشة وحيد لا تقارن بالفوضى العارمة فى الشاشة القديمة ، وأصبحت متابعة الجلسة عبر هذه الشاشة متعة قائمة بذاتها . من عادة ونس المضاربة على خمسة أسهم بعينها ، يجمعهم فى نافذة واحدة كبيرة . وبملا بقية الشاشة بالكثير جدا من التفاصيل عنها ، مختلف أسعار الافتتاح والإغلاق وآخر تنفيذ وعروض البيع وطلبات الشراء ... إلخ . كلها موزعة أو بالأحرى متداخلة ومتراكمة فوق بعضها البعض على نحو عشوائى عبر الشاشة ، و فقط هناك نافذة واحدة صغيرة يمكن التجول فيها لعرض أية بيانات لأى سهم آخر . قال وحيد هذا أشبه بأن تنظر من نافذة فندق صغيرة ، وتقول لقد شاهدت كل القاهرة أو لندن أو نيو يورك . على الحضور أن يوسعوا دائرة اهتمامهم لتشمل أكبر عدد من الأسهم ، فالفرص الممتازة حقا لا تكمن فى أسهم المضاربة الشهيرة فقط ؛ من هنا كان حرصه على أن تكون نافذة ما يسمى بالتنفيذات أكبر ما يكون ، بكامل طول الشاشة ، حتى يتعرف العملاء على مجريات أسعار أكبر عدد من الأسهم ، كلها عادة بفرص أن كثير مما يتم من تنفيذات يعرض عبر هذه النافذة ، ولو فات اسم سهم ما فإنه سيظهر فى تداول لاحق .

وجود الحاسوب الجديد الذى وضع على مكتب ميرفت ظهرا لظهر مع حاسوب خدمة العملاء الخاص بحساباتهم وما شابه ، أتاح متنفسا لبعض منهم بمتابعة أخرى مستقلة بعيدا عن تحكيمات ونس ومزاجه ' المنحرف ' فى اختيار الأسهم . ظل بعض الآخرين يلحون على ونس من أجل نقل توضيحية العرض من هذا الحاسوب أو حاسوب وحيد للحاسوب الرئيس الذى يبيت للبروجكتور . حين رفض توالى التلميحات لأن يغير مكانه هو نفسه ويذهب للحاسوب الجديد : ' طول ما أنت إالى بتسوق يا عم عبده ، طول ما إحنا بندخل فى حيلة بعد حيلة ! ' ، أنت شكل سواقين التريلر صحيح ، بس البورصة زى سفينة الفضاء ، عاوزه إيد حينية ! ' ، لاحظ إيدك قد الماوس عشر مرات ! ' . أيضا لم يسفر هذا عن نتيجة ، وتذرع بأنه لو انتقل سيسد الممر بضخامة جسمه ، ويمكنهم نقل وصلة البروجكتور لو شاءوا للحاسوب الجديد ، وهو شىء يعلم أنه يحتاج لبعض التعديلات الخاصة ، التى لن يواصلوا الإلحاح عليها كثيرا . ثم إن روميو الذى كان يقوم بمهمة التحكم فى الحاسوب فى أيام الشركة الخوالى حين لم يكن هناك سوى حاسوب يتيم بلا بروجكتور ، لم يبد متحمسا للعودة لمقعد ' القيادة ' ، إنما استمرأ هو نفسه الجلوس والفرجة عن بعد .

المهم ، احتاج الأمر للأسابيع إلى أن رضخ ونس أخيرا ، وقبل نقل توضيحية شاشة وحيد لحاسوبه . لكن ما لم ينجحوا فيه ولم يحاولوا انتزاعه منه أبدا ، هو سلطة أن يبقى على ' لوحة التحكم ' . كل ما استطاعوا فرضه عليه هو ألا يعدل من خريطة الشاشة ، شديدة التنظيم والدقة تلك . كانت ' مبعككة ' وفوضى ، ودلوقت منظمة ومريحة وتخلينا نركز كويس مع الجلسة . كمان فيها معلومات عن مؤشرات البورصة وعن قيمة التداولات الإجمالية وعن أسعار أسهم الشركات المصرية فى سوق لندن ، وكلها مؤشرات مفيدة . صحيح أصبحت الشاشة أكثر ثراء وتنظيما ، لكن أسهم المضاربة التافهة التى يفضلها ونس ، ظلت كما هى تحتل لأغلب الوقت معظم النوافذ الصغيرة التى استحدثتها وحيد . ما استجد هو استقلال تلك النوافذ عن بعضها البعض ، مما أعطى مرونة أكبر للمتابعة ؛ فقد بات من الأسهل كثيرا أن يطلب أحد الحضور الاطلاع على سهم بعينه ، فيضحى ونس لدقائق بعرض أحد أسهمه المفضلة ، ويأتى بالسهم المطلوب . وفى كل مرة يجيب السائل ، بترحاب زائف ، أو بضجر مصطنع ، ودائما كنوع من الجميل ، كلها حسب حالته المزاجية المرتبطة بمقدار الربح والخسارة فى محفظته هو الشخصية ؛ فالحقيقة التى يعرفها الجميع أن ونس رغم كل إزعاجه هو إنسان مخلص دءوب خدوم ، بل ويسعد أغلب الوقت بهذه المهمة ، ويفرح بأن يقدمها مرفقة بنصيحة ما بخصوص السهم المطلوب عرضه .



دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين

قامة قصيرة نسبيا ، جسم أميل للنحافة ، رأس يتصل شعره الأشيب بذقن مطابقة اللون كلاهما بطول موحد سنتيمتر واحد أو أقل قليلا . وسط كرة الزغب البيضاء الناعمة هذه تبرز فقط وجنتان متوردتان وشفتان بلون الدم وعينان سوداوان صغيرتان حادتان . حين أطل ضهرى بميئته المميزة هذه ، وجد عاصفة فى انتظاره : ' خير يا حاج ؟ ' ، ' إيه إالى حصل يا حاج ؟ ' ، ' مواعيدك زى الساعة يا حاج ! ' ، ' اوعى تقول لنا زى العادة دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! ' .

يخرج ضهرى من جيبه ورقتين مائتين قيمتهما مائة وخمسون جنيها ، يرفعهما بيده اليسرى التى اعتاد استخدامها ، ويبدأ حكاية القصة :
 ' فعلا ، دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! رحى دفعت مصاريف منى بنتى فى الجامعة الأمريكية . زى ما أنتم عارفين هى آخر دفعة ها تدرس فى ميدان التحرير (مداخلة تصحيحية من نبيل لم يهتم بها أحد : ' كان اسمه ميدان الإسماعيلية ، على اسم الخديوى إسماعيل ') . وأنا راجع طلعت الكوبرى وفوجئت أنه واقف من الأسعاف ، وفضل واقف لغاية غمرة . عيل راكب عربية بي إم دبليو جديدة لسه البلاستيك عليها ، وخلص منه البنزين . نزلت له : ' يا بن ال... ، ولا بلاش جايز أهلك ناس طيبين ' . خطفت منه الموبايل ورميته جوه العربية : ' ده موش ها ينفعك بحاجة . أنا ها أبيع لك عشرة لتر بألف جنيه . موافق ؟ معاك ألف كاش ؟ ' . قال وهو بيترجف : ' أيوه تحت أمرك ' . قلت له : ' لتر واحد كفاية عليك ، ينزلك من الكوبرى ويوصلك لمحظة البنزين إلى قبل العباسية . تروح تتعلم تمون العربية إزاي . أنا يوم ما أبوى وافق يجيب لى عربية ، عربية قديمة بمليم ، فضلت أسبوع أركب أتوبيسات وتاكسيات علشان أعمل خريطة بمحطات البنزين والميكانيكية وبتوع الكاوتش ، فى القاهرة كلها ، وأنت موش هاين عليك تبص فى مؤشر البنزين ' . بصيت فى عربيته ما لقيتش غير ' كان ' كوكا كولا : ' مهتم بس بالبنزين بتاعك ؟ هه ؟ ' . فضيتها له فى الأرض وبصيت فيها ورميتها جوه العربية تانى ، قلت له : ' ما تنفعلش ' . أخذت قفازة الميه بتاعتي ، فضيتها . قلت له : ' دى لتر ونص ، زى بعضه ها أديك لتر ونص . هات خمسين جنيه كمان ' . بصراحة بينى وبينكم خفت اللتر وحده ما يكفيش علشان الظلمة تسحب ، والدرس بيوظ . خليته ركع وزحف على ركبته ، لغاية البنطلون ما باظ . إديت له الخراطوم وقلت له : ' أشفط ' ، وشفط البنزين ، والغبي بلعه وفضل يكح ويتف . قلت له : ' أنا موش باسترزق منك . أنا راكب عربية أعلى من عربيتك ، أنا عاوزك ما تنساش اليوم ده فى حياتك أبدا . لولا آلاف العربيات إلى واقفة ورانا دى ، كنت خليتك تفك الأربع عجالات وتركبها تانى . فاهم ؟ ' . جرى لجوه العربية زى الفأر ، وهو يقول لى : ' خلاص خلاص ها أعمل الخريطة ! ' .

يخرج ضهرى مائة وخمسين جنيها أخرى من جيبه . نعمل إيه بالفلوس دى ؟ كالعادة كان المهندس ونس الجالس فى مؤخرة القاعة هو قاذفة المقترحات : ' نديها مكافأة لسامر وميرفت ' .

- سامر وميرفت إلى أنتم مطلعين عينيهم ، تكافوهم من جيبوبكم يا بلطجية يا ناصحين . انزل يا واد يا نصر الله اشترى لنا مكسرات . اليومين دول بقوا بيقتشروها ويعملوها أكياس فى السوبرماركت . بندق ولوز وفتق وجوز وعين جمل ، اعمل تشكيلة حلوة بال ٣٠٠ جنيه وتعال . ثم جلس يشرح لهم أيام كسارة البندق وشكلها وكيف كانت تشتغل ، بينما شرد وحيد متذكرا أنغام تشايكوفسكى . أما ونس فراح يلقي محاضرة يستعرض فيها علمه الغزير : ' بصفتي مهندس أقدر أقول لك إن إلى حصل النهارده موش ها يتكرر تانى . هل لاحظت شاشات جديدة وأنت طالع الكوبرى ؟ خلاص ها تشتغل الأسبوع ده . ها تقول لك مثلا فى حالة كوبرى أكتوبر من التحرير ، لو طلعت الكوبرى ها توصل العباسية مثلا فى كذا دقيقة ، ولو مشيت أرضى فى شارع رمسيس ها توصل فى كذا دقيقة . كل ده شغال بنظام تحديد المواقع بالساتلايت . الصور بتدخل لكمبيوتر كبير يحللها ، يتابع صور العربيات ويحدد متوسط زمن الرحلة ويبيعه للشاشات الموجودة على كل الطرق الرئيسة . لو أنت رايح العباسية مثلا ها يقول لك كم دقيقة ها تحتاجهم فى كل طريق ، لو رايح مدينة نصر ها يقول لك برضه . وطبعا ها تكون كل الأرقام متطابقة تقريبا ؛ لأن الناس ها تختار الطريق الأسرع وها يحصل توازن . الولد صاحبك ده موش ها يقدر يقفل الكوبرى أوى كده بعد النهارده ، لأن العربيات موش ها تطلع الكوبرى أصلا ، وللأسف موش ها تقدر تخليه يفك العجلات ويركبها زى ما بتعلم ! ' .

- جايز من حظى يكون فيه ولد فوق الكوبرى وولد تحت !

وقبل نهاية اليوم يتساءل وحيد فى إعجاب موجهها كلامه لضهرى : ' دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



ما الذى تعرفه عنى حتى تطأنى بكلام كهذا ؟

كما أن الصداقة بين نبيل ووحيد (أو فى الحقيقة بين نبيل وبين أى أحد) ، لا تحتاج لتمهيدات ولا لتنامى ، إنما تبدأ من القمة مباشرة ، كذلك كانت الصداقة بين وحيد والحاج ضهرى . بدأت تقريبا من اليوم الأول للقدوم وحيد ، أوائل أغسطس ٢٠٠٩ . على سبيل الدقة نقول إن البداية الأولى تماما لم تكن مريحة جدا لوحيد ، إلا أنه بعد أيام قليلة أصبحت كل الشواهد تقول إنها سوف تصبح أعمق الصداقات التى سيكونها

وحيد في عالمه الجديد المسمى شركة رمسيس . تلك البداية جاءت حين كان وحيد -بصفته عميلا جديدا- جالسا بمكتب إداره ، فتقدم إليه الحاج وبادره بتعريفه بنفسه . لم يفاجأ بهرى كثيرا حين قال له وحيد إنه سمع عنه من خلال أخيه مجدى الذى يعتبره صديقا له ، وأضاف أنه قابل أيضا يسرى أختها مرة أو مرتين . توقع بهرى هذا بحكم وظيفة وحيد كصحفى متخصص فى الاقتصاد ، ووظيفة أخيه هو الأصغر كوزير للاستثمار ، وأخته التى تتوسطهما كنايبة لرئيس ' البنك التجارى الدولى -مصر ' . لكن فجأة بعد دقائق معدودات تحول ذلك اللقاء لنوع من الاقتحام من بهرى لأخص خصوصيات وحيد ، فشله المهني : ' كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شىء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابي فيها ! ' .

- عفوا ، ماذا قلت ؟

ماذا قال ؟ ' أسأل نفسى ما الشىء الجيد فى كل ما جرى لى ؟ تعال لى بسرعة يا هذا الشىء ؟ إن هناك دائما وجهها جيدا لأى شىء . لماذا أنت غائب عنى يا هذا حتى الآن ؟ ' . كلا ! ويحك يا أخ بهرى . ما لك وشأنى ؟ ما الذى تعرفه عنى حتى تطأنى بكلام كهذا ؟ ليس من الممكن لمأساتى من نهاية . من المستحيل أن يكون فيما جرى لى أى شىء إيجابى على وجه الإطلاق . فقدت وظيفتى ، فقدت تأثيرى ومكانتى الاجتماعية والفكرية ، فقدت أمى . من المستحيل أن يكون ثمة شىء إيجابى هنا . من المستحيل أن تدور حياتى صعودا مرة أخرى . إنها ليست سهم الدواجن الذى تعشقه . مستحيل ! إطلاقا !



موش معنى أن بقى معاك ثروة أنك بقيت رأسمالى

على أية حال العلاقة بين الرجلين التى بدأت بذلك الحوار الوعظى القصير ، أخذت صفة الديمومة والالتصاق من أول يوم جاءت فيه المائدة المستديرة . فى ذلك الصباح دخل الحاج مباشرة وبعد التحيات المطولة المعتادة وتوزيع أعواد الياسمين -حسبما اتفق فى ذلك اليوم- على الحاضرين ، جلس على نحو عفوى -أو هكذا بدا- على مائدة وحيد ، الذى رد عليه بابتهاج : ' صباح الياسمين ! ' . بالنسبة للحاضرين بدا جلوس الاثنين معا ، ومن ثم أى مدى يمكن أن تصل له صداقتهم ، بدت كأشياء منطقية جدا . فهما ' الاثنين الكبار ' فى هذه الشركة ، أصحاب أكبر محفظتين بين كل عملاء رمسيس ، والطبيعى أن يكونا صديقى بعضهما البعض أكثر من أى أحد آخر .

لم تمض دقائق من جلوس بهرى إلى جوار وحيد حتى بادره بالسؤال : ' تعرف حاجة عن مرقس ؟ ' .

- (متفكرا :) أفنكر هو إالى دخل المسيحية مصر .

- (ضاحكا :) قصدى تعرف حاجة عن ' شركات ' مرقس ، عندك أخبار يعنى ! كنت متخيل أنك ها تستثمر فيها ، بيعتبروها الأسهم القائدة ، وأصحابها أغنى أسرة فى مصر ، وكل إالى بيستثمروا استثمار طويل زيك بيشتروا فى أسهم شركاتهم !

كان السؤال وجيها حقا ، وعلى خلاف كثير من المضاربين الذين تعج بهم رمسيس ممن لا يعرفون عن الشركات أكثر من أنها نقاط ضوء تضع رهاناتك عليها على شاشة روليت البورصة ، كان السؤال ينم عن فهم بالاقتصاد المصرى وباللاعبين الكبار فيه .

وحين لم يتلق الحاج إجابة ، واصل السؤال : ' لماذا هذا الولع الخاص منك بكوييد ، لماذا ليس بشركات عيلة مرقس ؟ ' .

- مجموعة موراسكو لا بأس بها ، والاستثمار فيها مفيد .

- وما لك بتقولها من غير حماس ؟

- تقدر تقول عندى شىء من عدم الراحة النفسية من ناحية عائلة مرقس . فى مصر لما بقوا بتوع التكنولوجيا ومستوردين كمبيوتر وغيره ، كانت أسعارهم غالية جدا وأكد معتمدين برضه على البيع للحكومة والقطاع العمومى والجيش . وأنا لما كنت بأبتدى الجورنال عملت مشكلة معاهم لما استوردت بنفسى من أوروبا الأجهزة نفسها بربع الثمن . اتصلوا بى من الجمرك وقالوا : ' ده ممنوع ، إحنا التوكيل ' ، فقلت لهم : ' وأنا الصحافة ' ، فسكنوا . ولما بدأت البورصة كانوا مهتمين شوية بالدعاية للأسهم علشان أسعارها تعلى ، وده برضه عيب ما يصحش يحصل من شركات محترمة . دائما فيه ضغط على القانون ونزاعات حول شروط العقود وتفسيراتها سواء مع الحكومة أو مع الغير بالذات لو كانوا منافسين جايين من الغرب ، وكأنك دائما عاوز تاخذ أكثر من حقاك ، وبرضه ده عيب ما يصحش يحصل من شركات محترمة . كل ده يختلف عن أنك

تبيع رخام اصطناعى أو سجاد لمطار طوكيو أو لفنادق نيو يورك مثلا ، أو تكتسح أوروبا بالإسمنت المصرى أو صلب التسليح المصرى مثلا ، تحت الترابيزة فى الحالة دى ما ينفعش . صحيح هم تأموا فى مصر ، لكن سواء كان الحكم اشتراكى صريح ، أو عالم ثالثى فاسد يوصف خطأ بالرأسمالية ، هم ليس لهم موقف واضح ، شايفين كله كويس . إن ما كانش شغلهم فاسد على طول الخط ، أو حتى لو ما كانش فاسد خالص ، فهو على الأقل لعب على الحبال . أنا لا أرتاح مثلا لأن معظم شغلهم فى العالم الثالث ، ولا أفهم تركيزهم دائما على التعاون بالذات مع الريجيمات المارقة كتشافيز وإيل وموجابى وصدام والأسد والقذافى وخامنئى ، رغم أن الأمر ينتهى عادة -ودونما سبب معلن- بالاستيلاء على أموالهم وطردهم . موش معنى أن بقى معاك ثروة أنك بقيت رأسمالى . فيه أهداف وأيديولوجيات مريبة بأحسها أحيانا ورا الفلوس دى ، موش الفساد بس . شىء مريب جدا أنهم يبحثون عن كل مكان به بقايا اشتراكية كى يستثمروا فيه . دائما عندهم رطانة كثير عما يسمونه الوطن ، أو عن ربنا ، وعن الفقرا وعن الإيمان بما يسمونه العدالة الاجتماعية . دى موش رأسمالية ، الرأسمالية خلق ومبادئ بسبب أنها قبل أى شىء رؤية متكاملة للعالم . جوهر الرأسمالية هو الصراع ، هو التنافسية المطلقة ؛ من التنافس الذى لا يرحم يأتى الخير لكل المجتمع .

- آدم سميث ! عارف ! إنما ما تنساش هم المصريين كده ، لو ضحكوا شوية يقولوا اللهم اجعله خير ، ولو جت لهم شوية فلوس يقولوا استغفر الله العظيم !

- أنا لا أهتمهم بشىء ، وليست لدى أية أدلة ، لكن ككل تلك الأشياء غير مريحة بالنسبة لى ، وتختلف كثيرا فى نظرى عن رأسمالى يتحدث مثلا عن التنافسية الشرسة ، أو يرفض كليا أى دور للدولة ، أو يتهمها صراحة بالفساد . هذا إنسان صاحب رسالة وليس أرزقى يسترضى كل أحد بكل طريقة . المهم كل إالى أقدر أقوله مرقس بيكسبوا ، وبيكسبوا كويس جدا ، وكل الناس بتحبهم ، ويمكن تستثمر فى شركاتهم وخلص ، وها يبقى مكسب مضمون . بس شخصيا موش سهل أرتاح لهم . جازير حكم جائر أو متحيز أو حتى عقدة نفسية لا أكثر ، لكن عقيدة عندى أن من تلوث عقله أو يده بالاشتراكية يوما ، ها تفضل فى نظرى اللعنة ماشية فى دمه وتطارده طول العمر .

- (مستسلما :) على رأيك ! أكيد عيلة مرقس يعرفوا أكثر من غيرهم أن الوصايا العشر بتقول ربنا بينتقم لغاية الجيل الرابع . أنت ها تكون أرحم من ربنا ؟ ! أنت ما عشتش الأيام دى . إالى بيشتغلوا مع الاشتراكية فى مصر أو غيرها اسمهم الرأسمالية الوطنية ؛ هكذا كان يسميهم عبمصورة (وكان بقية الرأسمالية خاينة) . ووطنية معناها قبولها أن تقوم بدور الخادم الطيع للحكومة والقطاع العمومى ، لا تنافسها أبدا ، إلا فى شىء واحد : الفساد !

- أنت فهمتنى غلط . أنا فعلا لا أتحدث عن الفساد كأفراد ، إنما أتحدث عن النظام الذى يؤدى للفساد . على أية حال أقصى شىء ممكن أقوله عن آل مرقس أنهم ليسوا جميعا نسخة من بعضهم البعض . ما قلته ينطبق على واحد منهم بالأخص . ليسوا جميعا بتوع كلام وشعارات واسترضاء للناس وإسهال تصريحات . من درس البيزنس فى مدرسة شيكاجو لا يمكن أن يعادل من كان زعيما طلابيا شيوعيا فى مصر السبعينيات . عندك حق ، لكن أكثر انصافا ، وننظر إليهم من الآن فصاعدا على هذا الأساس .



الشركة التى تسعى للربح تنتهى للإفلاس

الحاج الذى يبدو أنه لا يكف عن التفكير أبدا يواصل شد طرف الحديث من جديد ، مستدركا فيما يبدو عن ملحوظته الأخيرة المتسعة : ' وكلامك أنت صح . فعلا كان لهم فى الفهلوة ، الدعاية واللعب على الحبال ... إلخ ، لكن دلوقت كبروا وموش محتاجين لها . الشركات عاملة زى منى بنتى ، مراهقة ولما بتكبر بتعقل ! ' .

- أكيد !

يبدو أن وحيد لم يفهم ماذا يخفى وراء الكلمات بالضبط ، فاستطرد الحاج : ' أنا قرئت عن بيلل جيتس وكان بيعمل إيه فى شبابه المتوحش علشان بينى مايكروسوفت ، والنهارده بقى صاحب أكبر مؤسسة خيرية فى العالم . أنا مقتنع بمبدأ الشركة الكبيرة ، وعلشان كده تحولت من بيزنسمان لمستثمر فى البورصة ' .

وحيد يقول إنه لا توجد كتب كثيرة مترجمة للعربية تشرح نظريات ' الكورية ' corporation على ألسنة منظريها ، ويقترح عليه قراءة كتاب ' المجتمع الجديد ' : ' ها تلقاه فى مكتبة النهضة ، له خمسين سنة مترجم والطبعة الأولى لسه ما خلصتت ! ' .

ويفاجأ وحيد بالإجابة الصاعقة : ' قرينه ! وقرين حاجات تاني لبيتر دراكر ، عميد علم الإدارة ، موش كده بتسموه برضه ! ' .

وقبل أن يأخذ وحيد الفرصة لاستيعاب الوزن الحقيقي للشخص الذى يجادته ، الذى يتجاوز مجرد أنه يملك أسهما في شركة للدواجن قيمتها عشرون مليوناً من الجنيهات ، تتوالى القذائف الثقيلة مع ظهور اللكنة الريفية وبدء الذراعين التحرك في مساحة أوسع مما هو معتاد لدى أهل المدن : ' إزاي الشركات تنشأ لتلبية احتياج مجتمعي وليس من أجل الربح ؟ صعبة الفهم ، موش كده ؟ ' .

- آه ، ده كلام طويل عريض ، والراجل قضى عمره يشرحه . يقصد أنه من غير حاجة مجتمعية لن تنشأ الشركات . الشركة تنشأ حين يرى أحد ما أن الناس في مكان ما في احتياج لخدمة ما أو لسلعة ما ، فينشئ شركة كى تصنعها أو توفرها إليهم . سأعطيك مثالا معاصرا ، أغنى الأغنياء اليوم كانوا مجرد طلبة صغار رأوا تلك الحاجة : شابان رأيا إمكانية أن تحتزل الحواسيب العملاقة لتوضع على كل نضد في كل مكتب وفي كل بيت ، فأسسوا مايكروسوفت وكتبوا الدوس لحساب آى بي إم . شابان رأيا أن الإنترنت يمكن أن تصبح خدمة معلوماتية جبارة لكل إنسان لو أعطى خريطة للمكان ، فصنعا ' شجرة ' ياهوو . شابان رأيا أن هذا لا يكفى وأن الأمر يحتاج لمحركات بحث ذكية دينامية ونشطة ، فصنعا جوجول . عن أى احتكار يتحدثون ؟ هل نسوا أن توماس واتسون رئيس آى بي إم الأشهر ، كانت كل نبوءاته أن الحاجة للحواسيب سوف تزداد بشدة ، بحيث سيصبح العالم في حاجة يوما لخمسة حواسيب أخرى !

- بدون قطع أفكارك ، كلامك ده إثبات في نفس الوقت لأن لا وجود لشيء اسمه احتكار ؛ بدليل أن في كل مرة طالبين قزمين صغيرين ، يقهران من سبقهما وأصبح بالفعل عملاق العماليق في غضون سنوات قليلة . آى بي إم لم تمنع ميلاد مايكروسوفت بل في الواقع هى التى ساعدت عليه . مايكروسوفت لم تمنع ميلاد ياهوو بل في الواقع لم تحاول أصلا ، وياهوو لم تستطع منع ميلاد جوجول وقد حاولت كل السبل ، وهلم جرا .

- رأى هايل يا حاج ! أنا شخصيا أعجب لمن يقيم الدنيا ويقعدها ضد وهم خيالى بالكامل لم ولن يوجد أبدا اسمه الاحتكار . روكيفيللر خفض أسعار الكيروسين إلى أن دمر كل منافسيه في حقل النفط فضلا عن سائر حقول زيوت الإضاءة الأخرى التقليدية الأقدم ، هذا هو أشهر مثال يضربه الديماجوجيون من اليسار وخلافه للاحتكار في التاريخ ، لكن أحدا لا يسأل ماذا فعل روكيفيللر بعد ذلك ؟ لقد واصل تخفيض الأسعار ، هل لأنه رجل خير أو ذو أخلاق رفيعة ؟ إطلاقا ، إنما ببساطة لأنه لو لم يفعل كان سينتهى هو نفسه وسيظهر من يقضى عليه ، ولم تكن لتجديه عملقته وانفراده بالسوق في شيء ساعتها ، ذلك أن قاعديا - كما اتفقنا - الشركات توجد لتلبية حاجة مجتمعية ، والربح ناتج ثانوى لمدى نجاحها في هذه الأولى . أبسط دليل أن قانون ' مكافحة التوائق ' في أميركا حبر على ورق لم يحدث وأن طبق أبدا في خلال فترات حكم الجمهوريين ، ولم يحدث أن قبلت به محكمة أبدا في الحالات التى عرض عليها خلال فترات حكم اليسار . أنا لست ضد الاحتكار . من يريد أن يحتكر فليحتكر ، إن استطاع ، والأرجح أن لن يستطيع . ما أردت قوله بخصوص كلام دراكر هو أن كلمة السر هى تلبية الحاجة المجتمعية ، من يراها هو وحده الذى يرى الذهب في الأكمة البعيدة . مع ذلك هذا الربح المذهل ما هو في كل مرة إلا أثر جانبي لا أكثر ، ومصدره وجود ذلك الاحتياج ، وإلا فشلت الشركة ، وطبعا ما أكثر ما فشل من شركات .

- مضبوط . ليس بالضرورة فقط الشركات الكبيرة أو التقنيات العالية أو المخترعات الضخمة التى ضربت بها المثل . إنما انظر لأبسط المحلات الصغيرة الناجحة في أية منطقة سكنية ، ستجد أنها تقدم خدمات بسيطة ، لكن مطلوبة جدا ، ولذا هى مستمرة . كل شيء تقريبا نشأ بهذه الطريقة . من لم القمامة من البيوت حتى توصيل الطلبات للمنازل . أغلب المشروعات الكبرى بدأت بأن ذهب أحدهم للمتجر فلم يجد الشيء الذى يرضيه ، فقرر أن يصنعه بنفسه ويبيعه هو للناس ؛ كلها في الأصل فكرة نشأت في دماغ شخص ما ، فبدأ يعرض خدمته على الناس فرحبوا بها .

- أيضا يمكن أن نضيف في حال الشركات المساهمة ، أن الربح ذاته هذا يعود للمجتمع في النهاية ، من حيث إن عموم المساهمين هم ملاك الأسهم ؛ دى أفكار دراكر ، تقدر تقول باختصار ، أو ربما اختصار مخل .

- لأ ، ممتاز ؛ بس أنا عاوز أقول حاجة قالكاني في موضوع الربح : خد كمثال مرقس ، اشتروا شركة مصر الجديدة ، وحاليا يبييعوها للشبكجى . تقدر تقول لهم بلاش كده ، عيب تجروا ورا مكسب حلو زى ده ، السعوديين ها يضاربوا بأسهم الشركة وأخرتها تخسر وتفلس ، لأنهم لن يهتموا بإدارتها أصلا ، ولا يعرفون كيف يديرونها ، أو بالكثير ها يكرروا إلى يقولوه دائما بعنجهيتهم الغبية المتوارثة المعتادة ، المهم الفلوس ، والمديرين حاجة ممكن تشتريها . أنا عارف إيه أهمية المديرين ، وقارئ دكتور ألفريد تشاندلر كويس . إنما فين الرؤية ، بالذات لو بتتكلم

عن شركة لسه ناشئة؟ لازم أنت صاحب المال يكون لك أنت نفسك رؤية، وبناء عليها تختار المديرين، وبعد كده لازم تفضل أنت فوقهم بنفسك إلى ما لا نهاية، ويا ما شركات كبيرة اتخارت بعد موت مؤسسها. الورثة بلا رؤية واعتمدوا على المديرين. آى بي إم نفسها كانت ها تضيع. المدير موش وظيفته يكون صاحب رؤية، هو إما يبيجى على رؤية موجودة فعلا، وإما لو غير موجودة، ييطبق خبرته هو السابقة نقلا ومحاكاة لشركة أخرى، وهذا لا جديد ولا رؤية فيه.

- بس خلاص! أنت كده حليتها! جايز تكون شرحت إالى دراكر ما عرفش يبسطه كويس: الشركة التى تسعى للربح تنتهى للإفلاس. الشركة لازم يكون لها نظرة مستقبلية بعيدة، وهى دى معنى الحاجة المجتمعية. طالما ظلمت ملتصقا بمفهوم أن شركتك يجب أن تظل تلبى حاجة مجتمعية ستظل ناجحا، بمجرد أن تبدأ فى التفكير فى مجرد الربح وتعظيم الربح ستفشل وتنهار. مايكروسوفت لما تيجى عندنا بتقول أنا جاية علشان أقعد ١٠٠ سنة. بتستثمر فى الويندوز العربى، تنشئه من الصفر، وتستثمر فى البرامج العربى، وفى التدريب، وفى بناء الكادرات، بخلاف طبعاً المختبرات، ومنافذ التوزيع. إالى يعمل كده، موش ممكن بعد شوية يبيع الشركة لأول مشترى. هو باصص للمكسب البعيد، لأنه باصص للحاجات المجتمعية، موش باصص لنفسه. بعبارة أخرى: انس الربح، وركز تفكيرك على الحاجات المجتمعية، وتأكد أنه سيأتيك الربح وفيرا ومن تلقاء نفسه!

- بس ده ما يمنعش أن فيه فى أميركا جزايرين للشركات، كيركوريان مثلا، يشتري الشركة من دول ويهداها ويبيعها فكة. وبعد شوية يدور على غيرها.

- وأنا قلت لأ؟؛ طبعا فيه! لكن لاحظ أنهم موش ها يلحقوا سوق لنفسهم، إلا لو كانت الشركات نفسها خسرانة وفاشلة. كيركوريان موش ها يشتري مايكروسوفت مثلا، أو يشتري إكسون موبيل. وهو ده إالى عاوزين نقوله فى إخواننا بتوع الربح السريع، أن بعد شوية الدنيا كلها ها تحرب، وموش ها يلاقوا حاجة يلعبوا عليها. ما هو الفارق بين الشركات الغربية العريقة العملاقة وبين شراء السعوديين لبنك الائتمان والتجارة؟ ليس الفارق فى الرقى الحضارى أو لون العينين، وليس الفارق أن هناك أناسا ذوى أخلاق وآخرين بلا أخلاق، وليس الفارق أن للرأسمالية مبادئ وأعراف مستقرة لا يخرج عليها أحد ولا نعرفها نحن؛ الفارق الأساس هو التفكير بعيد المدى: أنت تستثمر لتبنى شيئا يظل يتعاظم لعشرات أو مئات السنين، لا لخبطة فئات تافهة واحدة سريعة، اخطف واجرى تاركا خلفك الحطام!

- عارف، وجايز متعاطف أكثر منك! الربح الحقيقى لا يأتى إلا بالتفكير البعيد لقدام! العرب لا يعرفون إلا المضاربة والإسكان.

- العرب لا يعرفون سوى المضاربة. مشاريع الإسكان التى تنسب لهم لا يقومون بها بأموالهم. يأتون ويفوزون بالمشروع، ثم يتضح أن لا أموال لديهم ويبدأون الاقتراض من البنوك المصرية، وتضطر الحكومة للتساهل معهم حتى لا تحدث هزة بسحب المشاريع منهم، وهى نفسها التى أعطتها لهم. إنها أشبه بعملية نصب، بينما أموالهم موجودة فى المضاربة عبر العالم على الأسهم، وعلى إشعال أسعار البترول باستخدام عائدات البترول نفسها، وما إلى ذلك.

- ما قصدته بالإسكان هو الأفراد، وقصدت المضاربة أيضا. عندهم يبشترتوا العقارات موش علشان يسكنوا فيها، إنما علشان يبيعوها؟! لكن إزاي أنت موش ضد الاحتكار. عيلة الشبكيجى موجودة فى كل مجلس إدارة لكل شركة إسكان، حتى إالى لهم نسبة صغيرة من أسهمها، وكأنهم عاوزين يحطوا عين فى كل حطة.

- ده موش احتكار، ده فساد؛ اسمه تضارب مصالح. هذا لعب قدر، هدفه الوحيد أن يضمنوا سيلا لا ينقطع من الأخبار (أو بالأحرى الشائعات) المنتظمة التى ترفع أسعار الأسهم؛ أى احتكار، وهم لا يهمهم على وجه الإطلاق ماذا تبنى هذه الشركة أو تلك، أو حتى إن لم تكن تبنى شيئا على وجه الإطلاق.

ويتدخل ونس مؤمنا على الكلام بأن رأس المال جبان، فيصحح ضهرى بجدة: 'رأس المال البدوى بس هو الجبان. أنا أستطيع أن أذكر لك ألف اسم من رأس المال الشجاع جدا. كل رموز الصناعة والبيزنس الكبار عبر العالم وفى التاريخ هم أبطال مغامرين عميقى الرؤى، رأوا وراهنوا على ما رأى فيه الجميع حماقة وخرافة'. ويؤيده نبيل: 'له كلمة مخصوص بالإنجلش entrepreneur، معناها الحرفى المقاول أو المنفذ، لكن بتستخدم بمعنى من يقدم على بيزنس على المخاطر'. ويوافق ونس مغيرا الموضوع قليلا، شارحا أنه تلقى فى أول يوم إطلاقا له فى كلية الهندسة محاضرتين، واحدة فى هندسة الإنتاج والأخرى فى التصميم الهندسى، فوجئ بأن كليتهما تتحدثان عن ذات الشيء: التقييس

standardization . المسمار لما يتعمل منه مليون يطلع بجنيه ، لو عملت واحد ع المخرطة يكلف ١٠٠ جنيه . محطات القوى لما بتكبر بتزيد كفاءتها . هنرى فورد هو رائد الإنتاج الكبير . عربية وحيد بتاع سنة ١٩٤٩ إلى موش عاوز يستخدمها دى ، كانت نقطة تحول . موش لصناعة السيارات بس ، إنما جازيز لكل تاريخ الصناعة والعالم . العالم كان طالع من الحرب ، كان ممكن الشركة تفلس لو ما نجحتش . مفترق طرق ، إما تصبح السيارة سلعة كمالية ، أو سلعة للملايين . وفعلا بقت خبطة لا سابق لها . بعد كده تويوتا دخلت ، وبقت المنافسة أكبر ، وبعدين دخلت الفيات والبيتل والميني وغيره ، إنما فورد ١٩٤٩ هى نقطة التحول .

ويسخر زهرى : ' ولما أنت عندك كل المعلومات دى أخذت الكلية فى ١٠ سنين ليه ؟ ' .

- يا عم على قد حالنا . عندى المعلومات ، وعندى الفورد ١٩٤٩ لعبة صفيح لما كنت صغير . وحيد عنده الأصل نفسه . ها أنزل معاك الجراج يا وحيد يا بنى تفرجنى عليها . ماشى ؟

- بس سمى وأنت بتتكلم ! واوعى تحاول تركيبها بجسمك ده !

أما وحيد فيجتز الكلام السابق ، ويتساءل فى إعجاب : ' الشركات زى منى بنتى لما تكبر تعقل ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



إن طريقة كلامك تجعل الديناميات الحرارية تبدو كنوع من الفن فوق كونها علما !

البداية بين وحيد وونس كانت بالمثل ودية كثيرا ؛ وونس هو الذى بادر ليعرفه بنفسه ، ووجد موضوعا جيدا لبدء الحديث : كارثة سوق المناخ فى الكويت . كان يعلم أن وحيد عاش طويلا بالكويت ، وكذا كتب عن تلك الكارثة المالية ، فراح يعطيه المزيد من التفاصيل عن قرب ، لأنه أيضا سمع وعایش الكثير والكثير عنها خلال إقامته هو نفسه هناك . فى رمسيس فوجئ وحيد بأن كثيرين قرءوا سلسلة مقالاته تلك . هو لا يزال فخورا بها ، لكنه يشعر أن الناس حين تحدثة عنها تواسيه وكأنها كانت فضيحة . أما وحيد فقال لونس المهندس الميكاني ، إنه طالما ولع بالديناميات الحرارية ، وقال إن بما معظم الإشكاليات التى اهتم بها الفلاسفة والفلسفة . قال إنه آمن بالإمبريالية والجلوبة وتوحيد العالم بفضل الديناميات الحرارية . لقد تحول قانونها القائل بأنه كلما كبر النظام كلما زادت كفاءته ، إلى قناعة عمومية جامعة فى داخله ، يطبقها على كل مناحى الحياة ، وليس حتى الاقتصاد فقط . قال إنه تأثر بالمثل بالمبدأ الهندسى المسمى فيها بشرط الحالة الثابتة steady state condition فى التنبؤ بمجريات الاقتصاد والسياسة والمجتمع ؛ حيث يمكن أن تسبق لتخيل المستقبل على المجرى البعيد بناء على توازن القوى والعوامل المختلفة الحالية حتى وإن بدت الصورة مضطربة ظاهريا والطرف الضعيف أو المتخلف منتصرا أو محققا بعض الانجازات . وعدد الأمثلة قائلا إن عبمعصور أفلت بسرقة القناة ، لكنه لقي أشد العقاب بعد ١١ سنة . الأسد قلده فى لبنان ، وصادم قلده فى الكويت ، البشير قلده فى الجنوب ودارفور وكل مكان ، وإيران قلده ببرنامجه النووى ، ولم ينجل أى منهم من القول صراحة وعلى لسان أعلى رأس سياسى لديه ، أنهم درسوا معادلات القوى الدولية ووجدوها شبيهة بما قدره عبمعصور سنة ١٩٥٦ . هكذا يذكرونه هو والقناة بالاسم ، لكن بعد قليل يلقون أيضا أشد العقابات مثله . لماذا ؟ لأنهم خدعوا أنفسهم بلحظة وقتية مضللة بدا لهم فيها الطرف الآخر ضعيفا أو مرتبكا ، ولم ينظروا لـ SSC ، ضعفهم المؤبد والقوة الحقيقية للطرف الآخر ، والتى لا بد معا وأن تفرض توازناهما يوما !

من رأى وحيد أيضا أن مفهوم الاستثمار على المجرى البعيد ، أو توقع نتيجة حرب ما مثلا ، يمكن أن يستفيد كثيرا من مبادئ الديناميات الحرارية . ورد وونس أن الهندسة والاقتصاد هما ككل أبناء عمومة ؛ لأنهما منشغلان بهاجس الكفاءة وحسن استغلال الموارد ، أى خفض التكاليف وتعظيم الناتج . ويبدى وونس إعجابا -أو بالأحرى تعجبا- شديدا حين يقول له وحيد إنه طبع القانون الثانى للديناميات الحرارية على ورقة مقواة ، ووضعها فى إطار علقه فوق مكتبه ، ويعلق قائلا : ' إن طريقة كلامك تجعل الديناميات الحرارية تبدو كنوع من الفن فوق كونها علما ! ' .



ليس للسكان الأصليين ممن تصادف ظهور البترول فى منطقتهم ، أى فضل أو حق فيه !

المناقشة التالية التى تكن على نفس المستوى من الاتفاق ، جاءت حين قال وونس إنهم فى بلاد الخليج سبقونا إلى الرأسمالية . قال وحيد إنه إذا كنت تقصد المقارنة مع ريجيم عبمعصور فعندك حق ، لا يوجد مجال للمقارنة بينهم كاققتصاد مختلف وبين لص صريح كعبمعصور يسرق كل

شيء تطاله يده . مثل هذا السلوك الإجرامى لم يبرز عندهم على نحو خطير سوى مرة واحدة حين قطعوا البترول عن الغرب سنة ١٩٧٣ . فظريا وأخلاقيا البترول ملك من اخترعوا الماكينات والأجهزة التى جعلت له قيمة . كل بترول العالم ، أو على الأقل نسبة كبيرة منه ، هى حق لمبتكرى محركات الاحتراق الداخلى أو الكهرباء ، زى أوتو أو رودولف ديزل وورثتهم ، أو إديسون وورثته . القيمة المضافة أنت من الاختراعات ، وقبلها لم يكن لباطن الأرض أى ريع .

ويتدخل ضهرى ساخرا : ' وبالتالى فحم العالم ملك جورج ستيفنسون وعائلته التى ورثته ؟ ! ' .

ويرد وحيد دون أن يتخلى عن جديته : ' يعنى ! وإن كان للفحم برضه استخدامات لم تكن تحتاج لاختراع المحركات . إنما البترول كان يسمى بروت الأرض ، ظهوره فيها ينكبها ويفسد للأبد فرصة استخدامها فى الزراعة . إلى أن جاء الأميركيون يطلبونه من الملك عبد العزيز ، لم يكن يعرف ما هى فائدته أصلا . يا حاج ، ليس للسكان الأصليين ممن تصادف ظهور البترول فى منطقتهم ، أى فضل أو حق فيه ! ' .

ويسأل نبيل : ' أنت إذن لا تعتبر البدو الرحل سكانا أصليين indigenous people أو قاطنين أصليين indigenous inhabitants ؟ ' .

- السكان الأصليين ؟ (فى لحظة يغير ضهرى رأيه مائة وثمانين درجة :) فعلا عندك حق ! أنا برضه من أنصار نظرية الأرض لمن يستعمرها ! العرب عندهم أرض قد إسرائيل ألف مرة ، وما بيعملوش بها حاجة . لا قيمة للشاى والكاكاو بدون توماس لبيتون وچورج كادبورى ، ولا قيمة للفحم والبترول بدون ستيفنسون ووات وأوتو وديزل وإديسون . إن من البلطجة المحضة بعد ذلك طرد هؤلاء باسم السيادة والاستقلال ، وترك الموارد تنهب من جانب أقلية فاسدة محرضة تسمى الحكام القوميين ، ومن ثم -باعتبارها موارد ناضبة- تخسرنا البشرية المتقدمة للأبد ، أو على الأقل تركها تذوى تحرب وتنهار على المجرى الطويل ، أو تصبح سببا ووقودا معا للحروب الأهلية والإقليمية . أسألنى أنا ! هذا ما آل إليه حال الزراعة وكل شيء فى بلادنا بعد الاستقلال . لا أعتقد أنى أخالفك كثيرا .

ويسخر ونس : ' أنتم ها توهونا ليه ؟ الثروة والسلطة فى الجزيرة العربية كانت ملك اليهود وطردهم الإسلام ، ولو فيه أى جدال حولين البترول يكون بين اليهود والغرب ؛ العرب بره الموضوع أساسا ! ' .



كما أن الشيوعية أخذت فرصتها كاملة وثبت فشلها ،

استقلال الشعوب أخذ أيضا فرصته كاملة وثبت فشله !

وحيد الذى تعود العيش فى بيئة قريية منه وشديدة التفهم فكريا ، وفى نفس الوقت الذى لا يعرف ما سينتظره من خلافات وشيكة مع الجميع فى هذه القاعة ، ومنهم ونس بالذات ، كان المفروض أن يكون موقفه مختلفا من ذلك التأييد الفكرى السخى شبه المجانى من ضهرى . ما حدث هو أن فعل ما اعتاده ، تجاهله ببساطة ، ليس لنقص فى التهذيب لديه ، إنما لاعتقاده أن الكل مهتم مثله بفحوى المناقشة ، لا للمجاملات . وعاد لونس وإن بلهجة أقل خيالية : ' أنت تقول عن دول الخليج إنها اقتصادات رأسمالية . هذا ليس صحيحا ؛ إنها اشتراكية ريعية -أى قائمة على ريع الأرض : البترول ' . ثم راح يشرح له -دون قبول كبير من هذا الأخير ، لا لهذه ولا لما قبلها- أن كلمة رأسمالية تعنى المنافسة بالضرورة ، وهذا لا وجود له فى كل المنطقة . دور الدولة فى الاقتصاد كبير جدا فى كل هذه الدول . وهذا لا يمكن أن يسمى رأسمالية .

لكن ضهرى يعود لتكرار فكرته التى يراها مؤيدة لكلام وحيد رغم عدم اهتمام هذا الأخير بها : ' كيف لا يرى هؤلاء القضايات القيمة المضافة الهائلة فى مجرد تمثّل الرأسمالى لشكل ووظيفة الشركة والخدمة أو المنتج الذى ستقدمه ؟ الاختراع هو قيمة مضافة . الأفكار هى أهم القيم المضافة ' .

- بالظبط يا حاج ! هذه آراء متقدمة جدا وأؤيدك فيها . كما أن الشيوعية أخذت فرصتها كاملة وثبت فشلها ، استقلال الشعوب أخذ أيضا فرصته كاملة وثبت فشله ! الشيوعية امتلكت القنابل النووية وسفن الفضاء لكنها انهارت من جوع البطون ، كل الشعوب أصبحت تحكم نفسها فلم ترث سوى الفقر والفساد والمزيد من التخلف .

- الأدهى أن ترد التهمة : الغرب تقدم لأن لديه موارد طبيعية ، ونحن تخلفنا لأنه نخب ما لدينا من موارد طبيعية . يغيظني أن يفسر هؤلاء كل شيء بالموارد الطبيعية . يقولون لك إن أميركا أصبحت قادرة فائقة super power ، لكونها قارة حديثة الاكتشاف هائلة الموارد . هذا غير صحيح . الولايات المتحدة ليست أكبر ولا أثرى موارد من كندا أو البرازيل ، وانظر حالهما . بالمثل اليابان ليست لديها موارد ولا حتى ماء أو أرض أكثر من الأنبار ، لكن سنة العراق لا يعرفون أسلوبا للحياة غير مص الدماء ، الإغارة على الشعوب المجاورة وحكمها ونهب مواردها . التقنية هي التي صنعت روما وصنعت بريطانيا العظمى وصنعت أميركا . لماذا أميركا أغنى وأقوى دولة في العالم ؟ لماذا من الطبيعي أن تسير كل الشعوب في ركابها بلا رفض أو مقاومة (أو ما يسمونه اليوم على سبيل التذليل الممانعة !) .



ما اسمهاش مقاومة ، اسمها مقاومة ؛

ما اسمهاش ممانعة ، اسمها ملاوعة !

- ما اسمهاش مقاومة ، اسمها مقاومة ؛ ما اسمهاش ممانعة ، اسمها ملاوعة ! مقاومة وملاوعة موش هي أسماء الدلع . بالعكس ، هي الأصل والباقي قصر دليل يا أزعر . زمان كان اسمها الصمود والتصدي والردع وما أخذ بالقوة ، وكلام تخين أوى ، وحين انحطت أدواتهم للحضيض وتلاشت الجيوش وباتوا مجرد عصابات تمولها فلوس الاتحاد السوفييتي وليبيا وصدام ، أصبحت مقاومة ومن هنا جاء اسم الدلع ' مقاومة ' . لكن عندما أصبحت إيران هي الممول طلبت التحول لاسم أكثر فارسية ، فباتوا يدلعونها بأسماء مثل الممانعة والتمنع ولوى البوز ، بينما هي م الأول للآخر -من ناصر لحماس- ملاوعة (جازي كلمة فارسية برضه -لا أعلم !) : لا أحد لديه رؤية غير أن يقول لا . ارفع رأسك يا أخي ، علشان ما تقرفناش وإحنا بنقطعها لك ، والملاوعة تبوظ !

- (غير مهتم بالمقاطعة :) لماذا اكتسبت أميركا هذه المكانة المستحقة ؟ لماذا يتودد الكل لها هي بالذات ؟ لحاجته للتقنية . لطالما أقول التقنية هي الخير الأعظم في الكون . هل تعرف لماذا ؟ لأنها ببساطة (ومنذ اختراع العجلة حتى نهاية الزمان) ، هي الشيء الذي يجعلك أكثر قوة ! ويجعلك هذه لا أقصد بما الإنسان بالذات . الإنسان لا يمثل أية مرجعية عندي ، ولا يهمني رأيه . باختصار : المهم التقنية !

- المهم الجيبيات !

- عفوا ، ماذا قلت ؟

- لا تشغل بالك ! هذا موضوع يطول النقاش فيه ، ومحتاج قعدة مخصوص . كل ما أستطيع قوله الآن إن الشعوب المتخلفة تفكر في التقنية تماما مثل الشعوب المتقدمة . الفارق أن أول شيء يفكر فيه أى شعب متخلف استقل ليس جوعه وتخلفه إنما امتلاك القبلة النووية . دعنا نؤجل حديث الجيبيات هذا ليوم آخر . النهارده ورانا شغل كثير أنا وأنت . أنا أجرى تنويع على محفظتي من حين لآخر ، ليس كل شيء دواجن ، وأقترح عليك أن تفعل ذات الشيء ، ولو بجزء صغير . ليس دستورا أن يكون كل شيء كيوبيد ، لماذا إذن تأتي كل يوم ؟ مجرد أن تتصح الناس ؟ أعتقد أن هذا الأسبوع آخر فرصة لنا لشراء بعض أسهم شركات الإسمنت قبل أن تنتهي السنة وتعلن ميزانيتها الممتازة كما نتوقع . سنطلع على ما سجلته في حاسوبك من أحدث أرباح الشركات المختلفة عن فترة التسعة شهور ومكررات سعر السهم / الربح لها . أنا أيضا لدى بعض المعلومات عن أوضاع بعض شركات بعينها وتوسعاتها المستقبلية ، ربما تفيدنا !

... المؤكد بعد هذا اليوم ، هو ذلك الانطباع القوي بأن النقاشات في أغلب الأحوال ستصبح ثنائية بين هذين الرجلين . ربما يستمع لها

الباقون لكن قليلا ما سيتدخلون . إن اهتماماتها تختلف بلا شك عن اهتمامات الجميع !



إن عرفت سرها أصبحت مليونيرا في شهر واحد

المناقشة الثالثة بين وحيد وونس كانت صداما سافرا . إذا كان من شيء آخر يميز وونس فهو أنه قاذفة سريعة الطلقات في إسداء النصائح لجميع الحاضرين ، مضفيا على نصائحه المزيد من الوقار بإضافة كلمة يا ابني ويا بنتي ، ومؤكدا أنها كلها -أى النصائح- لوجه الله . السبب متداول اسمه رزق ، أحد أصدقاء ثلاثة شبان هم أسد وعارف وهو ، قرر بناء على نصيحة من وونس وضع معظم أمواله على سهم لشركة أقطان ، كان

ونس شديد الحماس له ، لأنه 'يجرى بسرعة' . وحين يجرى سهم ، يعنى أن يجرى ونس نفسه وراءه ، ويلج بمطرقة نصائحه على الجميع للجرى وراء الفرصة الثمينة . فى رأى وحيد أن شراء الأسهم بسعر عال غير حقيقى ، بالذات لو كان الأمر برمته مضاربة على أسهم ورقية لا قيمة حقيقية لها ، سوف يورثك خسارة جسيمة ، وعضده ضهرى مشبها تلك الأسهم بالجلد المحروق ينتفخ بالماء ثم ينفجر ويموت .

هنا رد ونس ، الذى يؤمن إيمانا أعمى بهذا التحليل التقانى ؛ أى التنبؤ القائم على متابعة حركة أسعار الأسهم فى الفترة الأخيرة ، قائلا هذا ما يقوله التحليل التقانى . طالما تجاوز السهم ١٩ جنيها و٦٣ قرشا ، فسيصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا . وينطلق وحيد : ' يا للهراء البائس ! كيف تحددون الأمور على هذا النحو ؟ وبالقرش ؟ عن أى نقاط دعم ومقاومة تتحدثون ؟ كيف حسبتموها ؟ مر بها السهم قبل سنة ؟ تمدون الخطوط على استقامتها ، من قال إن الخطوط ستسير على استقامتها ؟ إن خبرا واحدا حقيقيا يخص الشركة يكسر عشر نقاط دعم أو مقاومة فى نصف ساعة ، فما قيمة التحليل التقانى أصلا ؟ أقصى فائدة ممكنة للتحليل التقانى أن تحدد ساعة البيع والشراء ما بين اليوم وغدا مثلا ، بينما أنتم تحددون به السهم نفسه الذى تشترونه ، مهما كان باهظ الثمن من حيث مكبرات الربحية والقيمة الحقيقية للشركة . أنتم تعاملون الأسهم كورق كوتشينة ، وكأنه لا يوجد خلف السهم شركة على الأرض ، بآلات وعمال وإدارة ومشاكل ومزايا ومبيعات وتصدير وميزانيات وتحديات ، وغيرها من الأمور التى هى مادة ما يسمى بالتحليل القاعدى . باختصار : التحليل التقانى عبودية للماضى ، والتحليل القاعدى تطلع للمستقبل ' .

ثم بإسهاب غير مجد ، حاول وحيد إفهامه أن من الخطر الاعتماد على التحليل التقانى ، وأنه لا ينطبق على الأسواق غير الناضجة ، أو فى قول آخر الضحلة ، أى التى يمكنك جرف سهم بكامله لأعلى أو لأسفل بمائة ألف جنيه مثلا . أعطى مائة مليون جنيها وسأكسر لك أية قاعدة للتحليل التقانى تخطر لك ببال فى أى سهم يخطر لك ببال ، بل حتى لكل الأسهم المضاربة مجتمعة . هو منطقى فى أميركا وما شابهها من أسواق ، حيث الأسهم تتداول بمئات الملايين يوميا ، وتتذبذب تذبذبا طفيفا ، و... (وهو الأهم) حول سعرها الصحيح ؛ أى أن لا وجود للشائعات ولا حتى للأخبار الصحيحة ('المادية' أو الجوهرية كما تسمى) ، وبداهة تتداول بواسطة جمهور لديه الحد الأدنى من الوعى بقيمة السهم الحقيقية . هذا مع ملاحظة أن العقيدة السائدة بين المستثمرين ككل هناك ، هى أنه لا يصح أن تشتري سهما لشركة لم تشتغل فيها أنت شخصا (!) ، أو على الأقل اشتغلت فى شركة فى ذات القطاع . حتى فى ظل كل هذا لا يجروء شخص واحد هناك على تسمية التحليل التقانى علما ، فى أقصى تقدير الملوعون جدا به يسمونه فنا .

كل هذا الكلام ذهب هباء ، ليس فقط لأن ونس لم يقتنع به ، وليس لأن رزقا لم يقتنع به ووسط حماس هائل منه وإثارة كبيرة من كل الحاضرين حول كل نقوده لسهم الأقطان ، إنما لأن معظم الحاضرين ، وهم بطبعهم ممن يأتون يوميا بهدف التداول اليومي الكثيف ، لم يقتنعوا أيضا . فكلمة ' تحليل فنى ' كما يسمونها أو يسمعوها فى محطات التليفزيون ، أشبه بتميمة سحرية ، إن عرفت سرها أصبحت مليونيرا فى شهر واحد !

- يا حاج ، منحنى إليليوت بيقول لك بيع سهم الدواجن دلوقت .

لكن وحيدا مرة أخرى كان من انبرى للرد : ' لا تقول لى إليليوت ولا أويلر . الراجل مستثمر فى السهم ، وموش ها يبيعه ' .

- أويلر ؟

وطبعا كانت البداية لمعركة كلامية عنيفة أخرى بيت الاثنين ، كلها حول التحليل التقانى ، لدرجة أن لم يعلق حتى خلالها ونس على معرفة وحيد هذه ، بإحدى المعادلات المهمة من دنيا الهندسة .



دول ٥ مليون مستثمر بـ ٥ مليون دماغ

من ناحية أخرى يعتقد ونس دائما أن كل ما يتم فى البورصة مدبر . لو ارتفعت الأسعار يسميها ' طلعة تسليك ' ، ذلك أن ' هو ' عاوز يبيع ؛ بمعنى أنه يضحى بشراء كمية أخرى حتى ترتفع الأسعار فيبيع الكمية الرئيسة عند المستويات الجديدة . ولو هبطت يقول : ' هو ' نازل علشان يلم ' ، أى يضحى بجزء يبيعا كى يشتري كمية أكبر بسعر أرخص . ووحيد يعلق : ' إالى عاوز يتلم هو أنت يا مستر مؤامرة . نفسى مرة أعرف مين هو ' هو ' ده إالى بتتكلم عنه ؟ ' . مرة يرد ونس قائلا : ' هو يعنى أصحاب الشركة ' ، ومرة يقول : ' هو يعنى المضارب إالى

ماسك السهم ، ومرة يقول : ' هو يعنى المؤسسات كالمحافظ الكبيرة وصناديق الاستثمار ' ، ومرة يقول : ' هو يعنى ' هو ' لا أكثر ولا أقل ' ، ومرة لا يرد على وجه الإطلاق .

وفي كل مرة يحاول وحيد أن يشرح : ' أولاً فيما يخص أصحاب الشركات : هل تفتكر واحد زى أحمد عز أو فريد خميس أو أبو العينين أو أى صاحب شركة كبيرة قاعد بيتابع سعر السهم دقيقة بدقيقة زيك ؟ ده بس علشان أنت بتعمل كده بيتهياً لك أن كل الناس بتعمل زيك وتفكر زيك ؛ بيسموه فى علم النفس إسقاط ' .

- طلعتنى مريض حضرتك ؟ ! ثم أن مرقس فلوسه سخنة ما بيقعدش فى شركة أكثر من ٥ سنين ، وأكد عينه على شاشة البورصة طول الوقت .

- مرقس ده شيوعى معاه شوية فلوس ، ودى حاجة تختلف عن الرأسمالية بالكامل . إالى بأتكلم عليهم ناس وراها أشغال تانية تشغلها ٢٤ ساعة فى اليوم ، وراها شركة تديرها كلها مشاكل ومجهد . وجايز يمر شهر أو شهرين على رئيس أى شركة منهم قبل ما يفتكر أن شركته لها حاجة اسمها أسهم ، ويسأل أحد مساعديه السهم بتاعنا بكام دلوقت . كل علاقتهم بالمستثمرين تنحصر يوم يحتاجون إليهم للتمويل ، أى لاكتتاب لزيادة رأس المال . عدا ذلك فقسم شئون المستثمرين هو أطفه قسم إطلاقاً من حيث الأهمية فى أية شركة جادة ، كل وظيفته تنحصر فى إعلان الميزانية أو إرسال الأخبار المهمة للبورصة فى مواعيدها الصحيحة . جايز زمان كانت لهم شغل يومى ، لما كان فيه صكوك ونقل ملكية وحاجات زى دى ، النهارده عبارة عن موظف واحد قاعد فاضى معظم السنة ، إلا أسبوع يجهد فيه للجمعية العمومية . الطبيعى أن على الإدارة أن تهتم بصميم شغلها نفسه ، النسيج ، الحديد ، الاتصالات ، أيا ما كان . أما سعر السهم فى السوق ، فهو نوع من الديمقراطية ، رأى الدهماء فى الشركة ، تصويت حر بين إالى يفهم وإلى ما يفهمش . بالذات إذا كانت السوق غير ناضجة كأسواقنا وكلها تتحكم فيها العواطف والإشاعات وعقلية القطيع . هذا عن أصحاب الشركات ، أولاً .

- (ملاحظا أن الكل بدأ يقرب كبير خبراء رمسيس وقد أصبح فجأة تلميذا يتلقى درسا :) هو فيه ثانيا ؟

- ثانيا عن المضاربين الكبار . هم موجودون صحيح ، لكن على أسهم معينة - الأسهم الصغيرة غالباً - وكأشخاص معروفين بالاسم . ده جزء بسيط من البورصة ، وموش لازم كل حاجة مدبرة ، أغلب الحاجات - النسبة الكاسحة - مجرد عرض وطلب . الأهم أنك موش ها تكسب حاجة من الجرى وراهم . قرار البيع والشرا عند أى واحد منهم ما تعرفهوش حتى مرآته . جايز ما يعرفهوش حتى هو نفسه ، ويعن له فى لحظة ما . فى كل الأحوال هو المستفيد الوحيد . لو اشتريت بعده ، فقد اشتريت بسعر مرتفع ، ولو انتظرت حتى يبدأ البيع فقد بعت بسعر منخفض ، وفى كل الأحوال أنت لا تعرف كيف تأخذ القرار ، فالسهم ربما سيواصل الصعود ، ولا أحد يعرف بالضبط متى يعرف سيعكس اتجاهه . لا أحد يعرف كما قلت لك . هو قرار سرى يتخذه فرد واحد معين وينفذه فى لحظة ، بعدها يكون الأوان قد فات .

- (وقد بدأ البعض يتجمعون واقفين حولهما :) ثالثاً ؟

- ثالثاً ، بالنسبة للمؤسسات يا ريت تفهم أن دول موش ناس قاعدين على تيرمينال تنفيذ بيحروا ورا سعر السهم بيع وشرا زيك . القرار عندهم بياخذ أسابيع لغاية ما يتأخذ . ولما بيتنفذ بيحفظوا بالأسهم شهر أو سنين ، موش يوم أو يومين أو حتى ٥ دقائق زيك . حتى المؤسسات دى بتختلف تقييماتها عن بعضها البعض ، وتلقى واحدة بتبيع سهم معين وواحدة بتشتري نفس السهم ؛ لأن كل واحدة لها حساباتها . شىء ممتاز أنك تحاول تستنتج المؤسسات بتعمل إيه ؛ لأنك بكده بتكون استفدت بنتيجة دراسات مطولة ومكلفة قاموا بيها . بس تأكد أنهم ليسوا هم هذا الـ ' هو ' ، ذلك العفريت إالى بتتكلم عنه وإلى بيطلع وينزل الأسعار كل ثانية بناء على خطة محكمة ومرسومة سلفاً ، دائماً ما تكون أنت ضحيتها .

- (معلنا هزيمته بطريقة ساخرة :) أفادكم الله !

- زى ما قلت لك أغلب الحاجات مجرد عرض وطلب . دول ٥ مليون مستثمر بـ ٥ مليون دماغ ، كل واحد يفكر بطريقة مختلفة ومخه رايح لحنة مختلفة ، والطلوع والنزول محصلة تفكيرهم . ولو كلهم عقل واحد لربما ما تذبذبت أسعار الأسهم مطلقاً ، أو نظرياً لما تمت فى البورصة عملية بيع أو شراء واحدة ، فالمرجح لو اتفقوا جميعاً على أنه مريح لن يبيعه أحد ، والخاسر لو اتفقوا جميعاً على أنه خاسر لن يشتريه أحد .

- حلوة الفكرة دى ! أنا فكرت فيها بطريقة تانية . لو كلنا عرفنا المستقبل موش ها تتم ولا صفقة واحدة ، السهم الكويس ما حدش ها يبيعه والسهم الوحش ما حدش ها يشتريه !

- أهو أنت كده على طول ، عايش فى التمنيات !

ويغنى ونس عن الذى ضيع مستقبل حياته ، أو ضحى بعنائه هباء ، أو : ' راح ! راح ! راح ! خد مالى وراح ! ' .
ويكايده ضهرى بالريت عليه : ' آخر الأحزان إن شاء الله ! ' .

الأسوأ من هذا الوضع ، أنه لم يستمر . كل مرة يتحول نقاش وحيد وونس إلى مشادة أعنف من سابقتها ، ويحاول ونس رد الصاع صاعين . ذات مرة حاول وحيد أن يقدم للحاضرين تصنيفا لأسهم الشركات حسب قيمة هذه الشركات نفسها . بدأ بالقول إن القرار الاستثمارى يبدأ بالسؤال عن أحوال الاقتصاد العالمى ، وأقله السؤال من يحكم أميركا ، هل اليمين المؤمن بالاقتصاد الحر ، أم اليسار الذى يثقل كاهل البيزنس بالضرائب . ثم تنتقل للسؤال عن اقتصاد مصر ، وأقله السؤال عن المؤشرات الرئيسة كالنمو السنوى ومعدلات الفائدة ونسب التضخم . ثم تنتقل لاختيار أفضل القطاعات للاستثمار . قدرة القطاع التصديرية . آفاق كل القطاع ومستقبله . ثم أخيرا تختار أفضل شركات القطاع ، بتاريخها وأسماء مديريها وقوائم ميزانياتها ، ومن هذه الأخيرة مكرر سعر السهم بالنسبة لربحيته . ثم بعد هذا كله يمكنك مجازا استخدام التحليل التقانى لانتظار دورة الهبوط القادمة لتشتري السهم بسعر أقل قليلا . هذا الكلام كان ترجمته العملية قائمة أعدها وحيد على الحاسوب ، بما موجز لتقييمه لأفضل الشركات مرتبا طبقا لتلك المعايير ، وأيضا أتى بها مطبوعة كى توضع تحت زجاج المنضدة يطلع عليها من شاء . هاتان -القائمة البيضاء والقائمة السوداء- لم تأتيا على مزاج ونس على وجه الإطلاق ، إذ اكتشف أن كل الأسهم التى يشتغل عليها قد صنفها وحيد كمجرد ' ورق ' ، أى لا قيمة حقيقية لها على الأرض .

- كلام غريب أوى ! السهم الكويس هو إالى سعره بيطلع . ما يهمنى هو الربح !

- لكن هل تريح فعلا ؟

- ثم إزاي يعنى الشركة ما تهتمش بسعر سهمها ؟ قصدك مين إالى بيهتموا بسعر السهم ؟ الصعايدة ؟

- الصعايدة مين ؟

- موش عارف مين الصعايدة ، وقاعد تدينا محاضرات فى البورصة ؟ الصعايدة هم العرب !

- أيوه ، العرب بالذات من الناس إالى بيدخلوا فى الأسهم مضاربة لا أكثر ولا أقل . البنوك عندنا قوية وناجحة . أغلب شركات الصناعة بالمثل . بتصدر الصلب والإسمنت والسجاد وبلاط الأرضيات وحاجات تانى كتير لكل العالم ، العالم إالى لا يعرف مجاملة ولا رشاوى . دى أسعار أسهمها عادية أو حتى رخيصة . إالى متضخم أسعار شركات الإسكان إالى شغالة بنظرية اخطف واجرى ، ويا ريت بتطلع مكاسب لحملة الأسهم ، إنما الميزانية حمرا . وعليك تتخيل مجلس الإدارة بيودى الأرباح فى ، أو جازي فعلا ما فيش أرباح وماحدش فاضى لغير المضاربة بما كأسهم . ثانيا شركات النسيج ، الصناعة المصرية العريقة إالى بتدهور يوم بعد يوم ، لأن المشترين الجدد شايفين الوظيفة الوحيدة لإنشاء وامتلاك الشركات ، هى المضاربة بأسهمها فى البورصة ، ويوم ما تفلس تتباع كأراضى ، وهو عين المنى بالنسبة لهم .

- بلاش ظلم ! أنا اشتغلت ١١ سنة مع العرب ، ما اتسرقتش زى ما اتسقرت هنا فى مصر !

ويتدخل ضهرى لتحويل الأمر إلى مزاح : ' لأنك حرامى خايب تقدر على الحرامية الأعراب ، لكن فى مصر ما تمشيش ؟ ' .

لا يزل وحيد جادا : ' إن كنت سرقتهم فعلا ، أهم بيعوضوا دلوقت . ومن جييك هو نفسه . الأسعار دى لما تعلو ها يبيعوا ويمشوا ، وها يسيبوا لك شوية ورق ! ' .



رامى أو روميو ، الزميل الثابت لونس على ذلك المكتب الصغير في مؤخرة القاعة ، هو ذلك الشخص الذى اعتاد ارتداء القمصان زاهية الألوان مفتوحة الصدر حتى وهو يرتدى چاكتيات فوقها في فصل الشتاء . ربما لو حكى لك واحد -أو واحدة- عن مغامراته العاطفية ، لتصورته مودبلا قد خرج من إعلان لكالفين كلاين . لكن الحقيقة أنه أبعد ما يكون عن هذا . لا هو طويل ولا قصير ، لا هو قوى ولا نحيل ، لا هو أبيض ولا أسمر ، لا شيء ملفت في ملامح وجهه . حتى لو رأته عاريا ، لما لحظت فيه شيئا مميذا أو شديد الإلفات ! نعم هو يهتم بمظهره وأناقته ويتسريحات شعره وكل ما إلى ذلك ، لكن ليس بما يختلف كثيرا عن هؤلاء الآلاف الذين يمكن أن تقابلهم يوميا في الشارع . باختصار من حيث المظهر هو شخص متوسط وعادى لمدى يختلف تماما عما يمكن أن تسمعه عنه من أوصاف يحملها الراوى عادة بكلمة العاشق المثالى .

اكتسب روميو ذلك الموقع في الصف الخلفى لأنه أحد الشخصيات العريقة في رمسيس ، وهو محنك بالفعل في التداول اليومي . في الواقع وطيلة سنوات عمر الشركة باستثناء ما اعتكف منه فيه أو هجرها إلى السى آى بي ، كان روميو هو المختص بالجلوس أمام حاسوب المعلومات اللحظية (لم يكن البروجيكتور قد ركب بعد) . كان المكتب في نفس المكان تقريبا لكن مواجهها للحائط الجانبي للقاعة ، وكان يجلس هو إليه ، أمام الحاسوب بالضبط ، وبقيّة العملاء متحلقين حوله جلوسا أو وقوفا . حين جاء نونس كان أول من ينازع روميو مكانته هذه . بعد أسبوع واحد فقط من قدومه ، وبمجرد أن فهم كيف تسير الأمور ، جاء مبكرا يوما ، وجلس إلى المقعد الذى كان يشغله روميو عادة . وبتكرار حيلة الأمر الواقع ، الحضور المبكر يوما بعد يوم ، زائد عقد صفقة مع إدوارد أن يدور محفظته الصغيرة عدة مرات شهريا ، بحيث يعاد حساب العمولة آخر الشهر ليصبح ٤ في الألف بدلا من ٥ المعتادة إذا ما تجاوز مجموع العمليات نصف مليون جنيها ، دب اليأس في روميو ورضى بالجلوس على كرسى الوصيف ، أو ' التباع ' أو ' العطشجى ' ، كما اعتادا منابذة بعضهما البعض . حين أدخل إدوارد البروجيكتور سنة ٢٠٠٥ بعد سلسلة الاكتتابات التى جلبت الكثير من صغار المستثمرين الجدد ، لا سيما الأخير منها ، اكتتاب ' المصرية للاتصالات ' ، تراجع المكتب لركن القاعة الخلفى . أصبح إلى الطرف الآخر من الحائط الذى تبث له الصورة ، مواجهها له وللطرفة الجانبية التى تأتى بالقادمين من الباب الخارجى . أصبح نونس يجلس في الركن تماما ، ومن ثم لا يكف روميو عن الشكوى من ضخامة جسده ، وأنه لا يرى شاشة الحاسوب جيدا من كثرة إزاحته له بعيدا عن المكتب .

أيضا هما -كما أغلب الجميع- اعتادا المراهنة فيما بينهما . نونس توقع صعود أسهم الصلب ، فتحدها رامى أن يحدث العكس ، وأنه سوف يهبط إلى ٥٢ جنيها . لم يرض نونس بالهزيمة ، فراهن على تلك السيارة مقابل علبة سجائر لو هبط إلى ٥٠ جنيها ، وخسر . فراهن على العلبة مقابل ' خرطوشة ' لو هبط إلى ٤٨ جنيها ، وخسر . ثم راهن على الخرطوشة مقابل كرتونة ، وخسر . بعدها رفض روميو الاستمرار قائلا : ' الرهان التالى سيكون على شركة فيليب موريس نفسها ! أنا أريد سجائرى ، وسأخذها واحدة واحدة رحمة بك ، وسأرضى بسجائرك المصرية الرخيصة ! ' . لم يكن في الاقتراح أية رحمة من أى نوع ؛ إذ كان يشهد الجميع على كل سيارة ، يحولها لفضيحة ' بجلاجل ' على جهل نونس بالبورصة : ' باقى من الزمن ١٩٩٩ سيجارة . ضع القلم ! ' ، ' باقى من الزمن ١٩٩٨ سيجارة . ضع القلم ! ' ، وهكذا ، وهى محاكاة لما تفعله القاعة عادة من صياح جماعى عند اقتراب أحد الأسهم من الحدود السعرية التى سيتوقف عن التداول بعدها : ' باقى من الزمن قرشان ! ' ، ' باقى من الزمن قرش واحد ! ' ، ' ضع القلم ! ' . بتلك الطريقة كان فى وسعه أن يستمر شهورا في إذلاله ، لكن الاثنان سرعان ما نسيا الأمر في غضون يومين أو ثلاثة ، إذ دخلا في رهانات جديدة ، بعضها كان نونس محقا فيه ، وكان صوته أكثر جهورية في اثبات انتصاره !

يبدو روميو هادئا دائما ، يشكو من ضجيج العملاء ، ودائما ما يدعوهم في حزم وصرامة للصمت ، وأحيانا يلجأ لإغلاق البرنامج الذى يعرض الأسعار ، إلى أن يتنبهوا ويسكتون . ' إحنا هنا موش في مباراة كورة . كل واحد فيكم يا إما بيشجع الأسهم ، إما بيعمل وصف تفصيلي للجلسة . كل إल्ली أنتم شايفينه إحنا شايفينه برضه ، وموش بنتكلم ! ' . نونس على العكس يحب الصخب ولا يكف عن الكلام ، أو الغناء كبديل عن الكلام . مع ذلك حين حاول روميو ذات مرة إغلاق البرنامج كعادته القديمة ، قال له نونس : ' أنا عندي حل أحسن ! عندي في دمياط نغير بتاع أبويا الله يرجمه ، ها أجييه الأسبوع الجاي ' . وفعلا أصبحت هذه هى الطريقة الجديدة لدعوة القاعة للهدوء . يخرج البوق من مسكنة الجديد القاهرى ، درج هذا المكتب ، وينفخ فيه نغمة طويلة لا معنى لها سوى أن اسكتوا قليلا !

السبب في تركيز روميو الشديد مع شاشة الأسعار ، أنه يشبهها بالأرجوحة ، التي عليه أن يتحين بدقة اللحظة المناسبة للشراء والبيع عند أخفض وأعلى النقاط فيها . على عكس الجميع ، هو يكره أن تأتي أية أخبار عن أداء الشركات ، هذه التي يتلهف عليها أى أحد ؛ ذلك أنها في رأيه تفسد عليه ما يسمى بجنة المضارب ، هذه الأرجوحة رتيبة الحركات . من هنا كان الفارق بينه وبين ونس ، أنه لم يتدخل في أى وقت في جدال مع وحيد يدافع فيه عن المضاربة ؛ فهو يمارسها بالكامل بإحساسه و غريزته ، وحتى دون أدوات التحليل التقاني كما ونس .

بدا طبيعياً أن جاء أول تعارف بين وحيد وروميو بسبب شرب القهوة . كان ذلك في أول يوم جاء فيه وحيد للتداول . بعد أن جلس طويلاً مع إدوارد ، أحس بأنه أصبح ضعيفاً ثقيلًا على غرفته ، فخرج إلى حيث وجد كرسيًا خاويًا في موخرة القاعة . أصبح رامى إلى يمينه ، ومن ثم ونس إلى ركن الحجر ، كلاهما إلى ذات المكتب سالف الذكر . حين جاء نصر الله بفنجالين من البن لروميو وونس ، طلب منه وحيد فنجالا لنفسه ، فراح نصر الله يقول ما يبدو إنه اعتاد قوله لكل عميل جديد : ' أنا عندي بن محوج مخصوص جدا مية مية ، اسأل عنه الأستاذ روميو ! ' . ويصيح به روميو كالعادة كلما وجده يقف وسطهم : ' أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حنة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' .

نصر الله القصير النحيل هذا ، هو ابن خادم قديم لأسرة رمسيس كان يشتغل حمالاً على أحد مركب البلح ، سأل الجد أن يشتغل معه ويستقر في القاهرة ، فوافق . نصر الله ، المسيحي شبه الصعيدي هذا ، هو من اختاره إدوارد ليجعل منه ساعياً لشركته . وأصبح من بين التزاماته البيات في الشركة ، كنوع ولو ظاهري من الحراسة . كان في تلميح نصر الله الجنسى بعض التجرؤ ، لكن جرأة روميو فيما قاله بعد أن صرف نصر الله ، كانت مما فاق كل توقعات وحيد . قال وكأنه يخاطب صديق طفولته : ' سيبك يا عم وحيد م الأونطة بتاع نصر الله دى . حاجة واحدة في الدنيا تخلى الست زى البركان يتفجر بحمم السمن والعسل ، وتخلى الراجل زى جذع النخلة بتاع الإله من لا يمكن ينتنى أبدا ! ' . ويسأل وحيد بفضول برىء : ' إيه ؟ ' .

- أسعار الأسهم لما تطلع !



مكة نفسها محتلة ولازم ترجعوا يثرب

روميو في الأصل صديق لإدوارد منذ أيام المدرسة الثانوية في شبرا . هذا يعنى أنه ليس شاباً كما قد يبدو بمظهره وتصرفاته ، إنما تحظى منتصف أربعينيات العمر كإدوارد . وهذا الأخير هو الذى أتى به عميلاً للشركة ، عندما علم بمشاكله في مهنة السياحة . حين يتكلم روميو يكون الجنس موضوعه غالباً . يبدو للجميع كزئ نساء أثيم لا يضيع فرصة التودد لأية عميلة جديدة بمعسول الكلمات . لكنه في الحقيقة أبعد خطوة من هذا . رغم أن مظهره لا يشى بأية خنوثة ، فهو ثنائى الميول الجنسية . الحب الحقيقى والوحيد في حياته لم يكن امرأة بالمره ، إنما صحفى أميركى مقيم في مصر . جاء روبرت مراسلاً حراً في حرب ١٩٦٧ ، ثم قرر الإقامة . لم يكن ذا أفكار سياسية ، لكنه كان يبدو يسارياً حين يقول إن أميركا لها ناسها إللى يعرفوا يعيشوا فيها ، وأنا لست منهم . أصبح يرأس كل ما يمكن أن ينشر له ما يكتب ، من التليجراف في لندن حتى الهولليوود ريبورتر في لوس أنجيليس . وبالتوازي مارس توظيف النصوص في بعض المجلات المصرية الناطقة بالإنجليزية ، كى يعطيها أسلوباً يستسيغه القارئ الأجنبى بدلا من الكتابة الإنجليزية المدرسية التى يكتبها المصريون عادة .

يقول إدوارد على مسمع من كل الموجودين بالقاعة : ' صاحبي طول عمرنا صحيح ، بس خوان ساب شركتنا وراح السى آى بي (يقصد شركة السمسرة التابعة للبنك التجارى الدولى) ' .

- السى آى بي حاجة تانى . دنيا غير الدنيا .

- (ضهرى هامسا لوحيد :) قصده النسوان !

يعود روميو بصوت هامس لا يريد أن يصل لمسامع الأنسات والسيدات في القاعة : ' أيوه يا حاج يا خويا . العميلات والموظفات ، دول ودول . حاجة تانى . أنتم فاهمين البورصة فلوس وبس . البورصة موش فلوس ، البورصة حياة كاملة . متعة من كل النواحي . ومن غير مزاج رايق ووجه حسن ، موش ها تاخذ قرارات صح أبدا ! ' .

- فعلا يا أستاذ رامى (يقولها أسد بصوته الخشن) . شاشة البورصة دى بتعمل ' دماغ ' ، ومن ساعة ما عرفتها بطلت البانجو .
- مضبوط ! طبعاً ! دخول الحمام موش زى خروجه . فعلا البورصة إدمان . البورصة هى المتعة . لو دخلتها موش ها تسلاها أبدا . موش مهم الفلوس والمكسب والخسارة . هم إللى بيلعبوا قمار بيلعبوه ليه ؟
ويجد إدوارد فرصة لانتقام قديم : ' ده بس علشان لما رحى السى آى بى خسرت ' .

- البورصة كلها كانت بتخسر أيامها . على الأقل أنا كسبت حاجة هناك ! (ثم يغير إلى نغمة تصالحية :) فعلا هنا أحسن . هناك تملئ الأوردر مرة وتبتعت بالفاكس للمركز ، وأول تعديل يطنشوه ، وثانى تعديل يخلى السعر ماركت . بيعاملك كقاصر يفهموا مصلحتك أكثر منك . الشركة الصغيرة جوها مريح . هنا بتدخل للمنفذ وتتابع معاه ، وحاجات كده . العمولة هناك أعلى من هنا طبعاً ، وده لأنها بتشتمل على النصيحة . هناك ناس بتسمع الكلام ، العملاء هناك مؤدبين . يدخلوا للموظفة يقولوا لها المحلل قال لى اشترى كذا أو بيع كذا . العميل ما لهوش رأى . موش عباقره وملوك فتاوى زى كل الناس إللى هنا .

ينظر لونس فيفهم أنه هو المقصود بالسخرية ، فيرد السؤال بسؤال يضع روميو فى مواجهة مع حشد السيدات والفتيات فى القاعة : ' طب الستات أحلى فين ؟ ' .

يفهم روميو خبث السؤال لكنه يتحاشاه بلباقة : ' الستات حلويات فى كل حطة ! ' ، ثم بصوت خفيض : ' كلنا بنقول كده . إنما عارفين جوانا أن الطويلة البيضاء الشقراء هى وحدها الجمال الحقيقى ! طول عمرك شفت كريم لتغميق البشرة ، أو واحدة شقراء بتصبغ شعرها أسود ؟ ' .

يتدخل ونس موجهها كلامه لإدوارد بلغة المساومة التى لا يملها أبدا : ' بس السى آى بى بيدى نصايح ، وأنتم بتاخذوا فلوس من غير نصايح ' .

يوصل إدوارد شرح الفارق بين الخدمة المتكاملة وخدمة البيع والشراء : ' بيضحكوا عليكم بكلمتين وياخذوا عمولة ٧ فى الألف ' .

- ٦ بس .

ويجد إدوارد نفسه مضطرا للمرة الألف فى شرح مزايا شركته ، وينهى بلهجة كمن انتصر فى هذا الجدل : ' أنا هنا فى مصر الجديدة قبل السى آى بى ما يعمل شركة سمسة أصلا ! ' .

ويشرح زهرى لوحيد : ' هو حاقده على السى آى بى . هم الأقباط كده ، فاكزين أنهم أصحاب كل شىء فى البلد ، حتى لو كان ' الغزاة ' بنك تشيس مانهاتان الأمريكى بجلالة قدره . موش واخذ باله أنه هو شخصيا وكل الأقباط إللى زيه ، هم غزاة فى مصر الجديدة هنا ، إللى أصحابها الأصليين أوروبيين ! ' .

ثم يزداد بهجة وهو يروى أن إدوارد الذى اعتاد مداعبته بأنا كمسلمين احتلنا كل شىء ، مكة نفسها محتلة ولازم ترجعوا يثرب ، من أول ما قلت له أنت دلوقت من غزاة مصر الجديدة ، بطل يجيب السيرة دى خالص . يتدخل روميو ببعض معلوماته التاريخية الغائمة من دنيا السياحة : ' يا سلام على مكة زمان وأيام زمان ، أيام ' المتعتين ' ! ' . وما أن دلف للحديث ببعض معلومات متفرقة لديه عن طقوس الخصوبة وحفلات الجنس الجماعى فى العالم القديم ، حتى قاطعه ونس بسؤال وجهه لزهري : ' عارف يا حاج ليه القناطر أهم نقطة فى مصر ؟ ' ، ' ليه ؟ ' ، ' بص للخريطة وأنت تعرف ! ' . تضج القاعة بالضحك ، لكن زهرى لم يغضب كما توقع الجميع ، إنما راح يشرح أن لطلما كان عضو الخصوبة لدى المرأة رمزا مقدسا فى العقائد القديمة .

ويناوش إدوارد روميو : ' تعرف أن مكة ملك اليهود ؟ ' .

- إزاي ؟

- موش أنتم بتقولوا وادى فاران هو بتاع إسماعيل والكعبة ويثر زمزم وإللى تنبأت التوراة أن ها يظهر فيه نبي ، هو مكة ؟

- أيوه ، سمعت حاجة زى كده !

- تعملوا إيه طيب ، لو طلع وادى فاران ده كان تحت ملك داود فى يوم م الأيام ؟ !

- إزاي ؟

- ما هو بيني وبينك وادي فاران أو برية فاران هو بير سبع أو النقب ، موش مكة . لكن لو صممتم أنه مكة ها يتاخذ منكم !

- ارحمنا أنت وداود بتاعكم ، كفاية علينا القدس إالى راحت !

- خد بالك يثرب كمان يهودية أبا عن جد ، قبل أن تبدأ الإبادة والتطهير العرقي تحت شعار ' اخرجوا المشركين من جزيرة العرب ' ، موش

دى أرض محتلة برضه ؟ ، وما تخليناش نفتح ملفات أكثر من كده !

هذه المقاطعات لم تصرف زهرى عن الشيء الذى أراد إثباته لوحيد بخصوص إدوارد ، فيسأل هذا الأخير بما يوحي أنه يعرف الإجابة سلفا ،

إجابة سمعها ألف مرة ، فقط يريد الآن أن يسمعها وحيد : ' سيبك من السى آى بى . إيه رأيك فى كيوييد ؟ ' .

- شركة سمسة زيه زى . جازير إحنا أحسن .

ويعود زهرى لوحيد بلهجة المنتصر الذى أثبت ما يريد إثباته : ' شفت ؟ ! الغرزة إالى إحنا قاعدين فيها دى ، زى كيوييد إالى بتدير محافظ

وأصول واكتتابات بمئات البلايين ! ' .



طلاق الرجالة والستات

أكثر مائة مرة من طلاق راجل وراجل أو ست وست

لم يفهم زهرى أن ما فعله هو -وليس ونس- كان هو المقاطعة . هو لم يلحظ أن الجنس وليس تشيس مانهاتان هو ما كان شاغل الحاضرين

ساعتها ؛ لذا كان تدخل نبيل بوقاره البشوش المعتاد قائلا : ' أنا مع الأستاذ رامى . تقدر تقول البورصة زى اليوجا ، لازم تعيش معاها علشان

تحس بما ' ، ذريعة كافية للجميع لاستعادة البداية الأولى للحوار ' . وينطلق روميو ، الذى أصبح محور القعدة وكبيرها ومغناطيس العيون فى هذه

اللحظة ، وكأنه كان ينتظر الفرصة منذ زمن . الكلام فى حد ذاته ليس جديدا ، وسمعه الحاضرون مرارا من قبل ، لكنهم لا يضجرون منه أبدا على

ما يبدو : ' لأ ، وأنت الصادق ، الأسهم زى الجنس (يكاد فى كل مرة أن يهم باستخدام كلمة أخرى بديئة لولا أن يلحظ الأنسات والسيدات

الجالسات) . أهم حاجة فى الجنس هى التوقيت . timing's everything زى ما يقولوا ! لازم تحس بصدر الست وهو بيطلع وينزل ،

بصوت أنفاسها وهى بتعلى وتوطى ، بدقات قلبها وهى بتسرع وتبطى ، بجسمها وهو بيترعش وهو بيرتخى . أنا لا أعترف لا بتحليل قاعدى ولا

تقانى ولا غيره ؛ السهم ممكن يبقى صديق مخلص لك ، لو حبيته بجد ، ووصلت معاه للدرجة دى من التفاعل والتوحد الشعورى . ساعتها هو

إلى ها يقول لك اشترينى دلوقت ، وبيعنى دلوقت ! ' .

يعود نبيل : ' وأنا قلت إيه غير كده : النيرفانا ! ' .

لكن زهرى يتدخل بخشونته المعتادة مع روميو ، وبما يسبب بعض الحرج لنيل أيضا : ' لو السهم بيعحك صحيح يا سى روميو موش ها

يقول لك بيعنى أبدا ! ' .

- وهو لازم الحب يدوم طول العمر يا حاج ؟ أنا بأحب أسهمى ، والدليل أنى ما بأبقاش طايق نفسى يومين الأجازة ؛ البورصة والأسهم

بيوحشونى جدا . وبالمثل أنا متأكد أنها بتحبنى زى ما بأحبها ؛ أنا لدى خبرة طويلة فى الحب تكفى لمعرفته والإحساس به حينما يوجد !

يستغل روميو فرصة الحوار الذى جعله نجما لفتح حوار جانبى مع حديث العهد بهم وبه ، وحيد . بعد أن حط الحوار الأصيل أوزاره ، قال

بجدية هادئة ، وكأنه يأمل أن يجد معها أحدا قد يفهمه : ' طبعا أنت عارف أن موش قصدى الستات بس . التوحد بين أى إنسان وأى إنسان .

لا توجد غضاضة فى هذا لا جنسيا ولا عاطفيا . روبرت كان الوحيد إالى بأرقص معاه فى السرير . كل أنواع الرقص . باليه كمان وحياتك . مع

النساء أنت ترقص التانجو فقط . الراجل أقرب للراجل بعقله ومشاعر ، نفس الحكاية للست مع الست . الراجل مع الست علاقة صعبة ، والفهم

المتبادل فيها محدود . بيحصل طبعا ، لكن نادر . بيسموه الحب . العلاقة المثلية أكثر من الحب . حب زائد تفاهم . عاطفة زائد عقل . طلاق

الرجالة والستات أكثر مائة مرة من طلاق راجل وراجل أو ست وست ' .

- عندك حق يا بنى ، أنا بأقول لبنتى منى لو قعدنا منى بتاعة النهارده مع منى بتاعة ٥ سنين فاتوا موش ها بيطلوا خناق !

ويتدخل ونس ساخرا : ' وإيه الغريب في كده ؟ ده إحنا لو قعدناك ، الحاج ضهرى بتاع النهارده مع الحاج ضهرى بتاع النهارده ، موش ها تبطلوا خناق ! يعنى لو عملنا منك كلون ها تتخانقوا سوا ! ها ! ها ! ها ! ' .

ويأتى وحيد بتفسيره الشخصى : ' هذه الأيام الطلاق ليس ذنب أحد . نحن في عصر ما بعد-الصناعة ، حيث العالم سريع التغير جدا ، والشباب أو الفتاة يجد نفسه بعد سنوات قليلة ، وقد أصبح ذا مشاريع مختلفة وطموحات مختلفة وتوقعات مختلفة ، يغير وظيفته ، يغير اهتماماته ، يقبل السفر مثلا بعد أن كان يرفضه ، يغير ذوقه في الموسيقى والأفلام ... إلخ ، إلخ ، فكيف نطالبه بأن لا يغير نظرتة لشريك حياته ؟ في عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هي الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد ! ' . ويردف الحاج : ' بل قل إن نظم التأمين الاجتماعى هو التى أبطلت الزواج لأن الفرد لم يعد في حاجة لأبناء يرعونه في كهولته ' . ويعلق وحيد أنها فكرة مثيرة للاهتمام ويضيف : ' بل لنمدها قليلا على استفادتها ونقول إن شركات التأمين -وليس أى أحد آخر- هي التى قتلت الإله لأنه التى أمنتنا ضد مفاجآت الزمن وغدر الطبيعة ! ' . ومرة أخرى يسخر ونس : ' بالعكس ! هي لم تقتل أحدا بل خلقت بلايين الآلهة ! هل تعرفون كم مرة فند القرآن عقيدة أن الله اتخذ ولدا ؟ ... كثير جدا ! المدهش أن الشيء المشترك فيها كلها أنه دائما ما يردف بأن الله غنى ولذا ليس في حاجة لأبناء . معنى كلامكم ، أن بمعيار القرآن (إلهي هو مدى حاجة الإله للاشتراك في نظام التأمينات) ، كلنا آله الآن ! ' .

ويتدخل إدوارد شارحا لوحيد ، الوحيد الذى فاتته معاينة القصة في حينها : ' صديقه ده مات ، ورامى دخل شهر في اكتئاب ووحدة ، ما كناش عارفين نطلعه منها إزاي ' .

ويعود روميو ليدلى بدلوه في مؤسسة الزواج : ' أغلب مشاكل الزواج تأتي بعد الإنجاب ، حين يكتشف الرجل أن زوجته تحب أطفاله أكثر منه ؛ وكأنها في الواقع لم تكن تريد أكثر من ذكر للتلقيح ! ' .

ويعود الحاج لا ليؤيد كالمرة السابقة إنما يعارض : ' بل حين يكتشف أن أهلها هم أهلها ، وما هو إلا غريب وسيظل إلى أبد الدهر غريبا ، نفس الشيء ينطبق على الرجل ومن هم أهله الحقيقيون . الآن ، ' البيت ' هو المكان الذى ولدت فيه ، والزواج ما هو إلا شغل أو بيزنس بس بالعكس من ٥ إلى ٩ ، أو حتى موش لازم يشوفوا بعض ، وبرضه يبقى لسه اسمه زواج ناجح طالما الطلاق لم يحدث . (ثم صائحا :) ولا إيه رأيك يا إدوارد ! ' .

لا يملك إدوارد إلا التنهد موافقا ، لأن الحاج نكأ جرح عمره ، ويواصل هذا الأخير : ' يا كايبن روميو ، الطلاق له سبب واحد : أنك أثناء الخطوبة لا تستطيع أن ترى أعماق طبائع الطرف الآخر ، أو لا تستطيع أن ترى أعماق نفسك . بلاش نقول بسبب التصنع المقصود ، إنما محاولة كل طرف الظهور بصورة ترضى وتسعد الطرف الآخر ، وهو سلوك طيب وبريء ، لكن عواقبه خطيرة ، لأن الشخص نفسه لن يستطيع الاستمرار فيه طويلا حتى لو أراد ، ببساطة لأن جبيناته أقوى منه . لازم تعرف أنت عاوز إيه فعلا موش قولاً ، والطرف الآخر عاوز إيه فعلا موش قولاً . لو هناك علاقة طويلة بين الشاب والفتاة تنتهى لأحد أمرين ، زواج سعيد ، أو استبعاد لفكرة الزواج والمحافظة على الصداقة عميقة ' .

- وأنا قلت إيه غير كده ! الارتباط هو صداقة عظيمة ، لذا هو صعب جدا بين الرجل والمرأة . أنا موش عارف إيه سبب الحساسية حوالين الموضوع ده ؟ لا شيء اسمه جنس مثلى خالص وجنس لا مثلى خالص . كل الأفلام المشهورة إلهي بيظهر فيها مثليين موش فاهمة ولا حاجة خالص . أغلب المثليين المشهورين متزوجين . هل كلهم منافقون ؟ أو هل كل ستاتهم مخدوعين أو مرغمين ؟ إطلاقا ! كلنا نقع في مكان ما على المسطرة . المهم أين تجد الحب والتفاهم والإخلاص والالتزام العاطفى .

ويعود لأسلوبه التقليدى في المزاح بالعدوانية ، وكان نصر الله الضحية هذه المرة ، وهو ضحيته الدائمة في الواقع كلما لاحظ وقوفه وسطهم كى يستمع للحوارات : ' أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' .

ذات السباب الذى كلما سمعه ضهرى لا يملك إلا التعليق في كل مرة ساخرا : ' ما لقيتشر غير الشتيمة دى ؟ ! ' .

- الشاذ هو فقط الواقع على أحد طرفي المسطرة ، المثلية الخالصة أو اللا مثلية الخالصة . أو لو عاوز صياغة دقيقة ، الشاذ هو الإيجابي على طول الخط أو السلبي على طول الخط . ده موش جنس ، ده حاجة ثانية ، عقد نفسية . مع الست أنت بتعمل حاجات كتير ، مع الراجل بتعمل حاجات أكثر ، مع الاتنين أنت بتعمل كل حاجة .

- (كعادته في الانقلاب في لحظة من البهجة للحزن ، من الوداعة للغضب ، من الهزل للجدية ، والعكس والعكس والعكس ، انقلب ضهري هذه المرة إلى الثورة :) لأ ، وأنت الصادق لازم تجرب مع الحيوانات كمان ، علشان تعمل كل حاجة . طول عمرى ما شفت بنى آدم قارج زيك .

ثم يشرد قليلا ، ويعود بغضب : ' أنت غريب أوى ! أنا طول عمرى ما هجت على راجل أو ولد ، هل أبقى شاذ ؟ ' .

- أنت متأكد من إالى بتقوله ؟ مع الاحترام يا حاج ، وما ترعلش منى : ' إما أنك كذاب أو أنك ناسى ! ' .

- هو فيه حد يزعل منك برضه . إحنا زعلانين عليك .

- (بحزمه المعتاد :) فكرة غلط برضه !

بعد برهة يعود الحاج لروميو ليواصل التآر من الكلام الذى جعل رأسه يغلى : ' الأجانب دول زى الحيوانات ، بيعملوها زى ما بتعملها الكلاب في الشوارع . حياتهم كلها جنس ' .

- غلط ! بالليل بس . الهم والباقي علينا إحنا ، الجنس في تفكيرنا ٢٤ ساعة ، وفكرين نفسنا ملايكة بتوع الفضيلة والشرف والنضافة . أنت تعرف الأجانب أنت ؟ إزاي بتقول لفيت العالم ؟ يا ريت كنا كلاب زيهم ، كنا أنتجنا واخترعنا زيهم . أيوه طول الليل جنس وانحلال ، ده طبعا غير إالى أنت بتسميه ' اللواط والعياذ بالله ' . إنما البوظان بالليل بس ، لكن طول الصباح شغل ، يوم واحد بسنة كاملة من شغلنا إحنا . دى ناس لما بيشتغلوا يشتغلوا بجد ولما بيلعبوا يلعبوا بجد ، إنما إحنا واخدين كل العيشة من أولها لآخرها هزار ؛ كل حياتنا نكتة طويلة وبابخة . ثم ده موش بوظان ولا حاجة ، الإخلاص في علاقات ' الزنا ' دى أكثر من الإخلاص في الزواج المسيحي نفسه بتاع العمر كله . زواج المصلحة والماديات حاجة عندنا إحنا بس ؛ بره جازيز فيه خلافات عند الطلاق ، إنما عند الزواج لأ ، لسبب بسيط أنهم بيكونوا عاشوا مع بعض سنين طويلة ، وأخيرا فكروا دمج حياتهم المادية من أجل إنجاب طفل ، أى بعد أن يكونوا قد أنهوا تقريبا حياتهم المهنية وتخلوا أو نسيوا موضوع الطموحات المادية والشخصية . ثم تسمى بيايه تعدد الزوجات ؟ كلبات برخصة ؟ ها ! ها ! فإكر يا حاج أيام ما كانت الكلاب برخصة في رقبتهما علشان ما تقتلهاش عربية الكلاب ؟ ! إشمعنى يا حاج التوحيد في ربنا وموش في الستات ؟ ها ! ها ! ثم وبعدين تسمى إيه أطفال الشوارع عندنا ، موش بيعملوها زى الكلاب برضه ؟ ! تسمى إيه العرب إالى طايحين في شوارعنا زى الطلوقة مستعدين يعملوها مع أى حد ؟ ! ' الشدوذ ' إالى موش عاجبك موجود بنسبة ٥٪ في الغرب وبنسبة ٩٥٪ في مدارسنا ، وبنسبة ١٠٠٪ في الأزهر . ما ترعلش أوى ، ما هى برضه النسبة أعلى شوية من ٥٪ في الغرب بين رجال الدين الكاثوليك . ليه النسب الرهيبة دى بينما النسبة البيولوجية الطبيعية هى ٥٪ . الإجابة : البركة في الدين ؟ إالى أنا عاوز أقوله إني موش عاوز حد يتحول للمثلية بسبب الكبت الجنسي أو اعتداء رجال الدين عليهم في الصغر أو لمنافقة المجتمع ؛ يعنى لمجرد أن الولد موش عارف يقابل البنت إالى يبحبها أو البنت موش عارفة تقابل الولد إالى بتحبه . دول كلهم مثليين مزيفين وأنا شخصيا بأقرف منهم . كل إالى أنا عاوزه أن كل واحد يعيش على حريته وفي النور ، وأعتقد ده بدأ يحصل أخيرا . (ثم يضحك :) يا حاج ، الحل أن نعمل في المشاوخ إالى عاوزين يعملوه فينا : الإلقاء من عل منكوسين ، ثم رجم الجثث ، وأخيرا حرقها . لو عملنا كده حال البلد ها ينصلح ١٠٠٪ !

وكعادة الحاج البحبوحة في الاقتناع بكل شىء بسهولة : ' عندك حق ! ' .

وينقلب الأمر لمزيد من التهريج ، فيردف ضهري : ' أنا شايف أنك بتحب البورصة أكثر من أى حد ، والمفروض تتجوزها ! ' ، ' إشمعنى ؟ ' ، ' علشان مذكر بورصة برص . ها ! ها ! ' . ويتدخل ونس مستعيدا كلام ضهري عن أسباب الطلاق ومقومات الزواج الناجح : ' يعنى عاوز تفهمنا يا حاج ، أن الواحد لازم يكون خريج زراعة ومتخصص في الجيينات زيك ، علشان يتجوز جواز سعيد ؟ ! ' .

لكن بمجرد أن يحول ظهرى وجهه لليسار فيجد وحيدا ، ينقلب شخصا جادا جدا . يميل عليه ليذكره بما كان يقرأه في شبابه عن دوريات قتل أطفال الشوارع في البرازيل ، التي تشبه دوريات قتل الكلاب الضالة عندنا التي أشار لها روميو والتي كان في طفولته يشاهدها بعينيه . فيرد وحيد بأنهم يفكرون جديا في إعادة ما مرة أخرى بعد حالة الفلتان الأمني المرعبة التي تعاني منها البرازيل -بالذات ساو باولو- طيلة العقد الأخير .



تكون هذه لحظة اكتشاف الفتاة أنها ارتكبت خطأ مروعا آخر

عادة صديقة روميو إما أرملة أو مطلقة حسناء ، وإما فتاة يافعة تبحث عن فرصة في الحياة . سواء هذا أو ذاك ، ليس هناك أصعب وأسهل . فالفتيات فيما يبدو صرن أسهل كثيرا هذه الأيام ، بما في ذلك صاحبات الجمال الصارخ منهن . أيضا سواء هذا أو ذاك ، السيناريو لا يتغير قط . ذات الاستراتيجية تفلح مع أغلب من ينتقيهن روميو . السبب لا يكمن فقط في أنه أستاذ للذة تحلم به أية امرأة ؛ إنما لأنه يجيد من البداية انتقاء صديقاته . يجلس لأحد مقاهى السيتي ستارز الأوروبية الأنيقة . يرمى الجالسات وحيدات . يتفحصهن جيدا . يغير مكانه لو تطلب الأمر . من خلال عيونهن الزائغة أو الكسيرة ، يعرف شخصياتهن ويقرأ احتياجاتهن ، حتى لو كان هذا الاحتياج لم يمر قط ببال صاحبة الشأن . احتياجا زائغا أو منكسرا ، هو يفضل الثاني على أية حال ، احتياج الوحيدات ، احتياج عاطفى شامل وليس جسديا فقط . هو على أية حال يؤمن بأن المصريات إن لم توقظ جنونهن بنفسك ، فليس لديهن احتياجات جسدية . يولدن بدونها ربما .

يدعوهن لشركة السمسرة ، حيث الأرباح طيبة وسهلة ولا تحتاج إلا لذكاء لا يفتقدنه . يفتح للصديقة محفظة استثمارية بمدخراتها لو شاءت ولو كانت تلك المدخرات ذات شأن ، وهى الحالة الغالبة . أو بمحفظة صغيرة يسهم فيها إلى جانب مدخراتها هى الصغيرة ، بجزء من ماله الشخصى ' حتى يختبر قدراتها كمضاربة ' . أو يفتح من جيبه لها محفظة كهدية ، بخمسة آلاف جنيه مثلا ، المبلغ الذى يكفى بالكاد للتداول على سهم واحد دون تبديد نسبة ملحوظة على المصروفات الثابتة التى تحصل على كل عملية تداول ، مهما كانت صغيرة . فيشة واحدة كما يسمونها ، تبعتها ثم تتحين شراء سهم آخر ، أو نفس السهم فى وقت لاحق . أو أخيرا فيما عدا ذلك من حالات يفتح لهن محفظة وهمية على الورق تفرح الفتاة بأرباحها غير الحقيقية ، هذا حين لا يكون لديها أية مدخرات ، أو لا تزال طالبة مثلا ، أو تخشى مثلا أن ينكشف هذا لأسرتها .

الأطعمة البحرية هى طعامه المفضل . حين افتتح أول مطعم للسوشي اليابانى فى مصر فى السيتي ستارز فى نهايات ٢٠٠٥ ، اعتاد عليه . يعتقد أن السمك غير المطهو هو طعام aphrodisiac أى منشط للشهوة الجنسية . اعتاد أن يغازل خليلته (أو مشروع الخليفة) ، بأن أجمل شىء فى الدنيا أنك تاكل حاجة أفروديسيك مع أفرودايت ! هذا يحمل أيضا تمهيدا ضمينا لغرابة الطعام النسبية . لصوص الصويا البنى اللادع . لشورية المأكولات البحرية حريفة المذاق . وللواسابى ، العجينة الخضراء النفاذة المصنوعة من جذور نبات نادر ، هذا هو اسمه ، وفى معتقدات سكان شرق آسيا أنه يبقى من جميع الأمراض . لعل أقرب ما نعرف شبيها له هو الفجل ، جذوره فى حالتها قوية الطعم والرائحة ، مع فارق أن تركيز المادة النفاذة فى جذور الواسابى أكبر بكثير وأعلى نوعية . يفترض أن تغمس قطع السوشي فى قليل من الواسابى ، لكن روميو يفضل ترك كتلة الواسابى الصغيرة للنهاية لكى يقذفها فى فمه قطعة واحدة ، يتلقى صدمتها الأولى الكبيرة لجيوبه الأنفية بشجاعة ، ثم يبدأ فى استحلها كما قطعة حلوى لذيذة ، فتترك أثرا عنيقا جبارا يشعر معه بانتعاش عميق وتمتد المفعول معا لا نظير له ، يتضاءل معه نشوق جده التقليدى الساذج فى شبرا ، وفى نفس الوقت يستمتع برؤية ملامح القشعريرة الممزوجة بالانبهار على وجه صديقه .

للحق هو يحاول بإخلاص أن يجر كل صديقة جديدة إلى الطعام اليابانى لتجاربه تجاربه المغامرة ، إلا أنه دائما ما يفشل ، فأمثالهن يتعاملن عادة بريئة ونفور مع كل تلك المأكولات الغريبة . يتذوقن فى البداية القليل جدا منها على طرف ألسنتهن ، هذا قبل الخوض فى أكلها جديا . حتى الفرجة على كيفية إعداد السوشي يخشين منها . سبيط أو جمبرى أو سمكة كانت حية للتو ، وكان بداخلها كل الأمعاء والفضلات ، والآن يجب أن تضعها فى فمها ، لمجرد أن غسلت ببعض الماء . حتى سرده لتاريخ السوشي كمجرد طريقة قديمة لحفظ السمك عن طريق دفنه فى الأرز وأكله حين ' ينضج ' بعد شهر ، تماما كما نفع لنح مستخدمين الملح مع الفسيخ أو الطرشى مثلا ، هو قصة لا يردن أن يسمعونها .

طريقته فى طمأنتهن فريدة من نوعها . يذكر أنه يعرف أن هناك أصناف أكثر غرابة لا تقدم هنا أبدا ، أقلها الأخطبوط وهو عادى تقريبا . وأخطرها سوشي الفوجو وهى سمكة يابانية سامة ، وقد يسبب موتا زعافا إن لم يعد بالطريقة الصحيحة . والمقصود بالطريقة الصحيحة التخلص

من معظم السم ، فالتخلص منه كله مستحيل ، وما يتبقى منه -مليجرامات أو ربما أقل- يكفي لترك إحساس بالدغدغة والتنميل في الشفاه واللسان ، ولو زاد الأمر عن هذا الحد ، فمعناه أن الموت قادم خلال لحظات قليلات . بطبيعة الحال يزيد مثل هذا الحديث من ارتعادهن من الأكل . هنا يسارع لتهدئة هلعهن ، بتذوق قطعة أخرى من السوشي الملفوفة في ورق نبات النورى البحرى داكن الخضرة ليثبت أنها طيبة ، ويدس نسخة طبق الأصل منها في فم الرفيقة ، دون أن ينسى أن يصحح أن تقديم الفوجو محظور على أية حال في معظم دول الغرب .

حين تتصور الضحية الحلوة أن المفاجآت بما أنها وصلت لذروة الرعب ، فقد نفذت ، وأن روميو قد أثبت لها بالفعل تفرد شخصيته وأنها شخصية أفسح من الحياة كما يقال بالإنجليزية ، تكون هذه لحظة اكتشاف الفتاة أنها ارتكبت خطأ مروعا آخر . لا تزال بعد في جعبة روميو رمية واحدة أخيرة في مباراة إثارة الانطباع الاستعراضية هذه . شوط إضافي لذيد مرح بمثابة تمهيد طويل حميم ورائع لمشروع الألفة والأنس الجديد ، تقبض خلاله الأيدى على بعضها البعض وتتقارب أثناءه الوجوه وترن الضحكات وتختلط الأنفاس : إنه شوط استعراض روميو لقدرته على التقاط حبة أرز واحدة بعصاتي الأكل الخشبيتين ، ومحاولته المخلصة بدورها لتدريب صديقتها على اكتساب هذه المهارة الأسطورية ذائعة الصيت عالميا كنتحدى يستعصى على أغلب الناس !

مجرد جلوسه في هذا المطعم مع خليعة أو بدون كان يشره بالخير دائما . بعد توطد العلاقة بهذه الخليعة ، لا ينقطع الذهاب للسيني ستارز . لا بد من فيلم واحد على الأقل أسبوعيا ، وأيضا أكلة سوشي . وعندما ينتهى المحارب من تنويع مصادر السلاح ، يعود بقية الأيام إلى قواعده سالما : مطعم الخليفة المأمون المضمون للأسمك والمأكولات البحرية ، العريق الذى يعتمد عليه كل الاعتماد .



فقط عندما تصل امرأته للحظة المحنة الكبرى

بعد أسبوع أو نحوه من تأسيس محفظة خليلته ، يتحين يوما يتوقع فيه صعودا كبيرا للأسعار . يعد فتاته بمتابعة هادئة للأسعار في الغد في شقته الصغيرة التي أجزها في أحد شوارع روكسى الفرعية ، بالقرب من ذلك المطعم . تجدها لا تزال تقريبا عارية من الأثاث ، فهو بالأساس مبرمج شعوريا ولا شعوريا على توجيه المال للبورصة لا لتملك الشقق أو لتملك أية موجودات ثابتة أخرى . أهم مقتنياتها مرتبة جيدة الصنع ألمانية المكونات اشتراها من شارع عماد الدين ، وبالنسبة للشأن الغرامى تكنسب أهمية خاصة في فصل الشتاء . هذه البساطة التي تنم عن الصدق وعدم التكلف ، تقرهن أكثر له . هنا سيطلعهن على حواسيبه ، وعلى طريفته الشخصية جدا في تتبع الأسعار وعلى كيفية تحين لحظات البيع والشراء ، باستخدام هذه الشاشات المتعددة . يجلسان على الأرض أمام الحواسيب ، وحين تصل الأسعار لذروتها ، يلقي بنفسه فجأة على ظهره ، فتلاحظ هي بروزا يشب من داخل بنتاله ، فيقول لها فيما يشبه الاعتذار : 'الظاهر كل حاجة طالعة النهارده !' ، ثم يتودد لها بكلام من نوعية أنتى أجمل سهم عرفته في حياتي ، ما فيش أحلى من وشك على . يتمرغان ويتعاركان لمدة ساعة ، نصفها الأول يكرس كليا للغوص المتبادل في فاهى بعضهما البعض . إنه أكثر شىء يشعر الإنسان بالتوحد مع شريكه أو شريكه ، فلا يكف الفمان الملهوفان بعد إدمانها لهذه الصداقة عن تلبية شوق اللقاء أكثر من مرة في نصف الساعة الثاني . ترتفع حرارة الجسدين وتنفوح رائحة الشواء في المكان وتفقد أرضية الفورسلين برودتها المنعشة .

الفكرة الجوهرية أنه لا يبحث إلا عن متعة رفيقته . متعته هو نفسه هي أن يرى المتعة متوردة على وجهها ، وفي انتفاخ شفيتها ، وحركة مقدمة لسانها المحشورة من بين أسنانها البيضاء ، وزيفان مقلتيها تحت جفون جميلة شبه منسدلة . يستخدم روميو كل ما لدى جسمه من أدوات ، كل الأدوات ، كل البروزات ، حتى أذنيه يستخدمهما أحيانا ؛ حتى أهداب عينيه يستخدمهما !

يستخدم كل الأوضاع ، ويتنقل بينها بحيث لا يفوته أى منها في كرنفال الجنس المقدس ، طقس الخصوبة البدائي البرىء الطاهر هذا . لا يخجل بأى منها من أجل أن يصل بامرأته للذروة . يعرف هذا حين يجد راحة متخشبة وقد أطبقت على ذراعه حتى كادت تشلها ، أو أمسكت برقبته حتى كادت تحنقها وهي تحاول دفعه بعيدا عنها ، ثم يرى عضلات الجفون تسترخى شيئا فشىء لتكشف عن عينين مكودوتين دامتيتين أضناها طول احتباس العبرات في مآقيها ، فانطلقتا فجأة تهششان بشحنتيهما بلا روية . قط عندما تصل امرأته للحظة المحنة الكبرى هذه ، يبدأ هو في ممارسة الأداء الذكرى النمطى ، ويجعل من سعيه هو للإشباع دقائق انسحاب إضافية لذيدة لشريكه ، تستوجد فيها أسلوبا مبتكرا يسترخى خلاله جسدها المتصلب ، وتتيح للسامرى الصالح أن يفرغ ما كاد ينفجر منه بالفعل ، وأيضا يتيح لها هي أيضا أن تلمس رغم نصف غيبوبتها

هذه ، كيف كان بالمثل أثرها ساحرا عليه . بعد ذلك يستلقى الاثنان متلامسين ، على ظهريهما على الأرض ، حتى تعود برودة الأرضية لإيقاظهما . عندئذ ينهضان ، بحرص حتى لا يتزحلقا في بلل الأرضية ، ويجدان أن أسعار الأسهم قد بدأت هي الأخرى تفقد حرارتها .

سواء كانت الشريكة فتاة صغيرة مندفة ، أو سيدة متوسطة العمر ، هو يعرف الطريقة المثلى لتناولها . بالذات مع متوسطات العمر هو أكثر من رائع . له دعابة تقول إن عبارة Nobody is perfect الإنجليزية ، بما خطأ في الهجاء ، والصحيح هو No body is perfect ، وهنا يأتي دورك . مثلا هو يعطى اهتماما هائلا لكنفى المرأة . الكتف هو المنطقة الوحيدة في الجسم التي لا تتجدد أبدا ، لا تسمن أبدا ، لا تترهل أبدا ، ولا تشيخ أبدا . اهتمامه الزائد بالكتفين بغمرها بالنظرات واللمسات والقبلات ، يجعل المرأة يملكها وسواس كبير نحوها ، ومن ثم تكتشف قدر جماهما . وحين تشعر المرأة أنها جميلة ، تصبح جميلة فعلا . أو هكذا يقول هو .

أهم طقس إطلاقا يجب أن يتلو الممارسة الجنسية الأولى ، هو أن يذهبا بسيارتيهما -الاثنتين معا- لمنطقة الأهرام ، ومن نقطة معينة على الطريق يبدأ كل منهما يرسم نصف قلب ضخم على الرمال . يبدآن من ذات النقطة ، يفترضاها الرأس السفلى المدبب للقلب ، ويسيران في اتجاهين متعاكسين حتى يلتقيان في عمق الصحراء عند قلب القلب . بهذا القلب الموقع رسميا ببصمات سيارتيهما ، يكونان قد أشهدا السماء على عهود الإخلاص الجديدة ، وطبعا يغريهما جوف الصحراء الهادئ إلا من نفحات بوق الريح السحري ، بمعاودة ما انتهيا عنده قبل قليل ، ثم بعد ذلك يواصل كل منهما رحلة العودة على الدرب الذى لم يسبق له أن سار عليه ، النصف الآخر للقلب !

المهم أكثر من أى شىء أن روميو يخلص في علاقته بهن ؛ بمعنى أن طالما صادق إحداهن ، فإنه يأتي بها كل يوم إلى رمسيس . ومعنى أنه يخلص في تعليمها المضاربة . ومعنى أنه يومية -ما لم تمنع ظروفها الخاصة- يدعوها لغداء ويرافقها حتى العشاء ويشاركها مهرجان المتعة الجسدية مرة أو مرتين . ومعنى أن الشق المادى لا يمثل أية مشكلة أو كأنه لا يصح تذكره أو غير موجود أصلا ، أيهما يدفع وكأن الأمر أتى تلقائيا ، أو يدفع هو لكن دون أن يظهر حرصه على ذلك ، حتى لا يجرح الفتاة الصغيرة إن كانت بلا موارد . أغلبهن لا يرغبن في تركه لفترات طويلة . هو يمنحهن سعادة يصعب العثور عليها في مكان آخر . هو يريد معهن حياة عاطفية وغير عاطفية كاملة شاملة . فقط حين يبدأ الملل يشق بينهما ، أو حين يبدأ التفكير في أن العلاقة يجب أن تنتقل لارتباط أطول مدى أحدهما ليس مستعدا له جدا بعد ، أو حين يحين وقت عودة الزوج من الخارج ، أو وقت أن جاء عريس يطلب اليد ، ينفصلان انفصالا وديا . المؤكد أنه لم يحدث قط أن خان روميو صديقة مع أخرى ، خلال فترة ارتباطه بها . والمؤكد أيضا أنه يراهن مجددا بعد الفراق في رمسيس لفترات طويلة لاحقة ، ولا يجمع بينه وبين أى منهن إلا كل ود وذكريات حلوة . أو كما قلنا يتركه جسديا على الأكثر ، إذ على الأقل يترك إدارة محافظته وديعة لبراعته المشهودة .



آثاره جنسيا تلك الابتسامة التي لا تبارح وجهها قط

لم يحس وحيد بالألفة أبدا تجاه الشقة المفروشة . أنت لا تفكر في تحسينها جذريا ، لأنها ليست ملكك . لا تستطيع التخلص من قطعة أثاث ، ولا شراء قطعة بديلة أو ربما مجرد لوحة أعجبتك . لا شىء ملكك ، أو على الأقل عليك أن تستأذن قبل أن تفعل شيئا . مثلا لو فكرت أنك في حاجة لوصلة كهربية أو هاتفية أو تليفزيونية أو لشبكة حاسوبية ، لن تقوم بإعادة تصميم التوصيلات ، ثم تقول لا بأس بدهان الشقة دهانا جديدا بألوان جديدة . فقط ستكتفى بتمديد السلك على الحائط أو حتى على الأرض . إحساسك هو فقط أنك ضيف ، نزيل فندق . لا شىء يعطيك الشعور بالدوامية إلا شىء واحد ، الإحساس المتواصل بالزوالية والعابرية . إن الشقق المفروشة فكرة فذة لتعليم الإنسان اللا مبالة . الآن مضى أسبوع ، واكتشف أنها ليست حتى فندقا ، وأنها على الأقل في حاجة لاستئجار أحد لتنظيفها .

لم يتذكر أن هناك شركات متخصصة تأتي بشغيلات النظافة ، أو لعله تخيلها لا تتعهد بنظافة المنازل إنما شركات البيزنس فقط . كل ما تذكره أن تلك كانت مهمة البواب في شقته القديمة بحى المهندسين (وطبعا في فيلا أمه) ، فراح يدق جرس الإنترنت طالبا من البواب الصعود . سعدت زوجة البواب ولم تقل له أكثر من كلمة حاضر ، من عيني . ظل لأسبوع آخر يستجدى البواب وزوجته أن ييحثا له عن شغالة ، فكانا يقولان إنهما لا يريدان أن يأتيانه بواحدة من الشارع ربما تكون لصة ، وأهما يحاولان . هنا عننت له فكرة أن يتصل بصاحبة الشقة التي قابلها لدقائق قليلة في شقتها بحى المهندسين يوم أخذه سمسار العقارات هناك لتوقيع العقد . هى شخصية لم يتح له الوقت الكافي لفهمها ، كل ما وجده فيها أنها امرأة محجبة خليط من العصرية والتدين ، هل هى عصرية ذات قناع متدين ، أم متدينة ذات قناع متعصرن ، لم يعرف ، ولم يهتم أن

يعرف . المهيم أنها أستاذة جامعية تتحدث بتهذيب ولو مصطنع تعامله بالتوجس المعتاد تجاه سكان الشقق المفروشة . هي تملك شقة جديدة قرب شغلها لكن يهيمها أن لا يقال إنها أجرت شقتها القديمة ماخورا . من هنا كانت مفاجأة حسنة أن عرضت مساعدته بحماس ، أو هكذا تخيل لوهلة ؛ فرما كان يهيمها أن ترسل له جاسوسة ، أو في أفضل الأحوال يهيمها أن تظل شقتها نظيفة . قالت له بحماس إنها سترسل له شغالتها يوما في الأسبوع . فقط عليه أن يزيد على أجرها المعتاد عشرة جنيهات قيمة المواصلات الطويلة .

هذه الخادمة امرأة شابة متوسطة الطول ، رشيقة الجسم ، بلا نحافة ولا بدانة ، جريئة الكلام . هو تعامل مع شغالات كثيرات في شقته التي باعها . وكلهن تقريبا كن يتوددن إليه ، ويتعمدن الشغل بالقرب منه ، بالذات عندما يكون وحده ، وبعضهن تبدأ اقترايبتها بعبارة : ' يا ريت يا أستاذ كل الرجالة محترمين زيك ' ، أو : ' أنا قابلت رجالة فلالات أدب كثير ' ، أو توجد طريقة أخرى أبسط هي أن تبدأ في الشكوى من زوجها . أو ثمة ستراتيجية مختلفة بالكامل ، أن تظهر لك أنها في حاجة للنقود بأى ثمن ، كأن تقول مثلا أنا أجمع تبرعات لإجراء عملية جراحية لابني . إنها كلها تلميحات تمهد الطريق للجنس ، الذى لم يفكر فيه مع أيهن أبدا . هذه الخادمة الجديدة جريئة ، قالت في الإنتركوم : ' أنا من طرف الدكتور زينب ، يا فندم ! ' . كانت تعلم أنه يعيش وحيدا ، لكنها دخلت سريعا ، وهى التي بادرت لغلق الباب خلفها . ألقت نظرة سريعة ، ربما للتأكد أن الشقة ليست ضخمة ومرهقة ، وابتسمت قائلة : ' كله تمام ! ' . في حمام الشقة الوحيد غيرت ملابسها بسرعة بأخرى جاءت بها معها ، وأصبحت بلا ذلك الإيشارب الرمزي الصغير ، أيضا ببساطة تامة . أخذت تسأل عن أدوات النظافة المتاحة ، فعرض عليها أن تشتري ما تشاء . قالت : ' ها أتصرف بإللى موجود ' .

بدا المنزل مختلفا بالكامل ، حين فتحت الخادمة كل نوافذه لأول مرة ، وغمر الضوء كل الأركان . بغتة ، تسلل لوحيد شعور شامل جارف . تجسد أمامه في لحظة أن حياته التي ارتضاها مؤخرا نفسه ربما أقرب لغير مظلم . لا تستطيع امرأة أن تحرك وحيد بسهولة . حتى نجحات أفلام الپورنو لا تحركه . أحيانا فقط تثيره بعض الأفلام الأجنبية الكبيرة أو قصاصات الفيديو الغنائية ، حتى تكون الفكرة الجنسية الكامنة خلفها مبتكرة وأصيلة ، وليست ذلك العرى أو رقص البطن الصريح المتواصل ، رغم إعجابه به . ورأيه أن الجنس ليس ثديا نافرا ولا سخونة تسرى من جسد لآخر ولا تأوهات النشوة ، إلى آخر التعبيرات التي يستخدمها ما بدأ يظهر في مصر في السنوات الأخيرة من أدب حافل بالمشاهد الجنسية . وقطعا الجنس ليس ذلك الطعن الميكاني اللانهاى بأعضاء شاهقة في أفلام الپورنو . كان يقول إن هذا أو ذاك ليس جنسا إنما پورنو . أنا لست ضد الپورنو ، إنما الفارق كبير . ويضرب المثل دوما بأفلام مثل ' جيلدا ' و ' غريزة قاعدية ' ، ويقول إن ما تقدمه ريتا هايويرث أو شارون ستون هنا ليس پورنو إنما جنسا . إن كلا منهما بسيطرتما وذكائهما أركعت كل رجل شاهدته في الفيلم أو شاهد الفيلم ، لدرجة أن تمنى أن تأخذه في تلك الرحلة الغنائية إلى جهنم . الجنس في رأيه مفهوم أو concept . ليس مجرد العرى أو الطعن أو التأوه حتى لو يكن مصطنعا .

إن جزءا من تقشف وحيد ، هو تعاليم أرسطو ، زرع به منذ الطفولة ، أو ربما ولد به . الترفع عن الشهوات هو ما يميز الأفراد عن بعضهم البعض ، ويميز الطبقات فيما بينها ، ويميز الشعوب والأعراق أيضا ، وتطرف في الفكرة إلى أن وصل بها لأعتاب الاكتفاء الذاتى ، أو ربما لشيء من الزهد ، الاستغناء . استوقفته للحظة مقولة ألبيرت أينستين إن الجنس أكثر متعة من الفيزياء ، أعجب بها ، لكن وجد من الصعب أن يجعلها منهجا لحياته ، حتى لو كان أينستين نفسه قد فعل العكس . ذلك الاستغناء لم ينكسر إلا مرات قليلة في حياته ، حين توسم أن علاقة ما يمكن أن تمنحه تلك الواحة التي تكمل حياته الآلية المنضبطة ، بعواطف جامحة تكسر كل قواعد العقل التي تسيطر على حياته ؛ لكن أيا من تلك العلاقات لم يدم طويلا ، إما لأن توقعاته كانت خاطئة ولم يجد الرومانسية الحققة ، وإما لأنه استمر بالفعل حياة الفكر والعقل بحيث لا يجد صبيرا أو إغراء قويا للمثابرة في بناء علاقة عاطفية . وبات يقول -وكأنه ينفذ شاغله عن الأمر- إنه لا سبيل للبحث عن الحب ، أنت لا تذهب إليه ، هو الذى يأتيك . أنت لا يمكن أن تسمح لامرأة أن تنام في حضنك بينما حياتها المهنية أهم شيء لديها ، والعكس بالعكس لا يصح أن تنام أنت معها وعقلك في مكان آخر . على الأقل الحب هو تلك الفترات -التي لا بد وأن تكون كثيرة وطويلة ومهمة- التي ننسى فيها تماما كل شيء ، ويصبح المحبوب هو كل شيء . لو قدر لى الوقوع في الحب ، حب التضحية والعطاء والتسليم المتبادلة هذا ، الشعاع السحري الذى يخترق القلبين فيبطل كل الحسابات والصفقات والشروط والمناورات والألعاب ، ويبطل العقل نفسه ، فسيأتى هذا في لحظة ورغما عنى ، وبلا مجهود أو قصد أو ملاحقة منى ، أو منها . ليس لدى شك أن لدى داروين تفسيرا لهذا السلوك البشرى الغريب لتسليم القيادة لآخر واثمانه على كل شيء (حتى وإن كان في نفس الوقت داروين عينه هو المستول بالأحرى عن إهمال الناس للحب وانشغالهم بصراع الحياة اليومية ولقمة العيش !) .

الربغبات عنده لا تصل أبدا لمستوى الشهوة العارمة التي يمكن أن ينجم عنها كارثة . هو يرى أنه لو كان الجنس شيئا جسديا ماسا حقا ففي وسع الإنسان ممارسته مع نفسه ، وهو بدوره شيء نادرا ما يلجأ له هو نفسه ، مرة كل أسبوع أو أسبوعين حين يلاحظ أن الأمور تكاد تنفجر من تلقاء نفسها ، ذلك رغم علمه بأن الإحصاءات تقول إن ١٠٠٪ / تقريبا من الرجال على اختلاف حيواتهم الجنسية يمارسونه بانتظام . جنسيا لا بد من شيء عميق ما حتى تتحرك الرغبة لدى وحيد . هنا -مع هذه الخادمة الجديدة- وقع شيء غريب مفاجئ : أثارته جنسيا تلك الابتسامة التي لا تبارح وجهها قط ؛ على بساطتها وحنوها (أو بالأحرى بسبب بساطتها وحنوها) ، كانت هذه الابتسامة واحدة من تلك الأشياء العزيزة المحركة لعروق الجسد . لكنه سرعان ما فكر أن خادمته قد تتراوح ما بين امرأة عفيفة جدا وعاهرة جدا . أنا لست ضد العاهرات إلا في شيء واحد ، ومحاولتهم سرقة لقب أقدم مهنة في التاريخ من رجال الدين ، لكنني من أجل النظافة لست مستعدا لخسارة أية شغالة . وسواء كانت امرأة سهلة أو صعبة هو لا يريد أن يخسرهما بأى ثمن ، ناهيك بالطبع أنه لم يشأ لنزوة أن تذله ، وهو لم يذل نفسه أبدا من أجل الجنس أو من أجل امرأة ، أو ربما من أجل أى شيء . هو لا يعرف شخصيتها بعد . كلا ، بل يعرف ، ويعرف يقينا . إن من تبسم مثل هذه الابتسامة الصبوح الصافية الطاهرة لا يمكن أن تكون عاهرة . لكن من أجل ذلك الوجه وتلك الابتسامة الجميلة التي استلبته ، والتي يستطيع -أو بالأحرى يحتاج- للاستمتاع بها لساعات طويلة ، هو لا يريد لنزوة أو لأى شيء أن يحرمه منه .

هذه الابتسامة التي أثارته جنسيا لوهلة ، سرعان ما تحولت لمصدر راحة عميق له دونما شهوة . ثم بعد قليل اكتشف أنها لا تفارق وجهها أبدا . بمجرد أن تشرع في الحديث معه (أو غالبا مع أى أحد) حتى تنفجر أساريها ، وتكشف عن سنة أمامية بارزة قليلا عن مكانها تزيد طلعتها إثارة . هذا شيء أحاذ . ظل يعاودها يسألها عن أحوال التنظيف ، يدعوها لتناول طعام أو شراب حتى تقوى على الشغل ، ثم يسألها عن نفسها ؛ فعرف أنها تعول ذلك الطفل الذي تتصل به بين الحين والآخر منذ أتت . عاد ليسأل عن ضرورة تنظيم الوقت هي وزوجها من أجل الطفل . فعرف أن زوجها ' طفش ' هربا من الإنفاق عليها وعلى ابنيهما . لا بد أنه فقد وظيفته في أيام الكساد العظيم الذي أتى به عاطف عبيد ، رئيس الوزراء الماركسي الذي كان يعتقد أن بطاقة التموين هي الحل ، ولم يفهم أبدا أنها المشكلة . وكان يسمى الإيجار التشغيلي الذي يمولى من خلاله بطاقات التموين خصخصة ، وينهب نقود المستثمرين مضاعفة مقابل مصانع لا تساوى شيئا إلا لو طرد عمالها وسويت بالأرض وبيعت هكذا ، طبعا مع وعد ضمنى بأن كل شيء يريدونه يمكن أن يمشى مع موظفي الحكومة بالرشاوى ، وأنهم سوف يعوضون ما دفعوا . وهو ما لم يحدث سواء برشاوى أو بدون . أنا نفسى فكرت في شراء دور عرض سينمائي لشركتى ، لكنني تراجعت بعد أن قرأت الشروط وعرفت الخديعة . إنها ليست خصخصة إنما عملية نصب حكومية ، شراء سمك في الماء ، بل تحديدا سمك ميت عفن . أنا غير آسف على الزملاء الذين غرر بهم الرفيق عبيد وأقعهم بتأجير تلك الدور أو أية شركة ، فهم يستحقون ما لحق بهم من خسائر ، سواء كانوا مخدوعين أو كانوا منفتحين للبيزنس الفاسد . ككل يا ستى كاد رئيس الوزراء هذا يقودنا لكارثة محققة لولا أن أتى الدكتور أحمد نظيف وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه . أتقولين أنك كنت تكدهين كل هذا فقط كي تشتري الحشيش لزوجك ، وأنه ربما قتل نفسه بعد أن هرب كما يفعل الكثيرون الآن ؟ أنتى اسمك إيه ؟

حين همت بالمغادرة طلب منها التليفون فأعطته له ، وهو تليفون جار آخر في المنزل . قال إنه سيجهز المزيد من أدوات النظافة ، وسألها هل تريد هي شراءها بنفسها ، فلم تبد اهتماما كبيرا ، وقالت : ' دعنى أتصرف ، سأتى أنا من بيتى بفقطة للمسح ' . حسب صاحبة الشقة وحسب ما كررته هي ، كان اسمها حتى اللحظة أم كريم . سألتها عن اسمها الحقيقي ، فلم تتردد في ذكره . إنها ليست متحفظة أو ممن تحجلن من ذكر اسمائهن . اسمها رمانة . ربما فقط كانت تحجل من سخرية البعض منه ، أو لما يمكن أن يبنوا عليه من تلميحات جنسية . لكن ها هو هذا الأستاذ يقول لها إنه اسم جميل وفريد جدا من نوعه ، فزادها هذا ابتساما على ابتسام . وأخيرا ودعها بعلاوة العشرة جنيهات التي اشترطتها صاحبة الشقة ، وبعشرة جنيهات أخرى إضافية تماما ، تلقى في مقابلها وابلا من الشكر .

تذكر وحيد صديقا له من أيام الدراسة . كان من أسرة ثرية للغاية ، وكان حين يأتي الحديث للزواج ، كان يقول إن لديه شرطا واحدا : ألا تكون ' وش نكد ' . هذا كان غريبا جدا . نعم لم يكن أحد يجرو أو يفكر في أيام أفلام الحرية الجنسية الكبرى تلك ، أن يقول إن الزواج فلوس أو صفقة ، لكن أيضا كان الكلام كله عن التوافق في الفكر والثقافة والاهتمامات والميول وحب القراءة والفن ، هذا إن لم يكن من شبه البديهي لدى الجميع وقتها أن الفيصل في الزواج هو الحب . كيف تأتي لصديقه أن يهمل كل هذا ، ويتكلم عن خشية النكد لا أكثر ؟ ساعتها بدا له هذا الصديق تافها غير مثقف ، ويطلب من الحياة شيئا متواضعا للغاية . منذ أيام تذكر هذا الصديق حين سمع إدوارد يشكو لضهرى من أحدث مكائد زوجته ' التي تصارع ذباب وجهها ' كى تنأى عن تحسيسه بأن بينهما شراكة ومصير واحد ودون أن تقول أو حتى تعرف ما الذى تريده

بالضبط ، فقط سخط لمجرد السخط ، فقال وحيد : ' ربما كان صديقي ذلك أكبر طموحا مما تخيلت ' . اليوم عاد ليتذكره من جديد ، لكن الإحساس يختلف . لا شك أن رمانه هذه تعيش حياة قاسية بائسة . كيف إذن لا تبارحها أبداً ابتسامة الرضا المهذبة الوادعة هذه ؟ زوجة إدوارد لديها الكثير ، لكنها تبحث عن الشقاء بحثاً . لم يفهم كثيراً كيف يكون هناك أناس يستمتعون بالنكد . لم يفهم كثيراً لماذا عندما يضحك المصريون ، يردفون فوراً : ' اللهم اجعله خير ! ' . لكن بالأحرى لم يفهم بالمرّة لماذا لا تنمحي قط تلك الابتسامة عن وجه رمانه ، وكأنها ' سترتها ' الوحيدة التي تتلفح بها من برودة الزمن .

لقد وصل بعض الفلاسفة لأن السعادة أو اللذة هي الغاية العليا للإنسان . ربما هناك أيضاً تفسير دارويني للسعى للسعادة ؟ أية نوع من الآليات التكيفية تكون ؟ هل لأن صفاء الذهن والروح يعزز قوة العيش داخل الإنسان ؟ هل لأن التفاؤل آلية تقوية لمقاومة الألم والإحباطات ؟ لكن لماذا يبدو البعض على العكس تماماً ، يقتاتون على التعاسة والتوتر وعلى بيئة تملؤها المشاكل والصراعات ؟ ما قول داروين هنا ؟

أنا محطم مكتئب يائس لأن لي أسبابي ؛ لكن ليس لرمانه أسبابها أيضاً التي كان يمكن أن تجعلها أشد حزناً وقنوطاً مني ؟ أية قوة تلك التي تضع تلك الابتسامة اللطيفة التي لا تقدر بمال فوق هذا الوجه الطيب طوال الوقت ؟ لم يكن لدى يوماً وقت للتفكير في مثل هذه الأسئلة ، واليوم تلوح لي الدنيا كلها كلغز كبير . الأرجح أن السعادة هي أحد تلك الأسرار التي لا مفتاح لها . ربما على أن أبحث عن صديقي هذا ، لأرى إلام انتهى مسعاه ، الذي بدا يومها سهلاً جداً في نظرنا .

حين قال وحيد ذات يوم إنه سيبقى في البيت في اليوم التالي ، حيث اليوم الذي سمحت فيه صاحبة الشقة لرمانه بالقدوم إليه للتنظيف ، لم يفهم ونس التعليق على الاسم : ' أنا كمهندس أعرف رمانه بلى ، رمانه بلح ، إنما أول مرة أسمع عن رمانه حريمي ! ' ، ويحاكي بيديه المكتظتين صورة تديين كبيرين . وكان هذا أحد أيام ونس العالية القليلة ، إذ سرعان ما بهر الجميع بذاكرته الغنائية . بدأ بأغنية لمحمد رشدي ، وتلاها بنحو عشرين أغنية مختلفة تدور كلها حول الفواكه !

أما روميو فيعلق قائلاً لوحيد : ' تعال معي يوماً لوأدى السيليكون ... ' .

- ماذا ؟

- أقصد للسيتي ستارز ، وستجد هناك كل الرمان والتفاح والموز والمانجو والكمثرى الذي تريد . التين الشوكي بس هو إلهي موش موجود !



المنظمة الدولية التي يسمونها الأمم المتحدة لا تكيل بمكيالين ، إنما بكفة تزن ٢٥٠٠ مرة ضعف الأخرى !

هناك مسافة تزيد عن المتر بقليل تفصل ما بين المكتب المستطيل والمائدة المستديرة . في هذه يوضع عادة مقعد خامس ، على يمين الجالس يوجد روميو فونس الذي يجاور الحائط ، وعلى يساره سيجد زهري فوحيد الذي يجاور بدوره الحائط الآخر .

إحنا هنا الخمسة الدائمين ، ولو أي حد فينا قال لك ما تشتريش أو ما تبعش ، تسمع الكلام . كمان خد بالك فيه حاجة اسمها الفصل السابع ، ممكن نخرج عليك ونخطك في مصحة ! كثيراً ما تسمع هذه العبارة من روميو حين يريد -بجزمه الظاهري المعتاد- تحذير أحد ما من قرار استثماري يوشك عليه . النصائح دائماً غير مباشرة مثل : ' نشنت يا فالخ ؟ ! ' ، التي تعني سوء الاختيار . أو تأتي في صيغة أغنية يرد بها ونس ، مثل : ' ع الحلوة المرة ' ، التي تقترح التمسك بالسهم ، وهكذا . على أنه بمرور الوقت تنبهوا لأن قرارات مجلس الأمن يجب أن تكون أكثر وقاراً ، بل وتحديداً تكون ذات صلة مباشرة بالسياسة والسلم العالميين ؛ فأصبحوا مثلاً إذا أرادوا تحذير عميل يريد الشراء ويرون أن السعر قد ارتفع يقولون : ' إني أحذر إيميريكا ! ' ، في محاكاة لأسامة بن لادن . أو إذا أرادوا التحذير من البيع لأن السهم لا يزال قويا يقولون : ' الإمن مستتب ! ' ، بكسر الهمزة وكسر الميم الثانية ، على طريقة شيوخ غفر الأفلام المصرية القديمة التي تدور في الريف . وإذا أرادوا التحذير من سهم حقق شهرة عالية ثم اتضح أنه أكلوبة يقولون : ' اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، سقط الطاغية ! ' ، متأسين بطقوس إعدام صدام حسين . أما إذا أرادوا تأييد قرار استثماري ما ، سهم الأحذية مثلاً ، فليس هناك أفضل بالطبع من : ' بالروح ، بالدم ، نفديك يا جزمة ! ' .

بالذات العبارة الخاصة بصدام حسين كانت تنطوي على مفاريتين هائلتين : الأولى أنها نصيحة ارتبطت أول ما ارتبطت بشركة كويتية ! شركة ضخمة اسمها ' القابضة المصرية الخليجية ' ، انتهى الأمر بصاحبها إلى السجن ، بعد أن كان أغنى أغنياء الكويت ، والأسرة المالكة نفسها تعهد

له بأموالها ليستثمرها لهم ؛ والسبب هو فشله في إدارة ما يشتريه من شركات ، زائد بذخه الشديد ، ليس من جيبه الشخصي طبعاً ، إنما كجزء من مصروفات الشركة القابضة هذه . هذا البذخ الذى رآه ونس رأى العين أيام إقامته بالكويت وأخذ به ، هو الذى أقنعه بأن يضارب بجزء الدولارات الذى يملكه ، على سهم هذه الشركة . ظل يشتري ويبيع ، دون أن يلحظ أن السهم ينزل للأسفل شهراً بعد شهر ، إذ انفض عنه المضاربون الكبار أنفسهم . نبهه وحيد لذلك ، من خلال الأرقام ربع السنوية للميزانية ، وكان أول من أطلق نبوءة أثارت عليه حنق وسخرية القاعة كلها ، أن هذه بوادر إفلاس ، وكارثة سوق المناخ بصدد الوقوع ثانية ، وأن الرجل -أسطورة الكويت الخرافية- سيذهب للسجن لا محالة .

تدرجياً بدأ ونس يستغرب أمر الشركة ، وبدأ ينسحب تدريجياً منها ، وأضحى يغنى لها أغنية ملتبسة المعنى تقول : ' أهواك وأتمنى لو أنساك ! ' ، ثم بعد أن خسر معظم دولاراته ، رفض نصيحة وحيد باستثمارها استثماراً طويلاً في النايلسات أقوى وأيضاً أرخص سهم دولارى في نظره آنذاك ، وفضل تحويلها للجنيه المصرى للمضاربة على أسهم تافهة كالعادة . هنا تكمن المفارقة الثانية في عبارة سقط الطاغية . إن ونس الذى هو أكثر من يرددها الآن ، هو نفسه أكثر من تأذى من السبب الأصلي التى استخدمت في القاعة لأجله . لقد نسى ونس كل ما جرى له بسرعة ، وتحول لأحد أعنف المهاجمين للشركة الكويتية ، وكان أول من استجلب عبارة سقط الطاغية ، لتحذير الجميع منها . ثم عندما أفلست الشركة وحوكم صاحبها ، ادعى لنفسه أنه صاحب النبوءة !

للدقة هم ليسوا أعضاء دائمين بكامل معنى الكلمة ؛ فالمقعد الخامس يمكن أن يتناوب عليه أى أحد ، بالذات نبيل دائم التنقل بين الناس . لكن الديمومة شيء نسبي ، إذ عرف هذا المقعد بين الجميع بأنه المقعد المخصص لصديقة روميو : مقعد السيتى ستارز .

ذات مرة خطر فجأة ببال أسد ، صديق رزق وعارف وأكثر الثلاثة ألفة ومودة مع كل الناس في القاعة ، أن يقترح تسمية الأعضاء الخمسة الدائمين . قال : ' أستاذ وحيد أميركاني خالص . عم ضهرى راجل كبير وعافل يبقى هو بريطانيا ! ' ، وبسرعة أضاف إدوارد : ' روميو هو فرنسا ! ' ، فإذ هذا مازحاً مستنكراً وكأنه يتباهى بثنائته الجنسية : ' قصدك إيه ؟ ' ، ' لأ ، موش قصدى إल्ली في بالك . قصدى أنك بتلعب على كل الحبال ، شوية مع السى آى بي ، أميركا يعنى ، وشوية مع الغلابة إल्ली زينا ، وكده ! ' . يعود أسد : ' وعم عبده تحين وقصير ، يبقى هو الصين ! ' ، وكالعادة يعترض ونس على أى شيء بعكسه ، ولو كان العكس قد قيل لكان قد اعترض بعكس العكس : ' وليه ما تقولش الدب الروسى ؟ ! ' يقع أسد في حيرة : ' طب وبعدين ؟ ' . يقترح ونس أن يجلس على الكرسيين سوياً ، كل فردة على كرسى . فيسخر ضهرى : ' وليه الطمع ده ؟ قيتو واحد يكفى ! ' ، ويجد إدوارد الحل : ' خلاص يا أسد ، المقعد الخامس هو إल्ली يحدد . لو جت فيه الأول واحدة روسية يبقى ونس كماله عدد الصين ، ولو جت واحدة صينية ، يبقى ونس الدبة بتاعتنا ' . ' بس ونس ما ينفعش ، الشيوعيين نشفانين ربيعين وموش لاقيين يأكلوا ؟ ' ، ' ماو تسي تونج كان نشفان ؟ ! ' ، ' ده رئيس الحزب ! ' ، ' خلاص ! يبقى عندنا ماو تسي تونج وعندنا الدب الروسى وعندنا ونس الديمياتى ! إيه المشكلة ؟ ! ' . وفعلاً تتجح الفكرة ، إذ بعد قليل جاء روميو بفاتنة روسية شقراء ، فأصبح ونس هو ' الرفيق ماو ' . ظلوا شهوراً على هذا الحال رغم تغير الفتيات ، هذا إلى أن أتى روميو بحسنة صينية بملامح أوروبية ، فقال ونس ضاحكاً : ' أمرى لله ، دلوقت بقيت أنا الدبة ! ' .

في كل مرة يأتون فيها على ذكر مجلس الأمن أو المقاعد الخمسة يكرر وحيد ذات الرأى . إنه ينفى ضلوعه في المسرحية ، ويتبرأ من أى انتساب للأمم المتحدة ، ويعلن أنه لا يعترف بها ، وبأنها لا تمثل عدالة من أى نوع ، بل هى منظمة لحكام العالم الثالث ، الهدف منها حماية إجرامهم وفسادهم واستغلالهم لشعوبهم ، وتمردهم البلطجى على أميركا ، وابتزازهم لكل العالم المتقدم من أجل المعونات التى يهبونهاهم كالمتوقع . ويضرب المثل بأن ناتج كاليفورنيا أكبر من ناتج خمسين دولة منهم . لها ١ من خمسين من مقعد واحد ، ولهم هم خمسون مقعداً . أية عدالة هذه ؟ المنظمة الدولية التى يسمونها الأمم المتحدة لا تكيل بمكيالين ، إنما بكفة ترن ٢٥٠٠ مرة ضعف الأخرى ! ثم يقولون بعدها إنهم لا يزالون مظلومين وأميركا هى المهمة ؟ !



- أنت عنصري ؟

- أشكرك ! تبنى الحقيقة العلمية لا يمكن أن يكون تهمة !

طبعاً يفهم ونس من مثل هذا الكلام أنه محاولة غير مباشرة - لكن مفضوحة - للحد من هيمنته هو شبه المطلقة على القاعة وسكانها ، فيقول :
' يعني أنت عاوز تنفرد بالرأى وحدك هنا ؟ ' .

- إالى أنا شايغه أن ما حدش بيقول رأى أصلاً غيرك !

- أنت عنصري ؟

- أشكرك ! تبنى الحقيقة العلمية لا يمكن أن يكون تهمة ! أنت فاكرها ها ترعلنى ؟ أنت خلليتنى زى أرسطو . زى كل المفكرين العظام . زى
أنا الطبيعة . شكراً بجد !

ويتدخل زهرى مدافعا عن صديقه الجديد : ' من سنتين لما كان واحد فى أوروبا يقول لك أنا متقدم لأنى أبيض وأنت متخلف لأنك عربى
كان يدخل السجن بتهمة الكراهية . النهارده لو قال لك كده ، بيعتبروه بيقول حقيقة علمية . من حق كل شعب يقول على نفسه أنه أفضل
الأعراق أو شعب الله المختار أو خير أمة أخرجت للناس ، لكن التقدم هو الفيصل لو أنت متقدم يكون كلامك عن نفسك حقيقة علمية بسيطة
وبديهية ، ولو متخلف تكون ببساطة أنت العرقى المتعصب العنصرى . صحصح يا حبيبى : لا يوجد اليوم قانون عقوبات فى الدنيا يعتبر العرقية
تهمة ! التسامح حاجة كويسة ، لكنه لا يستطيع ولا يصح أن يلغى العلم . أنت ما سمعتش عن حاجة اسمها جينيات ؟ ! ' .

ويواصل وحيد غير عابئ بالتفريعات والاستطرادات : ' نموذج الأمم المتحدة ، النموذج الذى يروج له البعض بشراسة ، سمه بالأحرى نموذج
الجمعية التعاونية ، أو بلغة الحاج زهرى الزراعية سمه النموذج الطحلى البدائى ، نموذج المائتى رأى وليس الرأى الواحد الوحيد القائد . هذا هو
الوصف الصحيح ، طحلب ! الكل خلايا موحدة متساوية الرؤوس ، سمه النموذج الإنسانى أو الديمقراطى أو الاشتراكى ، سمه كما شئت ، هو
نموذج لا يصلح نهائياً لأى مجتمع ، بل هو تحديدا الذى لم يؤد تاريخياً لأى مكان . لم يؤد إلا لاضمحلال وانحيار الحضارات . هو يرى ويريد العالم
كيانا متساوى الخلايا وظيفياً وقيماً ، بينما الثورة التقنية والاقتصادية ثورة تتضرع طالبة قيادة عليا ، مركز وظيفته الرؤية الشاملة والتوجيه ، ثورة
تستصرخ أن لن يكتب لها البقاء - ناهيك عن الازدهار والنماء - دون نموذج إمبراطورية كوكبية ، نموذج البيزنس الذى تدار به أية مؤسسة أو شركة
أو جيش أو أى شىء بأدنى قدر من الاستعداد على ظهر الأرض ، ' متعضية ' (يتدخل زهرى : ' إالى اخترع الترجمة دى كان أستاذى ' ،
ويؤمن عليه نبيل محبياً بإشارة من قبضة يده) ، organism متخصص الخلايا والأعضاء والوظائف ، له مخ وله عضلات ، وكلاهما شديد
التمايز عن الآخر . ده بيقول أنا مخ ووظيفتى أنى مخ ، وده بيقول أنا عضلات ووظيفتى أنى عضلات ؟ ' .

- (يضيف زهرى ساخراً :) وده عضو إخراج بيقول وظيفتى إخراج الفضلات ! (وبسرعة يأخذ الحوار بجدية أكبر :) طب والحل ؟

- فيه حل ؛ الهندسة الجينية . ها تخلق كائنات بمواصفات فائقة ، ها تخلق قادة بالمواصفات إالى تخيلها أرسطو . صح ولا غلط يا حاج ؟

لا يرد الحاج ، ولا يفهم وحيد لماذا يصبح كلام زهرى مقتضبا كلما تطرق الحوار لمنطقة الجينيات .

تمر الأيام ، ويتكرر مثل هذا الجدل ثقيل الظل من حين لآخر . أما التندر على المقاعد الخمسة فقد أصبح عادة شبه يومية فى شركة
رمسيس . لو سأل أحد من القاعة : ' يا رفيق ماو إيه أحسن سهم بالدولار اليومين دول ؟ ' ، يقول له : ' عندك رئيس أميركا نفسه ،
اسأله ! ' . ولو سأل أحد : ' شركات السياحة طالعة لفين يا حاج إنجلترا ؟ تفتكر سهم التدليك ها يوصل لكام ؟ ' ؛ فيرد بغضب : ' أنت
شايغنى بتاع تدليك ؟ اسأل بريجيت باردو ! ' . أما ذروة النوادر فتأتى بالطبع حين يخلو المقعد الخامس ، مقعد السيتى ستارز ، ويذهب أحد من
القاعة للجلوس إليه .



أنا كنت عذراء من ٥ دقائق بس !

تنهار أسهم شركات الصيدلة (إنتاج الأدوية) والمستشفيات بسرعة . هذا قطاع اقتصادى كبير يضم الكثير من الشركات ، بدءاً من فروع
شركات الصيدلة الأجنبية العملاقة ، مروراً بشركات الصيدلة المصرية الأصغر ، وشركة المستشفيات الحديثة التى تضم سلسلة تعم البلاد أغلبها من

مستشفيات حكومية تمت خصصتها جزئياً ، وانتهاء بالمستشفيات الفردى المقيدة بالبورصة . يتصل ونس بزوجته فى دمياط : ' عندك أخبار ؟ ... مكتوب إيه ع الإنترنت ؟ ... طب وإيه يعنى ؟ ... ما إحنا عارفين أن نقابات الأطباء والصيدالة عاملين اعتصام من أسبوعين . وعارفين أن كل ما تبقى من المستشفيات الحكومية ها يتخصص دفعة واحدة لشركة إنجليزية ' .

يبدأ ونس الشرح للعيون الواجمة المحدقة فيه : ' الإخوان المسلمين ! الحكومة علشان تضرب المعتصمين لفت على كل مستشفيات وصيدليات الإخوان . النقباء طلعوا تصريح أن لا تفتش علينا الشرطة ، لا أمن صناعى ، لا شرطة أموال ، ولا شرطة مصنفات فنية ، ولا مباحث أمن دولة ، إنما فقط وزارة الصحة . والصيدالة والأطباء بقوا ييضربوا الشرطة لما بيدخلوا لهم ، والمظاهرات على ودنه . الظاهر الإخوان موش ها يطلوا البلطجة بتاعتهم أبدا ' .

يقول ضهرى بصوت عال : ' طبعا بلطجة . يعنى إيه الأمن الصناعى لا يفتش ؟ عندك مواد ملتهبة ، وأنت جزء من عمارة ، وما عندكش طفايات . ده اختصاص المطافى موش وزارة الصحة . عندك ملايين كاش فى خرنتك بره كل الحسابات الرسمية ، ده غسيل أموال ومن اختصاص شرطة الأموال موش وزارة الصحة . عندك كمبيوتر وبرامج مسروقة ، ده اختصاص شرطة المصنفات موش وزارة الصحة . عندك منشورات وعامل اجتماعات تنظيمية ، ده اختصاص مباحث أمن الدولة موش وزارة الصحة . خللى الرشاوى على جنب ، أشطر ناس فيها دفع وقبض سوا . هم بس يوعظونا طول الوقت فى الفساد والأخلاق والشريعة وهم أفسد الفاسدين ؟ ' .

ويفاجئ ونس الجميع برأى استنكارى يدعى المعرفة بخبايا الدين ، وإن لم يعلقوا عليه ، أو ربما لم يفهموه : ' مين قال الرشوة حرام ؟ ! موجودة رسمى فى القرآن واسمها المؤلفه قلوبهم . الإسلام نفسه كان بالرشوة . سفيان بن حرب هو شيخ المؤلفه قلوبهم ؛ على الأقل كل بنى أمية دخلوا الإسلام بالرشوة ، ولم يحدث أن أمن أحد من سلالتهم به يوماً ' .

ويعلق عارف (ثالث الأصدقاء الثلاثة سالفى الذكر) : ' كفاية عليهم الإشاعات . كل الموبايلات ومواقع الإنترنت شغالة اللهم صلى ع النبي . الوزارة ها تتشال . الوزير ده مغضوب عليه . الوزيرين فلان وفلان متخانقين على هبرة مع شركة أميركانى . خايبين حتى فى الإشاعات . هم الأمريكان بيدفعوا رشاوى ؟ ! إمبارح وصلتنى ٧ رسايل عن أن الرئيس سافر يتعالج . كل يوم دلوقت بقى بيتعالج فى ٣ مدن أوروبية مختلفة ، بينما هو بيفتتح مشروع جديد فى قنا ! ' .

طب وإيه العمل دلوقت ؟ ، يسأل أسد . وينقسم مجلس الأمن على نفسه ، النصف الأيسر يقول له بع بسرعة . ويضيف ونس بلهجة تقريرية جازمة مستشهدا بالشاشة : ' العك التنازلى ابتداء ! ' . عبارة معتادة له فى مثل هذه المناسبة ، يذكر له أنه الذى نحتها وأعجبت الناس ، لكن يؤخذ عليه أنه يقولها معتقدا أنه يعطى معلومة لم يلحظها أحد سواه ، وأنها أيضا تصف لحظة لا يجبها أحد . ضهرى ووحيد ينصحان بالترث ، مرجحين أنها زوبعة وسوف تستقر الأمور ، وتعود الأسهم لطبيعتها . ينضم عارف لهما قائلاً : ' هذه ليست أول مرة . هذه النقابات فعلتها من قبل مع كل مرحلة خصخصة لشركات الأدوية لمستثمر أجنبى ، والآن يكررونها مع كل مرحلة خصخصة للمستشفيات . اذكر كلمة أجنبى حتى يجن جنون الإخوان . ثم يذكرهم بمرات متعددة محددة استطاعوا فيها هز البورصة ، لكن فى كل مرة لم يدم الأمر أكثر من يومين ، وعادت الأسعار لأفضل مما كانت عليه ' . ويتساءل أسد : ' أليس من المفروض أن يشكروا الحكومة ، إذ وفرت عليهم تكاليف السفر ، وأتت لهم بالأجانب حتى عندهم ، كى يقنعوهم بالإسلام ما شاءوا ؟ ' . ثم يعود ونس ليفيض فى فلسفاته الدينية : ' أنا فى طفولتى تصورت أن الحديث المعنعن هو الحديث الضعيف لأنه يحتل الدس والتحريف خلال تلك السلسلة الطويلة مهما كان حسن نية هؤلاء ، لكن اكتشفت حين كبرت أن العكس هو الصحيح ، وإن لم أفهم كيف حتى اليوم ؟ نحن نعرف كتاب الموتى لأن لدينا بردية له ولدينا نقوش وحواظ ومسلات . نعرف بالحرف ما كتبه هوميروس وأرسطو وأفلاطون لأن المخطوطات متاحة ولم تحل مدينة فى العالم القديم من مكتبة ، بل الكثير من أدبيات التاريخ لا تزال محفوظة بخطوط أصحابها الأصليين ، أما العرب فببساطة لم يكونوا يعرفون أى من تقنيات رجس الشيطان هذه ، وليس لديهم من آلية للحفظ والتوثيق سوى الرواية المعنعة المباركة والرواة الثقة المباركون ، ويوم رأوا الكتب لأول مرة فى مكتبة الإسكندرية حرقوها فى الحمامات وأبقوا على أغلفتها لصنع أحذية التى بدورها بما شبهة رجس الشيطان . أصبحت أسأل : هل هناك حقا شىء اسمه رواة ثقة ؟ هل يروون عن هارد ديسك أم فلاش ميمورى ؟ أم يروون عن أهواء وتصورات ذاتية ؟ أما عن محتوى الكلام فأولئك النقليون نكتة متحركة . بمجرد أن تفتح موضوعا معهم يهرولون لمراجعة الإسناد ، وكأن محتوى الكلام لا يعينهم بالمرة . ثم حين تجربهم على تأمل فحوى الكلام لا ينجحون من المجاهرة بأنهم يؤمنون بالنقل

ويرفضون العقل ؛ يرمون النبلة لأن هناك نصا لمحمد يجرمها ، ويحللون القنبلة النووية ليس لأنه لم يأت فيها نص (فلا يوجد شيء حتى آخر الزمان لم يأت فيه نص) ، إنما لأن نص النبلة نفسه هذا ، نحى عن النبلة لأنها لا تقتل ، ويعتبر هكذا سندا قويا جدا للقنبلة في نظرهم . ' هو ما يعرفش أن داود أصبح نجم النجوم وملك الملوك بسبب نبلة ؟ ! ها ! ها ! ' . ' خلونا في الجد : هم يفعلون كل هذا بينما منهج البخارى نفسه في انتقاء الأحاديث -بغض النظر عن علميته من عدمها- هو من صنع عقله هو ، ومثلا توجد له أحاديث مقطوعة أو معلقة وهذا عكس منهجه ، لكنه فتح المجال للاستثناءات من باب تقديره هو الشخصى للراوى أو تقدير الراوى للحديث أو الاثنين معا . طبعا هم لا يهمهم بقشرة بصلة تعارض القرآن أو الحديث مع العقل ، لكنهم حين يجدون تناقضا بين آية وآية أو حديث أو حديث وحديث أو منها وخبر أى واقعة ، تبدأ مشاكلهم ، وحين ' يغلب حمارهم ' يضطرون لتأويل أحد المتناقضين على محمل روحى ، فهم يعلمون أن هذا خطر جدا ، وأنه يزرع قنبلة موقوتة قد تهدم أساس عقيدتهم ، لأنى مثلا أستطيع القول إنه يمكننى الصلاة بقلبي والصوم بقلبي والزكاة بقلبي والحج بقلبي ، وهلم جرا . المهم ، تظل نقطة ضعفهم قائمة : إذا كانوا يلتزمون بالحرف ويرفضون التأويل فليتزموا حتى النهاية ! ' . ثم يستدرك بضجر : ' إيبسيه ! إذا كان النقلون نكتة متحركة ، فالعقليون نكتة أكبر ، فلا يوجد عقل فى الإسلام . الإسلام ما فيهوش غير إسلام ؛ تسليم وإذعان ' ... وطبعا لم يفهم أحد شيئا !

الوحيد الذى يبدو دائما مستمتعا باختيار الأسعار هو سامر . اصطبغ الشاشة بلون الدم ، يعطيه فرصة فى تمرير بعض التلميحات الجنسية لميرفت ، وله هو أيضا عبارات مشهورة لمثل هذه المواقف : ' قمصان النوم اشتغلت ! ' ، أو ' الدم ابتداء ينزل ! ' ، يتلقى جزاء كل تفوه بإحداها ، لكزة عنيفة غاضبة فى جانبه ، يتأوه لها بتلذذ ! هذه التعليقات معتادة من سامر فى كل مرة يسيل فيها الدم على الشاشة ، لكن كونها قد جاءت هذه المرة مقرونة بالحديث عن المستشفيات ، فقد أوحى لروميو بمشروع تجارى عظيم آخر من مشاريعه الكثيرة . طلب من سامر أن يترك ميرفت قليلا ويأتى إليه ليناقتها معه بصوت منخفض : إنتاج ذات الجوارب النسائية الحريرية البيج الشفافة الطويلة التقليدية ، لكن مع طباعة بقع حمراء واسعة عليها تغطى منطقتى باطن الفخذين ، ثم تمهبط أنحل شيئا فشيئا لتصبح كما خيوط دم رفيعة !

- (وقد حازت الفكرة إعجابه بشدة :) ها تنجح جدا ! كأن الواحدة بتقول أنا كنت عذراء من ٥ دقائق بس ! تحب نشرك مستر وحيد معانا ؟ هو بتاع الرأسمالية المتوحشة وها تعجبه أوى الفكرة !

- خليها سر بيننا أحسن ، بدل ما بيسموا الأيام الغيرة إالى زى النهارده ، الاثنين الأسود والثلاثاء الأسود ، ها نسميها إحنا الشرايات الحمرا !

أما وحيد فيتساءل فى خبث : ' يا عم ونس ، التحليل التقانى واخذ أجازة ولا إيه النهارده ؟ ! إيه رأيك تتصل بـ ' هو ' بتاعك خليه ينقذ الأسعار ! ' .

- ' هو ' مين يا عم ؟ البورصة دلوقت فيل ونازل من السما ، مين يقدر يحط إيده تحتة علشان يوقفه ؟ ثم إن موش عاوزين هزار فى يوم أسود زى ده . كل الناس دى قلبها فى رجلها ، ولو الموضوع طول يوم أو اتين ها نبتدى كلنا نخرج إشارات المرور علشان نبيع فيها مناديل ورق ! (ثم لا يلبث أن يمزح هو نفسه :) السوق ده نازل فى بير ما لهوش قرار ، علشان كده سموه bear market !



لنكن صرحاء : أى شيء يفوق الولاء للوطن !

- أنت إيه رأيك فى المسيحيين ؟

- المسيحيين ولا الأقباط ؟

- هو فيه فرق ؟

- الأقباط هم مسيحيين مصر .

- عارف دى طبعا ، وعارف أن كلمة قبطى معناها مصرى . إنما ما كنتش أعرف أن فيه فرق . المهم ، إيه رأيك فيهم ، دورهم فى المجتمع ،

طباعتهم ، شخصيتهم ، كده ؟

- زى قلتهم .

- ماذا قلت ؟ أهذا رأى يمكن أن يصدر عن شخص ليبرالى مثقف مثلك ؟

- أنا قربت أبتحن من تعريفات الليبرالية حسبما يفهمها المصريون . فى أميركا كلمة ليبرالية مسروقة من معناها الأصلي إلى هو الليبرالية الاقتصادية ، وحطها الحزب الديموقراطى يافطة على الشيوعية بتاعته إلى هى العكس بالضبط . عادى ! إنما على الأقل لما بتسمعها بتفهم إيه المقصود بها ، إنما هنا فى مصر الموضوع مشكلة . البعض فاهم أن معناها أنك تكون على الحياء ، ما لكش رأى أو موقف ، وناس بتستخدم كلمة liberal كمرادف لكلمة loose ، أو نوع من توهان ما بعد-الحداثة ، وناس فاهماها حرية أى حد بمن فيهم أعداء الليبرالية ، وناس فاهماها الانتخابات ، وأدى ناس فاهماها أنها مجرد التسامح بين المسيحيين والمسلمين !

- حكاية التسامح الدينى دى موجودة من أيام حزب الوفد القديم ، بالذات لأنها أدت لتحاشى فتنة طائفية ضخمة آنذاك . المشكلة إلى موش واخذ بالك منها فى التعريفات دى ، أن لو الموضوع بكرة مشى شوية فى الإعلام ، يطلع علينا الإخوان -أو إلى بتسميهم أعداء الليبرالية- يقولوا الليبرالية هى سماحة الإسلام ، ووسع يا جدد إحنا بتوع الليبرالية !

يضحك روميو : ' زى ما قالوا إحنا بتوع التعددية ، وطلع قصدهم تعدد الزوجات ! ها ! ها ! ' .

لكن وحيد لا يبدو فى مزاج متحمس لمناقشة الشأن الدينى ، فيواصل : ' زى ما قلت لكم كده ، الأقباط زى قلتهم . موش موقف منهم ، إنما حاجة تشبه إزاي بقت مصر كلها زى قلتها . مصر كان لها دور كبير وسط العرب ، منارة وعاصمة ، لما كانت مترفعة عنهم ؛ لما كان الخديوى إسماعيل يقول مصر قطعة من أوروبا ، وكان إسماعيل صدقى يقول من الأفضل لمصر أن تكون فى ذيل الدول المتقدمة من أن تكون قائدة لمجموعة شعوب متخلفة . من يوم أصبحت جزءا من العرب والعروبة وتنادى بالقومية العربية ، أصبحت إما تقودهم للخراب ، وإما فى ذيلهم . مصر كانت حاجة مميزة متقدمة جدا عن كل العرب . كان إهانة لها أن توصف بأنها عربية ، وإهانة لأى مصرى أنه يوصف بأنه عربى . فى الحالة دى كانت مصر منارة وقائد ، والعرب هم إلى محتاجينها ويبصوا لفوق بسببها . عجمصورة قال مصر جزء من ' الأمة العربية ' زى ما سماها . واحدة من العرب يعنى . ساعتها هى ما بقتش بس جزء من التخلف العربى ، بقت القائدة بتاعته . الأقباط فى مصر نفس الشيء . تخيل أن لا هم لهم إلا الصراع على بناء مزيد من الكنائس ؟ ' .

- اسمها ' هى المشرحة ناقصة قتلا ! ' . الخلاصة أنك باختصار عاوز المسيحيين يبقوا عملاء .

- ما فيش حاجة اسمها عمالة . ده عالم واحد ، لا أوطان فيه . وطنك هو نفسك وهو كل العالم ، لا شىء ثالث . اسال منى بنتك .

- والله عال ! ما فيش غير البت العيلة الهبله دى إلى عاوز تخليها حكم بينى وبينك ؟ !

- نفسك والعالم ! كل شىء آخر وسيط لا قيمة له ، ليس بأكثر من الولاء للأهلى أو للزمالك ، للمناقرة والتسلي لا أكثر .

- هذا ما تمثله مصر بالنسبة لك ؟ فريق كورة تشجعه ؟ ماذا تريد منها بالضبط ؟

- أريد أن يكون الهجاء اللاتينى لأسماء المغنيات صحيحا فى إعلانات الشوارع .

- ماذا قلت ؟ هل أسماء المغنيات هى مشكلة مصر ؟

- مشكلتى أنا . أنت سألتنى عن نفسى . مصر لا تعنى لى أى عواطف ولا شعارات ولا حب ولا كره ، ولا أى حاجة من كل هذا الكلام . كل ما أريده فى الحياة ، مكان ذا اقتصاد معقول ، يحقق لى دخلا معقولا ، وأعيش فى حى ليس بشوارعه قمامة ، ولا هجاء خاطئ لأسماء المغنيات . ثم ده موش رأى أنا لوحدى فى مصر . بص لكل الأيديولوجيات الموجودة ، تكتشف أن الوطنية وحدها إلى لقيطة ما لهاش صاحب ولا أب . الشيوعيون ولاؤهم للطبقة العالمية . الإسلاميون ولاؤهم للأمة . الناصريون ولاؤهم للعروبة . عندهم هذه الكينونات تسبق مصر ، والانتماء لمصر حاجة ثانوية ، إن لم يكن خيانة فى نظرهم . حتى ' الأقباط ' رغم كل رطانتهم عن أنهم مصر ، غير مرتاحين جدا لحقيقة أنهم دينيا من سلالة حام الملعونة وأنهم اضطهدوا موسى وأتباعه يوما وأن صب الرب عليهم لعنات عشر ، وبالتأكيد غير راضين كثيرا عن أن مصر هذه عينها هى ما تحول معظمها فيما بعد للإسلام ، طبعا كل هذا وذاك لأن الولاء للملكوت السماوات يفوق الولاء لأى وطن . باختصار ، لنكن

صرحاء : أى شىء يفوق الولاء للوطن ! تقدر فى كلمة تقول أن ولائى للكويرة ، مصر بنت حلال وكل حاجة ، إنما ما حصليش الشرف واتعرفت بيها .



إذا جاء نصر ربك والفتح ، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا !

- أنت صح فى حاجة : البت منى ها تنبسط منك أوى لو سمعت أن وطن الإنسان هو نفسه . بس ده موش معناه أن أنت ولا هى صح . أنت عارف أنا سألتك ليه عن المسيحيين ؛ لأنى سامع أنهم بيجهزوا ميليشيات علشان يواجهوا بما ميليشيات الإخوان والجماعات الثانية الثائرة على موضوع الارتداد إلى زاد اليومين دول . معنوياتهم فى السما وشعارهم أصبح ' إذا جاء نصر ربك والفتح ، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا ! ' . تصور : المسيحيون -سواء بالمولد أو بتغيير الديانة- يعتبرون الآن بطيركهم ليس فقط جباناً إنما خائناً ؛ يسمونه قيافا الجديد ، لأنه يفضل أن يحكم بصلب يسوع من أجل تحاشى المواجهة مع الحكام أو مع أتباع الديانات الأخرى .

- لا يفرق كثيراً معنى التحول من دين لآخر ؛ المهم نوع الحرب ، تار وحرب دينية ولا حاجة تانية ؟ هى حرب بين تقدم وتحلف ، ولا بين تحلف وتحلف ؟ برضه الحل توحيد العالم . والمفروض بيتدلوا بنفسهم ، يبقوا agent ، وكلاء ، جسر ، لربط مصر بالعالم المتقدم ، بدلا من الانكفاء الذاتى على مصريتهم . جايز تقول لى جبيناتهم مصرية زى كل المصريين ، موش ها نختلف . لكن ده وضع غريب بالنسبة للأقليات فى العالم كله . اندماج زيادة عن اللزوم ، لدرجة أن لا لون ولا طعم ولا رائحة لهم . باختصار ، مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم !

- كل المصريين مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم .

- عفوا ، ماذا قلت ؟

لا يرد زهرى ، ويواصل وحيد : ' شوف ! أنا اتربيت فى لبنان . طوايف من كل صنف وشكل . معيارى الوحيد كان هو الطايفة دى بتقودنا للتقدم ولا لآ . فيه حاجة اسمها حدائة وعلم وتكنولوجيا وانفتاح على العالم . لو المسيحيين أو أى طايفة أو فئة (أنا على فكرة كلامى عام جدا ، موش موقف من المسيحيين . وأقصد أية طايفة ، النوبيين ، البدو ، الصعيد ، الشمال ، البحر الأحمر ، البحر المتوسط ، أى حد) ، لو أية فئة ولاؤهم للحدائة ، يعنى ناس decent همهم التعليم والشغل والبناء وتكوين الثروة ودخول المنافسة ، يبقوا أحسن ناس . إنما لو ها يدونا إنشاء وخطب فى الوطنية وتراب مصر وموش عارف إيه ، أو أنهم الأصل والتاريخ والتمسك بالماضى ، أو أن لهم هوية وخصوصية وموش فاهم إيه (حاجة غير الحدائة والعصرية) ، ها يبقوا عملوا زى إالى عمله عجمصور بمصر . موش ضرورى يكون عرق كامل أو أقلية كاملة ، ممكن أفراد أو حتى فرد واحد حاسس أنه متميز ، أو جبيناته متظفرة عن بقية أهله ، يقوم بالدور ده ' .

- (ضاحكا :) برضه ارفع رأسك يا أخى !

- أنا لست ضد أن يشعر أحد بالاستعلاء على الجميع ، لكن بشرط أن يكون لهذا مسوغ حدائى مادى واقعى ملموس ، وليس عجرفة جوفاء كالعروبية وما شابه . وأضرب لك مثل بأكراد العراق ، إالى قافلين حدودهم وبيحتقروا كل الباقين ، موش علشان الحفاظ على الهوية أو ... أو ... ، إنما لأنهم حاسين أن مدارسهم أحسن ومدنهم أنصف وحياتهم أرقى واقتصادهم أكثر ثراء ، وها يتوسخوا لو اختلطوا بالعرب ؛ مفتوحين على كل العالم المتقدم ومنغلقين على العرب ، وكل ده رغم أنهم لغاية وقت قريب جدا ، كانوا أفقر من الفقر ومنهوبين ومضطهدين . بدمتك مين أحق بدولة ، الأكراد ولا الفلسطينيين ؟ ناس شغالين ليل نهار ، وناس ما لهمش شغلانة إلا الزعيق والقتل . جنوب السودان نفس الشىء ، وغيره وغيره ، بينما لو قالوا الوطنية والتراب والوحدة كان زمانهم كلهم لسه متخلفين ومحرومين . أنا مستعد أقبل تفكير المسيحيين بتوعنا (أو أية فئة مصرية زى ما قلت) ، أنهم أصحاب البلد ، وأن المسلمين مغتصبين أجنب أو شحاتين مصريين ما قدروش يدفوعوا الجزية ، أو ... أو ... ، لو أثبتوا لى أنهم أحسن من المسلمين دول . بس ده ما بيحصلش . مصممين على كلمة قبضى علشان يفرقوا أنفسهم عن بقية مسيحيين العالم . إنما لو حسوا بالترفع ، وبانتمائهم للعالم الغربى ، المسيحى بين قوسين ، ها يكونوا منارة وقائد ، ولو قالوا إحنا مصريين وجزء من النسيج ، أصبحوا جزءا من التحلف بل قادة له . علشان يبقوا أصحاب مصر يجد زى ما ييقولوا ، لازم يبقوا قادة . والقيادة يا حاج موش حق مكتسب ولا وضع يد ولا إرث تاريخى ولا نزاع قانونى ، القيادة رؤية وفعل ، إحساس أنك جزء من مشروع الحدائة العالمى الكبير .



ينجرف وحيد لشرح نظريته في الجلوبة (الكلمة التي سبب نبيل غصة له يوما حين أفهمه أنها الترجمة الصحيحة وليس عولمة كما صكبتها ' الاقتصاد اليوم ' يوما ، وتبعها كل الناطقين بالعربية بعدها . فهذه ترجمة لكلمة أخرى حتى وإن لم يكن لها وجود فعلى في الإنجليزية) : ' في الأصل كان العالم مجموعة من القرى . عندما تفاعلت مع بعضها اقتصاديا اكتشف الحاجة لتجمعها في كيان موحد . من يكتشف هذا ليس كل الناس في نفس الوقت . لهذا السبب يشعر البعض بالقهر طوال الوقت ، وأن الأمير أو الاقطاعي صاحب هذه الرؤية الدخيلة الجديدة يستغلهم ، حين يقيم مشروعات رى أو مزارع ضخمة ويجندهم فيها أو يحصل الضرائب منهم إسهاما فيها ، ذلك أنهم لا يرون مثله في هذا مصلحة أبنائهم ، على المجرى البعيد ، ويتخيلون فقط أن يستمروا في ممارسة اقتصادهم البدائي في هدوء وسلام و' استقلال ' في قراهم الصغيرة المنعزلة بدون أى تدخل (أو ' نخب ') خارجي . بالمثل لنفس السبب تجمعت لاحقا المقاطعات وكونت الدول ، ثم تجمعت الدول وكونت الإمبراطوريات أو الاتحادات ، وأيضا ساعتها اعتبروا المصانع ظلما واستغلالا . في كل مرة كانت العقبة هي قوى النظام القديم المنتفخة بتخلفه وفساده وانعزاليته ومكونات ثقافته البائدة . توحيد عالمنا الآن في دولة واحدة ليس بجالة خاصة . وقهر قوى الماضي مسألة وقت لا أكثر ، فالتقنية والميل للاستعداد حتمية ، والتعمق الاقتصادى حتمية ، والتوحد السياسى حتمية ، والكفاءة القصوى حتمية ، ذلك أن فيما يبدو هذه هي طبيعة المادة التي يتكون منها كوننا . بص : الصراع الحقيقي ليس بين عرب ويهود أو مسلمين ومسيحيين أو بين سنة وشيعة . الصراع بين تقدم وتخلف ، بين مستقبل وماضى . هو نفس الصراع سواء نظرت لقرية أو سواء نظرت للعالم . ما يقسم الإسرائيلى والمصرى ، ولا أقول الأمريكى والمصرى ، أنفه مما يقسم الإسرائيليين أنفسهم أو الأمريكيين أنفسهم أو المصرين أنفسهم ، لقوى تقدم وقوى تخلف . إنها معركة واحدة في كل مكان ، التقدم ضد التخلف ، وشعارى شخصيا هو : يا نخبة العالم اتحدوا ! ' .

- (ضاحكا :) المانيستو الرأسمالى ! جديدة ! اختراع وحيد الديب ده ؟

ويشعر ونس في ضرب المثل بمحطات القوى الكهربائية التي تعنصر طاقة الوقود حتى آخر قطرة فلا يخرج من المداخن سوى ثانى أكسيد كربون نقى وبحار ماء بارد ، كدليل على أن التعمق واتحاد الشركات مع بعضها البعض يزيد من الكفاءة لأنه يستفيد من التكامل فيما بينها ؛ تكامل الموارد والتقنيات والكفاءات والأسواق وكل شىء . يشارك وحيد بحماس مناقشة وتوكيد هذا المثال الجديد المستقى من حقل الديناميات الحرارية لكنه في ذات الوقت ينطوى على أبعاد أوسع اقتصادية واجتماعية وربما أيضا فلسفية . وبينما الاثنان مستغرقان في هذه المتعة الذهنية الغريبة ، يخرج مينا من الغرفة الداخلية معلنا صدور قرار البورصة بوقف التعامل على كل أسهم قطاع الطب والصيدلة حتى أجل غير مسمى ، مع ' تسجيل عكسى للأوامر ' (مصطلح محاسبى يعنى عمليا الإلغاء) لكل ما تم من عمليات على شركاته منذ الصباح .

بعد نحو نصف ساعة آخر ، تبث قناة الجزيرة مشاهد الجنود الأمن المركزى وهم يضربون المتظاهرين بالعصى وينكلون بهم على الأرض ركلا ، وتستضيف من يعلقون على المستوى الخطير الذى تردت إليه انتهاكات حقوق الإنسان في مصر . هنا تعلن إدارة البورصة عودة الأسهم للتداول ، فإذا بها تشهق عاليا ، وبسرعة مذهلة . يقول ونس : ' أدى الكلام ! الخبزانة تشتغل ، السوق تشتعل ! ' . ويلقى عارف : ' مطبوط ! بقى قانون معروف من ١٠ سنين ' . ويردف الحاج : ' الاستقرار أهم شىء للاستثمار ، والديموقراطية والفوضى ألد أعدائه . أميركا دى موش فاهمة أى حاجة . لما الديكتاتورية سبب الإرهاب ، طب بالديموقراطية ها يحصل إيه ؟ ' . ويضيف أسد : ' بتوع المظاهرات دول ما بيضروش غير إالى زينا . كما يقول الأستاذ وحيد أصحاب الشركات الكبار تمهم إدارة شركاتهم ولا يهمهم كثيرا سعر السهم . أما نحن صغار المستثمرين فيهمنا جدا . هو إحنا موش تبع حقوق الإنسان برضه ولا إيه يا حاج ؟ ! ' .

حين تهدأ الأنفوس يميل وحيد على ضهرى ويقول له مداعبا : ' طول عمرى ما قدرت أفهم إزاي يكون فيه طبيب واحد مؤمن ؟ أنت بتستخدم مخلوقات من صنع البشر هي العلم والأدوية ، كى تحارب مخلوقات من صنع الله هي الميكروبات والجراثيم ؟ إزاي بعد كده يروح يصلى ، ويحجى له وش يوريه لربنا ؟ ! سؤال تانى : ليه المؤمنين بيشوفوا ربنا في البلابل والحملان ، وموش بيشوفوه في الغربان والذئاب ؟ ! ' .

لم يهتم ضهرى بحديث وحيد المستخف ، مستعينا في هذا بانتهاء الجلسة وإضاءة ميرفت للأنوار .

ويجتر وحيد الكلام السابق : ' هي المشرحة ناقصة قتلا ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



شيء ممتع أن تصبح الحياة روتينية ؛ هذا يفرغ العقل للأشياء الأهم !

طوال النهار لا يكف نبيل الكهل عن التحرك بين العملاء بعكازه الذى لا يتكى جديا عليه ، وبكشكوله البالى الذى يحتفظ فيه بسجلات تاريخية يومية لأسعار الأسهم تمتد لعدة سنوات . يجلس إليهم يتعرف عليهم ، يسألهم عن أحوالهم ، يسامرهم ، يتمنى لهم التوفيق ، ويعزيهم فى حال الخسارة . الكل ألف أن يحكى له عن حياته الشخصية ومتاعبه ومطالب الأولاد المتزايدة ، وكل ما إلى ذلك . لقد فقد زوجته منذ سنوات ، ويجد فى عملاء رمسيس -أسرته الوحيدة الآن- خير أنيس وجليس . إنه بلا منافس أول صديق لكل عميل جديد . كانوا يعاملونه كأب ، ويطلبون نصائحه باعتباره الأقدم خبرة فى التعامل مع الأسهم . وحيد لم يكن استثناء . وحيد كان يستمتع بشغف لقصص الأيام الخوالى التى يرويها نبيل . كان من أحاديثهما التى تفرضها المناسبة من حين لآخر ، الترجمة الدقيقة لبعض الكلمات الإنجليزية للعربية . كان يؤمن بالترجمة الدقيقة ، وينفر مما يسمى ترجمة المعنى ، ويعتبرها غطرسة من مترجمين لديهم عقدة الدونية يريدون فرض شخصيتهم على المؤلف الأصلي . فوجئ وحيد بهذا الرأى لحد ما ، فعادة متخصصو العلوم فقط هم الحريصون على الترجمة الدقيقة ، بينما المشتغلون باللغة والأدب يفضلون الترجمات المتحررة التى تهتم بروح النص وشعريته ، وليس بحرفية الكلمات .

- بماذا تترجم كلمة laptop يا مستر نبيل ؟

- قمة الحجر . ألا يوضع على الحجر ، كما أن الـ desktop يوضع على النضد ؟

ثم أردف مازحا : ' كنت أعرف أن كقول ترجمتها بارد ، لغاية ما لقيت الشباب بيتترجموها ' روش ' ! ' .

من هنا أطلق وحيد على نبيل نفسه ترجمة حرفية Noble ، وأصبحت دراجة بين جمهور القاعة . لم يكن وحيد ، إنما أسد ، هو أول من تسبب فى ذبوع هذا اللقب بين الحاضرين . حين حقق أسد ربحا فى أحد الأسهم ذات مرة بفضل نصيحة من نبيل ، صاح على مسمع من كل الحاضرين : ' يا نوبل يا بتاع نوبل . أنت لازم تاخذ جائزة نوبل للبرصات ! ' . وساعتها بدأ نبيل محاضرة طويلة فى أنهما كلمتان مختلفتان تماما ، هجاء ومعنى . وراح يعلم أسد كيف ينطق نوبل الأولى نو-وه-بل والثانية نو-بيبل ، لام بشدة يعنى ! وكان مأزق أسد أعمق مما تخيل ، الأمر لم يقف عند درس نبيل ، فبعض الجالسين -بالذات ونس وروميو- كانوا من محترفى السخرية من كل شيء ، بالذات من الأسماء . ضهرى نفسه لم يحمه وقاره من سخريتهم بـ ' آه ، يا ضهرى ! ' ، و ' ضهرى واجعنى ! ' ، ' كام سهم تدليك ممكن يصلحوا حالك ' ... إلخ . وها هو أسد المسكين يزاحمهم تخصصهم . مثلا فى هذه المرة علق ونس : ' عارف الميزة إيه فى اسمك يا أسد ؟ إن لما تموت ومراتك تندب عليك وتقول يا سبعى ، ما تبقاش بتكذب ! ' .

مشروبات وحيد باتت بالمواعيد . حفظها نصر الله وراح ينفذها بدقة . بحيث لو طلب منه وحيد شيئا ، يرد عليه بصرامة ممزوجة بابتسامة ودون أن ينظر للساعة : ' لسه ربع ساعة ! ' . شيء ممتع أن تصبح الحياة روتينية ؛ هذا يفرغ العقل للأشياء الأهم ! الحادية عشرة قهوة . الثانية عشرة شاي سكر مطبوط ، والمطبوط هذا أكثر قليلا من السكر الذى يفضلُه وحيد عادة للشاي أو سائر المشروبات . لكن فى هذا الوقت بالذات هو يحتاج السكر كمدد ضرورى للمخ ، بعد نفاذ وقود إفطاره الصباحى الصغير جدا ، باكو بسكويت . الساعة الواحدة قهوة أخرى طبق الأصل . سيجار واحد طوال اليوم ، يقسم لبضع نفثات بعد كل مشروب . يقول النيكوتين مفيد ، والتدخين مضر ، الحرق والأكاسيد هو المؤذى . أنا أريد أكبر جرعة ممكنة من هذا المنبه الممتاز ، لكن بأقل الأضرار الصحية الممكنة ، ولا يوجد هكذا أفضل من السيجار . هذا يميزه بوضوح عن جيرانه ، روميو الذى يدخن سجائر فرنسية بدون فلتر (أيضا ذات نيكوتين عال ، ' حامية ' بالمصطلح البلدى) ، وونس الذى يدخن سجائر مصرية بفلتر أبيض ، وضهرى الذى لا يدخن على وجه الإطلاق .

يفضل وحيد القهوة بالبن الغامق المحوج الذى يشتريه من باب اللوق ، ولا يرضى عن بن هذا المحل الشهير بديلا . كان قد تعرف على هذا المحل من خلال أمه التى كانت ترسل خصيصا فى طلبه . تعود أيام شغله القديم أن يرسل من يشتريه له . بعد رحيل أمه ، أصبح يرضى بن السوپرماركت . يحمل اسم نفس المحل ، لكنه لا يحمل النكهة المخصوصة التى يريدُها . الآن كل تنقلاته فى حياته الجديدة تتم سيرا على الأقدام ، إلا فيما يخص البن . لم يكن لديه الدافع النفسى لإخراج واستعمال سيارة أمه الأثرية ، فورد ١٩٤٩ ، التى تكبر وحيد بست سنوات . لا يزال الجراج يحتفظ بها فى حالة جيدة ، وجاهزة للانطلاق فى أية لحظة ، أو هكذا يؤكدون له دوما . معنوياته الضعيفة كانت تستسهل له طلب تاكسى هاتفيا والذهاب والعودة به لباب اللوق لإحضار البن ، وأيضا كفرصة للفرجة على الشوارع والناس ولوحات الإعلانات .

دعا الجميع في رمسيس إلى البن فأعجبوا به ، وأصبحوا راغبين في شربه بانتظام ، بدلا من البن الذى يأتي به نصر الله من السوبرماركت .
 ضهرى واسع الحيلة تطوع بأن يجعل أحد عمال مزرعة المانجو يأتي به ، لكل منهم حسب طلبه : ' هو قريب لأحد جيراننا . يسكن في عابدين
 ويأتينا بالباص النهري كل صباح ' . كان اقتراحا أخرقا لأنه حين علم في المساء التالى أن هذا الشاب جاء للشغل في منتصف النهار متذرعا
 بالبن ، اضطر لتعنيفه بشده ، وكاد أن يفصله . نصر الله مقيم بالشركة ولا يصلح للمهمة . الكل يتحرج من أن يطلب من وحيد أن يشتري له .
 هنا تطوع نبيل بأن يشتري البن بنفسه لكل من يريد ، بمن فيهم وحيد نفسه . أنا بأحب البن ده ، وعندى وقت كثير وبأسلى نفسى . وما
 عنديش مانع أشتري لكم معايا . أيضا لدى بعض الأفكار المفيدة لمن يريد . من الممكن شراء كمية أكبر نسبيا ، نصف كيلو أو حتى كيلو ،
 ويمكنكم الاحتفاظ بها في الفريزر ولو لشهور لو شئتم . هذا ما أفعله أنا شخصيا لأن استهلاكى قليل ولا يزيد عن فنجال واحد يوميا في الصباح
 الباكر قبل نزولى إلى هنا .

يملك نبيل عددا من أسهم شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير ، هذه التى يفرح دوما بالحديث عن تاريخها منذ تأسيس البارون إيمان لها ،
 وعن ماضى مصر الجديدة ككل . جزء من هذه الأسهم كانت قد أهدته إياها زوجته ، ولا يزال يحتفظ بها كصكوك ورقية لم يتقدم بها للحفاظ
 المركزى الإليكترونى المعمول به ، وبالطبع لا يتداولها إطلاقا . فجأة ذات يوم يخرج إدوارد بسرعة من مكتبه ويصيح وكأنه يشهد العملاء على أن قد
 أعذر من أنذر ، وأن ذمته قد باتت بريئة : ' يا مستر نبيل ، إحنا عاوزين الصكوك الورقية بتاع شركة مصر الجديدة . ها تندمج في شركات
 الشبكي ، ولازم ندخل أسهمك حفظ مركزى وإما ها تضيع عليك . بعد شهر أو شهرين بالكثير موش ها يبقى لهم قيمة بالمره ! ' .

رغم أن كل الحاضرين أيدوا إدوارد فيما فعل ، وراحوا يستحثون نبيل على الإسراع في إحضار الأسهم : ' السهم ده ها يولع يا مستر
 نوبل ! ' ، ' ها يسموها مصر الشديدة يا عم نبيل ! ' ، ' لأ ، ها يسموها السعودية الجديدة ' ، إلا أنه ما كان من المفروض من إدوارد أن يفعل
 ما فعل . كانت لهجته قاسية ومفاجئة ، بحيث أدمعت عينا نبيل ، وقال بصوت منكسر : ' حاضر ' ، لكنه في الحقيقة لم يأت بها أبدا !



تداول ، حجز ، مقاصة ، تسوية ، حفظ ، إيه التعقيد ده ؟ !

سواء طبية أمراض النساء والتوليد ، أرملة بيضاء جميلة ذات شعر قصير بنى فاتح ، رشيقة ، لا ترتدى سوى تاثيرات البيزنس وكأنها موظفة في
 شركة أجنبية . تنورة قصيرة تكشف الركبة وما فوقها بقليل ، وچاكيت طويل لا يكشف من التنورة أكثر من عرض قبضة اليد . تختار دوما ألوانا
 إما أن تخلق في اللون السماوى أو تحوم حوله ، فهى تريد أن تجلج من اسمها الإثيرى جزءا من شخصيتها . فقط ياقة الجاكيت وأسوار أكمامه
 التى تطول شتاء وتقتصر صيفا ، هى التى تأتى بالتنوعات اللونية التى تضىء حيوية وجاذبية على ملبسها الأميل للكلاسية والنمطية . تركت كل
 الوظائف رغم أنها تأتيتها بالزبائن وبالخبرة ، واكتفت بعيادتها الصغيرة الأنيقة ، تقدم فيها كل خدمة تقوى عليها وفي صدارتها بطبيعة الحال التوليد ،
 وترفض إجراء ما لا تثق فيه من عمليات جراحية . تأتى في موعد بداية الجلسة بالضبط لتجلس فقط مع إدوارد تتابع الأسعار من خلال الشاشة
 الموجودة على مكتبه ، وتتصرف بمجرد انتهاء الجلسة ، وليس من عادتها مخالطة بقية العملاء كثيرا ، رغم تعرفها عليهم جميعا من خلال ترددهم
 لسبب أو لآخر على مكتب إدوارد .

علاقتها لا بأس بها مع الجميع ، ربما باستثناء روميو . لم ترتح كثيرا لكلامه المعسول المتودد الزائد عن المعتاد ، وتحول هذا لنفور حين فاجأها
 بالقول : ' أنتى التخصص إالى أنا محتاج له ! ' . الحقيقة هو لم يقاوم نفسه بخصوص الدعابة ، لكن الواقع أنه كان يريد لها كامراة وليس كطبيبة .
 فهم الكل أنه غازلها فصدته . والحقيقة أنه لو فعل هذا لنفرت أيضا . لم تر الشق الرومانسى في شخصية روميو ، أو أساء هو تقديم نفسه ، أو لم
 يكن ليتفاهما على أية حال . هذا أو ذاك لم يحدث بسبب تقزز أو نفور جسدى من جانبها تجاهه . حدث تحديدا لأسباب أفلاطونية للغاية .
 هى تشمئز من كل من ينظر لها أو لنفسه -ولو جزئيا- على أنه جسد . هكذا الأمر بالنسبة لها ، لا أكثر !

ليس هناك سبب محدد لجلوسها الدائم مع إدوارد . لعل كل الأمر جاء بالصدفة . فى العادة يقضى كل العملاء الجدد أيامهم الأولى فى ضيافة
 إدوارد فى مكتبه . يجعلهم يوقعون على العقود ، ثم يشرح لهم أوليات البورصة وآليات الشغل فى شركة السمسرة ، ويقترح عليهم أسهما للشراء ، ثم
 بعد ذلك يدعهم يخرجون لمعمعة القاعة الخارجية . فى اليوم الذى جاءت فيه سماء لأول مرة ، وبعد دقائق من جلوسها ، فوجئت بإدوارد يسقط
 من كرسيه مغشيا عليه ومرطما بالأرض . جاء الجميع ، وبسرعة سألت عن تاريخه الصحى ، فأجاب مينا بأنه مصاب بداء السكرى . أمرت له

بماء محلى بالسكر ، كما أرسلت نصر الله لإحضار بعض الأدوية ، وعلبة شوكولاتا قالت إنها لا يجب أن تفارق المكتب . إذ كما أضافت فإن تناول الإنسولين يحرق السكر ، ونقص السكر يسبب غيبوبة قد تؤدى لموت الدماغ فى دقائق . كل هذه معلومات بديهية يعرفها كل مريض السكرى ويحرصون على الالتزام بها ، من ثم راحت هى تبحث عن شىء غامض وراء الأمر . عرفت أن إدوارد على خلاف مع زوجته ، وأنهما يسعيان لطلاق ترضه الكنيسة ، وأنه ترك شقته الفاخرة نسبيا فى عمارت أغا خان لها ، وانتقل إلى بيت أبيه القديم ، وإن الضخم ، بمجرد رحيل هذا الأب . كى يعيش مع أمه ومع مينا . إدركت سماء أن إهماله فى صحته يعبر عن نوع من اليأس المتعمد ، ومن ساعتها أصبح المكتب مقرها الدائم .

تسأل إدوارد : ' إيه حكاية الصكوك دى ؟ ' .

- تاريخيا كانت الأسهم عبارة عن صكوك ورقية تصدرها الشركات لدى تأسيسها ، أو لدى زيادة رأسمالها . أحيانا تصدر الصكوك اسميه ، بمعنى أن بها خانة تحدد صاحب السهم ، وأحيانا أخرى ، وهى الغالبة بالذات بين صغار المساهمين ، يكون السهم ' لحامله ' ، أى بدون تحديد اسم . مع تطور البورصة فى السنوات العشر الأخيرة تحولت للحفظ المركزى - أى مجرد سجلات إلكترونية فى البنوك تدل على الملكية ، مع ذلك لا تزال بعض الصكوك فى أيدي الأفراد .

ويريها الصحيفة اليومية ويشرح لها ما تقوله نشرة نقل ملكية الشركة ، وأنها - أى الأسهم - لا بد وأن تسلم للحفظ المركزى ؛ أى أن تسجل فى الكمبيوتر ، وإلا اعتبرت معدومة وليس لصاحبها الحق فى المطالبة بها ؛ كل الناس سلمت الصكوك من سنين وهو موش عاوز .

- تفتكر ليه ؟

- دى قصة شخصية ما أعرفهاش . لى أسبوعين بألح عليه ، وإجراءات الاندماج اتحدت خلاص فى شهر مارس من السنة الجديدة ٢٠١٠ ، بعدها ها يبقوا حته ورقة فى إيده . اسأليه أنتى لو تحبى .

ثم يدلف لسرد الكثير من التفاصيل عن تطور البورصة منذ عودتها للنشاط فى ١٩٩٥ . والتطور التدريجى لدور لتحوها للأتمتة الحاسوبية الكاملة ، وسهولة حجز الأسهم للبيع ، وسرعة التسوية المالية لعمليات البيع والشراء . وتطور خدمات المعلومات اللحظية التى تتيح التعرف على الأسعار والعروض والطلبات فى نفس اللحظة من أى مكان . وكذا مثلها التداول عبر الإنترنت .

- تداول ، حجز ، مقاصة ، تسوية ، حفظ ، إيه التعقيد ده ؟ ! كنت فاهمة أن كل حاجة بتتم فى خطوة واحدة فى مكان واحد هو كمبيوتر البورصة .

- محتمل إالى بتقوليه يحصل قريبا جدا . البورصة خلاص بقت شركة تجارية عادية تسعى للربح زى كل بورصات العالم . لغاية دلوقت كانت شركة شبه حكومية وظيفتها التداول فقط . ما تنسيش أن التعقيد أصله النظام القديم . كل الأمور تمت بالتدريج لمجرد تحويل النظام الورقى القديم القائم فعلا ، لنظام إلكترونى ، موش لإنشاء نظام جديد .

ويضحك مضيفا : ' أنا عارف أن مستر نبيل ها يغرقك بمعلومات قديمة عن البورصة كانت إيه قبل بعمصورة . ما نقدرش نقول عاشها ، إنما هو مهتم جدا يقرأ فى التاريخ ، ويسأل أصحابه القدماء ، وحاجات زى كده . إنما أنا عندى بعض ذكريات موش قديمة أوى . الكام شهر الأولى لشركاتنا بتاع ١٩٩٥ دى ، إالى رجعت فيهم البورصة بالنظام بتاع زمان . كان اسمها أيام الطباشيرة والسبورة . البورصة لو دخلتها كانت عبارة عن إيه ؟ ترابيزة كبيرة حواليتها أصحاب شركات السمسة ، عدددهم حوالى ٤ ، ٦ ، موش أكثر . كل واحد يأتى بما عنده من أوامر العملاء ، ويدخلون الأوامر من خلال التملية للكتابة على السبورة . إالى يعجبه عرض أو طلب مكتوب يرفع إيده ، وتتنفذ الصفقة ويتمسح من على السبورة . وكان عامل التليفون ، برضه بزى وشارة ورخصة ، يدخل يبلغهم الأوامر الجديدة إالى جاية من عملائهم . أما المقاصة ، فلوس وصكوك ، كانت تتم فى مقاصة البورصة . نفس مبنى البورصة فى شارع الشريفين جنب الإذاعة القديمة ، صالة كبيرة فى البدروم ، يجتمع فيها السماسرة يسووا حساباتهم ، يستلموا التشيكات ، وفى مقابلها يسلموا الصكوك . ولازم الصكوك زى الفلوس بالظبط ، بالذات إالى اسمها لحامله . لازم السماسر يفحصها واحد واحد ؛ جازى يكون فيه مثلا صك مزور ، لأن هو ده النظام ، سلم استلم وقع بالاستلام ، وانتهى الأمر . حتى لو كانت العملية عاوزه عربية لورى للصكوك ، كان لازم السماسر يكون مجهز نفسه . جرس الافتتاح والإغلاق كان جرس فعلا زى بتاع

المدارس . كمان على فكرة كانت شغالة بـ ٣ أجراس موش جرسين . واحد للافتتاح ، وواحد قبل الإغلاق بخمس دقائق ممنوع بعده تسجيل أوامر جديدة ، والثالث للإغلاق نفسه ، يعني ما فيش تنفيذ خلاص . البورصات فى العالم كله ، مكان للتقاليد الصارمة والعريقة ’ .

ويضحك من جديد : ‘ فى مرة مستر نبيل حكى لى حكاية تملك من الضحك موش عن بورصتنا دى ، إنما قبل ما تطلع : أسهم قناة السويس إالى باعها الخديوى إسماعيل لإنجلترا فى نوفمبر ١٨٧٥ سدادا لديونه عليها . ١٧٦٦٠٢ سهم حسب ما أنا فاكتر العدد ، كذا يوم يعدوا فيهم ، فى الأول اكتشفوا عجز ٤٠ سهما ، وبإعادة العد اكتشفوا غياب سهمين آخرين ، وبإعادة العد اكتشفوا عد مكرر لسهمين . كانت ماساة ، ضبط ٤٤ سهم أخذ منهم أكثر من أسبوعين . كمان ممكن يوصف لك شكل صناديق الزنك إالى اتبعتت فيها على المراكب لبنك إنجلترا . وتفصيل تانى كتير عن البارون روثشايلد إالى مول الصفقة بقرض أعطاه للحكومة البريطانية ، وإزاي بقى فرحة بكشك عند دزرائيللى رئيس الوزراء ، وحاجات زى كده ! ’ .



يعنى سبت الفرس ومشييت ورا الغزال ؟

اعتبرت سماء هذا الحديث عتادا لا بأس به سوف يعينها فى مسعاها الغامض مع ذلك النوبل . انتظرت لوحدة من المرات التى يأتى فيها لمكتب إدوارد وتبادره بالأسئلة التى يطرحها كل أحد كل الوقت : ‘ إزيك يا مستر نبيل ؟ ’ ، ‘ إيه رأيك فى السوق النهارده ؟ ’ ، ‘ تفتكر ها يكمل طلوع بكرة ؟ ’ ، ولم تصبر طويلا حتى دخلت للب الموضوع : ‘ إيه حكاية الصكوك الورقية ؟ ’ ، ‘ أنت لسه عندك صكوك من دى ؟ ’ ، ‘ ممكن أشوفها ؟ ’ ، ‘ أنت ليه موش عاوز تسلمها ؟ ’ .

- الحقيقة دى هدية من مراتى ، ومحتفظ بها ذكرى .

- أنا أحب أسمع القصص دى . تسمح لى أتطفل على ذكرياتك شوية ، لو ما كانش يضايقك . الجلسة خلصت . النهارده ها أتغدى فى النادي ، أنت بتتغدى فىن ؟

- فيه مطعم جنبنا هنا متعود عليه . غير كده أحيانا أطلب وجبات سريعة ، وأحيانا بأطبخ بنفسى .

- بتطبخ إيه ؟

- للفطار بيض مقلى فى زيت زيتون مع طماطم وبصل وكام فص توم ، ومعلقتين فول مدمس ، ومعلقة نبيذ . للغدا لحم بتلو مع بصل وتوم وفلفل أخضر وأسود وبرضه نقطتين زيت زيتون ، ولما تستوى أحط عصير طماطم وكيس خضار مشكل مجمد عليها . كله فى فى فى زى ما يقولوا . أنا مبدأ فى الطعام (وربما فى الحياة كلها) ، أن القليل من كل شىء يعطيك فوائد كل شىء ، ومضار لا شىء !

- هو ده أكلك كل يوم ؟

- موش كل يوم ، زى ما قلت لحضرتك فيه المطعم وفيه الديليجرى .

- أول مرة أسمع عن حاجات زى دى . بسيطة وشكلها صحية جدا ، بعبارة تانى بتاعة عزاب . لازم تدوقهانى مرة .

- خلاص ، بكرة تيجى من غير فطار ، أو ها أجيب لك سندوتشات معاى ، أنا بأجى تسعة ونص ، وبأقعد فى البلكونة لغاية الجلسة ، لو جيتى فى الوقت ده تلاقيها سخنة ، أو لو عاوزانى أعملها متأخر أنا مستعد .

- لأ ، خلاص ! تسعة ونص ، وأتفرج معاك ع البارون ، أنا عارفة حكايتك مع البلكونة . إنما النهارده تعال جرب معايا أكل النادي . تحب تمشى ؟

الطريق من شركة رمسيس حتى نادى هليوبوليس لا يستغرق دقائق ، وهو تقريبا مجرد أحد أضلاع قصر الرئاسة . خلاله واصلا الحديث : أنتى طيبة نفسية ؟

- ليه بتقول كده ؟

- (مبتسما :) جازى طريقتك فى الكلام .

- (تبتسم وقد فهمت قصده :) لأ ، ما تخافش ، أنت موش محتاج طبيب نفسى . أنت إالى تنفع طبيب نفسى تداوى ناس كثير . إالى زيك ناس نادرة يا مستر نبيل . وبعدين أنا تخصصى بعيد خالص ، أمراض نساء وتوليد . أنا حقيقى بأحب أسمع القصص الإنسانية الجميلة إالى زى قصتك ، موش أكثر ولا أقل . أنا كمان فقدت زوجى . كان طيار ، ومات فى الحادثة بتاع تونس . وأنا مستقيلة من الحكومة ومكتفية بالعيادة . يقولوا شغل المستشفيات ضرورى علشان إيدك تفضل شاطرة فى العمليات ، وكمان بتجيب زباين . أنا كل ده موش مهم عندى . الجو فى المستشفيات -بالذات لما كانت حكومية- موش حلو ، وما قدرتش استحملة ، وبدل ما أعتزل خالص اكتفيت بالعيادة . برضه بأعمل عمليات ، بس إالى بأخاف منها بأسببها ؛ مثلا الأورام أو استئصال الرحم ما ليش فيها . وفى الصبح أدينى بأسلى نفسى بالأسهم . وبالليل أوى أشوف فيلم كوميدى أو رومانسى ، حاجة لطيفة كده ، وأنام . إيه بقى حكاية الصكوك ؟

- هدية من مراتى ، الله يرحمها . كان عيد جوازنا الأربعين ، وجابتهم لى هدية .

- اتعرفت بيها إزاي ؟

- سنة ١٩٥٥ . كنت فى الأسكندرية بأصيف . كنت فى السلسلة أيام ما كانت مفتوحة . كنت راكب عجلة بالإيجار . وشفنت بنت طليانية طويلة وشعرها طويل أسود ، وفضلت متابعتها بعيني لورا لغاية ما لقيت نفسى خبطت فى عجلة هيلين .

- هيلين ؟

- قصيرة وشعرها أصفر قصير ووجهها جميل اتسمرت قدامه .

- يعنى سبت الفرس ومشيت ورا الغزال ؟

- إيه يا دكتورة ؟ ما كنتش أعرف أنك بتستخدمى كلام زى ده ؟

- غزال ؟ عصفورة ؟ فراشة ؟ حسيت بإيه بالظبط ؟

- ملاك ! شفت قدامى ملاك ! المهم شفتها الفوقانية اتفتحت ونزلت دم . رفعتها من ع الأرض ، وأخذتها لمستوصف قريب . ووصلتها لبيتها ، وعرفت أنها يونانية . أنا برضه من أصل يونانى . اتقابلنا تانى وحبينا بعض ، وكنت أزورها كل سبت وأحد لغاية ما التجوزنا بعد كام شهر ، فى يناير . جت القاهرة ، وفتحت جاليرى للزهور المجففة . خلفنا ولد وبنت ، مهاجرين ومستقرين . هى صحتها ما كانتش قد كده . بعدين عرفنا أن عندها روماتيزم فى القلب .

- أيوه ، ما كانش بيتكشف بدرى زى دلوقت .

- هى كمان كانت بتتعب نفسها فى الشغل ، وفى البيت . حتى لما طلعت أنا على المعاش ما رضيتش تقعد . طبعها كده ، وتقول أى قرش ينفع الأولاد . بصراحة كانت عايشة لغيرها بكل معنى الكلمة . بعد ٤ شهور كان ها نحتفل بعيد ميلادها الستين ، لكن لما تعبت ما كملتش .

- اشتريت لى الصكوك قبل موتها بكام أسبوع . (تغرورق عيناه بالدموع :) كنت مستنى عيد ميلادها علشان أرد لها الهدية . (يصمت ثم يمسخ عينيه :) آدى القصة .

- وآدى الأكل (مشيرة لخادم النادى وهو يضعه) !



تعتبرى قصة البورصة دى قصة سعيدة ، ولا قصة حزينة ؟

قصة البورصة فى مصر قديمة للغاية ، بل هى بالتأكيد الأقدم فى المنطقة . ترجع جذور بورصة الأسكندرية إلى عام ١٨٨٥ ، وفى قول البعض ١٨٨٣ ، حسبما أمكن رصد تاريخ أول صفقة تصدير قطن ، على مقهى أوروبا بميدان القناصلة (مُجد على لاحقاً) . بهذا المعنى كانت بورصة للمستقبليات futures ، أى بيع المحاصيل وهى بعد فى الأرض ، نفس حال بورصات البترول مثلا اليوم . فى ١٨٨٩ انتقل هؤلاء التجار -وأغلبهم يهود أو مستوطنين أوروبيين- لمبنى جديد مهيب مستقل يطل على ذات الميدان ، مبنى اسمه ' البورصة ' ، سرعان ما أصبح أحد معالم الأسكندرية الكبيرة محل التباهى ومحط الإعجاب .

أما بورصة القاهرة فقد أنشئت في عام ١٩٠٣ . كان الاقتصاد في ذروته . كان عدد الشركات ذات المسؤولية المحدودة قد بلغ ٧٩ شركة برأسمال بلغ ٢٩ مليون جنيها ، وبات من الصعب -لا سيما للأجانب القادمين بهدف الاستثمار والمشاركة وعقد الصفقات- أن يجروا صفقاتهم على هذا المقهى أو في ذلك الفندق طوال الوقت . راعى فكرة البورصة القاهرية وصاحب فكرتها كان رجل المال المنتفذ مورييس -أو موسى- قطاني . كان أيضا يهوديا . أراد أن يخلق نموذجا موازيا لبورصة القطن السكندرية الناجحة ، لكن للشركات التجارية والصناعية المتنامية عبر البلاد .

يجب المؤرخون تحديد يوم ٢١ مايو من تلك السنة تاريخا لميلاد لبورصة القاهرة . في ذلك اليوم اجتمعت لجنة البورصة تحت الإنشاء ، Bourse and Banking Company of Egypt Limited ، أو بورصة القاهرة الخديوية حسب التسمية الدارجة بعد قليل . اجتمعت برئاسة قطاني واختارت أول مقر لها ، البنك العثماني بشوارع المغربى (جروبيى شارع عدلى حاليا) . كان مقرا مؤقتا بعقد إيجار مدته ست سنوات . وشرعوا قبل انتهائه بعامين في خطوات بناء مقر دائم في ذات الحى 'الإسماعيلي' ؛ أى ما يسمى حاليا بوسط المدينة ، باعتبار أنها كلها عمرت على يد الخديوى إسماعيل ، أو في حال تضيق المصطلح ، الجزء التابع منه الآن لحي قصر النيل ، نسبة بالأخص لميدان الإسماعيلية ، الذى بدروه نزعت عنه الحقة الناصرية اسم الرجل وفضله ، وأسمته ميدان التحرير . لم يكونوا ليرضون بمنشأة أقل من أن تجاور أهم منشأة مالية في البلاد ، البنك الأهلى المصرى ، التى كان مقرها تقاطع شارعى شريف وقصر النيل الحاليين ، المبنى الذى انتزع هو أيضا وأصبح البنك المركزى المصرى فى الستينيات الناصرية .

لم تأت الرياح بما تشتهي السفن . مصر كانت 'السوق البازغة' الأهم فى العالم كله . وللأسواق البازغة مخاطرها ، والسبب فيها عادة هو الإفراط فى التفاؤل . آنذاك -فى ١٩٠٧- كان عدد الشركات المسجلة فى بورصتى الأسكندرية والقاهرة مجتمعين ، ٢٢٨ شركة برأسمال ٩١ مليون جنيها ، يقوم على تقديم الخدمات لهما ٧٣ سمسارا ، وكانت تحتل المرتبة الخامسة عالميا (لاحقا ارتقت للمرتبة الرابعة بسبب الحربين العالميتين اللتين ضربتا أوروبا والعالم) . كان الكل مذهولا لرؤية سهم بنك الأراضى يرتفع من ٥ إلى ٨٠٠ جنيها فى غضون ثلاث سنوات فقط من تأسيسه فى ١٩٠٢ . لكن الطفرة المعمارية والاستثمارية لسنوات القرن الأولى كانت أضخم من التوقعات الواقعية . والاندفاع للاستثمار بأكبر من طاقة السوق الفعلية ، يخلق فقاعة تؤدى للاختيار . يتفق كثير من المحللين أن 'المعجزة' المصرية هى التى بثت تفاؤلا كبيرا فى العالم كله . وبنفس القدر يدفع بعضهم أن بدوره كان انهيار بنك كازا دو سكوتو بالأسكندرية فى يوليو ١٩٠٧ هو الشرارة الحقيقية ، أو القشة التى قصمت ظهر البعير ، فانطلق منها تساقط ورقات الدومينو عبر العالم ، إلى اليابان فألمانيا فتشيلى فبقية أسواق أوروبا ، فالولايات المتحدة نفسها ، فيما سعى فى وول ستريت باختيار أكتوبر ١٩٠٧ الكبير ، الشهر الأكثر درامية فى دورة الهبوط ، هذه التى تواصلت حتى يونيو التالى .

أفلست البورصة الخديوية وصفيت ، لكن قطاني ظل متمسكا بجملة . وفى أكتوبر ١٩٠٨ ومع تعافى البورصات العالمية ، أسس مع شركاء جدد بورصة جديدة ، وشرع فى بناء مبنى جديد ، هو ما عرف فى حينه بالبورصة الجديدة ، ولا يزال يحمل الشارع هذا الاسم ، لكنها فى عرف الناس اليوم تسمى بالبورصة القديمة . مبنى رائع الزخارف مواجه للفتنصالية الفرنسية ، تداول على ملكيته لاحقا بنك اللويدز ، والغرفة التجارية البريطانية ، والبنك الأهلى المصرى ، وأخيرا البنك الوطنى للتنمية . من الداخل أرضية واسعة للتداول ، وشفرة للجمهور ، كل شىء يجعلها بورصة الأحلام عالمية المستوى التى طالما تمنها صاحبها . لكن سوء الحظ كان بالمرصاد مرة أخرى . ما أن دشن التداول فى صباح الجمعة الثلاثين من أبريل ١٩٠٩ ، حتى هبطت كالصاعقة على الحاضرين وسط أجوائهم الاحتفالية ، خبر موت أكبر اقتصادى وصناعى فى البلد ، رافائيل سوارس ، رائد كامل البناء الرأسمالى فى مصر ، أحد الشركاء المؤسسين الرئيسيين للبنك الأهلى المصرى ، ونصير وأصل توطين فكرة الاقتصاد الحر رقم واحد تاريخيا وحجما فى أرض النيل . وبالنسبة للبورصة 'الجديدة' كان هو راعيها الأكبر ، وصمام نجاحها الموعود ، بعد الضربة العنيفة التى سبق وأطاحت بها .

على أن بورصة مصر سارت من نجاح إلى نجاح لعقدين تالينين ؛ ولأن الأحلام الكبيرة لا تموت أبدا ، يحدث فى سنة ١٩٢٨ ، بعد ٤ سنوات من رحيل موسى قطاني -أبو بورصة القاهرة- أن يتم اختيار منزل أسرته ، قصر قطاني الذى كان فى وقت ما يغطى مساحة هائلة تمتد لكل المسافة من البنك الأهلى لميدان سليمان باشا ، كى يصبح البورصة الحالية ، أو مجازا ما يمكن تسميته بالبورصة الحالية ، بعد انتقالها عمليا للقرية الناجمة (الذكية فى الترجمة العربية الخاطئة) ، بمدينة السادات ، منذ ٢٠٠٧ .

- وطبعاً يا مستر نبيل ، جاءت ضربة الكساد العظيم للثلاثينيات ، ثم الكساد الأعظم لمصر الاشتراكية ، مصر العظيمة ، مصر العزيمة ، مصر الهزيمة ، مصر عبمعصورة ، وعملياً لم يعد للبورصة منذ ذلك الحين وظيفة أكثر من تجارة القطن القديمة جداً . الجزء ده أنا عارفاه !
- مطبوط يا دكتور . شكراً على الأكل الجميل . تعتبرى قصة البورصة دى قصة سعيدة ، ولا قصة حزينة ؟
- أعتبرها قصة حب !



ها تبقى أول مسيحي يتجوز مسلمة في مصر

- بمرور الأيام لاحظ إدوارد توطد العلاقة بين نبيل وسما ، وأنه أصبح يقضى معظم الوقت في مكتبه هو حيث سماء موجودة طوال الوقت . انتهت فرصة ذات صباح باكراً قبل أن تأتي سماء وراح يداعبه : ' إيه يا عجوز أنت ، إيه الكرافات البمبي ده ؟ أنت الوحيد إلی اتعزم على نادى هليوبوليس . شكلك ناوى على حاجة ؟ فيه أخبار حلوة قريب ؟ ' .
- أخبار إيه ؟ أنا بتاع كلام من ده . ثم ما ينفعش أصلاً .
- لآ ، ينفع . بيقولوا ها يلغوا خانة الدين من البطاقة ، وها تبقى أول مسيحي يتجوز مسلمة في مصر ، وأدى عندنا هنا صحفیین كبار ، وها نخلیک مشهور .
- صحفیین ؟ ده أنا أخاف لو جه اسمی فی الجورنال . دى صداقة جميلة . سماء ست لطيفة وجواها إنسانة كبيرة والكلام معاها بيریح .
- وهو الحب إيه غيركده ؟ حصل ؟ صح ؟
- أما روميو وونس فكانا يتضحكان في ذات الوقت : ' عارف إيه السبب أن المسيحي ما ينفعش يتجوز مسلمة ؟ ' ، ' علشان دين الإسلام هو الأعلى ' ، ' طب افرض كتبوا في العقد أن الست تركب فوق على طول ؟ ! ' .



نزلة الفياجرا

- جاء صوت رمانة من الطرف الآخر للهاتف ، وهي تتحب : ' أستاذ وحيد ، موش ها أقدر آجى ! ' ، ' فيه إيه ؟ ! ' ، ' ما فيش ! موضوع شخصي . إنما أنا بطلت شغل خلاص ' . تلح على عدم الكلام ، ويلح هو على معرفة الأمر : ' إديني حد أكلمه ! ' . لا يأخذ أجوبة شافية ، لكن يأخذ العنوان ، إمبابة . ينزل للجراج المجاور . يطلب لأول مرة منذ سنوات طويلة سيارة الفورد ١٩٤٩ ، التي كانت تستخدمها أمه ولم يستخدمها هو أبداً . يضعون بما چركنا من البنزين ، ويؤكدون له إنها - كما دائماً أبداً - جاهزة تماماً للسير . بدا كمن يسوق سيارة لأول مرة ، لكن سرعان ما اعتادها . سأل كثيراً حتى وصل للعنوان في المنطقة المسماة بنزلة الفياجرا . في مصر لا أحد يقول لك لا أعرف . يعتقدون أن من الندالة أن لا تجيب السائل ، ولو بالإفتاء بما لا تعلم .
- إيه الحكاية ؟ تمد رمانة يديها ، ولا تزال آثار الاحمرار بادية في عينيها . مفاصل أصابع يديها متورمة جميعاً ، بحيث بدا شكل اليدين مخيفاً ، سلاميات نحيلة تفصلها عقل كروية متضخمة . الدكتور في المستوصف إلی جنبنا قال لى روماتويد . دخول الشتاء ومن ثم برودة الماء هي السبب . ما فيش علاج . تحملى حتى يمضى فصل الشتاء ، وستعود لحالتها الطبيعية من جديد . فقط حاولى تدفئة يديك حتى يقل الألم ، وابتعدى تماماً عن الماء البارد .

- طب والدكتورة إلی مشغلاكى قالت إيه ؟
- الست بتاعة الصلاة والصوم دى إلی خدمتها طول عمرى ، قالت لى إنها لازم تجيب واحدة تانية . هزت كفوف إيديها قدام وشها زى المروحة ، ولوت شفتها وقالت بأنزحة وهي بتتنفض زى ما تكون لدغتها عقرية : ' ما أقدرش أبداً أبداً استغنى يوم واحد عن الشغالة . أنتى عارفة ! ' . إدتى ١٠٠ جنيه وقالت لى رينا يتولانا جميعاً !
- أقسم لأتركن شقة هذه الشمطاء في أقرب فرصة ، أو لأشترىها كى أخلص من رؤية سحتتها المنتفخة وكلامها المصطنع . نعم ، سأفعل هذا حين تأتيني في المرة التالية ، وإن لم توافق سأنتقل فوراً !

تنتحب رمانة : ' ما عدش لى لازمة فى الدنيا يا أستاذ وحيد . ما فيش غير أنى أدخل كريم ملجأ ، وأدور لى على معاش آكل منه ، أو أروح أموت نفسى ! ' ، وجاراتها المحيطات بما يطبطن عليها ، ويحاولن تعزيتها . ' ممكن تقومى معاى ؟ ها نروح لدكتور تانى ! ' .
حين تركب السيارة يقول لها : ' أنا لى شرط واحد : إياكى تقولى كلمة ' ما عدش لى لازمة ' دى تانى . أنتى ما تعرفيش أى حاجة عن لازمتك إيه ! ' .



٣ كيويد



تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد

رغم دخول وحيد لحقل الإنتاج السينمائي لفترة ، إلا أنه لا يعتبر بحال من هوة قراءة الأدب . يقرأه عندما يكون مقررا عليه بالمدرسة ، أو أحيانا يقرأه عندما تصبح رواية بعينها حديث كل الناس ، كأجاثا كريستي في فترة الطفولة ، وكالأب الروحي مثلا في مطلع السبعينيات ، ذلك كي لا يشعر بالعزلة والتخلف عن كل من حوله . بالنسبة للأدب العربي هو أكثر عزوفا ، بحكم نشأته وثقافته العلمية واهتماماته الفلسفية . كان يقول بإمكانى قراءة كتاب فلسفة أو علوم كامل ، في نفس وقت قراءة رواية تتحدث عن بشر عاديين . حتى رواية ' النبي ' لخليل جبران لم يقرأها أبدا ، رغم ما يعلمه عن شهرة كاسحة لها في الغرب ، ورغم أنها كتاب فلسفة في نظر البعض . ' ميرامار ' لنجيب محفوظ كانت أحد الاستثناءات المبكرة . أتت له بما أمه ، وألحت عليه وكلها حماس محتفل لقراءتها ، قائلة هذه ستعرفك بما وصل له حال مصر الآن تحت حكم عصابة العسكر . لم يهتم وحيد ابن الحادية عشرة كثيرا برأى نجيب محفوظ في عصابة العسكر ، لكنه توقف طويلا عند شيء آخر .

قبل أسابيع قليلة في نفس عام ١٩٦٦ هذا ، كان فيلم ' رجل وامرأة ' قد زرع فيه لأول مرة حب الجو العاصف ، ليحل محل رعب الطفولة الأصغر منه في شواطئ بيروت الصقيعية . بالنسبة له كما للملايين عبر العالم ، أصبحت شواطئ أوروبا ، وبالأخص دوقيل التي دارت فيها قصة الحب العنيفة للفيلم ، حلما سياحيا عالميا ، كذلك فتحت حواس وحيد على النفور من المناطق الحارة والشعور بالؤس نحو سكانها وتخلفهم . لكن نجيب محفوظ أعطاه أبعادا لم تخطر بباله قط حين كتب في روايته السكندرية هذه يقول : ' يعجبني جو الأسكندرية ... لا في صفائه وإشعاعاته الذهبية الدافئة ... ولكن في غضباته الموسمية ... عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم ... ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب ... ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كندير أو كمنححة الخطيب . عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل ... وتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثلثة بالجنون ... ويدوى عزيها في الأفق ... ويجلجل الهدير ويعلو الزيد حتى حافة الطريق ... ويجعجع الرعد حاملا نشوات فاترة من عالم

مجهول ... وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب ... وينهل المطر في هوس فيضم الأرض والسماء في عناق ندى ... عند ذلك تختلط عناصر الكون وتومج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد (...) شيء حدثني بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة في قلبى ... وتخط طريقا ما زال غامض الهدف ... أو تضرب موعدا في غمغمة لم تفهم بعد ' .

توقف وحيد الطفل ساعتها عن القراءة -قراءة أى شيء- لأيام . ومن حينها -ورغم أنه وضع لاحقا نظرية فحواها أن هذه الرواية لم تتنبأ فقط بهزيمة ١٩٦٧ إنما بغزو أميركا للعراق بعد عقود و' حكمها إيانا بواسطة يمينيين معقولين ' ، إلا أنه ظل يعود من حين لآخر ، فقط لزيارة صفحتى ١٨٨ و ١٨٩ من روايته المفضلة حيث نحتت الجديدة الحريية لعلامة [بتشديد اللام] الكتب حفريّة غائرة في كليتهما . تتجسد أمامه صورة مباني الأسكندرية وآثارها ، ويحاول تخيل كيف أتما كان يوما عاصمة للعالم ، سياسيا وثقافيا وكل شيء ، وكيف أنه لا يوجد في مصر كلها شيء أجمل من شتاء الأسكندرية ، ويشرد طويلا مجددا في صفحتى الرواية ، وما هو بخير في الأدب أو الشعر ، وما أراد يوما أن يكون ؛ يقول : ' فقط يكفينى منهما هذه الآيات المرعبة ! ' .

شيء أكثر من مذهل ، أكثر حتى من فلسفى أو وجودى ، وصف كونى ، وصل الحد بهذا الكاتب الجبار لتخيل أنها ولادة كونية . وصف يذكرنى في كل مرة بذلك البرطمان الأسطورى الذى خلقوا فيه لأول مرة الأحماض الأمينية -الوحدات البنائية للبروتين- من مواد أولية جدا في منتصف الخمسينيات . برطمان مكوناته الماء ، ثانى أكسيد الكربون ، الميثان ، الأمونيا ، بالإضافة لأشعة فوق بنفسجية تحاكى الشمس ، وشرر يحاكى البرق ، وحرارة تحاكى دفء أحواض البراكين ، معاكنت التركيبية المتألية لأكثر الأشياء نمطية وتوافرا في كوكب الأرض قبل بلايين السنين . يالها من محنة جزيفية مروعة التي مرت بها مكونات هذا البرطمان حتى ولدت هذا الفتح العلمى الزلزال ، الحساء الذى فققع الآلهة في عروشها البعيدة مدعيا نيابة عنها أنها ليست صاحبة معجزة الخلق المزعومة . فعلا يكاد محفوظ -لولا ربما حرج أن تذكر أنه يكتب أدبا لعموم الناس لا علما للخاصة- يكاد يقول إنها حالة سديمية تصبح فيها كل الجسيمات بلازما منصهرة تنبئ بقدموم ' الانفجار الكبير ' . شيء واحد لم يعجبني فيها هو الإتيان على ذكر الخطباء في مثل هذا السياق الفلسفى الما ورائى البركاني المخلق ، سواء خطباء الدين أو خطباء السياسة ، من -سواء بسواء- نفرتنى منهم أمى . سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !



لو كان للإنسان حقوق أصلا ، فهى لا يجب أن تزيد بشعرة واحدة عن حقوق الكلب !

الحقيقة أن قصة وحيد مع شراسة الطبيعة أقدم حتى من ذلك . ربما بدأت بذلك الولع الغريب بالجلوس بالساعات أمام الغسالة الكهربائية ، كان يهوى التطلع من بابها للمحنة التراچيدية التي تمر بها الملابس داخلها من لحظة بدء التشغيل حتى انتهائه . تتطور الغسالات وتختلف أشكالها وتقنياتها ، وعادة وحيد الشاذة لا تتغير أبدا . عندما كبر كان يقول عندما يسأله أحد ، صديق أو خادمة ، عن هذه العادة السادية ، إنها خير ملهم له في أفكاره ، وأن أفضل تأملات تأتيه أثناء تلك الجلسات الطويلة على أرض حمام المنزل الباردة . إنها أفضل حتى من الشرود عبر الشباك الزجاجى خلال رحلة قطار طويلة مريحة من القاهرة للأقصر وسط خضرة المزارع اللا نهائية طباشيرية الملامح . إن ماكينة الغسيل الكهربائية أشبه شيء عرفه بذلك البرطمان مأساوى الظروف ، برطمان الخلق .

كان معجبا بكل من يتحدث عن قسوة آليات التطور ، من داروين وسپنسر ونيتشه حتى چيمس واتسون مكتشف الدى إن إيه ، والذى كان أكثر الجميع -المعاصرين منهم على الأقل- إثارة ، أساسا بسبب زلاقة لسانه في نقد مفهوم حقوق الإنسان . إذا كان داروين رأى الإنسان قردا ونيتشه رآه دودة ، فإن واتسون -طال عمره- كان ولا يزال يقول إن أمانا الطبيعة لم تعط حقوقا لأحد ، أى أحد ، ويقول إنه لو كان للإنسان حقوق أصلا ، فهى لا يجب أن تزيد بشعرة واحدة عن حقوق الكلب ! ولا يزال يؤكد أن التطور سوف يكتسح عشيرة الإنسان نفسها عما قريب ، وقطعا سوف تنزع عنه قداسته الموهومة التي ادعاها لنفسه .

مثل هذه القراءات والاهتمامات هى التي حسمت ميل وحيد الحازم نحو الاقتصاد مطلق التنافسية ، وبطبيعة الحال كان ' ثروة الأمم ' هو دستور فى الشأن الاقتصادى ، كما هو دستور الكثيرين من اختصاصى الاقتصاد ممن جاءوا بعد آدم سميث ومرجعه الكلاسى الكبير هذا .

... من كل هذا وذاك جاء إعجاباه الشديد بالدكتور فرغلى .



إن ما تقوم به يا سيادة الرئيس عظيم ،

لكن مصر الآن في حاجة لمدير لا لزعيم !

لو كان ثمة اسم ثالث يمكن أن يقرن بفرديريك فون هايبك وبميلتون فريدمان ، فهو الدكتور حسين فرغلى . ذلكما هما المنظران الاقتصاديان اللذان تبناهما ثاتشر وريجان بالترتيب ، وصنعا ثورتهمما العظمى بتطبيق أفكارهما . أما البروفيسور فرغلى فقد انفرد بأطروحة في الثمانينيات تقول بعدم جواز إعمار المناطق المنكوبة . اتركوا الناس تعانى . دعوهم وحدهم يصارعون الطبيعة . الأفضل أن يرحلوا عن تلك المناطق المنكوبة ويبحثون عن مكان آخر . كلام قاس وغير إنسانى لم يجد من يؤيده فى حينه . حين ضرب إعصار كاترينا نيو أورلينز عام ٢٠٠٥ ، طفت أطروحته للسطح من جديد ، واستغلها المعارضون للإنتفاخ الحكومى السخى على إعادة إعمارها للبرهنة على أن السياسة إنما يبدرون أموال الضرائب ، وأنهم يفعلون هذا لأغراض انتخابية خسيصة ، لا أكثر .

خلال زيارة السادات لأميركا فى عهد الرئيس ريجان طلب مقابلته ، وعرض عليه رئاسة الوزارة فى مصر . فرفض فى لحظة ، قائلاً باندفاع رائع :
' إن ما تقوم به يا سيادة الرئيس عظيم ، لكن مصر الآن فى حاجة لمدير لا لزعيم ! ' .
- ستكون أنت ذلك المدير .

لكن القرار كان فيما يبدو محسوما سلفا : ' كلا ، إن مصر ، بما فيه الانفتاح والثورة الخضراء والسلام مع إسرائيل وكل أفكار سيادتكم الرائعة ، ما هى إلا فوضى شاملة ، لا يمكن أن يصلحها لا أنا ولا غيرى ' .

أما ريجان فقد قال للسادات فى اليوم التالى : ' عن نفسى سأخطو أعمق من مشروعى الانتخابى . سأقوم بمجزرة للإنتفاخ الفيدرالى . لدينا عجز لا لزوم له . نحن لسنا فى حالة حرب مثلا حتى تكون حكومة الولايات المتحدة مدينة . سأطبق الاقتصاد شديد الحرية ، وبعد قليل سأخفض الضرائب أيضا . ماجى بتطبق فون هايبك ، وإحنا فى أميركا أولى ! ' .

كانا يجلسان ساعتها فى غرفة إدوارد . اقترب اللواء عزمى وكان قد استمع لكل ما قاله وحيد ، وسأله : ' كيف عرفت بما دار بين ريجان والسادات ؟ ' .

- وكيف عرفت أنت ؟

- السادات حكى لى . كنا قاعدين زى أنت وأنا . دكتور فرغلى هو إللى حكى لك . صح ؟

- (لا يجيب إنما مرة أخرى بغريزة الصحفى يرد السؤال بسؤال :) أنت والسادات كاجوال كده قدام بعض على ٢ فوتبى ؟

- أيوه بالظبط . أنت فاكسر السادات راح علشان موضوع الدكتور فرغلى ؟ الموضوع الأهم كان خطف القذافى . السادات هو إللى طرح الفكرة على ريجان ، وأنا إللى وضعت الخطة ، وكنا ها نخط عمر المحيشى رئيس ليبيا . لقاء السادات وريجان كان يوم ٦ أغسطس ١٩٨١ ، وفى نفس الأسبوع استدعانى ؛ أعتقد لأنى مخابرات لكن أصلى قوات خاصة . وفهمنى أن كل الكلام يفضل سر حتى عن رؤسائى . بعد كام يوم رحى له بالخطة . درسها واستدعانى تانى ، سألتنى فيه احتمال القذافى يتقتل ؟ قلت له ممكن يا فندم ، محدش يضمن ظروف العملية بالظبط ، وطبعاً أى رصاصة جازير تطلع كده أو كده . بص لى وقال نأجل الموضوع ده شوية . كنت حاسس أنه جازير يفكر فى حاجة تانى ، أو جازير يكلف حد تانى ، أو جازير يحط احتمال قتل القذافى فى الاعتبار ، أو مثلا يدرسه تانى مع أميركا إللى كانت عاوزه تحاكمه . لكن الأجل جاء له بعد كام أسبوع ولم يتم أى شىء !

- اتكذب كثير عن خطط لاغتيال القذافى ، وأغلبها فيه اسم المحيشى .

- موش دى . كلها كانت لعب عيال . ما حدش كتب عن خطة تنفيذها قوة مسلحة مصرية .

ذهل وحيد من أن هذا ' الشاب ' (بينما فى الواقع هو قرب الستين) ، الهادئ الصامت شبه الخجول ، الذى كل ما يعرفه عنه عملاء رمسيس أن اسمه الكابتن عزمى ، الضابط المتقاعد الرياضى الرشيق طويل القامة أسمر البشرة الذى يأتى جريا بتي شيرت قطنى مبلل بالعرق كل صباح وبنظارة شمسية أنيقة لا يخلعها أبدا ، وأنه أحد المستثمرين غريبى الأطوار ممن يفضلون الاستثمار طويل المدى ، ويفضل شركات السماد ربما بسبب قرابته لأناس بها أو شىء كهذا ، ذهل من أنه شخص يخفى خلفه سرا رهيبا كذلك السر .

- أنت ليه بتقول لى القصة دى ؟

- موش عارف ! احتمال علشان هى سر ما يعرفهوش غير ثلاثة . اتنين ماتوا ، ما فيش ولا كلمة اتخطت على ورق ، ولو مت أنا جازي السر يندفن للأبد .

- بص يا كابتن : أنا برضه عاوز أقول لك حاجة . بس قبل ما أقولها لك أحب أعرفك بشيء عن نفسى ، بما أنك كنت قريب كده من السادات وواضح أنك بتجبه . أنا من الناس القلائل جدا الذين لم يلوموا السادات أو ريجان على استخدام الإسلاميين فى ضرب الشيوعيين . طبعا ما حدث هو كارثة ، وغلطة كبرى ، وكان الأفضل أن يحاربوا الشيوعيين مباشرة بنفسيهما ، وليس بالوكالة ؛ أى بواسطة أناس أشرس وأشد تخلفا . وطبعا كما نعلم جميعا دفعا الثمن غاليا .

- ما حدش بيتعلم ببلاش .

- (وقد ازدادت كلماته حدة وسرعة وتنفيسا عن غيظ مكتوم :) فعلا ، أنا عاوز أقول كده . أنا من السهل لى ككاتب ، أن أقول هذه مبادئ ، وأهندس كل شيء على الورق بأروع ما يكون . هذه وظيفتى . لكن ما لم أفعله أبدا هو أن أنسى عمى أحدث ؟ أنا لا أحدث عن انتهازى يسارى حقير كليل كلينتون الذى حارب مع الأصوليين الإسلاميين كتفا بكتف فى البلقان ، ويا ليتها حتى كانت حربا صحيحة بالحسابات اليسارية ، إنما كان بيحارب يساريين زيه ، فقط كى ينتصر الإسلاميون على كليهما فى النهاية . نحن نتحدث عن السادات وريجان ، عن اثنين من أعظم زعماء القرن العشرين . ويكفى السادات نبوءته غير المسبوقة من إنسان (جازي من كمبيوتر آه ، إنما إنسان لأ !) ، بسقوط الاتحاد السوفييتى . أقصد يوم ما طرد الخبراء السوفييت ، وكان الاتحاد السوفييتى فى عز جلال مجده ، وكان بوسع دباباته تسوية بودابست وپراج بالأرض لبادرة أقل من هذا بكثير ، ولم يحدث أبدا أن تلقى لكمة مهينة بهذا الحجم ، أو بأى حجم ، من أى أحد ، فى كل تاريخه ، وفعليا كانت أول خطوة انكماشية تراجعية بعد عقود طويلة من النمو والتوسع . وطبعا يكفى ريجان السقوط الفعلى للاتحاد السوفييتى . من السهل تقول عليهم جهلة أو حساباتهم كانت غلط مع الإسلاميين ، بينما دى سياسة والمسئول لازم يلعب بالأوراق إالى تحت إيدى . دى أنا فاهمها كويس ، حتى وإن ما كنتش قابلها . يا سيادة اللواء ، أنا بصراحة رغم كل إالى المأسى إالى عملها السادات فى تدين المجتمع ، طول عمرى ما شفت فيه المسلم المتدين ، جازي فى شبابه نعم ، إنما طول فترة حكمه لأ ، والأهم أنه بالتأكيد لم يتخيل مصر دولة إسلامية ، إنما العكس بالضبط : دولة عصرية منفتحة على العالم والحداثة حرة الاقتصاد وتميش فى سلام وتعاون مع جارها الوحيدة المتقدمة إسرائيل ، إن لم يكن أيضا العداء قدر الإمكان مع بقية الجارات المتخلفات من أجل ضمهم لمعسكر التحضر مثله . فقط كان فى نظرى بطل بيحارب الشيوعية ، بطل تراچيدى ، حرفيا كما أبطال اليونان القديمة : سيطر عليه هدف نبيل فقاده للتهلكة . هو ده رأيى : فى الأساس الشيوعيين أنفسهم هم من يتحمل معظم مسئولية ما حصل من هجمة إسلامية ، إن لم يكن كل المسئولية ، موش السادات وريجان . وأن النهارده لازم يشعروا بندم شديد على غبايمهم الحقيقى منقطع النظر إالى تسبب فى كل هذا .

- بس ... (لم يدعه وحيد يكمل) .

- لو كانوا اتصرفوا بطريقة مختلفة ، ذكية ومتحضرة ، ما كانش حصل إالى حصل ، وكان العالم بقى أفضل كثير . حتى فى إيران ، كان من عاشر المستحيلات أن يسقط الشاه بدون مشاركة الشيوعيين فى الثورة عليه ، إن لم أقل حركوها وقادوها وكانوا وقودها . أما هم فما كانش ها يخسروا أكثر من إالى خسروه فعلا ، الرأسمالية (بين قوسين) اتطبقت فى مصر ، وهم أبيدوا فى إيران ، والاتحاد السوفييتى سقط . شوية مسعورين بيتبنوا مشروع فاشل بل مستحيل اسمه الاشتراكية ، وبيلحوا عليه بكل الطرق . حقد طبقى ، تحريض العمال ، الطلبة ، الصحافة ، السينما ، المسرح ، الأغاني ، لعب على مشاعر الناس من كل الطبقات باسم المساواة ورفع الظلم والسلام العالمى وأخوة البشر ... إلخ . كلام جميل ، انفعالات ومشاعر ، ونجاح هايل ومظاهرات بالملايين ملأت العالم ، إنما المشروع نفسه ولا حاجة . حلم غبى . مؤامرة ضد الطبيعة وقوانينها وضد طبائع الإنسان ، وموش ها يودينا لأى حنة ، إلا الفقر للجميع . وأكد استئصال أناس يمثل هذه اللزوجة كان أصعب بكثير بأى طريقة تانى ، أو على الأقل بطريقة سريعة زى إالى عملها السادات وريجان . (يهدأ قليلا :) نعم ، أعلم أننا عايننا جميعا من ظهور الإسلاميين ، لكنى بالمقارنة أعتبر ما عاينناه رغم ألمه وجسامته ، ضريبة بسيطة كان يجب علينا - كمجتمعات وكأفراد- دفعها عن طيب خاطر للخلاص من كابوس رهيب هو الشيوعية . على الأقل لم يضطر الملايين من أمثالى عبر العالم للبس الزى العسكرى وحمل السلاح لمحاربتها . ماشى ؟

- ماشى ! بس على فكرة إحنا فى القوات المسلحة ما لناش أى رأى فى السياسة !

- باختصار ، أن موش علشان المصلح أخطأ -بفرض أنه أخطأ- ننسى المخرب الأصلي ، أو علشان الشرطى أخطأ نبرئ المجرم . دى عاملة زى إسقاط صدام حسين ، والدنيا إالى باظت بعد كده . هل الغلطة تومى فرانكس ؟ هل الغلطة بول بربر ؟ هل الغلطة إباد علاوى ؟ كلا ، الغلطة هى ما جاء لاحقا : الديمقراطية . نعم ، أميركا أخطأت ؛ فبدلا من أن تحكم العراق حكما عسكريا حدائيا بالحديد والنار ، تخيلته يابانا أو ألمانيا أخرى ، وشرعت دستورا وأمرت مصانع البلاستيك بتصنيع صناديق للانتخابات ، فكانت النتيجة أن تحول كله لساحة لحرب أهلية . لكن فى الحالتين المجرم الأصلي معروف وإسقاطه عن عرشه

كان واجبا بل ونصرا كبيرا للحضارة بكل المعايير . دى المقدمة عن أرائى ، أما بأه الحاجة إالى أنا عاوز أقولها لك ، فهى أنك جبت لى اكتتاب ما بعده اكتتاب النهارده .

- أنا دلوقت إالى بقيت عاوز أعرف أنت ليه بتقول لى كل الكلام ده ليه !

- (يزداد الاحتداد والسرعة فى كلامه :) لو خطتلك إالى بتقول عليها دى كانت اتنفذت ، كان حاجات كتير جدا اتغيرت فى المنطقة . بدل كام معركة هنا وهناك على الجبهة الغربية ما لهاش أثر يذكر ، كنتم قطعتم رأس الأفعى . موش هو بس ، إنما كان جازير ساعتها كل جبهة الرفض انهارت ، وأثمان مهولة دفعتها المنطقة والعالم بقى ممكن تجنبها ! وشكرا !

- زى ما بأقول لك إحنا فى القوات المسلحة ما لناش أى رأى فى السياسة . صحيح شلنا كلمة ' العدو ' بتاع زمان ، وبقينا بنكتب بدلها على الخرائط والخطط الحربية ' العدو الغربى ' و ' العدو الجنوى ' ، ودخلنا بعض معارك هنا وهنا أيام السادات وأول أيام مبارك ، وإلى أعرفه أنهم أضافوا دلوقت ' العدو الشرقى ' من جديد ، الفلسطينيين والسوريين . إنما فى كل ده موش إحنا إالى حددنا ولا إالى بنحدد سياسة البلد .

- (وقد وصل الغيظ مداه :) بأقول لك : شكرا !



تلميذ الدراسات العليا عنده ، كمال الجنزورى !

دكتور فرغلى الذى رفض توسلات السادات المباشرة ، قبل -صدق أو لا تصدق- على يد تلميذ الدراسات العليا عنده ، كمال الجنزورى ! هذا الوزير المتفق عليه سرا من قبل المؤسسات المالية العالمية ليكون رئيس الوزراء القادم لمصر ، بمجرد انتهاء ما سمي بالمرحلة الثانية للإصلاح وبدء المرحلة الثالثة ، المخصصة ، أول يناير ١٩٩٦ . قيل فيما بعد إن المقابلة التى تمت قبل هذا التاريخ بنحو ستة شهور ، قد جرت بمكتب آل جور ، نائب الرئيس الأمريكى . لهذا الظن ميرراته ، فآل جور هو الذى بعد هذه الشهور ، جاء كل تلك الرحلة الطويلة لمصر بساق ممدودة فى الجبس لتنصيب الجنزورى ، لكن ذلك الظن لم يكن صحيحا بالمره . آل جور يسارى ولا يطبق أصلا أمثال بروفيسور فرغلى ولا أفكارهم .

المقابلة تمت فى الحقيقة فى مكتب نيوت جينجريتش ، زعيم الأغلبية الجمهورية بالكونجرس . للدقة كان اللقاء رباعيا . الشخص الرابع كان ميلتون فريدمان نفسه ، بشير الاقتصاد الحر الأشهر فى أميركا ، والقوة الدافعة وراء إصلاحات ريغان ، والصديق الشخصى لكل تلك القيادات المسماة باليمينية ، والأب الروحى لمن سموا لاحقا بالمحافظين الجدد ، الذين جينجريتش هو أولهم وأشهرهم . وأخيرا وهو ما يهمنا ، المعلم الذى رضع على يديه دكتور فرغلى الفكر الاقتصادى . بعد دقائق اتحنى فريدمان بجينجريتش ، يتهامسان حول الخطط التى سيحاول بها الكونجرس كبح المشاريع الكارثية لآل كلينتون ، هيلارى وزوجها ، هكذا كانا يتمثلانها . الاثنان الباقيان بدءا الحوار :

- اسمح لى يا دكتور ، ليه ما تطبقش أفكارك دى بنفسك فى مصر .

- أفكارى مطبقة فى تشيلى وأميركا وأماكن كتير .

- لماذا لا تطبقها بنفسك ؟ تشرف على تجربة ما إشرافا مباشرا ؟

- مصر اشتراكية من فجر التاريخ . وبصراحة يا دكتور كمال ، ورغم كل تهليل الإعلام لى ولى زى اليومين دول ، أنا أفكارى ماشية بالعافية ، وبس عند الأنجلو-ساكسون ، أو لو رعو انقلاب فى حته زى تشيلى . على أية حال ، الحل عندكم يجب أن يبدأ ببنك استثمارى

ضخم لإدارة الخصخصة ، وقبلها لتأسيس البورصة بقوانين على أعلى مستوى عالمي ، وتداول إلكتروني ، ورقابة واعية غير غليظة اليد ، ليكن اسمها هيئة سوق المال أو شيء كهذا .

- (لم يشأ الخوض في هل مصر اشتراكية تاريخيا ، أو ماذا كان دور الدولة بالضبط فيها ، فهو في قرارة نفسه يرى مصر القديمة أما وجدرا للقانون الطبيعي ، لا لشيء إلا لأنه في ذلك الوقت البكر وتحت تلك السماوات صافية الذهن ، لم يكن ليرى المصرى القديم شيئا سوى الطبيعة ، ولم يكن يسعى لتعلم أو تقديس سوى قوانينها ، وقطعا لم يكن ليعرف شيئا اسمه الأيديولوجية أو الإسقاط أو لى عنق الأشياء ؛ لذا فقط عاد الجنزورى ليكرر :) لماذا يا دكتور لا تطبقها بنفسك ؟ تشرف عليها إشرافا مباشرا ؟

- أنا ليس لدى المال المثل ذلك البنك . هذا البنك يجب أن يكون عملاقا ، قادرا على تأسيس شركات جديدة وتمويل شركات قائمة ... إلخ .

فرد الجنزورى بسرعة مدهشة : لكنك يا دكتور تؤمن بالسوق ، لماذا لا يكون هذا البنك بكامله تقريبا مملوكا لصغار المساهمين ؟

كان هذا الاقتراح ضربة معلم ، كما يقولون . الجنزورى كان يعلم أن رئاسة الوزراء نفسها قد عرضت يوما على فرغلى ورفضها ، وهو يعرض عليه اليوم شيئا أقل شأنًا بكثير . لكن هذا العرض الأخير هو بالتحديد العرض الوحيد الذى لا يمكن رفضه : حقق أحلامك دون أن تتولى منصبا حكوميا ، الشيء الذى تعافه وتزدريه . ولأن شيئا لا يفرح الأستاذ أكثر من أن يجد تلميذه قد فاقه ، فقد صعق من الاقتراح ، وقبل في أقل من لحظة . وفوجئ الجنزورى بأتهما صديقان حميمان أكثر مما توقع ، وأنه يحتفظ بمثل هذا القدر من الدلال والحظوة عند أستاذه .

عادا لرف البشرى لصاحب المكان وصديقه . بعد قليل نهض الثلاثة الذين يمثلون ثلاثة أجيال مختلفة من الاقتصاديين يحبون زعيم الكونجرس العتيد ويهمون بالانصراف . فجأة ألقى الثعلب الكهل ، ذلك القصير المكبر الذى وقف ساعتها متوسطا فرغلى والجنزورى ، فبدا مضحكا بعض الشيء ، ألقى بواحدة جديدة من نبوءاته الطائشة فائقة الفحش ، التى تثير غضب الجميع (لمدة عشرين عاما عادة فى المتوسط) ثم يعترفون بها بعد ذلك كما هى حرفيا . قال : ' لم يحدث أن شهد جيل فى التاريخ كل هذه المنجزات التقنية فى سنة واحدة (أو حتى فى قرن كامل) : الإنترنت ، الاتصالات الخليوية ، تليفزيون الكيبل أو الساتلايت ، زائد جلوية تتيح انتشارها الفورى جميعا ، لكن انظروا كيف استغلت هذا الزمرة الشيوعية ساكنة البيت الأبيض ؟ إنهم ماضون فى سلسلة قوانين جباية الضرائب تنهك الاقتصاد وتضيع الفرصة التاريخية من ناحية ، ومن الناحية المقابلة يدارونها بقوانين أخرى تشجع رهونات العقارات والتضخم عامة لخلق وهم بأن الاقتصاد يتقدم . الأخطر أنهم يقودون وول ستريت نفسه إلى فقاعة فى أسهم التقنية ستقع حتما خلال سنوات إن لم يكن شهور قليلة ، وستفضى إلى كارثة كبرى ، كساد قد يفوق كساد الثلاثينيات ، هذا ما لم يتول الحكم بسرعة رئيس يطبق بصرامة سياسات سوق حقيقية ؛ سياسات بناء جاد ، لا سوق لتجارة السراب ، اعطنا كسلا وخذ وهما ، ولنرسل معا لفواتير لجيوب ضحايانا المشتركين ، البنائين الأشرار ممن يجب أن تقصم الضرائب ظهورهم وتسرق عرقهم ' .

... كان يتنبأ بالقانون الكارثى للتصريح للبنوك التجارية بممارسة نشاط البنوك الاستثمارية ، وأيضا يتنبأ غائيا بجورج دبليو . بوش وفريقه

الثورى غائر الطليعية والتقدمية !



الحمد

تذكر البروفيسور فرغلى كلام السادات عن ' الحمد ' . كان حين قد علم قبل نحو عقد ونصف برغبة السادات فى مقابلته ، قد طلب على عجل من شركة خدمات صحفية أن تأتية بملف متكامل عن رئيس مصر ، مشددا بالطبع على أن يكون به بعض التسجيلات التليفزيونية . لفتت نظره عبارة ' أنا قدرت على كل حاجة فى مصر ، إلا حاجة واحدة ما قدرتش عليها : الحمد ! ' . ساعتها ضحك وهز رأسه هازنا : ' لو كان ذلك الحقد هو كل مشكلة مصر حقا ، لكان الأمر ! ' . إلا أنه بعد اغتيال السادات شعر بشديد الحزن وبعض غير قليل من الإحساس بالذنب والندم . لقد ترك الرجل يصارع وحيدا من أجل انفتاح عشوائى بنى القليل ، وأثار من غضب الناس الكثير ، وإن كان -حسب نظريات فرغلى- لا مفر من غضب الناس فى كل الأحوال ؛ انفتاح اضطره للجوء للدين لتمريه ، فدفع حياته ثمنا لهذا الأخير .

... من هنا اختار دكتور فرغلى كيوبيد اسما للشركة ، واعتبره تحليدا وتكريما للرئيس السادات على نحو أو آخر .



النسوان القماطة

- اوعى تقول لى يا حاج أن ما عندكش فكرة عن النسوان القماطة .

- أنا موش وسخ زيك !

- وإيه الوساحة فى كده ؟

ويبدأ ونس فى شرح الفارق بين نساء العراق ونساء تركيا ، المرأة العراقية تقمطك فى وسطك برجليها ، والمرأة التركية تقمطك فى حنة تانية ، الواحدة تبقى مخلفة عيلين وتلاتة وتقمط !

- أنت خايف من المدام ولا إيه يا حاج ؟

ويضطر ضهرى بطيبة أن يشرح أنه متعفف ولم يخن أبداً إجلال التي يجيها . وروميو المستمتع بالحوار رغم دخول صاحبيه فى منطقة تكاد تكون احتكارية بالنسبة له ، يواصل حث ضهرى على الاعتراف بكم مغامرة أتى بها قبل الزواج .

العراق وتركيا كانت أكثر الأماكن التي تردد عليها ونس فى رحلاته لتوزيع الملابس انطلاقاً من الكويت . هكذا راح يشرح قصته . ذات مرة قرر أن يجرب بيع كل كوتتينر الشتاء فى مصر . فوجئ بعراقيل الجمرك ، وأن لا بد من رشاوى هائلة ، فتقدم إليه مخلص جمركى ، قال له تعالى قابل الپاشا وها يحل لك كل حاجة . كتب الشحنة باسم ' الپاشا ' حتى يسهل دخولها . ثم قال له أعوان الپاشا المياها أتلفتها وها نغسلها ونبيعها فى وكالة البلح .

ويتدخل ضهرى : ' إذن قالوا لك كانت فى العشة وطارت ! ' .

- بالظبط ! فى لحظة خسرت نصف مليون جنيه !

عاد ونس لدمياط ، بخمسين ألف جنيه ، وهو لا يعرف ماذا سيفعل . اكتشف أن أباه قد ترك لدى وفاته صكوكا لأسهم لبعض شركات حلج القطن ومطاحن ، وأنها كانت نصيبه من الميراث الذى قسم فيما بين إخوته وأخواته الكثر . نظر فى الجريدة فوجد أنها تساوى حوالى ٣٠ ألفاً أخرى . فقرر الرحيل والاستقرار فى القاهرة ، حيث لا يوجد فى دمياط شركات سمسرة ، وهو لا يعرف الأسكندرية جيداً . وزوجته الپراجمانية الجشعة شجعتة وقالت إنها ستقدم على معاش مبكر من وظيفة الشهر العقارى ، وستستخدم كمبيوتر الأولاد فى إمداده الفورى بأخبار الإنترنت . وسيأتيها كل نهاية أسبوع كما كان يفعل أيامه القديمة فى القاهرة .

قدم لحي المطرية لبيت إحدى قريبات زوجته ، ولم يكن خفيف المقام جداً ، لكنه بعد نحو ثلاثة أسابيع حصل على غرفة مفروشة واستقل بنفسه .

- أول الشهر ها أدور على أوده مفروشة ، وأعمل جلاء من عندكم !

ظل يلاحق موظفة البورصة فى التليفون ، للحصول على تليفونات وعناوين شركات السمسرة فى المطرية . أحالته للإدارة المختصة بالمطبوعات . ادعى أنه مسافر يوم الأحد ، وأن لديه صكوكا ورقية يريد تسليمها بسرعة .

- صكوك إيه ؟

- موش مهم ، أنا بس عاوز أعرف تليفونات الشركات .

وتحضر الموظفة المغلوبة على أمرها أحد الكتيبات : ' ما فيش شركات سمسرة فى المطرية ' .

- طيب مصر الجديدة ؟

تمليه بعض الأسماء ، يتصل بالتجارى الدولى ويعرف أن الحد الأدنى لفتح حساب ١٠٠ ألف جنيه ، ويستبعدها . أخيراً يستقر على شركة رمسيس ، إذ أيضاً لحسن الحظ هناك مايكروباص بأجر بالنفر يصل ما بين المطرية وروكسى !

كان ذلك في أحد أيام سنة ٢٠٠١ ، وكالعادة وجد نبيل طريقا لمصادفة كل قادم جديد : ' تعرف أن إيمان صاحب القصر ده ، كان جاي المطرية أصلا ؟ ' .

- إزاي ؟

- موش المطرية دى ، المطرية بتاع المنزل .

- (ضاحكا :) بتاعتنا برضه !

- أصلا شركته البلجيكية كانت بتتنافس على مقابلة إنشاء خط سكك حديدية من المنصورة لپور سعيد مرورا بالمطرية . حس أنه موش قد شركات الإنجليز وأنه ها يخسر المشروع . جه بنفسه لمصر ، وخسر فعلا . لكن حب البلد وقرر الإقامة ، وبني مصر الجديدة ، وحب واتحوز من هنا كمان !



مجرد تجميع أموال الناس قسرا - أو حتى طوعا - لخلق ما يسمى بمال عمومي ، هو فساد .

بالتالى المعادلة للقضاء على الفساد بسيطة جدا : لا حكومة ، لا فساد !

نحن لا نستطيع الاستغناء عن الرأسماليين ، لكن نستطيع الاستغناء عن الحكومة ؛

بلغة الدين ، الرأسماليون هم ربنا الذى يطعم الناس ،

والحكومة هي رجل الدين الذى يقتات على حشر نفسه كوسيط بين الاثنين !

قضى ونس ١٠ سنوات بالتمام والكمال فى الدراسة ، ٥ × ٢ ، فى هندسة أسبوط ، قسم الهندسة الميكانيكية ! وصل لدرجة أن بدا يقول لزملائه يا ابني ولزميلاته يا بنتي . هيئته البدنية كانت تجعل هذا أقل غرابة من المتوقع . هكذا جاءت الطبيعة التى لاصقته إلى أن حطت على أرضية شركة رمسيس . ينادى الجميع بابني وبنتي ، وينادونه اختصارا عم عبده أو حاج عبده ، أو ينادونه اصطلاحا النداء الذى ألفه طيلة حياته : ونس . لا أحد يعرف من أين اشتق هذا الاسم أو من أطلقه ، بما فى ذلك ونس نفسه . يقول متهكما : ' ربما اختارته لى إحدى خالاتى كاسم دلع بدلا من الأسماء ثقيلة النطق والظل معا التى تفضلها عائلة أبى ' .

بعد أن تخرج عاد لدمياط ، تقدم للاشتغال فى مصنع حرى فى أبى قير ، ولم يقبل . وفى النهاية رضى بوظيفة السكك الحديدية بمرتب حكومى تافه ، فى موطنه دمياط ، كما تزوج من إحدى قريباته . وبعد فترة قال : ' السكك الحديدية لن تخصص أبدا ، وقرروا يسيبونا نموت موتة ربنا ! ' . اشتغل فى شركات مقاولات ورصف طرق وما إليها فى دمياط ونحوها ، ثم جرب الذهاب للقاهرة والاشتغال فى ذات نوعية الشركات الخصوصية الصغيرة ، وفى النهاية قرر السفر لأبيه فى الكويت . هذا الأب مقيم هناك منذ عام ١٩٥٧ ، والآن أصبح تاجرا للملابس . ورث عنه ونس مهنته وعاد هو - أى الأب - لدمياط . كان ونس يسافر لمانيلا فى ختام كل موسم شتاء أو صيف ، يأتى ببواقى منتجات السنة من ملابس الأطفال ، ثم يوزعها بسيارة لورى فى الكويت والسعودية والعراق وسوريا وتركيا . ثم أخيرا مصر ، كما سبق وروى .

كالعادة من الآن فصاعدا ، أثارت قصة ونس جدلا بين وحيد وضهرى :

- الفساد مالى البلد يا أستاذ وحيد ، ولولا الفساد لبقينا أحسن من كده كثير .

- غريبة !

- إيه ؟

- أنك أخو وزير وبتشتكى من الفساد . فى رأى الفساد يا حاج نتيجة موش سبب . طالما فيه حكومة فيه فساد . الحل فى تقليص سلطات

الحكومة لأبعد مدى . بالذات ترفع أصابعها بالكامل من الاقتصاد . لو ما كانش فيه جمارك ، ما كانش الأخ ونس فقد شفاء عمره .

- ده غلط فى التطبيق .

- ساحنى يا حاج ، زهقنا فى شباننا من الكلام عن النظرية والتطبيق . الشيوعية كويسة بس التطبيق وحش . القومية العربية كويسة بس

التطبيق وحش . الإسلام كويس بس التطبيق وحش . المسيحية كويسة بس التطبيق وحش . إحنا موش ها نجيب ملايكة من السما علشان يطبقوا

لنا . السيستم لازم يطبق نفسه بنفسه . فيه ناس تقول ممكن الحكومة تدير الاقتصاد لو تحررت من الروتين والبيروقراطية . طب هم الروتين والبيروقراطية اخترعوهم ليه ؟ علشان لو اتلغوا ، كل المال العمومي ها يتنهب فى لحظة . إذن فى كل الأحوال مستحيل الحكومة تصلح . كل الأيديولوجيات دى الفساد مكون عضوى فيها ، وليست المشكلة سوء التطبيق . ده لأن ما فيش سيستم يطبق نفسه بنفسه ، غير واحد بس ، سيستم أمنا الطبيعة ، المنافسة المطلقة ، والاقتصاد الحر المطلق ، وبالتكثير يكون للحكومة دور أمنى ، بمنع محاولة الأفراد مصادرة حريات بعضهم البعض . إالى إحنا فيه ده ، رأسماليين بيتحركوا فى وسط بيروقراطى حكومى واسع الصلاحيات والنفوذ ، موش ممكن يسمى رأسمالية ، ليس به ميزة واحدة للرأسمالية ، بينما به كل عيوب الاشتراكية . الرشوة المباشرة تحت الترابيزة هى قمة جبل الثلج لا أكثر ، والفساد شىء أضخم كثيرا جدا من هذا الفعل الفاضح ، أو بالأحرى غير الفاضح ، لأن هناك ما هو أفصح كثيرا من أشكال الفساد . الفساد فى أميركا لا يتخذ أبدا صورة رشوة مالية فى الخفاء ، إنما يتخذ فقط صورة قانون يصدر عن الكونجرس . حتى الكذب وعدم الشفافية لا يعتبر فسادا ، لأن مسئوليتك كمستهلك أو كمستثمر أن تبعد عن الشركات التى لم تشتهر بالشفافية . إليك تعريفى للفساد : هو كل نشاط اقتصادى يحاول أن يستثنى نفسه من القواعد التنافسية للسوق . كل المال الحكومى (حتى لو قام عليه ملائكة أتوا من السماء فعلا) ، هو مال فاسد ، ويستخدم فى أغراض فاسدة كتنمية من لا يستحقون دارونيا التنمية (دع جانبا إعاشة البيروقراطيين ممن فشلوا فى الحصول على وظيفة فى سباق السوق الحرة ، دع جانبا ترحبهم وسوء استغلال سلطاتهم) ، والأسوأ أنه -أى ذلك المال- دائما ما ينتهى إلى فقاعة تقضى على الأخضر واليابس ، الناجح والفاشل ، كل شىء وكل أحد . باختصار ، مجرد تجميع أموال الناس قسرا -أو حتى طوعا- لخلق ما يسمى بمال عمومى ، هو فساد . بالتالى المعادلة للقضاء على الفساد بسيطة جدا : لا حكومة ، لا فساد ! نحن لا نستطيع الاستغناء عن الرأسماليين ، لكن نستطيع الاستغناء عن الحكومة ؛ بلغة الدين ، الرأسماليون هم ربنا الذى يطعم الناس ، والحكومة هى رجل الدين الذى يقتات على حشر نفسه كوسيط بين الاثنين ! الحكومة الصغيرة للغاية هى الحل الأصوب والأوقع ، وكمان الأسهل !

- بس فيه ناس شجاعة بتحارب الفساد !

- (يشهق بصوت لم يسبق أن سمعه عملاء رمسيس بهذا العلو أبدا :) ها ... ها ... ها ! (قالها متقطعة وكأنه أصيب بزغطة !) . اسألنى أنا . الصحافة عندنا أفسد من الفساد . حتى إالى بيدوهم جوائز البطولة والشجاعة . أنا أعرف الناس دى شخصيا . بيطلعوا بقضايا الفساد علشان يقبضوا . كل واحد وله تمن معروف ، والقوانين مساعدة على كده . إيه حبس ست شهور ، فى شركة خسرت بلايين بسبب إشاعة ، والصحفى قبض أجره الحبس مقدما من المنافس إالى زقه للإشاعة ؟ لو زى بره التعويضات بمئات الملايين ، والمؤسسة الصحفية عارفة أنها بكره الصبح ها تبقى مملوكة للى شتمته غلط ، والصحفى عارف أنه ها يقضى بقية عمره فى السجن من غير ما يقدر يسدد التعويض ، ما كانش ولا واحد اتكلم عن الفساد . حتى لو الفساد عيني عينك ، وحتى لو تحت إيديهم أدلة دامغة ، موش ها يتكلموا لأنهم هم نفسهم أس الفساد . هم يوحون طوال الوقت أن الرأسماليين هم من يفسدون الناس ، بينما يعلمون تمام العلم أن الرأسمالى لن يدفع رشوة إلا لأن هناك فى يد البيروقراطيين (أو الصحفيين) سلطة يبتزون أمواله بما . باختصار : هم لا يريدون تغيير النظام . هم فقط يريدون تغيير الأسماء ، يريدون إعادة تقسيم كعكة الفساد !

- والحل ؟

- حرية السوق هى الحل . خصخصة كل حاجة ، والجمارك صفر ، والضرائب صفر ، حق تملك الأجانب للمشروعات ١٠٠ ، حق تحويل الأرباح للخارج ١٠٠ ، والشىء الوحيد الذى يمنع تحويلها للخارج ، هو أن يكون بقاؤها بالداخل أكثر إغراء .

- بس لا بد من دور للشفافية والرقابة ، وده محتاج الحكومة ، طرف محاييد على الأقل ؟

- تتخصص برضه ! لو فضلت الرقابة فى إيد الحكومة ها تفضل فاسدة ، أو فى يوم ها تفسد لو موش فاسدة . خصخصة نهر النيل وقناة السويس . خصخصة الهرم الأكبر والسد العالى . خصخصة الشرطة والقوات المسلحة . خصخصة حقل البترول ومنجم الحديد . خصخصة المدرسة والمستشفى . خصخصة التأمينات الاجتماعية والسجل المدنى . خصخصة القضاء وإصدار العملة . خصخصة كل شىء وأى شىء . وخصصته الخصخصة الحقيقية المؤدية لرفع كفاءة تلك المؤسسات ولتنمية حقيقية لأرض مصر وشعب مصر ، التى تعنى ، وتعنى فقط ، بيعها لأكبر الشركات العالمية (أو طبعا إعادة ما اغتصب منها إليها ، وطبعا طبعا إغلاق ما لا ترضى الشركات العالمية بشرائه وبيعه كأراضى ، فما

فائدة أن تؤخذ هذه المؤسسات من مصريين لا يفمون في الصناعة ولا البيزنس كى تعطى لمصريين هم أيضا لا يفمون في الصناعة ولا البيزنس ؟) .
تعريف المخصصة أن لا تملك الحكومة شيئا ولا تدير شيئا ؛ حتى في خاتمة المطاف تباع الصحراء نفسها فلا يبقى لها شيء تفعله ، وترحل .
والفكرة ببساطة أن كل شيء وأى شيء قامت أو ستقوم به الحكومة يقوم به القطاع الخاص على نحو أفضل ، بالذات لو استجلبناه من لندن
أو لوس أنجيليس . دكتور فرغلى بيرأس كيوبيد وفي نفس الوقت بيرأس هيئة سوق المال إلىى بتراقب كل الشركات ، ومنها كيوبيد . ما حدش قال
تضارب مصالح . ليه ؟ لأن دكتور فرغلى فوق مستوى الشبهات ، ولأنه صاحب الحدوتة كلها ، من أولها وبكل ما فيها ، بورصة وتوريق وشركات
وهيئة سوق مال ومخصصة وكل شيء . لكن ماذا لو قرر الدكتور فرغلى الاعتزال ؟ من يضمن أن من يليه سيكون شيئا جبارا مثله ؟ الصح
شركات متخصصة في البحوث ، وفي تحرى المعلومات عن الشركات أو السلع ، أو أى شيء ، وإلى محتاج المعلومة يدفع . يشتري مجلة أسبوعية
مثلا خاصة بالشركة دى . وكل شركة معلومات تكسب ثقتها من خلال أدائها وتاريخها والسمعة إلىى بنتها لنفسها . والشركة الفاسدة أو إلىى
تقدم معلومات مزورة أو مغرزة ، المتضرر ها ياخذها للقضاء المدنى وتفلس وتففل . العالم سبقنا للحاجات دى من زمان ، حماية المستهلك
وغيره . كل حاجة . قبل ما حد يدى قرض لشركة ولا لحكومة عارف يروح فين ، لستاندرد آند پوور مثلا . إلىى عاوز يعرف العبارة دى سليمة
ولا جايز تغرق به ، يروح يسأل اللويدز ، ولو متأمنة في حنة تانى يكون أقل ثقة . كل شيء بالسمعة ، الدنيا ماشية كده ، والفساد محكوم كده ،
من خلال حرية السوق ، موش من خلال بيروقراطيين ملايكة .

يتدخل روميو : ' أنا عندى فكرة اختراع بمليون جنيه يا حاج ، لو تشاركنى ننفذها سوا ! ' .

- آه منك يا مولانا ، اللهم اعطينا من بركاتك ، واكفيننا شر حركاتك ، قصدى شر اختراعاتك !

- أجهزة منزلية شفافة . غسالة شفافة . ثلاجة شفافة . بوتاجاز شفاف . ألقها أنها موش ها تصدى . حتى سراير ودواليب شفافة .

ونس يعلق : ' هى دى الشفافية ولا بلاش ! لو المضارين الكبار بتوع البورصة سمعوا الكلام ده يقتلوك ؛ لأنك ها تبوظ عليهم كل حاجة ' .

ووحيد يضيف : ' غسالة شفافة ! يا لها من فكرة ! سأكون أول المشترين ! سأحصل على ابتسامة كبيرة من رمانه حين تراها ، وعلى ابتسامة

أكبر حين ترانى جالسا أمامها ! ' .



تاج المرأة شعرها

عادة صديقة روميو إما أرملة أو مطلقة حسناء ، وإما فتاة يافعة تبحث عن فرصة في الحياة . سوسن تنتمى للفتاة الثانية . هذا هو اسم
الصديقة الجديدة ، فتاة السيتى ستارز كما اعتاد الباقون تسمية صديقات روميو همسا وأحيانا علنا . أشبه بموديل طولها ١٨٥ سم ، وذات جسد
بالغ العنقوان فاحش المنحنيات وكأنها ثمرة منماعة جيبينا . يغطيها شعر طويل ، بلون معدنى فاتح جدا أقرب ما يكون لخليط من الذهب
والبلاتين ، شديد اللمعان وكأنه مغلف بطبقة من الألماس من الخارج ، كبير الموجات كما حلقات واسعة تتلولب صعودا وهبوطا ، لا يكف أبدا
عن تحسس مؤخرتها ووخزها في تحرش على وقح !

في يومها الأول أثارت في القاعة الكثير من الكلام عن ' الخلفية الثقافية ' و ' المقدمة المنطقية ' ، وهلم جرا مما إلى هذا ، حيث جاءت بتي
شيرت قصير كتب عليه فوق صدرها الضخم me.jpg بحروف لاتينية كبيرة ، بما فاقم الإحساس بأنها صورة للفرجة . هى لا ترتدى بنطلونات
أبدا ، إنما تنورات قصيرة طوال الوقت . في البدء كان البنطلون . هكذا علمنا الكتاب . اخترعته نجمة الپوب مادونا مع بداية الألفية ، ثم أصبحت
ترتيديه كل فتاة . بنطلون ذو حجر قصير جدا ، بحيث يكاد يكشف الأعضاء التناسلية . الفكرة في تلك البنطلونات أنها ضيقة للغاية بحيث لا
تحشى المرأة أبدا من سقوطها . ثم قال أحدهم : ' لتكن هناك تنورة ' ، فكانت التنورة . ما حدث في السنوات الأخيرة هو أن صنعت تنورات
خفيفة جدا ، سواء طالت أم قصرت هى أيضا من الضيق بحيث لن تسقط أبدا ، ومنها تنورة سوسن . ما استجد مؤخرا أيضا ، أن زاد بشدة
اهتمام النساء بشعر العانة . لقد ولى عصر دشنته مجلة الپلاى بوى في أواخر عقد التسعينيات ، حينما بدأت تقديم موديلاتهما حليقات ، وهو ميل
أدى في حينه لازدهار هائل لأدوات الحلاقة النسائية .

الآن مع اقتراب عقد الصفریات من نهايته اندثر هذا الميل . ربما اكتشفت الپلاى بوى أنها كانت تروج لشيء قبيح ، وتنبهت لحقيقة قديمة قدم
التاريخ مفادها أن تاج المرأة شعرها . واقنعت بأن بات من الواجب إعادة الأجداد التليدة لغابة الخير والنماء ، رمز الأثنى التاريخى الأكبر . حل

محل رواج أدوات الخلاقة ، رواج لمصنفي هذا الشعر ، ولعمليات صباغته وزرعه وتقويته وابتكار قصاته . الأشكال أو ' القصات ' التي تظهرها مثل تلك البنطلونات أو التنورات من ذاك الشعر ، يمكن أن تحتل أى شيء . من رأس ميكى ماوس أو رأس قرد ، حتى وجه الشيطان بقرنين أو كيوييد بجناحيه الصغيرين ، حتى صليب وهو ما تفضله المتدينات المسيحيات فى الغرب ، أو نجمة داود وهو ما تفضله مجندات الجيش الإسرائيلى ، حتى قلب بسيط تفضله الرومانسيات ، حتى أبسط الأشياء جميعا ، مستطيل هندسى رأسى دقيق الحواف . كلا ، عفوا ! لا يزال هناك بعد خطوة أخيرة إلى البساطة المطلقة : أنت تترك الدغل بحالته البرية قبل التاريخية ، حقبة قبل أن تمسه يد إنسان ، وهو ما تفضله سوسن .



هذا ليس سقف المهبل

- سوسن ؛ صاحبتى . مستر وحيد ؛ رئيس تحرير كبير ، ومنتج سينما أكبر . إيه رأيك فى سوسن ؟ أظن قوى الطبيعة والليبرالية المتوحشة بتوعك بالحرف ؟ ! طول عمرك بتحكى لنا على القيم السامية للرأسمالية المتوحشة ، أظن ما فيش أسمى من كده ؟ ! متهيأ لى ممكن تبقى بليونير لو عملتها بطة فيلم . ممكن نسميه Forces of Nature ! اتعمل قبل كده ؟ بس موش بسوسن !

لقد مرت على الآن ستة شهور وسط هؤلاء الناس . من أغسطس ٢٠٠٩ حتى فبراير ٢٠١٠ ، ولا أستطيع فهم كيف يتحدثون كل هذا الوقت عن الجنس ، وبكل هذه الخبرة عن النساء . هذا شيء لا أستطيع تمثله أبدا . أنا لم أمارس من الجنس إلا جزءا من ألف مما مارسوه هم ، لكنى تأملته ضعفهم مليون مرة . مع ذلك لا زلت لا أدعى أنى أفهم النساء ولو لذرة واحدة . حتى ملهمتى الجميلة الصغيرة منذ أيام ' الاقتصاد اليوم ' ، my muse ، هالة ، فشلت فى فهمها ، وليس السبب الوحيد أنها لا تتحدث فى مثل هذه الأمور .

إحدى الصحفيات كتبت يوما أنه حتى إحسان عبد القدوس لم يكن ليستطيع النفاذ حقا لأحاسيس المرأة . أنا لم أقرأ القصص وفقط شاهدت الأفلام ، مؤلف رائع ، هذا واضح ، لكن ذلك الكلام ربما يكون معقولا . الرجل نفسه لم يدع ذلك يوما . أنت لا يمكن أن تشعر بالمرأة ، إلا إذا كنت امرأة ، ونظرت للدنيا من خلال عينيها وسيكولوجيتها . أن تستسلم هو المتعة ، أن تتلقى الطعنات هو المتعة . الرجل يستمتع حين يقوم هو بالطنع . العالم يصبح غير العالم لو أنت ترى تتلقى الطعنات هو الشيء ' الطبيعى ' . هذا الأخذ عندها أكثر طبيعية . بالطبع هى إنسان ، ولا بد من كل المتناقضات معا فى داخلها . وتمارس توازنها النفسى فى العطاء ، من خلال الإنجاب وتربية الأولاد والاهتمام برعاية شريكها أو الغيرة عليه ، لكن هذه كلها لا يمكن أن تغير نظرتها القاعدية لما هو أكثر طبيعية فى الكون : تتلقى الطعنات أجمل وأسمى من منحها ، هو أكثر احتراما وقوة مما يفعله الرجال . إنهم الشذوذ ، ونحن الطبيعة ، نحن القداسة . ألسنا نحن الإلهات الأوليات ، والآلهة الذكورية ما هى هى آلهة جاءت متأخرة ، أو بالأحرى هى فى العموم آلهة الشر ؟

ضهرى وونس يتحدثان باستخفاف عن قمت الظهر وقمت القضيب . الأرجح أن من يتحدثان عنهن من نساء العراق وتركيا ، لا يفعلن ذلك لمجرد الشهوة الجسدية . لعلها جزء من العنف والخشونة المعروفة تاريخيا للحياة اليومية لهذين الشعبين ، حتى فى أهدأ فترات السلم وفى الظروف العادية تماما . لعلهن يبحثن عن شيء غامض لا يعرفنه . ربما إشباع جنسى لم يصلن له أبدا . لا أعرف . لكن أية شهوة جسدية أصلا ؟ إن تشريح أعضاء الأنوثة ، لا يناسب الطريقة التى يمارس بها أغلب البشر الجنس . إنها لسوء الحظ لا تعطى النساء المتعة الحقيقية أبدا . يحتاج لساعة أو أكثر للوصول للشهوة . أنا لم أعثر على الإجابة أبدا . هذا سؤال يجب أن نوجهه لداروين أو لدكتور دوكنيز . لماذا تصر أمنا الطبيعة على ألا تستمتع الأنثى أبدا ؟ ' أمنا ' ؟ لعلها ذكورية هى أيضا ؟ هل الأماكن الخطأ لمتعة الأنثى آلية تكيفية طبيعية للحد من الإنجاب ؟ فعلا طالما شغلنى هذا ، ولم أجد إجابة . لكن هل من الضرورى حقا أن تفهم المرأة حتى تتعايش معها ؟ لماذا لا تظل هى اللغز وهى الحلم ؟ أنت لا تصادق العجل قبل أن تأكل منه شريحة اللحم . أكل ؟ أزلة لسان هذه ؟ أنتكلم أنت أيضا بلغة ذكورية شرق أوسطية ؟ حتى أنت يا بروتس ؟ دماغى ينفجر . كل ما يمكننى تخيله هو فقط أن بنات عشتار أولئك اللاتى يتحدث عنهن وونس وضهرى ، لا بد وأن عقلهن الباطن يمتلكه هاجس الخوف من أن تحرب منهن ، فيحيطون بك كل الوسائل ، بسيفانهن ، بكل شيء . إنها طقوس عبادة لا أكثر ولا أقل ، طقوس الجيين الأنانى التى يجب أن تستوفى على أفضل نحو ممكن .

أنا لست ضد وضع الاحتضان وجها لوجه . أنا لست ضد أن ينام أحد فوق الآخر . أنا لست ضد أى وضع . الاحتضان شئ رومانسى جميل ، على الأقل هو يسمح لك بالاستمتاع بمفاتن الوجه الذى تحب . لكنه قطعاً ليس الأمثل لممارسة الجنس . أنت لا يمكن أن تستثيريهن إلا بطريقة مصطنعة ، بالحك من الخارج لفترة طويلة ، ثم بالتسلل لنقطة داخلية فى سقف المهبل ذات موقع غريب لا يعرف أحد الحكمة منه ، تستخدم معها الأصابع ، أداة اصطناعية خاصة .

أوه ! ربما الإجابة موجودة ! بل -ويا للعة- واضحة ! هذا ليس سقف المهبل . هذا باطن المهبل . ببساطة تلك أعضاء جاءت فى المكان الخطأ وراثه من الثدييات الأخرى ، أو ربما حتى تمتد رجوعاً للحشرات . الأعضاء الخارجية أعضاء تمهيدية ، لا لبس ولا بأس ، هكذا كل الثدييات . المشكلة فى موقع البقعة الداخلية الأعلى استثارة . أوه ! هل هذا ممكن حقاً ؟ أو ربما ليست فى المكان الخطأ كما اعتقدت ! لو أننا نسير على أربع أو نحبو على بطوننا فهذا هو باطن المهبل وليس سقف المهبل ! إذن حتى تسدد على الأجزاء الأكثر حسية يجب أن تأتيهن من الخلف .

أوه ! إذن الأعضاء فى المكان الصحيح . ونحن الرجال الذين فى المكان الخطأ ! أراهن أن روميو يستخدم الوضع الخلفى ولو لبعض الوقت . هذا أنسب الأوضاع للوصول لنقطة تجمع الأعصاب شديدة الحساسية تلك . لا يمكن أن يكون عاشقاً حقيقياً لا ترفع صديقاته عيونهن عنه أبدا طوال جلسة البورصة ، إلا لو كان يفعل ذلك . أراهن أنى سأرى خلال أيام قليلة على الأكثر ، ذات النظرات المسلوبة دائماً أبدا على وجه سوسن المثير هذا !

يا لبؤسك أيتها البشرية ! أنت كمن رقصت على السلم ، لم نعد حيوانات ولم نصبح شيئاً آخر . للمرة الألف لقد أفسد كهنة الإله الواحد ، سواء إله السماء أيا كان اسمه ، أو إله الأرض المدعو الإنسان ، أفسدوا على البشر كل متعهم الأصلية ، كل حياتهم الطبيعية ، كل روحهم الفطرية ! آه ، ربما عرفت الآن لماذا يسمى الوضع النائم بوضع المبشرين . إنهم لم يخترعونه بالصدفة ، أو للنكد على أهل القبائل البدائية ممن يستمتعون حقاً بالجنس الفطرى الجيد . إنه جزء أصيل من التبشير الدينى : القهر والكبت والحرمان وإذلال المرأة !

دون أن يقصد راح بصر وحيد يتفقد بعض البدنيات فى القاعة . لأول مرة بدأ يحس بالإشفاق عليهن . إنهن مثلاً لا يستطعن ركوب السيارات بسهولة ، ولا يستطعن الجرى ولا الرقص ولا معظم مناشط الحياة بالذات البدنى منها ، وطبعاً لا يستطعن ممارسة الجنس من الوضع الصحيح ، ومع ذلك تجد جمعيات تحاول إقناعهن بسفالة أن يتصلحن مع أجسادهن . ماذا يحدث عندما تجد المرأة نفسها قعيدة الفراش أو الأريكة أو لا تستطيع الذهاب بمفردها فى الحمام ، وهى بعد فى الخمسين من عمرها . يستهجنون الجمال ويقولون إن المرأة ليست سلعة . أهكذا يفهمون الاقتصاد ؟ لا يعلمون بداهة أن كل شئ سلعة . الإنسان برمته سلعة . ألا يبيع الرجال عضلاتهم فى المزارع والمصانع ؟ الجمال قدرة power ، تماماً كالعضلات وكالعقل . الجمال سلاح لم يكن الرجل ليتورع عن استخدامه مع المرأة يوماً لو كان لديه . لماذا لا ينتقده أحد حين يتأنق ويصفه بالسلعة ؟ لماذا فى كل الأحوال هو فوق النقد ؟ فى الواقع أعضاء وعضوات مثل تلك الجمعيات أناس يمارسون القتل (بدنياً ونفسياً أو الاثنين معاً) ، ومن ثم ربما يستحقون الإعدام .

- تفتكر التخان ها يروحوا الجنة ولا النار يا روميو ؟

- قصدك إالى زى ونس ؟ طبعا ها يروحوا الجنة . كل واحد تخين أخذ نصيبه من العذاب خلاص ؟

- طب وإالى زى مراتى فرحانة بأنها بقت تخينة ، ها تروح الجنة برضه ؟ !

عرج فكر وحيد على أن ربما أحد أسباب مأساة إدوارد أن -كما علم ، زوجته أصبحت بدينة والأسوأ منه أنها سعيدة بأن أصبحت بدينة . الجنس مع من لا تستمتع بالجنس هو اغتصاب . أما لو كانت طيبة وتريد أن ترضى زوجها ، فهو دعارة . ما الفارق بينها وبين العاهرة المأجورة ؟ الفارق أن الثانية تؤدى المهمة على نحو أفضل . الجنس الحقيقى ليس واجبا زوجيا ، وليس مهمة مدفوعة ولا هدية مجانية . هو تفاعل كامل ومتساوى للطرفين . هو غرق مشترك فى المتعة ، حيث يتضرب الخيط الرفيع بين متعتك ومتعة رفيقتك ، حيث لا أنانية ولا تضحية ، لا أثر ولا إثارة ، فقط غيبوبة . لا غرابة أن روميو لا يصادق البدنيات قط . من لا يمكنها الاستمتاع بالجنس لا يمكنها الاستمتاع بأى شئ . ومن لا تستمتع بأى شئ لا يمكنها أن تمتع أحدا !

من أين تأتي البدانة ؟ إلى أين ترتفع مستويات الدهون القاتلة . إن أجسادنا التي ورثناها عن أسلافنا القدامى مصممة على القنص ولم الثمار . هيكلها التشريحي وتركيبها الداخلى الموروثة من أجداد ما قبل التاريخ ، مصممة على المجهود الوفير والأكل الضنين . حياة المكاتب سم قاتل بطنى . قاتل للحياة وقاتل للذة بمعناها الطبيعى . أيضا كمن رقصنا على السلم .

لا غرابة إذن فيما أورثتنا إياه عبادة هذا الإله : فشل كامل فى العلاقة بين الذكر والأنثى . انتشار هائل للجنس الشفوى لا كجزء من ممارسة حافلة متنوعة للجنس بين الطرفين إنما ككل ما هنالك ، ممارسة بالفم . انتشار هائل لممارسة الجنس المثلى حتى لو لم يكن ميلا جينيا ولدنا به ، لممارسة الجنس الثنائى حتى لو لم يكن ميلا جينيا ولدنا به ، لممارسة الجنس مع الذات ، ممارسة الجنس مع حجرة كاملة من الأبدوعات gadgets الكهربائية تنكح أجسادنا ، والخلفية حوائط كاملة من الصور الإلكترونية تنكح عيوننا ، وسماعات بحجم الدواليب تنكح آذاننا . حتى من يمارسون الجنس مع شريك لا يعرفون بالمرّة مذاقه القديم الرائع . حقا ما قيمة الجنس إن لم تحس بلبل الطرف الآخر ؟ ما قيمة الجنس إن لم يكن هو الشعور بالانصهار ، بالأمان ، بآثمان شخص آخر على كامل جسده ؟ لقد اخترعوا مؤخرا مصلا للأيدز ، ولا يزال الكوندوم أسوأ جدار فصل عرقى فى التاريخ ، أقصد جدار الفصل العرقى الوحيد السيئ ، فقد كانت الأخرى كلها إيجابية وتقديمية ومفيدة . لقد أصبح الكوندوم عادة لا يريد أحد إعادة النظر فيها . أراهن أن بعض الفتيات يتخيلنه جزءا من جسم الرجل ولد به !

يا لهم من تافهين . تسير حياتهم كما البهائم ، لا يتوقفون للحظة للتفكير فى عمق مأساتهم . روميو يأتي صديقاته من الخلف ! يجدهن يستمتعن ويزيد تعلقهن به . لكن هل فكر مرة كيف تفكر أيهن وكيف تستمتع ؟ هل يعرف أنه عندما تكون فى موقع تلقى الطعن ، تصبح الدنيا غير الدنيا ! هل قلت الثنائية الجنسية ؟ هل قلت تلقى الطعن ؟ يا للهول من جديد ! إنى أتكلّم عن روميو . يا للهول تريبع ! طبعاً هو يعرف نكهة ومعنى أن تكون فى محل تلقى الطعن ! يا للهول حقا ! ربما يكمن السر فى مكان آخر . لا غرابة أن لا يفهم إحسان عبد القدوس النساء ، ويفهمهن روميو . إن روميو من خلال علاقته المثلية وضع نفسه مكانهن ، تلقى الطعنات ، شعر بلذة تلقيها ، تلك اللذة المقدسة الخالدة . أوه ! كلا ! يا لى من بائس محروم . هل يتحتم على المرء أن يكون ثنائيا جنسيا حتى يقيم علاقة صحيحة مع المرأة ؟ إن الأمور أعقد ليس فقط مما يتخيل هؤلاء ، بل أعقد مما تخيلت أنا نفسى يوما .

لست وحدى . بائسات بنات عشتر المصابات بالسعار بسبب القهر واللا إشباع ! كلنا بائسون . يا للشفقة ! منذ انتصب الإنسان وودع اللذة ؟ لا ، ليس مبكرا هكذا ! منذ اخترع المكاتب وودع اللذة ؟ لا ، الأمر أسبق من هذا . بلى ، منذ اخترع السرير وودع اللذة . كلا ، بل منذ اخترع إله التوحيد وودع اللذة . نعم ، بالضبط ، هذه هى النقطة التاريخية الفاصلة . كلا ! مهلا ! ما هذا الذى تقول ؟ هذا تجديف . كيف حدث وتفوهت به أصلا ؟ إن أمنا الطبيعة هى الرائعة دائما أبدا . أمنا الطبيعة لا يمكن أن تكون ضد اللذة . بالفعل ، ساحنى يا داروين ، خيرتى معك أنك لا تريد لنا إلا المتعة والسعادة . ساحينى يا أمى الطبيعة ، أنت لا يمكن إلا أن تكونى كريمة معطاءة دائما أبدا . الجينينات الأناثية لا تفكر أبدا فى تحديد النسل ؛ أو على الأقل لا تفكر فيه بهذه الطريقة الفجة !

السؤال هو لماذا اخترع الإنسان إله الشر هذا بنفسه ؟ ألا يستحق الآن جزاء ما فعلت يدها ؟ لا بد أن لا اخترع إله التوحيد الذى يستذل كل البشر تفسيراً داروينيا هو أيضا . أو ربما الإنسان لم يخترعه ، البعض منهم فقط هم من اخترعه ، لكى يقيموا الباقين ويسيطرون عليهم ، الفقراء ، النساء ، الأطفال ، وتصادف داروينيا ، أن كانت الحيلة ناجحة ، ولو إلى حين ! والنجاح إلى حين لا يعد نجاحا فى عمر أمنا العظيمة دائمة التجدد . حقا ما قيمة ألفين أو ثلاثا من السنين ، إذا ما قورنت بصبا شبابك الدائم يا ابنة الـ ١٤ بليون ربيعا ؟ !

... ليس بالفكر وحده يحيا الإنسان ، بل بكل رعشة تخرج من ملذات الجسد !

... إن ملذاتك هائلة يا أمى ، ويا ليتك تجودين على يوما بعضا من كرمك !

... ربما فقط لو أنى كفت قليلا عن عراك الأفكار ، وبدأت عراك الحياة نفسها !



إذا كان من ظاهرتين اجتماعيتين كبيرتين تميزان مصر ٢٠١٠ ، فهما الانتحار والثورة الجنسية . كل يوم تجي الصحف المصرية التي يأتي بها ضهرى ، بقصة أب معوز ألقى بنفسه من فوق كوبرى الملك فيصل بالهرم ، أو بشاب ألقى بنفسه من فوق أحد الفنادق الشاهقة ، أو فتاة تناولت جرعة هيروئين زائدة . من الغريب أن أحدا لم يعد يريد أن يقطع شرايينه أو يتناول حبوبا منومة . فيما يبدو لم تعد هذه ميات توحى بالعصرية ولا بالأناقة أو الابتكار .

الحرية الجنسية باتت مظاهرها واضحة لكل الأعين . ليس فتيات مفردات على طول الأرصفة ، يبحثن عن عشاء طيب ، إنما أعداد هائلة من الثنائيات تجمعها الروابط الغرامية والقبلات العلنية فى الشوارع . فى عيد القالانتاين ، أو بالأحرى طيلة شهر فبراير ، تكتسى مصر وجها لم تعرفه أبدا من قبل . كما يقول العموم ' العريان ' و ' المحزق ' موجود طوال السنة . القبلات العلنية فى الشوارع والأماكن العمومية موجودة طوال السنة . لكن فى عيد الحب (كما يسميه المصريون) يتحول الأمر لما يشبه السعار الجموعى . حالة لا تشبه أى شىء سابق آخر . ليس حتى ما اعتادوه فى شم النسيم ، طقس الخصوبة الرسمى المتوارث فى الفلكلور المصرى ، إذ هو شديد التحفظ لدى المقارنة ، ويحتفل بالطبيعة أكثر منه بالجنس ، هذا الذى يكتفى بالتذكير به من خلال أكل البيض .

إنما حالة احتفالية من الاهتياج الجموعى تنافس كرنفالات ديو دى چانيرو . طقوس شبه عارية تعم الشوارع توحى لك بأن ثقافة غشاء البكارة الشهيرة جدا قد ولت ، أو باتت جزءا من تاريخ غابر لا عودة له ، أو كأنك أمام احتفالات تناسخت فجأة من حقب ما قبل التاريخ ! لعل السبب أن أعواما من اعتياد الشبان والفتيات على الزواج العرى المتكرر ، أدت لاضمحلال عقيدة قدسية غشاء البكارة ، وأن فقدته يعد نوعا من عيوب الصناعة يخول لك إعادة السلعة لمنتجها أو مقاضاته بتهمة الغش التجارى . الأبعد ، أن أحيانا تعبر الطقوس الخيط الرفيع ما بين شبه العارى وبين العارى ، بالذات داخل المراقص الصاخبة ، كأن تثور بعض الأتداء المتفجرة بالحياة وتمتد محطمة قضبان السجنان . المساجد والجماعات الدينية واستجابات مجلس الشعب ، تكون هى نفسها أكثر هياجا . كيف هان الحال بمصر منارة الإسلام ، وكيف سمحت حكومتها ودستورها ، بأن يصبح عيد كهذا أهم من عيدى الفطر والأضحى ، العيدان اللذان استتهما لنا الله وحرم علينا الاحتفال بسواهما ؟ إنه عيد ينسب لراهب نصرانى إيطالى . ويا ليتته حتى راهب ورع ، إنما راهب ماجن نفذت فيه الكنيسة حد الردة ، الإعدام حرقا !

كل تلك المظاهر ازدانت بما القاعة ، قلوب من القطيفة حمراء تدلت من السقف ومن الحوائط . دمي لكيوييد بجناحيه الصغيرين . نبيل يوزع الشوكولاتة على الجميع . ورود حمراء مضاعفة الكمية يأتي بها ضهرى يوميا ، كى يأخذها الحاضرون معهم وهم منصرفون . من بينها باقة مكورة من زهرة السوسن البرية المبرقشة الفواحة شبه النادرة يقدمها لسميتها سوسن ، وروميو يتعجب من الرضا الفجائى من الحاج عن إحدى علاقاته الغرامية ، فيرد الأخير : ' النهارده سماح زى بعضه . عيد الحب ! ' ، ' يا أستاذ وحيد النهارده يومك ، سهم كيوبيد أكيد ها يولع ! ' ، والذروة قبلات علنية بين روميو وسوسن ، هلل لها نصف القاعة وصمت النصف الآخر أو أشاح وجهه بعيدا . لكنها فشلت على كثرتها وسهولتها ، وعمقها أحيانا ، فى إقناع ميرفت الخجول بتلقى قبلة واحدة ولو على الخد من سامر الوهان . أما ضهرى فقد مال على روميو هامسا فى تأنيب : ' عارف أنتم محتاجين لإيه ؟ ورقتين توت ! ' ، ' ما ينفعوش ! ، انسى الموضوع يا حاج ! ، إحنا موش أكلنا التفاحة ؛ إحنا أكلنا الشجرة كلها ! ' .



١- البشر ما إلا كرات دهن لزجة مقرزة تقذفها الأرحام !

٢- التقنية تطرد الإنسان ، والمعيار الحقيقي لنجاح أى اقتصاد هو حجم البطالة -لا التشغيل- الذى يخلفه وراءه !

٣- فى عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هى الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد !

٤- الثورة الجنسية حتمية اقتصادية ، ولا بد من تجريم الزواج الإنجابى أو على الأقل تقنينه بشروط شديدة القسوة !

٥- البشرية بتناقض مستمر إلى أن ينتهى بهم الأمر -كما كل العشائر البيولوجية السابقة- نزلاء لحدائق الحيوان والحميات الطبيعية !

بالتوازي يتحول بالطبع كل شىء على المائدة المستديرة ، ركن ضهرى ووحيد المتجهم دوما ، إلى مناقشة فكرية ، وإن عادة ما تبدأ بمداعبة :
‘ أنت علمانى ، وطبعا عاوز تخللى كل الزواج مدنى ! ’ .

- الحقيقة أنا موش عاوز ألغى الزواج الدينى ، أنا عاوز ألغى الزواج أصلا !

- كنت متوقع الرد ده . أنت فى مرة كتبت أن الثورة الجنسية حتمية اقتصادية . لا يمكن الحد من الإنجاب دون إطلاق الحرية الجنسية . التقنية بتطرد البشر من الدنيا . البشر بقوا إيه ؟ إيه الوصف بتاعك ؟

- (ضاحكا :) كانوا ٥ عناوين : ١- البشر ما إلا كرات دهن لزجة مقرزة تقذفها الأرحام ! ٢- التقنية تطرد الإنسان ، والمعيار الحقيقى لنجاح أى اقتصاد هو حجم البطالة -لا التشغيل- الذى يخلفه وراءه ! ٣- فى عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هى الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد ! ٤- الثورة الجنسية حتمية اقتصادية ، ولا بد من تجريم الزواج الإنجابى أو على الأقل تقنينه بشروط شديدة القسوة ! ٥- البشرية بتناقض مستمر إلى أن ينتهى بهم الأمر -كما كل العشائر البيولوجية السابقة- نزلاء لحدائق الحيوان والحميات الطبيعية !

- أيوه ! المقالات دى بتاع أن الروبوتات ستزث الأرض والكائنات البيولوجية المنماة جيينيا ها تتخانق ع الميراث والحاجات دى . أنت قلت موظفات السنترالات اليدوية اتشردوا بعد السنترالات الآلية . بنات الغزل والنسيج والحياكة نفس القصة . موظفو البنوك نفس الحال بعد ماكينات الصرافة . إعادة التدريب ليست إلا حلا جزئيا ، وطالما التقنية تتقدم ، لا مفر من تناقص عدد البشر . علشان كده كل الأعراق بتنقص ، البيض بينقصوا طبيعى بسرعة مخيفة ، الصفر بينقصوا إما طبيعى فى اليابان وغيرها ، أو بقوة القوانين فى الصين . اللاتين فى أميركا الجنوبية تقريبا عددهم ثابت ، وعلى الأقل اللاتين الأوروبيين أكيد بينقصوا . وقلت ما فيش حد بيزيد غير المسلمين والسود . ولو استمرنا فى الزواج باعتباره الصيغة الرئيسة للاجتماع الإنسانى ، فإحنا راجيين لدهاية ما لهاش قرار ، ولا حل إلا الثورة الجنسية . موش ده كلامك ؟ وكنت على شوية تقول الحل ليس تشجيع الغربيين الأنانيين على الإنجاب ، إنما قتل أو تعقيم من ينجبون ؟

- مظبوط ! ما ذنب شخص اكتفى بدخله ولم ينجب ، كى تسلب منه مصلحة الضرائب عاما بعد عام المزيد من دخله ذاك ، كى تنفق به على من يواصلون الإنجاب بلا مسئولية أو ضابط أو رابط !

- القصة موش كده . كل إالى أنا شايفه أن الإنجاب فى القناطر زى الفل وعلى ودنه (يسحب زهرة فل من التى جاء بها صباحا ، ويستنشقها على نحو عابر) ! لا حرية جنسية م إالى بتقولوا عليها نافعة ، لا حتى البطالة نافعة . الناس بتتصرف ، عندها الأرض وتبني وتتزوج . الزواج هو سيد الموقف . حتى البت منى كمان موش فاهمة . أنا قرئت الإحصاءات إالى بتقول عليها طول الوقت . فعلا البيوت القائمة على شخص فرد بالمعنى المطلق للكلمة ، هى الأغلبية فى أميركا . حتى العزباء التى تربى طفلا لم يعودوا يعتبرونها شخصا مفردا ، وأصبحت معدودة ضمن تلك الأقلية . لكن لو قرأت كويس بقية الإحصاء كانت ها تعرف أن الزواج لا يزال الأسلوب الشائع فى الطبقة الوسطى فما فوق . وإذا كان الانقراض بتاع نظرية التطور سيكون من نصيب الضعفاء ، فمعناها أن الزواج ليس إلى انقراض ، بل إلى زيادة ، إلى سيادة ، الكل سيصبح متزوجا !

- طب وإلى بيقوله روميو عن استحالة العلاقة المستدامة بين الرجل والمرأة ؟

- سيبك م الواد البايظ ده . مصيره فى يوم ها يغير رأيه . إذا كان كل واحد فاهم أنه قوى وقادر يشق الحياة لوحده ، بيلعب لعبة السيطرة والفضال مع الطرف التانى ، بلاش من الجواز ، ما فيش داعى له أصلا .

- يعنى قصدك الزواج للضعفاء ؟ ده عكس كلامك من دقيقة . موش فاهم ؟ !

- الكحل ضعيف ، لكن قليلين من يدركون هذه الحقيقة . من يعتقد أنه قوى لدرجة أن يستطيع العيش بمفرده واهم . فقط الأكثر ذكاء يعلمون أنهم سيصبحون أقوى بهذه الشراكة . وأقصد شراكة بجد ، حب وتوحد يعنى ؛ الكيانين بقوا واحد ، كورية زى ما بتقول أنت ونبييل !
- (مؤمنا على الكلام حسبما فهمه :) مطبوط ! الحب للمحظوظين فقط طبعاً !
- لا ، بل الحب للأذكيا فقط ! الذكى يجب أن يفعل المستحيل بحثاً عن الحب . لما بأشوف اتنين راجل وست بسطاء يبحبوا بعض ، بأقول عليهم دول أذكى من مليون غيرهم . يبشدوا بعض طول الوقت ، وإلى أنجزوه فى حياتهم أكيد يساوى إنجاز ناس نعتقد -أو يعتقدون فى أنفسهم- أنهم أقوى بكثير . أنا مثلاً متنبئ لسامر وميرفت بحياة سعيدة ، وأنهم ها ينجحوا فى حياتهم . انظر كيف يجربان على بعضهما البعض . هذا ما تفعله مثلاً كثير من الطيور والحيوانات . ألفة وإخلاص طول العمر ، وده موش عبط منها ، إنما شىء ذو قيمة تطويرية كبيرة . ده تخصصى وأنا عارف بأقول إيه . للأسف إالى ماشى دلوقت إما العلاقات العابرة ، أو بس الجنسية ، أو حتى اعتبار الخيانة شطارة .
- الحب للأذكيا ، وأنا أعترف أنى غي ! بس عاوز أقول موش بمزاج الواحد أنه يلقي الحب أو ما يلقاهش ، الموضوع محتاج لشىء أقرب للسحر !



- إحنا موش شايفين نتائج للاقتصاد الحر ؛ إصلاح إزاي إذا ما كانش خيره يعم وتحس به الناس ؟ ! - الإصلاح لو وصل خيره للى زيك ، ما يبقاش اسمه إصلاح !

- كلامك نفسه به تناقض كبير . قل لى كيف تدافع عن الحرية المطلقة وتطالب بتجريم الزواج بقوة القانون ؟ !
- لو أننا فى بلد بلا ضرائب وبلا تعليم عمومى وبلا صحة عمومية وبلا جمعية خيرية هائلة اسمها الجهاز الحكومى وبلا مظاهرات خبز تقوم بها تلك ' الثروة البشرية ' ، لوجدتني فى طليعة المنادين بأن الإنجاب حرية شخصية . هؤلاء المشاخر الذين يتزوجون خمسا وينجبون خمسين كى يدفعونهم للمظاهرات أو طواير البطالة أو على الأقل للمدارس الحكومية ، يستخدمون القوة والعنف كى يسلبونا حرياتنا ويستولون على أموالنا ، ويخرفون أبسط بديهيات المجتمع التى هى أن يعتمد كل إنسان على نفسه وينفق على نسله ولا ينتظر شيئاً من أحد . أنا عامة كنت أؤيد برنامج مبارك ٢٠٠٥ ، إلا فى نقطة واحدة . أكيد فيه كلام كثير عن الديمقراطية والإصلاح السياسى أعرضه بشدة ، لكن طبعاً لم آخذه على محمل الجد ، لم أعتقد جدياً أن الحكومة مستعدة فعلاً لتحويل البلد لفوضى وحروب أهلية ، أو أنها موش فاهمة أن ده إالى ها يحصل لو الأمور سابت من إيديها . نقطة واحدة إالى اعتبرتها خطيرة جداً ، ولم يكن من الواجب أن تكتب أبداً فى البرنامج .
- أنت كنت مبطل كتابة ساعتها ، صح ؟ إيه هى النقطة ؟
- أنه وعد بخلق ٤.٥ مليون فرصة شغل . لو هو ورجالته جادين فعلاً فى الإصلاح ، وهم فعلاً جادين لحد ما ، كان المفروض يوعدوا الناس بإلغاء ٤.٥ مليون فرصة شغل ، وليس بإضافتها ، بالذات الوظائف الحكومية ووظائف الشركات الخاسرة .
- وهنا جرت مناقشة جانبية بين ونس وبين زهرى :

- إحنا موش شايفين نتائج للاقتصاد الحر ؛ إصلاح إزاي إذا ما كانش خيره يعم وتحس به الناس ؟ !
- الإصلاح لو وصل خيره للى زيك ، ما يبقاش اسمه إصلاح ؛ ! يبقى الاشتراكية بتاعتكم بتاعة زمان ، يا تنابلة يا بلطجية أنتم ! الإصلاح شغل وفكر وفلوس بتقوم به نخبة معينة ، وشىء طبيعى أن خيره يرجع لهم . يروح لغيرهم ليه ؟ كمل يا وحيد بك . سيبك منه !
- تعرفوا أن أنت وأنت وأنا وكل الناس إالى حولينا دى ، هم إالى بيدفعوا مرتبات عمال النسيج من جيوبهم ؟ من الضرايب إالى بتدفعها الشركات إالى إحنا مساهمين فيها ، أو كمان يبشغل فيها ناس كثير من القاعدين دول ، وكان المفروض تيجى لنا فى صورة أرباح أو تحسين مرتبات ، بدل ما تروح معونات لصناعة المفروض إذا ثبت فشلها تغلق ملفها . أميركا لا تنتج من الإبرة للصاروخ . أميركا ' لا تقدر ' أن تنتج من الإبرة للصاروخ . مصانع شهيرة جداً تغلق يومياً عندهم . لكن إحنا طالما المصنع أنشئ وكتب عليه افتتحه السيد الرئيس جمال عبمعصورة ، يجب أن يستمر مفتوحاً للأبد . بالمثل ، إحنا بنخلف ، وطالما الشخص ولد ، نبدأ نفرضه كأمر واقع (مشروع يجب أن يستمر مفتوحاً للأبد) : هذا إنسان ، والإنسان له حقوق ، أين الطعام ؟ أين التعليم ؟ أين الوظيفة ؟ أين الزواج ؟ ، وهكذا . وكأن المفروض أو الطبيعى أن هناك شخصاً ما

في مكان ما عليه أن يتولى تلك المصروفات ، نيابة عن الأب والأم ، شخص اسمه الدولة ، اسمه الرأسماليين ، اسمه الأغنياء ، اسمه الحرامية الكبار ، اسمه أميركا ، اسمه ما شئت . شخص اسمه فايزر أو جلاكسو أو نوفارتيس أو ميرك ، التي تنفق البلايين على تنمية الأدوية ، وفي كل مرة تسرقها حكومات العالم الثالث قاطعة الطريق باسم حماية الحياة ، والنتيجة شئ واحد : إنقاذ حياة الفقراء من أجل إنجاب المزيد من الفقراء ، أى زيادة الفقر والفقراء . إذا كان ما تنفقه هذه الشركات من أموال سوف تسرقه الشعوب القراصنة كل مرة ، ماذا لو قررت التوقف عن إجراء البحوث ؟ ماذا لو أفلست ؟ هل ستفيدونا أنتم ساعتها ؟ لما الحياة غالية جدا عندكم كده ، طب ما تنموا أنتم الأدوية من جيوبكم ، بدل ما تسرقوا وتحموا الحياة إल्ली هي في الحقيقة رخيصة جدا ؛ لأن لا أحد عندكم يفكر في وضع ميزانية دقيقة لكل مشروع طفل قبل إنجاب ، إنما ينجبه وخلص . لو الحياة غالية عندكم بصحيح ، ما كنتوش احتجتم للسرقة أبدا !

- بس ...

- أنت عارف أنى موش بأحب فرنسا ، وبأعتبر أقصى اليمين فيها يسار ، ولم أتوقع لساركوزى أن يصبح مثلا مارجاريت ثاتشر ثانية ويسحق النقابات مثلا ، لكنه على الأقل أعجبني عندما بدأ حملة الرئاسة من ٣ سنين بعبارة ' في فرنسا لا يستطيع السياسى أن يقول على القبضايات قباضايات ولا على الخثالة خثالة ' (طبعا كان يقصد المهاجرين العرب والمسلمين ، واعتبرتها شجاعة منه أنه لم يتراجع عن رأى سابق له قبلها بشهور كان قد أثار ضده سخطا عارما من قبل اليسار التقليدى وعصابات المهاجرين) . الحقيقة أن موش فرنسا بس إल्ली فيها الصراحة مفقودة في لغة السياسيين . عندنا لم يوجد سياسى واحد كانت لديه الجرأة أن يقول أن مشكلة الاقتصاد المصرى أن ميزان العرض والطلب فيه مختل ، وأن بالنسبة للبشر لدينا فائضا هائلا في العرض !

نسى زهرى ما كان يود طرحه من تحفظات ، وبالعكس انفعل طربا ، وانتقل لإحصاءات من نوع آخر وأيضا للهجة الريفية وحركة الذراعين : ينصر دينك ! قصدى ينصر أرسطو بتاعك ، إذا كان هو دينك ! أنا في مرة حسبتها . عارف علشان إنتاجية المصرى تبقى زى إنتاجية الأمريكى أو الإسرائيلى أو اليابانى ، عدد سكاننا ال ٨٠ مليون المفروض يبقى كام ؟

- كام ؟

- ٨٠٠ ألف ! عارف أنا عندى فكرة إيه ؟ زى ما كانوا بيدوا معاشات مغرية للموظفين علشان التقاعد المبكر في شركات الخصخصة ، يدوا الشبان والبنات فلوس علشان التعقيم ، إल्ली عاوز يعقم نفسه يأخذ ١٠٠ ألف جنيه مثلا ، أما إल्ली عاوز يخلف لازم يدفع ضريبة ١٠٠ ألف جنيه !

- أنت عنيف أوى يا حاج !

- بعض ما عندكم ! موش أعنف منك ! ثم ارسى على بر ! شوية تقول على طيب وشوية تقول عنيف !

- (يضحك :) أنا إल्ली أرسى على بر برضه ؟ !

هنا كان ونس قد بدأ مشوار التلميحات مع روميو بخصوص سوسن ، التي بدأت صداقتها قبل نحو ١٠ أيام فقط . يقول له : ' عاوزين نشوف التانجو ، ولا أنت بتاع كلام وبس ؟ ! ' ، ' التانجو إल्ली أنت قصدك عليه ما ينفعش هنا ! ' ، ' طب التانجو التانى إल्ली بالهدوم ! ' . وفعلا وتتدخل سوسن في الحوار لتسأل -دون أن تعى جيدا أن هناك معنى آخر للكلمة في هذه القاعة- هل يجيد روميو حقا رقص التانجو . وتدعوه للرقص . يفسحون الكراسى في منتصف القاعة . يبدأ دق الأرضية بعنف ، وتتنمر العيون استعدادا لالتهام شريك الرقصة الطقسية ، ويبدأ الكر والفر العنيفين ، وفي لحظات التلامس تنسحب الأيدي من خلف هذا الشريك من الأسفل للأعلى وكأنها ترفعه للأعلى أو تشده للانصهار داخل الطرف الآخر . سكان الشقة السفلية يأتون غاضبين محتجين ، لكنهم لم يغضبوا ولم يحتجوا ، فقط انخرطوا في الفرحة : ' إيه رأيك يا ونس ؟ ' ، ' هايل لدرجة أنى موش ها أطلب منك ترقص باليه معاى ! ' ، ' ومين قال لك أنى ها أرضى ؟ ! ' . وتضح القاعة بالضحك ، عدا سوسن المنخرطة جدا في الرقص ، والمنهمكة فيه بجدية ، والتي في نفس الوقت لا تزال لا تعرف بدقة عم تدور هذه الأحاديث أصلا !

حين يفرغ روميو وسوسن من عرضهما الصاحب ، يكتشف الجميع أنهم كانوا شركاء في الرقصة بالتصفيق الإيقاعى وطرق الأرض بمقدمات الأحذية . ويتضح أيضا أن شهيتهم قد انفتحت فجأة لشيء اسمه الرقص . لا يجدون أحلى من ميرثت ليدعوا لرقصة شرقية ، تمنع إلى أن

تشجعها عميلة شابة اسمها ناهد ، فترقصان معا ، ويتحول الجميع لعازقي رق وطبلية . وبعد برهة تنسحب ميرفت لتواصل ناهد استعراض موهبتها الراقصة الطبيعية منفردة . ويستبعد ونس فكرة المشاركة بالفيديو حتى لا يفسد حماس الفتاة الفتية !

ما إن يهدأ صخب القاعة ، حين يجتر وحيد حوار مع زهرى ، ويعود متسائلا : ' الحب للأذكىاء فقط ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



ماركس قال من كل قدر ما يستطيع ولكل قدر ما يريد .

هذا هو تعريف الظلم . العدل هو من كل قدر ما يريد ولكل قدر ما يستطيع !

أصلا ، ما فيش حاجة اسمها عدل وظلم ، فيه بس عرض وطلب .

أنا موش مستعد أفهم العدالة الاجتماعية بأى معنى تانى غير ده !

المساواة هي المساواة في الحرية ، لا تنقص قطرة ولا تزيد قطرة ، وإلا باتت شيئا ظالما ، والأهم منه مدمرا !

- أنا قرئت لك كل كلام الاقتصاد الحر ده قبل كده ، والحكومة لها كام سنة بتقوله ، لكن موش شايف أى حل نافع ع الأرض . هذا ليس ما تريده شعوبنا أو ما تحلم به . هي لا تريد الحرية ؛ تريد العدل . طموحها الأوحده عمر بن الخطاب . حتى السادات المتحضر العظيم إالى أنت بتحبه وتحترمه ، وإلى بدأ حرية الاقتصاد ، ذكر كلمة عدل أمام الكنيست ١٥ مرة ، وكانت كلمة ذات وقع غريب على الأذن الغربية ولم يفهموا سر كثرة استخدامه لها !

- الحكومة ضعيفة ؛ عاوزه تصلح ، إنما ضعيفة . بدمتك شفت بلد في العالم عمل ضريبة تصدير ؟ بدأوا بضريبة على الإسمنت والحديد والأسمدة والأدوية ، ولما كل الناس ما تشكى من أسعار حاجة يضيفوها لضريبة التصدير ، حتى البترول فكروا بيطلوا تصديره . فيه حاجة في التاريخ اسمها ضريبة تصدير ؟ فيه بلد في الدنيا بيحارب تصدير منتجاته غير مصر ؟ تصور لما بنتدى نصنع أدوية ذات مستوى ، الحكومة تمنع تصديرها . لولا أنهم في اللحظة المناسبة أقالوا وزير المصادرة والتأميم ، أقصد وزير التجارة والصناعة ، ذلك الذى تيقظ فجأة ضميره الاشتراكي ، لكننا الآن في وضع كارثي لا حل له (يقصد الوزير رشيد محمد رشيد الذى أقيله ، هو ووزير آخران ، في مطلع سنة ٢٠٠٨ بعد الدمار الهائل الذى سببه للصناعة المصرية ، ولم تعاف من آثاره بعد . زائد أنهم وضعوا مصر كلها في مواجهة مكلفة مع منظمة التداول العالمية ، حين قالت لهم هذه حماية ، ولو أردتم مكافحة التضخم كما تقولون ، اجثوا عن طريق آخر كزيادة الإنتاج أو تقليل الطلب) . الناس تصرخ تقول سعر الإسمنت والحديد والطاقة ارتفعت وبلاش يتصدروا علشان نبني مساكن لأولادنا ، الحكومة تسايهم في الكلام . ابنوا زى ما أنتم عاوزين بس موش من جيب غيركم . سيبوا إالى عاوز يصدر يصدر ، واستوردوا أنتم . ما حدش منعكم . ابنوا وكلوا واتعالجوا بأسعار البلاد إالى موش بتخلف على عمال على بطل . ابنوا بحديد وإسمنت وبنزين بأسعارها العالمية ، بالأسعار إالى بينى بها كل البشر . عاوزين تاكلوا ازرعوا بسماد بالأسعار العالمية ، عاوزين تتعالجوا بأدوية بالأسعار العالمية . أنتم موش على رأسكم ريشة ، علشان تتجوزوا وتخلفوا أرخص من كل العالم . وطبعا بعد ما بنى مساكن رخيصة للشباب ، ها يتجوزوا أكثر وأكثر ، وها يخلفوا تانى وتانى ، وها يقولوا تانى عاوزين وعاوزين ، ودوامه الفقر الجهنمية تستمر وتتفاقم إلى ما لا نهاية ! ثم ما هذا الذى قلته عن الحرية والعدل . العدل في ماذا ، إذا لم يكن هناك اقتصاد أصلا ؟ طبعا أنا لست ضد العدالة ، لكن بصراحة كلما سمعت الكلمة أصبحت أتحسس مسدسى . هكذا تعلمت من عشرة الشيوعيين في شبلي . لعب بالألفاظ لا أكثر . يقولون العدالة ويقصدون المساواة . حدد يا حاج أنت مع العدالة ولا مع المساواة ؟

- مع الاتنين .

- (صائحا :) إزاي ؟ ! إذا كانوا الاتنين عكس بعض ؟ العدالة الاجتماعية أنك تدى كل واحد حقه ، والمساواة أنك تحرم صاحب الحق من حقه . المتميز ياخذ حقه ، والضعيف ياخذ حقه . المتفوق ياخذ حقه ، والمتخلف ياخذ حقه . النشط ياخذ حقه ، والكسول ياخذ حقه . أنا موش عاوز أكثر من أن كل إنسان ياخذ حقه . ماركس قال من كل قدر ما يستطيع ولكل قدر ما يريد . هذا هو تعريف الظلم . العدل هو من كل قدر ما يريد ولكل قدر ما يستطيع ! أصلا ، ما فيش حاجة اسمها عدل وظلم ، فيه بس عرض وطلب . أنا موش مستعد أفهم العدالة الاجتماعية بأى معنى تانى غير ده ! المساواة هي المساواة في الحرية ، لا تنقص قطرة ولا تزيد قطرة ، وإلا باتت شيئا ظالما ، والأهم منه مدمرا ! واحد موش عاوز يشتغل هو حر ، واحد يقدر يكسب ملايين هو حقه !

- (ساخرا ، مفصحا أنه كان يتلاعب بالألفاظ لا أكثر :) أنا قصدى المساواة فى الفرص !

- بالظبط ! العدل هو حراك اجتماعى يوصلك للسماء أو يخفك تحت الأرض حسب قدراتك . المساواة بين غير المتساوين ليست عدلا . الاشتراكية والديموقراطية ظلم بين . هى تصويتات متساوية لعقول غير متساوية وجيوب غير متساوية وكل حاجة غير متساوية (التوقيع : أرسطو ! أو جازى دى صياغى أنا لكلام أكثر قسوة منه !) .



تجفيف منابع الإنجاب

- تصويتات متساوية لعقول غير متساوية وجيوب غير متساوية وكل حاجة غير متساوية ؟ يعنى باختصار أنت ضد مبدأ المواطنة ؟

- أنا ضد الفوضى ؛ ضد الإنجاب غير المقنن . المسيحيون بسذاجتهم الغبية فرحوا بالمواطنة لأنها ها تديهم ١٥ أو ٢٠ ٪ من المناصب والمقاعد ، بينما -وبغض النظر عن رأى الخاص فى مرقس ، أو حتى ككل فىمن يسمون أنفسهم أقباطا ممن لا أجد فىهم شيئا حقيقيا يستحق الاحترام- فإن حقهم هو ببساطة ٧٠ ٪ بحكم الثروة التى تحت أيديهم . لو عاوزين ديمقراطية ، موش أقل من أن تحدد الحقوق السياسية بدخل شهرى معين ، أو شىء كهذا ، لكن أن يكون كل طابور الانتخابات من الشباب العاطل الذى أجبه أهله عن طريق الخطأ ، فهذا جنون ! ماذا سيحدث اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا لو حكمت البلاد طبقا لمنظور شباب كهذا ؟ الإنجاب نفسه يجب أن يحدد بمستوى مادم معين . فى البلاد الغنية تتشارك العمارة فى تربية طفل واحد ، بينما عندنا يريد كل شخص أن ينجب بنفسه .

- ها ! ها ! ها ! قصدك تعريف المتخلف هو الشخص الذى يخلف !

- (بجدية :) تقريبا ! على كل زوجين يريدان الإنجاب أن يتقدما بدراسة جدوى اقتصادية من جهة بحثية معتبرة لمشروع الطفل هذا ، أو يدفعان مثلا مليون جنيهها ضريبة إنجاب للدولة . هذا لا أعتبره تدخلا من الدولة فى حياة البشر ؛ لأن هؤلاء هم من يتدخلون فى حياة غيرهم ، يفرضون أبناءهم على المجتمع كأمر واقع ، ويجهضون أسس المجتمع وحرياته ببلطجتهم وصوتهم العالى .

- والحل ؟

- الحل هو تجفيف منابع الإنجاب ؛ الحل هو الحرية ؛ التنافسية المطلقة ، وعدم مصادرتها تحت أية دعاوى إنسانية أو أيا ما كانت . التقنية تلفظ البشر ، أنا أقول هذا شىء جيد ، وأنتم تعتبرونها مشكلة ، إذن الفيصل بيننا هو الحرية ، هى الحل دائما أبدا لكل المشاكل ، باقتلاع الجذور وتجفيف منابع . لو لدينا هذه الحرية المطلقة ، ولو كانت حقيقة مسلم بما يقرها الجميع ، لما كنا فى حاجة لإجراءات للحد من النسل ، لأن أحدا لن يتعاطف ساعتها مع هؤلاء الآباء ، بل سيطلب محاكمتهم وقتل أطفالهم . ساعتها لن نكون فى حاجة لوجود الدولة أصلا !



الحكومة وسخة صحيح ، إنما الشعب أوسخ ، والمعارضة أوسخ الكل !

- أنا رأى أن الاقتصاد الحر بتاعك ده قصة تانى ، قصة أطول ، وشروطها أصعب ، وغاز ما تنفخ مع شعبنا ده خالص . أنا لا أستطيع التمييز بين الحكومة والناس والمعارضة كمعسكرات مستقلة ، هم تركيبة سياسية متكاملة معينة هى نفسها نتاج تركيبة جيينية معينة هى هذا الشعب ، ولا يمكن مهما حاولت الحصول على نظام سياسى إلا هذا من تلك التركيبة الجينية . كل حاجة فى الجينيات . الشعب غبي وجاهل ، ومبسوط بغبائه وجهله . الحكومة وسخة صحيح ، إنما الشعب أوسخ ، والمعارضة أوسخ الكل ! الكل وسخ فقط مع تفاوت فى الدرجة لا أكثر . كل الثمانين مليون فاسدين ، ومبسوطين بالفساد . من أول وكيل الوزارة إلى بياخذ رشوة ، لغاية الفراش إلى سايب شغله ويبيع الهدوم للموظفين بالتقسيم . وكل إلى حاولوا تغيير ده اتقضى عليهم . خد الخديوى إسماعيل مثلا ...

ويتدخل روميو مقاطعا بسخريته المعتادة والممزوجة دائما بلهجة الحسم : ' أجلوا الكلام ده بعدين . خلاص ! ونس فلوسه ضاعت وخلصنا ! ركزوا شوية ! شايفين سهم السجاد طالع يجرى إزاي ؟ مين قال لكم مصر ما تفلحش فى حاجة ؟ السجاد والسيراميك المصريين كاسحين العالم . الظاهر بينسطوا هناك لما يدوسوا على أى حاجة عليها اسم مصر ! ' .

يبدأ ونس في الغناء : ' مصر ، مصر ، دائما مصر ! ' . ثم يتحول دون أن يلحظ إلى أغنية أخرى ومغنية أخرى : ' ما تقولش إيه إدتنا مصر ، قول ها ندى إيه لمصر ! ' .

لكن شهية وحيد كانت لا تزال مفتوحة لمزيد من النقاشات : ' عارفين إيه أصل كلمات الأغنية دي ؟ ' .

لم يتوقع أن يجيبه أحد ، لكن ضهرى رد بسرعة : ' أنا عارف ! خطبة التنصيب بتاع كينيدي ! ' لا تسأل ماذا أعطتك بلدك ، اسأل ماذا أعطيت أنت لبلدك ' .

- ثقافة هاييلة يا حاج . أنا كنت عاوز أقول حاجة فكرتني بها الأغنية ، ولها علاقة بكلامنا عن السوق والاقتصاد .
- إيه ؟

- سمعت عن ميلتون فريدمان ؟

- طبعا ، بتاع الاقتصاد الحر ، السايبر ع الآخر . كسب نوبل ، موش كده ؟

- آه طبعا ، بعد كده ، سنة ١٩٧٦ . عارف رد قال إيه لكينيدي ؟

- لأ !

- قال له : ' موش المفروض نسأل ولا سؤال من السؤالين بتوعك ؛ لا بلدنا إدتنا إيه ، ولا ها ندى إيه لبلدنا ' .

- مفهوم ! السوق حر ، ولا يوجد شيء اسمه حكومة ، وبالتالي لا شيء اسمه بلد . وطبعا كينيدي عاوز الناس تدى البلد ، قصده عاوز هو يلم ضرايب يعنى . أيوه ، عليه نور . هي الضرايب كده ، أتاوة وبلطجة . ناس فاشلة وكسلانة ، عاوزة تلغ ببلاش !

يعلق ونس ساخرا : ' أنت لسه من دقيقتين ، بتقول الحب والمودة ودور الحكومة . ثم ما له دور الحكومة ؟ موش المفروض أنها تحمى ضعفاء الناس ؟ ! ' .

- خليك في حالك أنت . بسلامتك عاوز حكومة روبين هوود تسرق م الأغنياء وتدى الفقراء ؟ أنا معاك يا أستاذ وحيد .

لا يرد . يجتر الكلام السابق ، ويعود متسائلا في إعجاب : ' شعوب لا تريد الحرية ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



الچينيات هي الكل في الكل ،

التربية موش ها تعمل أينستين تاني ، لأنها ما عملتش أينستين الأولاني !

يخرج ضهرى من محفظته صورة لابنته منى ويربها لوحيد : ' أنت عارف أنا متفق على إيه مع منى ؟ ' .

- إيه ؟

- قلت لها العلاقات الجنسية شيء خطر فعلا . جايز تؤدي للإصابة بالأيدز . بس الأخطر منها أن تؤدي للحمل . والأخطر وأخطر أن تؤدي للإبقاء على الطفل . والأخطر وأخطر وأخطر أن تؤدي للزواج . الأخطر إطلاقا من كل حاجة أن تؤدي للحب .

- أنت لسه بتقول الحب للأذكيااء فقط . ارسى على بر !

- برضه ها تقول بر ؟ !

- أنت بجد قلت لبنتك الكلام ده ؟ قلت لها الجنس أقل الأشياء خطرا ؟

- آه ، إيه المشكلة ؟ !

- أنت حاج أنت ؟ !

- أيوه أنا حاج . وحاج أصلى . كان أول سفر لى بعد التخرج . عزمت الحج ، ومن بعدها بدأت ألف العالم . ونس ده حاج مزيف ،

تايوانى . علشان عاش في الخليج ١١ سنة ، حتى موش في السعودية نفسها ، بقوا بيقلوا له يا حاج .

- حسب إلی أنا شایفه ، أنت تایوان نفسها !

- قصدی علشان تركز على مستقبلها ، وفي نفس الوقت ما تعملش مصیبة . الجنس أهون من غيره . أنا نفسی حبیت وجزء من سعادتی فی الحیاة أنى قابلت واحدة وارتبطنا ببعض ، لكن الحالة دى استثناء ، بالذات الیومین دول ؛ وعقلی بیقول لى الحب أجمل شیء فی الوجود ، لكن فی نفس الوقت أخطر شیء فی الوجود . أنت بتفقد عقلك أصلا لما بتحب ، وكائن تانى جواك هو إلی بیحكم تصرفاتك .

- وبعدين ؟

- اطمئن . هى لو لها مزاج فی الجنس ما كانتش ها تتأخر ثانية ، ولا كانت حاجة فی الدنيا ها تحوشها . أنا مستحیل أراقب كل دقيقة وثانية فی حیاتها . فی كل الأحوال هم ها يعملوا كل إلی عاوزه . إحنا عملنا كده من ورا آبائنا ، وآباؤنا عملوا كده من ورا آبائهم ، وهكذا . إذن رهانی الوحید أن یكون عقلها كبير . أعلمها العوم ، أحسن ما أقول لها ما لكیش دعوة بالمیه . إلی شاغلنى بس هو موضوع الحب والهيام . وإلی بیطمئنى أنها دائما تقول أنها مستحیل تقع فی الحب ، هو جنون وسكر ، وهى تعيش بعقلها ، ولا شیء إلا عقلها .

- لو أنا أفكارى رجعية وضد البنات كنت سألتك دلوقت : ' أنت عاوز تطلعها راجل ولا إیه ؟ ' .

- أیوه راجل ! لیه لآ ؟ أنت فاکر أنى علشان ما خلفتش ولد ، بأربیها كده . إطلاقا . أنا لفیت العالم وشفیت الست ممکن تكون أجده من مية راجل فی كل حته !

- حسب الصورة ، منى دى ملكة جمال . إزای تتكلم عنها كده ؟

- ملكة جمال مشكلتها أنها راجل زیادة عن اللزوم من جوه !

- ارسى على بر ، مبسوط بأنها راجل ولا زعلان ؟

- بر تانى ؟ دى دنیا برأسین ورجل واحدة ومن غیر إیدین !

- أنت یا حاج لا تقدم سوى اعتراضات ، تعرف ماذا لا تريد ، لكنك لا تعرف ماذا تريد . اسمح لى أقول أن دى مشكلة . عليك أن تكون موقفا إيجابيا نحو شیء ما أولا ، ثم تعرضه على الناس أو تنصحهم به أو تطلبه منهم ، لكن إبداء المواقف بالسلب طوال الوقت لا یفید شیئا .

- (ضاحكا :) وهل یفعل العرب شیئا غیر هذا طوال الوقت !

- (ینقلب من المغایظة للحمیمة :) ما خلفتش تانى لیه یا حاج ؟ بیقولوا كمان الولد یشیل الاسم ؟

- اسم إیه وبتاع إیه ؟ بص : أنا قلت لك أو من فی كل حاجة بالكبير . وإلی ها یورثه اتین ، أحسن یورثه واحد بس . فعلا یا ریت كمان ییحى الیوم إلی زى ما بتقول كل عمارة تشترك ویشتروا جنین بمواصفات كویسة ویأجروا له رحم ، ویربوه كلهم ؛ یرموا قرعة علشان یختاروا له اسم والدولة تعترف به ابن لهم كلهم ویورثهم كلهم . موش من شویة كنا بنتكلم على ما یكروسوفت ودراکر ؟ ومن نعم ربنا على أن أمها متفتحة ولها نفس الأفكار (یخرج صورة لإجلال) .

- إنما أنت بتحكى لى كل كده لیه ؟

- (بعد تردد :) لأن منى دى بتفكرنى بالزهد بتاعك ، إلی بصراحة موش قادر أفهمه لا فیک ولا فیها ؛ حاسس أنها ها تطلع مكنة زيك .

- وطبعا ده شیء سئى ؟

- ما قلتش سئى ولا کویس ، إنما بأسأل إزای تبشر بالثورة الجنسية ، وحياتك تقريبا من غیر جنس ، ولا أنا فاهم غلط ؟

- أنت بتعرف حاجة زى دى إزای ؟

- تقدر تقول باينة على وشك . لو أنت ممارس الجنس مضبوط الليلة إلی فاتت ، موش ها نتیجى كده أبدا .



الحريات الواجبة هي الحريات الطبيعية ؛ حريات أمننا الطبيعية :

حرية السوق والاقتصاد ، والحرية الفردية كالحب والجنس والفن وغيره .

أما الحرية السياسية فهي حرية مستجدة مصطنعة الهدف منها استلاب البعض للحريات الطبيعية للآخرين !

- يعني إيه ' كده ' ؟

- يعني مشغول ، جد زيادة عن اللزوم ، وشبه متوتر كمان . أنت ممكنة من شعر رأسك لغاية دبايب رجلك ؟

- ممكنة تاني ؟

- أيوه ! إزاي تؤمن بالاقتصاد الحر وقوى الطبيعة وشركة كيوبيد ، وتحرم نفسك من أهم قوى الطبيعة إطلاقا ؟ إزاي تقدر تفصل بين إल्ली بتقوله وإल्ली بتطبقه على نفسك ؟

- بسيطة جدا ! أنا بأكتب عن ما يخص عموم الناس . من حقهم يستمتعوا بالحياة ، نصنع لهم أفلام على مزاجهم ، أغاني على مزاجهم ، موش على مزاج المثقفين . أيوه الديمقراطية غلط ؛ لأنك تستدعي الناس لتسألهم فيما لا يفهمون وكان يجب أن تذهب بأسئلتك لخبراء الاقتصاد والتقنية وغيرهما . الشيء الوحيد الذي لا يجب أن نطالب فيه بأى محتوى معين على الإطلاق ونطالب فيه بالديموقراطية كل الديمقراطية ، هو الحريات الشخصية . الحريات الواجبة هي الحريات الطبيعية ؛ حريات أمننا الطبيعية : حرية السوق والاقتصاد ، والحرية الفردية كالحب والجنس والفن وغيره . أما الحرية السياسية فهي حرية مستجدة مصطنعة الهدف منها استلاب البعض للحريات الطبيعية للآخرين ! السبب بسيط ، أن الحريات الطبيعية هي الأشياء إल्ली بتخص الناس فعلا . هم ربما لا يفهمون في العلاقات الدولية ولا بالجيل القادم من الحواسيب ، لكنهم بالتأكيد أدري بما يجوبون مشاهدته وما يريدون الاستماع إليه . أدري بكيف يرقصون وكيف ينتشون ، وأدري بكيف يقعون في الحب وكيف يمارسون الجنس . هذه حياتهم الخصوصية وتلك حرياتهم الشخصية .

- شايفهم بيهام يعني ؟

- شايفهم أحرار ! (قالها باقتضاب حاسم ثم واصل :) إल्ली بيسميهم أرسطو قادة ، يختلف الوضع . هو صنف البشر لقادة وعبيد ، والشعوب لحضارية وبرابرة ، كله بناء على القدرة على التحكم في الغريزة . إنما ده موضوع تاني ! يتدخل ونس ضاحكا : ' بصراحة مناقشتكم دى جديدة خالص ! على أيامنا كانت الخناقات على ودنه بين الفن للفن والفن للمجتمع ، وأنتم طلعتم بحاجة أول مرة أسمعها : الفن للبهائم ! ' .

- كل حاجة قالها أرسطو ؟ القرآن بتاعك ؟ بس استنى ! وقعت يا شاطر ! أنت كده دمرت أرسطو خالص . بتقول تحكم في الغرائز ، يعني

ضد الطبيعة ، يعني الفكر والإرادة أهم من المادة ؟

- بس ، بس ، حيلك ! موش أوى كده ! هو الراجل قال القادة يكتبوا غرائزهم متعمدين ؟ قال إن طبيعتهم كده ، جبيناتهم كده . لا أحد يتحكم في غرائزه ؛ الغرائز محدودة أساسا عندنا !

- البت العبيطة دى ، موش فاهمة أن شخصيتها دى أنا لى أثر كبير عليها . الجينيات . هي جابتها منين ؟ (ثم يصحح نفسه :) طبعا الجينيات موش كل حاجة . بجبيناتها دى كان ممكن أطلعها زى أى بنت ريفية تسمع الكلام وتمشى جنب الحيط . أديسون إल्ली قال العبقرية ٩٩ .٪ عرق و ١ .٪ إلهام .

- (يضحك :) مرة قلت لى منى بتصحح لك الإنجلش ؟ يبقى اسمه إديسون موش أديسون . وفعلا العبارة بتقول **Genius is one percent inspiration and ninety-nine percent perspiration** . أكيد كلامه صح ، لكن أنا رأيي أن فيه سقف جينى . التربية جايز توصلك ليه . إنما تظل الجينيات هي الكل في الكل . التربية موش ها تعمل أينستين تاني ، لأنها ما عملتس أينستين الأولانى !

- حلو أوى المثال ده ! كان موظف صغير ، ولا دكتوراة ولا بكالوريوس حتى .

- أنا بأوصف الموضوع أن الجينيات هي ال **hardware** والتربية هي ال **software** ! أنت ما تقدرش تحط طريات سويركمبيوتر على صلائد كمبيوتر عادى ، موش ها تشتغل .

- ده أنت ممكنة فعلا ! إنما باعتبارى متخصص فى الجينيات التشبيه عاجبى ، بس موش دقيق . وأنت الصادق ، الجينيات هى الهاردوير والسوفتوير سوا ، التربية مجرد إدخال بيانات وانتظار نتيجة محددة سلفا حسب نوع الجهاز وحسب نوع البرمجة إالى عليه ! بمناسبة الناس الحلوة إالى جنبنا أسماءها دى ، أنا عندى صياغة للموضوع بلغة الرياضيات : كل العوامل التاريخية والثقافية والتربوية والأخلاقية وكل ما يسمى ' بالظروف ' هى متغيرات تابعة ، والجينين فقط هو المتغير المستقل الوحيد فى معادلة التاريخ ، هو الذى خلق كل المتغيرات الأخرى وتسبب فيها جميعا ، بما فيها طريقة تفاعل هذا الشعب المقصود مع العوامل الخارجية كالغزو أو الكوارث الطبيعية . أما حين تختار متغيرا مستقلا آخر ، فأنت هنا تتكلم عن عرق آخر ، وتاريخ آخر و ' ظروف ' أخرى ، وكل شىء آخر .

- طبعا كلام رائع لأنه يتماشى تماما مع الفلسفة المادية التى أو من بها ، وأن البنية التحتية -أى الأشياء المادية التى يمكن أن تلمسها بيدك- هى الشىء المهم والأساس ، وبقية الأشياء المعنوية كالفكر والثقافة هى منتجات فوقية لتلك البنية التحتية ، وذات تأثير ثانوى فى جميع الحالات . إنما استنى هنا ! أنت مع أن الإنسان يبقى ممكنة ولا ضد أنه يبقى ممكنة ؟ ده أنت حتى عملته ممكنة صماء . ياريت تحاول ترسى على بر مرة !

- بر ؟ بر ؟ أنت ما فيش على لسانك غير الكلمة دى ؟ ! على أية حال ، إالى كنت عاوز أقوله إن ما فيش فى إيدنا غير التربية . ما فيش فى إيدنا غير أن نمط دماغهم بالبيانات والخبرات دى .

- نمط دماغهم ؟

- أيوه ، زى ولا مؤاخذة لما كان أبونا يرجع جزمنا للجزمى إالى عملها ، بعد أول يوم فى المدرسة ويقول له طلعت ضيقة ، حطها فى قالب زيادة نص نمرة . للأسف التربية عندنا تنحصر فى نهى واحد هو ' لا تتناول المخدرات ' ، وبالنسبة للبنات يضاف نهى آخر ' لا تتناولى المخدرات ولا تمارسى الجنس ' ، لكن التربية الحقيقية مليون شىء ، والمفارقة أن كلها خبرات إيجابية ، بمعنى أن لا نواهى فيها على وجه الإطلاق ، ولما يتمط دماغهم ها يكتشفوا الصح والغلط بنفسهم بسهولة ولا يحتاجون لعسكرى يقف على رأسهم طول الوقت . أنا فى رأي كل النواهى عدم تربية أو نقيض للتربية . منى وهى صغيرة سنتين أو ثلاثة كنت بأفرجها على أفلام عنيفة ، والمكتوب عليها للكبار فقط . Terminator 2 مثلا . آكشن وعنق ما فيش بعد كده . الإنسان قزم تافه فى الأفلام دى . موش محصل حتى كرات الدهن بتاعتك . كمان فضلت محروقة أسبوع تسأل زى المجنونة هو ليه البطل مات فى آخر الفيلم . عارف إيه أكثر فيلم هزها ؟ ' بامبى ' الرسوم بتاع الغزال . طبعا عارفه ؟ فضلت مرعوبة شهر وقالت إزاي أم بامبى تموت ؟ دائما كنت بأحطها فى مواقف وتجارب وحاجات أكبر من سنها . الكمبيوتر عندها من سن سنتين . ودلوقت حضرتها مبسوة بشخصيتها المستقلة وبالتمرد ، وموش فاهمة أن كل ده من تصميمى وهندستى أنا نفسى !

- (مغايضا :) واضح ! عرفنا دلوقت السبب ليه دماغها طلعت زى الجزمة !



أنت كنت طالب متفوق . أخذت حقا وكنت بتطلع الأول . بعدين أخذت حقا فى الوظائف والشهرة والفلوس .

إذا كان المتفوقين بياخدوا حقهم ، إيه إالى يخليك متحمس أوى كده للتنافسية والدفاع عن المتفوقين ، لحد أنك ترعل الناس منك ؟

... السبب أنك بتدافع عن قبيلة المتفوقين ؛ بتدافع عن جين التفوق !

... ' يا نخبة العالم اتحدوا ! ' ليس شعارا اخترته ، إنما شعار اختارك !

- مع ذلك أنا تعاملت مع حياتها بمنطق الناقد السينمائى لا المخرج ، إنما لم أصنع شيئا مباشرا فى حياتها ولم أجبرها على شىء ؛ كل شىء من صنعها هى ، فقط كنت أنتقدتها وأوجهها بلطف من الخارج .

- ارسى على بر ، تصميمك وهندستك ولا نقد وتوجيه ؟ (ثم قبل أن يحتج على العبارة مرة أخرى يردف موسيا :) ما تضايقت نفسك يا حاج . لما تكبر شوية ها تفتكر وها تفهم وها تشكر . أو حتى جازير فاهمة ، وكبرياء المراهقين هو إالى بيمنعها .

- لا شىء يشبه جنبنا لأطفالنا إلا حب الكلاب لأصحابها ، حب خالص غير مشروط وبلا مقابل . فقط المؤلم فيه أنه من طرف واحد ، فهم لا يريدون هذا الحب ويعتبرونه دسا لأنوفنا فى حيواتهم . إنما حتى تفرح عندما يلحق مايتى وجهها ، بينما لا تقول سوى ' أوف ! ' حين أسألها أنا عن أحوالها !

- وهي دى حاجة تزعل؟ أنا نفسى مرة أحب حد حب الكلاب لأصحابها . قلت لك لما تكبر ها تفهم .
- أنا ما يهنيش خالص أنها تفهم ، أو تقول لى أو تقول لأمها شكرا . يهنى تكون كويسة . الشطارة والمهارة أهم حاجة علشان تنجح . ومهما حصل هى خاية برضه .
- شطارة زى ونس كده ؟
- قلت لك ونس فهلوة وحلنجية وشمحطجية . قصدى يبقى جواك حاجة ، حاجة كبيرة . أنا معجب بك علشان كده . طول حياتى ما قابلت واحد زيك . وطبعا ما أعرفش أبقى زيك . أنا مندفع . إنما أنت كل ما نسأللك سؤال عن الأسهم أو عن أى حاجة ، تتهرب وتقول : ' ما ليش رأى ' ، ' أعتقد ' ، ' جازي ' ، ' ربما ' ، وكلامك إياه ده . لكن تانى يوم أو بعد أسبوع تفاجئنا أن لك بقى لك رأى فى الموضوع إالى إحنا تقريبا نسيناه ، ونلقاك بتدافع عنه زى الأسد ، خلفيات وتحليلات وكأنك عملت دكتوراة فيه . وبعد كده يبقى الرأى ده جزء منك ما بتغيرش تانى طول العمر ! هو ده قصدى بجواك حاجة . علم ودراسة يطلع منهم موقف وشجاعة .
- لاحظ أنك قربت تدخل على أرسطو ، وها تبقى عرقى ، عنصرى زى ما بيقولوا ! على فكرة ، على وصفك ده ، منى موش ها يعجبها حكاية ما فيش غير التربية ، وها تقول لك ما عملتولناش جينيات صح من الأول ليه .
- طبعا ! أنت ها تقولى على بجاحتها ووشها المكشوف . المفروض الآن يعملوا أينشطين (أو أينستين) من مخه المحفوظ . إذا كان علماء بريطانيا عملوا جينين من خريطة جينية أخذوها من عظام القبر ، حرفيا أحيوا العظام وهى رميم ، فما بالك من مخ محفوظ بعناية . زمان كان المشعوذ عندنا يقول للست هاتى لى حاجة من ريحة جوزك وأنا أعمله عمل علشان ما يتجوزش عليكى . بكرة ها يتقال هاتى لى ريحة منه وأنا أعمله لك كله ، تربيته على مزاجك ! يا عيني ، بس الموتى إالى كانوا بيحرقوهم وينثروا رمادهم ، هم إالى موش ممكن يرجعوا تانى .
- أهو أنت كده ، ما بتبطلش تفكير يا زهرى ؟ على فكرة ، العكس موجود برضه . هاتى لنا ريحة منه ، وإحنا نقله لك . أكيد تعرف أن إسرائيل نمت قبلة بيولوجية يمكن أن تقتل فردا واحدا فقط لا غير . فيروس ينشر فى الهواء ، يصيب تحديدا من تطابق جينياته الشخص الذى صمم الفيروس لقتله ، بينما لا يؤذى أى أحد آخر ؟
- عرقية ؟ دى الترجمة إالى اتفقت عليها مع نبيل ؟ أنت كتبت مرة أو اتنين تقول الجينيات ، وأعماق الشعوب ، والطبقات الجيولوجية للأمم . صح ؟
- أيوه ، الاختلافات بين الشعوب واضحة . شعوب تحب الاشتراكية بطبعتها ، وشعوب تحب التنافس بطبعتها . شعوب نشيطة ، شعوب كسلانة . شعوب دينية ، شعوب دنيوية . طبعا . ده كلام أرسطو . كلام قديم جدا . بس لاحظ أنى فى كل مرة كنت بأؤكد أنها إنطباعات عامة ، إحصائية . كنت حساس أوى وأنا بأكتب . كلام عام متأثر فيه بأرسطو ، موش أكثر ولا أقل . الشعوب المتخلفة واضحة ، والمتقدمة واضحة . الكسلانة واضحة وإلى بتبتكر واضحة . لازم فيه ترابط بين الجينيات ، على الأقل بسبب برودة المناخ أو سخوته . موش أكثر من رصد إحصائى ، لأن لسه الحقائق العلمية بتاع الـ DNA ما تعرفتش كلها . مجرد تأملات فلسفية أو إحصائية ، وليست علما مختبريا . وتوقعت أن أكيد لما ها تطلع ها تقلب مفاهيم كثير ، عن الاشتراكية والمساواة والديموقراطية وحقوق الإنسان ... إلخ . وفعلا ده ابتداء يحصل مع الخرائط إالى بدأت تطلع لتوزيع جينين معينين عبر العالم ، وكأنها تنطق بخصائص هذا الشعب أو ذاك .
- المشكلة فعلا أن الموضوع لسه فى أوله . مهتمين بجينيات الأمراض وبس حاليا . لكن ماذا لو اهتموا مثلا بجينين العنف أو جينين الغباء أو جينين الكسل ؟ الدنيا كلها ها تقوم . هل يمكن للتربية أن تغير لون بشرة الإنسان الأسود ؟ الإجابة سهلة ويعرفها أى طفل : لون البشرة جزء من الشفرة الجينية ، ولا يمكن تغييره . ماذا لو أصبح السؤال : هل يمكن للتربية أن تغير من انفعالية الإنسان الأسود أو ميله للعنف أو بطء الفهم لديه ؟ لا دليل علمى حاسم حتى اللحظة ، لكن الإجابة الأولية التى تدعمها كل الظواهر وأرقام الرصد الإحصائى هى أن لكل شىء عوامله الجينية التى لا يمكن تغييرها ، تماما مثلها مثل لون البشرة . ثم لما ها يهتموا بموضوع التصاحبات الجينية gene associations ، الدنيا ها تولع أكثر . تتخيل ها يحصل إيه لو ثبت مثلا أن فيه بين ارتباط بين جينين العنف وجينين البشرة السوداء أو الأنف الأفطس ، أو بين جينين الغباء وبين جينين الشعر المجعد أو جينين اتضح مثلا أنه يحدد مفهوم الشرف ، أو بين جينين الكسل وجينين عدد الغدد العرقية اللازمة للتكيف مع الحر ؟ الأرض كلها ها تنقلب جحيم مولع نار . طبعا كل واحد عارف جواه أن السود طول عمرهم ما ها يتطوروا ، والعرب كذلك بالأحرى ، كلهم

اتعمل لهم ما لا يعمل ومبسوطين بالتخلف . ملايين السنين ها تعدى ولن يجد جديد . كل كلامك وكلام أرسطو مضبوط . كل ده كلام سهل وواضح و' إحصائي ' وموش محتاج إثبات ، إنما يوم ما ها يتقال لهم إن جبيناتهم -وليس الاستعمار أو الصهيونية مثلا- هي إلی كتبت عليهم التخلف للأبد ، وأنها متصاحبة معا بحيث لن يمكن حتى فصلها بمحاولة التحكم فى النسل ، ها ينقلوا وحوش أكثر ما هم وحوش دلوقت ألف مرة . ربنا يستر . الكلام فى الجبينات حاجة تانى خالص . دى عاملة زى صندوق پاندورا ، يوم ما ها يفتح موش ها ينقل تانى قبل ما يقضى على الدنيا كلها .

- أو جازي مجل السلام الأبدى . كل شعب ها يعرف قدر نفسه ، ولن تقوم حروب . السبب الوحيد لنشوب الحروب أن الضعيف لا يعرف أنه ضعيف .

- السلام الأبدى ؟ أنت بتعلم ! الجبينات قصة فوق ما يخطر ببالك خالص ! أنت كنت طالب متفوق . أخذت حقا وكنت بتطلع الأول . بعدين أخذت حقا فى الوظائف والشهرة والفلس . إذا كان المتفوقين بياخدوا حقهم ، إيه إلی يخليك متحمس أوى كده للتنافسية والدفاع عن المتفوقين ، لحد أنك تزعل الناس منك ؟ ... السبب أنك بتدافع عن قبيلة المتفوقين ؛ بتدافع عن جبين التفوق ! ... ' يا نجبة العالم اتحدوا ! ' ليس شعارا اخترته ، إنما شعار اختارك !

- ما كنتش أعرف أنك واخذ الموضوع بجد أوى كده !

- تعرف أن الموضوع ده هو تخصصى ؟

- إزاي ؟

- سمعت عن الدكتور أحمد مستجير ، الله يرحمه ؟

- طبعا ، وكنت فى شبابى بأحب أقرأ له كتبه وترجماته .

- أنا دخلت زراعة عين شمس بحكم التنسيق وإلى بيسموه التوزيع الجغرافى ، لكن بعد سنة أولى نقلت جامعة القاهرة . كنت بأسمع عن الدكتور مستجير وعن تخصص الهندسة الوراثية إلی أنت بتسميه الهندسة الجينية . ما كانش لسه حتى بقى أستاذ . نقلت مخصوص علشانه . للأسف ما تجيش سيرة الموضوع ده ، إلا لو موش فاضيين أو فى آخر الجلسة . أشوفك بكرة !

- (بابتهاج :) لا ! ده إحنا ها يكون بينا كلام كثير ! (وبعد برهة :) بس أنت بجد قلت الكلام بتاع الجنس ده لمنى ؟

- طبعا ! هو أنت موش مصدق ليه ؟

- وبسبب إلی أنا كتبتة ؟

- لا ، ما تتغرش فى نفسك أوى كده ! ما تنساش أنى لفيت العالم !

- أنت ليه ماشى دلوقت ؟

- الفالانتاين بأه ، وأنت عارف ها يحصل لى إيه لو ما روحتش دلوقت حالا ! اوعى تنسى تاخذ الورد بتاعك !

- مع السلامة يا حاج ! كل سنة وأنت طيب . ما تنساش فى ١٧ مارس احتفال القديس پاتريك . الناس هنا فاهمة غلط . الفالانتاين موش طقس خصوية . الفالانتاين بتاع الرومانسية ، والپاتريك هو بتاع الجنس !

- البركة فى إلی زيك يا سى روميو . كل حاجة بقت بتاع جنس . الكريسماس نفسه !

- أنا عندى سؤال يا حاج : إذا كان كل الستات ها يبقوا محجبات أو يقعدوا فى البيوت ، يبقى الرجالة عملوا إيه يستحقوا عليه الجنة ؟ ! ها ! ها ! بس خللى بالك يا حاج الپاتريك له زهور مخصوص ؛ اسمها الشمروك ، الورقة ٣ تحت وبيقولوا عم پاتريك لما راح أيرلاندا كان بيستخدمها فى شرح الثالوث المقدس ! ها ! ها !

- عارفها ، نوع من البرسيم غض وقصير أو تشبه الرجله بتاعتنا شوية ، نواره جميلة أبيض على بنفسجى فاتح ، اسمها باللاتينى oxalis acetosella ، ممكن استورد البذور بتاعتها !

- ها تكسب مكاسب هائلة . تحب تشاركني ؟ ! يا لالا يا ميرفت ، يلعن أبوكم كلكم ! قومي صفى لي حسابي وإديني فلوسى ! ها أقلب
بياع برسيم ! برسيم من بتاع البهايم . البهايم ! فهمتى ؟ !

كان ضهرى يكاد يغادر باب الشركة عندما استوقفه صباح روميو هذا الذى لفت أنظار كل القاعة . كان مبتهجا لأنها المرة الأولى فى حياته ،
التي تكون فيها قبلته الأولى مع صديقه له ، قبله احتشد لها الناس دفعوا إليها وهللوا لها . قرر أن يطرق الحديد وهو ساخن . بعد لحظات مال
على أذن سوسن يفهمها أن الجو اليوم صاحب جدا ويعوقه عن التركيز ، ومن الأفضل لهما أن يذهبا لمنزله كي يطلعها أيضا على حواسيبه
وأساليبه فى التحليل .

- بس أنا عندى سؤال يا حاج بخصوص الترابطات الجينية دى ؟ ينفع واحد زى مستر وحيد ما بيعبش طعم السكر على لسانه ، ويبدخن
السيجار علشان يظفيه بعد المشروبات ، يكون جسمه فيه خلايا دهنية كثير ، أو واحد مفجوع زى ونس يكون جسمه ما يتخنش ؟ لازم كل
الجينات تكون ماشية مع بعض ، وإلا تطق تموت .

- صح . الأولانية مستحيلة فعلا ، بس الثانية ممكن يكون حب الأكل مترابط مع حاجات ثانية غير عدد الخلايا الدهنية . (غامزا بعينه :)
حب الرياضات العنيفة مثلا !

يودعان وحيد بينما عينا روميو لا تفارقان الجسد الفائر الذى يتقدمه ، فتنم عن ذراع وحيد حركة عصبية لا إرادية ، ويرد فى ابتسام ظاهر
وصوت خفيض وغيظ وإحباط مكتومين : ' باين على وشى ؟ ! ... لك حاجات يا حاج ! ' .



كانت تزم فحذيتها بشدة

يصف طبيب مصر الجديدة مراهم مسكنة ، قال إنها جديدة وفعالة ، وأيضا تعالج المرض قليلا أو على الأقل تحاصره .
ويسأل وحيد : ' كنتى بتاخدى كام فى الشهر ؟ ' ، ' ٥٠٠ جنيه ' .

- أنا عاوزك يومين الأجازة بتوعى بس ، الجمعة والسبت ، وها أدبكي نفس المبلغ . لا تخشى شيئا . لن تقصرى فى شىء يخص كريم . لن
تلمسى المياه . اكنسى مثلا وأنا سأقوم بالباقي . علميني كل شىء ولا تفعلنى شيئا لو شئت . فقط لا أريد أن تمنسح تلك الابتسامة عن وجهك
أبدا . إنها تعنى لى الكثير . أكثر مما تتصورين !

عاد لها الأمل ، توردت بلون الرمان من جديد . عقلها المشلول عادت له الحياة . بقدر ما الحاجة هى أم الاختراع ، فإن الأمل يدفع المخ
وينجب الأفكار . اشترت قفازا صوفيا وأخرى مطاطية . تبدأ بأن تدهن أصابعها بتلك المراهم التي تجعلها تشعر بسخونة شديدة مريحة فى
أصابعها ، زائد بعض الحذر اللطيف . ترتدى القفاز الأول ووفقه أحد القفازات الثانية ، وأصبحت تقوم بكل شىء بما فيه ما يختص بالماء . ربما
ببطء قليلا وبدون حركات عنيفة حتى لا ينفجر الألم . لكن كل الأشغال عادت ممكنة بهذه الطريقة .

حين أنهت بالشاى ، طلب منها أن تجلس قليلا إلى جانبه . منذ جاء إلى هذه الشقة لم يكن قد شغل التلفاز أبدا . من يوم جربه له السمسمار
والبواب ليتأكدوا من صلاحيته ، لم يقربه هو . بادرت هى إلى تشغيله . ظلت تقلب إلى أن لاحظ أنها تتلصق أمام قنوات الأغاني العربية . قال لها
اتركى هذه قليلا . كانت قناة اسمها ' رومانس ' تتحدث أغانيها طوال الوقت عن الحب والألفة والدفء . ربما تشبه الفكرة التي اقترحتها روميو
يوما . بعد قليل لاحظ أنها تحبها وتغوص معها .

تأتيه مرتين فى الأسبوع . فى كل مرة تأتيه فيها أصبح يكرر هذا .

يفتح قناة الأغاني العاطفية ، ويدعوها للجلوس بجانبه لساعة أو نحوها ' كى تستريح من الشغل ' .

فى المرة التالية ، التالية للتالانين ، طلب منها أن تجلس على حجره كما طفلة لم ينجبها أبدا .

فى المرة التالية ، بعد أسبوع ، احتضنها ولم يرفع ذراعيه من حولها قط .

فى المرة التالية ، طبع قبله سريعة على جبهتها .

فى المرة التالية ، ردت عليها بقبلة طويلة على يده .

في المرة التالية ، أخذ يقبلها مرارا في وجهها ، في جبهتها ، في خديها ، وفوق شعرها .

في المرة التالية ، أصبح يقبلها في فمها بذات الطريقة التي يقبل بها بقية وجهها .

في المرة التالية ، أصبح الاحتضان أقوى .

في المرة التالية ، أصبحت القبلات أعمق .

في المرة التالية ، أصبح أكثر حرصا على أن تضغط في جلستها على مناطق جسمه الأكثر حساسية .

في المرة التالية ، بدأت تستشعر هي السخونة تلهب فخذها من أعضائه المنتفخة المتصلبة .

في المرة التالية ، شعر أن بنطاله قد تبلل ، فنهض خجلا للحمام كي يستحم .

في المرة التالية ، بادرته هي : ' قوم اقلع هدومك علشان أغسلها لك ' .

في المرة التالية ، قالت : ' قوم اقلع هدومك علشان أغسلها لك ... يا حبيبي ' .

لا تعرف كيف وصلت بها الجرأة للنطق بكلمة كهذه . مع ذلك هي لم تخرج منها عفوا . فكرت بها ودرستها لأسابيع قبل أن تتفوه بها . هذه الحروف الخمسة كانت أقصى ما يمكن أن تتناول به على سيدها . لا أستطيع كنتها حتى لو أدى بي الأمر لطردى . احتاج الأمر استجماع أقصى جرأة لديها ، وأعنف ما استطاعت به مقاومة نفسها . كانت تكتف مشاعرها الهائلة بكل طريقة . من السيئ أيضا أن المشكلة ليست مجرد كتمان العواطف والكلمات والنظرات . كل روحها وجسدها كانا متوهجين . منذ يوم التلامس الأول ، تلامس الأطفال . كان جسدها الملتهب يفور هو نفسه برحيق الطمأنينة وترياق السكينة وبلسم الالتصاق . راحت تحاول مداراته بكل طريقة ؛ كانت تزم فخذيها بشدة ، أو تحشر ذراعيها بينهما ، متصنعة أنها تدفئ يديها العليلتين ، ذلك خائفة أن تنطلق من ثغرها نسائم الحب الزكية فيملاً عقبها المكان ، وتنفضح مكنوناتها . كانت تحاول قدر الإمكان كبح الرجفات التي تنبس عن كامل جسدها فجأة رغما عنها . كانت تغسل له ملابسها من بقعة صغيرة ، بينما ملابسها هي الأحوج . غارقة بالكامل ، لكنها لا يمكن لها إلا أن تغسل في بيتها المتواضع . لا يصح حتى أن تأتي بملابس داخلية إضافية معها لمنزل سيدها .

لم يثر على كلمة حبيبي . لم يثر على أى شيء . بالطبع لم تحلم بأن يرد لها الكلمة بشبيه لها . ولم يفعل .

لكنه كان سعيدا .

سعيدا كلما احتضنها على الكرسي . كلما قبلها . كلما التهب تحتها في سلام وسكينة كالجمر الصامت الذي لا يرففه شيء .

سعيدا ... كلما قالت له : ' يا حبيبي ' .

لم ينهرها ، لم يطلب منها أن تكرر ، لم يرد بمثلها ، لكنها ظلت تقولها طوال الوقت .

في المرة التالية ، قالت : ' أنا عاوزه أحملك بنفسى ، يا حبيبي ! ' .

في المرة التالية ، تكرر ذات الشيء . تجلسه بهدوء في الحوض ، وتبدأ في دعك جسده برفق .

... من الآن سأبدأ رؤية الدنيا من خلال عينيك الصافيتين .

... يا مجدلتى .

... يا قديستى .

... في كل مرة تالية ، تكرر ذات الشيء .

... بلا نقص ولا زيادة .

... طفلة يهددها أبوها .

... وطفل تحممه أمه .

... علاقة أظهر من أن تنقص .



ما الدنيا إلا بورصة كبيرة !

نظر الجميع لما حدث بسبب اعتصامات ومظاهرات الإخوان المسلمين كحدث عابر مر وانتهى . قبله وبعده ، لم تكن محاضرات وحيد المناهضة للمضاربة مقنعة لأحد فيما يبدو . لم تنقص الفجوة أو الجفوة (غير المرئية) بينه وبين العملاء ككل . نعم ، كانوا يتبادلون الكثير من الكلام الودى ، ويسألونه أحيانا وهو يجب . لكن ما أن يعيب على إحدى الشركات حتى يعتبرون أنه تجاوز الخط الأحمر ، تفوه بما لا يصح التفوه به أبدا على أرضية شركة سمسة . كانوا يستعوزون من هذا الكلام ، وكأنه مجرد نطق وحيد به سيؤدي لانخفاض سعر السهم . في أفضل الأحوال كان البعض يأخذ كلامه على محمل الجد ، ويعبر عن خوفه هو شخصا من الخسارة . فقط ضهرى كان الوحيد الذى يتطوع للدفاع عنه علنا .

- أنا طبعا موش عاوز كلمة شكر من حد ، لكن غريبة يا حاج أن ما حدش قالها لى أبدا ، لما قلت لهم الأسعار دى ارتفعت ، وينتظروا شوية ، زعلوا واعتبروا أنى لا أتمنى لهم الخير ، وها هى النتيجة ، خسائر كبيرة !
- ده لأنهم موش عاوزين منك نبوءة صح . عاوزين منك نبوءة متفائلة .
- حتى لو خسروا ؟

- حتى لو خسروا ! هنا سوق بيع الوهم ! إالى أنت شايفهم دول يمثلون كل أجيال البورصة . جيل جه مع الخصخصة الأولى ١٩٩٦ ، جيل جه بعده بشوية مع مرقس والإنتاج التليفزيونى وحاجات تانية ، جيل جه مع خصخصة شركات البترول والاتصالات فى ٢٠٠٥ ، جيل جه مع خصخصة البنوك فى ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ ، وهكذا . تفتكر يا أستاذ وحيد إيه إالى يخللى كل دول يسيبوا أشغالهم المنتجة وييجوا هنا عواطلية طول النهار غير كده ؟ لو هم مستثمرين بجد كانوا اشتروا الأسهم وسألوا عليها بعد سنة ، سنتين ، ٦ شهور .
- ده بيعاملونى كما لو كنت أنا السبب فى نزول الأسعار ! أنا حاسس ده فى نظراتهم .
- ولا يهملك . المهم كلامك سليم . الأسعار لا يمكن ها تطلع على طول . لازم تنزل طبعا ، وبعدين تطلع تانى . أنت لسه شفت حاجة ، طول ما أنت فى رمسيس ووسط الأشكال دى ها تشوف العجب . (ثم ضاحكا بلهجة مسرحية :) ما الدنيا إلا بورصة كبيرة !



قانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest بتاع داروين وسبنسر !

مع ذلك فوجئ بضره يقول له ذات مرة دون مقدمات ، فيما كان واضحا أنه نوع من المواساة وتطبيب خاطر : ' أنت فاكر أنهم لا يسمعون كلامك لعيب فى آذانهم ، أو لأنهم لا يجيدون القراءة ، أو لم يطلعوا على ما كنت تكتب ، أو حتى يرفضون ما تقول . إنهم ببساطة لا ينفذونه لأن جيبناهم تمنعهم من محاولة هذا ' .
وقبل أن يسمح لوحيد بفرصة استغلال حديث الجيبينات على النحو الذى قد يريد ، أردف بسرعة وكأن ما حدث كان زلة لسان : ' إنما كل الناس إالى قاعدة دى ناس طيبة . الشعب المصرى كله شعب طيب ' .
- تفتكر دى ميزة ولا عيب ؟
- أكيد ميزة ، أنك تعيش وسط ناس طيبة .
- وجايز عيب .
- السؤال هو إذا كان كل الناس طيبين ، إحنا ليه متخلفين ؟
- جايز لأنهم طيبين . التطور لم تصنعه إلا الوحشية الهائلة للطبيعة . لو كانت طيبة لما تطور شىء أبدا .

- أنا موش شايف كده . أنا بأتخيل العالم ها يقول علينا إيه لو الشعب ده عمل نهضة اقتصادية . سيعجب العالم بنا إما إعجاب . ها يقولوا المصريين على عكس بقية الشعوب إल्ली بتاكل فى بعضها ، طيبين مسالمين ، ليس من طبعهم العنف ، والجريمة عندهم محدودة ، وبكده جمعوا النقضين : الاقتصاد والإنسانية . إحنا شعب بيحب السلام ، ويكره الخلاف ، ويرتاح لشيء اسمه الإجماع !

- ثاتشر قالت مرة الإجماع دليل انتفاء القيادة ؛ أو حسب القانون الثانى للديناميات الحرارية ، حتى يتولد الشغل لا بد من جدوة متقدمة تمرر وهجها لمحيط بارد حامل .

- عندها حق الست الحديد دى . يهيا لى أهما كانت بتشرح اللغة موش بتعمل نظرية . بحكم التعريف طالما الكل مجمع على نفس الشيء ، فلا توجد قيادة ! (ويضحك :) المشكلة أن غالبا إجماع المصريين ده ، بيبجى على الحاجات الغلط . أنا قصدى أن ده شعب طيب ، ولو وجد توجيه صح ها يبقى شعب عظيم . مثلا الحلو فى مصر أن ما حدش بيموت م الجوع .

- بس فى أميركا بيموتوا .

- وهى أميركا المرجع بتاعنا ؟

- المفروض . يعنى ! باعتبار أهما الأقوى وصاحبة أعظم اقتصاد . وده ما جاش من فراغ ، إنما من المنافسة الشديدة ، وقانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest بتاع داروين وسپنسر !

- أنا لا يمكن أقتنع أن ده الطريق الوحيد للإصلاح .

- والجيينات بتقول إيه هنا ؟

- قلت لك ده موضوع يطول شرحه ، وأنت أكيد قرئت فيه زى ما أنا قرئت .

ما هؤلاء الناس ؟ ما لهم وما لى . لماذا لا يهتمون بشئوهم وكفى . أنا لم أطلب نصيحة من أحد . إنى حتى لا أعطى نصيحة لأحد ، إلا لو طلبها منى . لماذا يصممون على اقتحام حياتى ، محاولة تغييرها ، والسعى لفرض مفاهيمهم على . ضهرى إنسان طيب ومثقف ، لكنه فى نفس يوم تعارفنا بالكاد ، راح يرسم لى فى عبارة واحدة كيف أحل أكبر مشاكل حياتى . ونس يحدد لى طوال الوقت كيف استثمر نقودى . روميو يلاحقنى بنصائحه الجنسية . حتى نصر الله رث الحال لا يرحمنى من اقتراحاته . كيف يستبيحوننى على هذا النحو ؟ لكن مهلا . ربما المشكلة أنهم يتوقعون منك الكثير . يتوقعون منك النصيحة التى تجعلهم مليونيرات . نعم ، ربما يثقون بك . لا تنس أن أحدهم ائتمنك على سر حياته الأكبر ، الذى لم يعرفه سوى ريجان والسادات . بالفعل ، لا يجب أن تتسرع . لا تكن قاسيا عليهم . هذه طبيعتهم ، يتصرفون دوما بفطرية ، إल्ली فى قلبهم على لسانهم ، كما يقال . ضهرى هذا بالذات يصفونه جميعا بابن بلد ، شهم وجدع ولا يريد إلا الخير للجميع . إنهم لا يقصدون شرا ، ولا يقصدون مثلا معايرتك أو إذلالك .

ثم ماذا عن نصيحة ضهرى العجيبة تلك . ألا تستحق وقفة ما : ' كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شىء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابي فيها ! ' . أليس هذا ما يحدث بالضبط على شاشة الحاسوب هذه . كل شىء فى صعود وهبوط . لا شىء يدوم على حاله . كل سعر يرتفع يهبط مرة أخرى ، والعكس . كل خاسر يعود متهللا بعد قليل أن عوض خسائره أو بعضها ، إن لم يكن فى نفس السهم فمن خلال سهم آخر . إنهم يدخلون طوال الوقت ليعلموا انتصاراتهم هذه لإدوارد . أليست الحياة هكذا ؟ أليس هؤلاء جميعا نسخة من رمانه دائمة الابتسام . هل آن لى بعد أن قرأت كل الدنيا ، أن أتعلم الحياة على يد خادمة وحفنة من المضارين الصاخبين ؟

يغرق وحيد طويلا فى أفكاره ، ثم يعود لموضوع لم يكن يتخيل أن يناقش فيه أحدا من قبل ، بالذات فى مكان مثل هذا : ' بورصة كبيرة ؟ أنت جيت ع الجرح يا حاج ! ' .

- إزاي ؟

- أنت عارف طول عمرى حلمى فى الحياة كان إيه ؟ أسيب الصحافة والاقتصاد والبيزنس وأدخل طالب دراسات عليا فلسفة . عندى ورقة ، صفحة واحدة ، بأحاول فيها تحديد إيه أقوى القوانين فى الكون . قوانين موجودة قبل الإنسان وبعد الإنسان وفوق الإنسان ، غضب عن عينه يعنى . حاجات زى النزوع للكفاءة . زى النزوع للاستعداد ، التطور يعنى ، من كائنات بدائية لكائنات معقدة . زى النزوع للاجتماع ، الاتحاد ،

العولمة زى ما بيسموها . زى النزوع للتحكم ، مشكلة إدوارد مع مراته . تصدق مثلا أن الطفل الرضيع يعتقد أنه هو إلى يتحكم فينا لما نضحك أو نكشر له ، ويكرر إلى يبعمله علشان نكرر إحنا إلى عملناه . بينما إحنا فأكبرين أن إحنا إلى بنتحكم فيه ؟ وطبعا دى مدرسة كبيرة فى التربية ، أكيد تعرف . كمان زى قانون النزوع للاقتصاد ، أقصد به مثلا قانون توفير الطاقة ، الأجسام تندرج وتستقر فى أوطى نقطة على الأرض . الموت مثلا هل قانون ؟ هل لازم كل شىء إلى زوال وانحلال ، الكون يذهب لحرارة وسيطة وتنعدم منه الحياة والحركة وأى تفاعلات ؟ من الحاجات إلى موش متأكد منها مثلا التخصصية إلى بتزيد حوالينا يوم ورا يوم ، هل هى قانون وحتمية ؟ هل فيه حاجة زى كده فى الجسيمات مثلا ، جسيمات متخصصة ، وما كانتش موجودة زمان ؟ أنا طبعا موش متأكد أن كل دى ' ناوسيات ' زى ما بأسميها ، وعملت لى هالة بالصفحة دى موقع على الإنترنت اسمه nOusia.com . كلمتين يوناني nous بمعنى عقل وousia بمعنى المادة أو الكينونة المادية substance أنا شابكهم فى بعض ، ما تاخذش فى بالك ، ممكن نناقش فيها نبيل بعدين ؛ المهم ده المقصود بها . معظم القوانين دى على فكرة موجودة فى الترموديناميكس ، وفى خواص الجسيمات ، كلها أو أغلبها physics فى الأصل . قانون القوة مثلا ؛ الكون فيه قوى أربع ، من أول جاذبية المجرات ، لغاية ربط النواة بحيث لا تتناثر البروتونات فيها رغم أن كلها موجبة الشحنة ، ولو انحل قانون القوة لانهار كل شىء . جايز قانون القوة يكون أوضح قانون وأقوى قانون ، مع ذلك الأمم المتحدة مثلا بتقول عدم جواز احتلال أراضى الغير بالقوة . هنا فيه تناقض واضح بين الطريقة إلى ماشى بها البشر ، وبين الطريقة إلى ماشى بها الكون . لو طبقنا بجد مبدأ زى بتاع الأمم المتحدة ده ، يبقى لازم كلنا نسيب الكوكب ونسلمه لأصحابه الأصليين ، البكتيريا ! جايز بعض القوانين إلى بأفكر فيها موش قوانين قاعدية ، وموش منطبقة على كل شىء . هو ده البحث . وفائدته أن الإنسان يبطل يتحدى قوانين الطبيعة . الاشتراكية مثلا ، الفلسفات الإنسانية humanist مثلا ، كلها واضح أنها ضد حاجات بتعتبرها أمانا الطبيعة بديهيات . البورصة دى بتخلينى أفكر فى قانون تانى . ممكن تسميه الدورائية cyclicity . كل حاجة دورات طالعة نازلة . أسهم تعلى وتوطى ، موش تعلى على طول زى أحلام ونس ، إنسان يتولد يكبر وبعدين يموت ، ازدهار ثم والعكس ، حضارة تعلى ثم تموت ، سعادة ثم حزن والعكس ، كواكب بتلف حوالين بعض ، الموجات ، الذبذبات . أعتقد ده برضه جايز يكون ناوسيا . بل حتى جايز يربط أكثر من ناوسيا مع بعضهم البعض . أو جايز بالعكس ينفى بعض الناوسيات أو كلها ؛ لأن جوهره أنه لا شىء يبقى على حاله ، أى لا ' قوانين ' . أو جايز هناك قوانين فعلا ، لكن الدورائية فعالة فى كل ما هو ليس قانونا . الموضوع محتاج دراسة فعلا !

يعنى ونس : ' حبة فوق ! ... حبة تحت ! ' ، بينما ييدى ضهرى جدبة أكبر نحو ما قاله وحيد : ' طب وإيه إلى مانعك ؟ ' .

- قلت لك : الكلام كده سهل ، إنما علشان يبقى أكاديمى شىء فى منتهى الصعوبة والضخامة . أرسطو الوحيد إلى عمل حاجة زى دى ، أورانون زى ما بيسموه . طبعا ده كان مجهود مبكر ، ويتناسب مع معارف عصره ، وما عدش يعتد به النهارده إلا فى خطوطه العريضة . فرانسيس بيكون حب يعمل الأورانون التانى ، ولقى أن المعارف أكبر من يستوعبها بنفسه ، وقضى عمره يشتغل فى تصنيف العلوم وما قدرش يخلص . موش ده تفكيرى ولا طموحى طبعا ، وجايز حتى لا يمكن أى مؤسسة فى العالم تقدر تنفذ طموح أرسطو أو بيكون على معارف النهارده المهولة . أنا عاوز نمسك شوية قوانين ونمحصها علشان نعرف هل هى قوانين جامعة فعلا ، بتنطبق على شىء فى الكون ، أم لا ، ونقول لازم طبعا الإنسان يطبقها على نفسه . نفسى أستاذ فلسفة يأخذ كلامى ده على محمل الجد ويتبنانى ويشرف على ، وأعمل البحث ده .

- أنت جواك سلفى كبير .

- إزاي ؟

- مخلص لأرسطو وعصره حتى فى اختيار الأسماء . إيه ناوسيا دى ؟ اختار حاجة فحمة رنانة من بتوع اليومين دول . Natureology مثلا ! المهم ، ده كلام كبير أوى ! شد حيلك ! آدى الكلام ! سيبك من قعدة رمسيس الهايفة دى ، وعاوزين نشوف حاجة . جايز بالمره سلفيتك دى ترجع كام خطوة كمان لورا ، قول لمصر القديمة مثلا .

- (شاردا :) موش عارف ! شكلها هايفة فعلا !

- واحد مفكر كبير زيك ، ممكن يشوف غير كده ؟

ويناكفهما روميو : ' هايفة فعلا لأنكم أنتم إلى عملتوها زى قعدة المصطبة ! ' ، ويخفف نبيل من وطأة الكلام : ' مصطبة من setup ! ' ، وبالفعل يضحك ضهري : ' فعلا ! عندنا في الأرياف نقول فلان ده متصطب يعني قاعد على المصطبة وكل حاجة مظبوطة فيه ! ' .

- (يجتر الكلام السابق ، ويتساءل في إعجاب :) الدنيا بورصة كبيرة ؟ ! لك حاجات يا حاج !



وجد عندها رزقا

أسد لا يأتي ولا يذهب إلا مع صديقيه ، عارف ورزق . الفرسان الثلاثة - كما باتوا يسمون في القاعة - من شركة ' تى إى داتا ' ، فرعها في مصر الجديدة . كلهم فوق الثلاثين بقليل . أسد قصير متين البنية ، وهو أكثرهم جرأة لكثرة كلامه ، وأيضا لأنه الأكثر غريزية واندفاعا في قراراته الاستثمارية ، ويقول إنه لا يستمع إلا لصوت إحساسه الداخلي ، العبارة التي دائما ما تدفع ونس للغناء : ' أنا بأعمل إللى في رأسى ... ما دام هو ده إحساسى ' . حين يستشعر أسد بأنه قد يتخذ قرار خاطئا ينسل هابطا للمقهى ، قائلا : ' حتى لا يغويني الشيطان ! ' . حين تهوى الأسعار بشدة ينسل أيضا قائلا : ' خايف قلبي يقف ! ' .

عارف أكثر منه طولا وأكثر حصافة واطلاعا فيما يخص الاستثمار ، وهو الذي كان بوابتهم للمجىء لشركة رمسيس . أخيرا هناك ثالثهم ، رزق المهذب الهادئ ، نحيف طويل ، وأكثر من صديقيه سمة . لا يرتدى بذلات أنيقة نسبيا كأسد ، لكنه على العكس منه يحرص على ألا تفارقه الكراثة أبدا . ذات يوم شوهد أسد يجرى بطاولة المقهى المعدنية الرفيعة الطويلة عبر الشارع ليضرب زميله يوم أخيرهم أنه انتوى الزواج ، فقالوا : ' ذنبها إيه الغلبانة إللى ها تتجوز واحد اسمه أسد ! ' . هذا الصباح قابل الحاج ضهري على بوابة العمارة ، وبينما يتصافحان بادرتهما سيدة متواضعة الهيئة بسؤال : ' مترو الأنفاق منين يا أستاذ ؟ ' . فيرد أسد : ' أنا بأدور زيك بالظبط ، وبأسأل الحاج وموش عارفين ؟ ' . بهت الحاج من استهتاره ، لدرجة أنه ألجم لسانه عن الشرح لتلك المرأة أن لا وجود لمترو الأنفاق بالمرّة في كل مصر الجديدة . تذكر كل الكلمات الزلقة التي تنسل من لسان أسد دون ضابط أو رابط ، غير مراعى على الأقل لوجود كثير من السيدات والآنسات في القاعة ، مثل : سهم ' ابن وس... ' ، سهم ' ابن مت... ' ، أو ' ابن شر... ' أو ' ابن قح... ' أو ' ابن لب... ' أو ' أم كيوييد ' أو ' أم إللى يشتري أسهم الأثاث ' ، هذا بخلاف سباب الدين للأسهم وللشركات ، وهكذا . لكن القشة التي قصمت ظهر البعير جاءت بعد ساعة واحدة من واقعة مترو الأنفاق هذه .

تقرب أسد من الحاج ، وسأله بنبرة جادة : ' عاوزين نسألك سؤال يا حاج . رزق هذا مسيحي ، لكنه لا يصدق أنه ذكر في القرآن ' .

- إزاي ؟

- ألم يقل : ' وجد عندها رزقا ' ؟

يفزع ضهري بقوة : ' استغفر الله العظيم ، استغفر الله العظيم . ليه كده يا بني ؟ ليه كده يا بني ؟ قوم بينا يا أسد يا بني نصلى الظهر سوا . إن الله غفور رحيم . إن الله تواب رحيم ! ' .

يرسل نصر الله للبواب : ' قول له يتصرف لنا في سجادتين صلاة ! ' .

لم تمارس صلاة مسلمة أو غير مسلمة في مقر هذه الشركة من قبل . لذا كان المشهد مثيرا للترقب والاهتمام ، وساد القاعة صمت متوتر لا تعرفه إلا في لحظات الانهيار الكبير للأسعار . ذهب ضهري ومن خلفه أسد إلى المطبخ وراح الأول يؤم الثاني للصلاة . بعدها عادا للجلوس في هدوء وسكينة ، بينما كل الأعين تتفحص من تحت لتحت ذلك الشاب الأسمر ، بما لا يخلو من شماتة باسمه أحيانا . وفي المساء تكرر مرة أخرى مشهد الجرى بطاولة المقهى المعدنية الرفيعة الطويلة عبر الشارع ليضرب زميله . جن جنونه حين قال له : ' أبوك ما رباكش ، أمك ما ربتكش ، مراتك ما ربتكش ، بنتك ما ربتكش ، الأسهم ما ربتكش ، لكن الظاهر ها يربيك واحد فرارجى ، يا سيدنا الشيخ غضنفر ! ' .



عارف يشتغل فنيا لتكبيبات الإنترنت السريع ، وأول من تعرف عليه إدوارد منهم ، يوم أتى لتكبيباتها في الشركة ، فدعاه هو وكل من يعرف للاستثمار في البورصة . هو من دعا زميليه ، وهو حاليا أكثرهم خبرة واتزان فيما يخص الأسهم ، لكن رغم هذه وتلك كانت بدايته مع التداول متلعثمة جدا بحيث تحولت لنادرة تروى . في أول يوم له لم يشتري شيئا ، وعندما سأله صديقه على المقهى عن السبب ، قال إن الأسعار كانت تتغير طوال الوقت فلم أستطع الشراء ، فأخذنا يسخران منه بإلقاء الورق المكور عليه قائلين : ' اثبت علشان نشترى ! ' . هو أرق الثلاثة حالا ، ويحمل وراءه قصة مأساوية . فقد مات أبوه في إصابة شغل ، وهو بعد في سن الصبا ، ولم يترك معاشا ، فقط مكافأة دفعة واحدة . بنت له أمه شقة فوق البيت شبه المتهالك الذي تملكه في أحد الشوارع الصغيرة بالعباسية ، كى يتزوج فيها ، أو بالأحرى تقيم فيها هي ، وترك له شقتها . لم تكن شقة السطوح شقة بمعنى الكلمة ، إنما مجرد غرفتين داخليتين بأمل ألا تلحظ وجودهما السلطات ، وأخما بنيتا بلا ترخيص . بعد شهر بدأ المنزل يتصدع ولم يسعفهما الوقت لإزالة الغرفتين ، إذ وجد عارف من يتصل به ذات ظهيرة أثناء وجوده بالشغل في موقع أحد العملاء ، ويبلغه أن البيت قد انهار وأن أمه ماتت صريعة . الثلاثون ألفا التي تبقت له من تحوينة عمرها وعمر زوجها لم تعد تجديه ، أيضا أصبح معظم مرتبه يتبدد في السكنى بالإيجار ؛ ومن هنا كان هو الذى بادر إدوارد بالأسئلة عن الاستثمار في الأسهم وعوائده المحتملة ، وقرر عن قناعة أن يأتي بأمواله كى يستثمرها ، وكله أمل أن يحقق ما تمنى أن يراه عليه أبوه الراحل وأمه .

الثلاثة تزاوموا منذ الابتدائى ، حتى الثانوى . فرقتهم المجموع التي حصلوا عليها في الثانوية العامة ، ما بين أسد لمعهد سكرتارية ، وعارف لمعهد إليكترونيات ، ورزق لكلية التجارة . رغم ذلك يمكن القول إنه لم يمر يوم واحد في حياة الثلاثة لم يلتقوا فيه . أبو رزق مدير قديم في سنترال العباسية ، وحين افتتحت تى إى داتا ، هذا الذراع المعلوماتى للشركة المصرية للاتصالات ، توسط لتعيين ابنه وصديقه فيها ، ونجح في ذلك . بعد أن توجهوا للاستثمار في شركة رمسيس ، سعى ثلاثتهم لتولى الورديات المسائية . نجح أسد وعارف ، لكن طلب رزق رفض ؛ لأن شغله يتضمن تسليم محتويات الخزينة للبنك ، خزينته هو وخزينة الوردية المسائية التي يتولاها آخر مستجد لا يستطيع القيام بما يقوم هو به ؛ لذلك كان أقلهم ظهورا في شركة السمسة ، يأتي مجرد إلقاء التحية وإلقاء نظرة عابرة على أسعار الأسهم ، وينصرف ذاهبا للبنك أو عائدا لشغله . على أية حال نجح رزق بعد فترة في إقناع رؤسائه بتولى الوردية المسائية مع قيامه بوظيفة التوريد للبنك كما هي ، فوافقوا . لكن هذا لم يصبح وضعاً مستقراً جدا أبدا ، إنما يخضع لرغبات المدير أو الزميل الآخر أو احتياجات الشغل نفسه .

هكذا في البداية حين كان رزق لا يحضر جلسة البورصة ، عهد لأسد بإدارة محفظته ، لما ارتأه من جرأة لهذا الأخير ومن نجاحات حققها . حين أصبح يأتي منتظما نسبيا ، انبهر بونس وبصوته العالى الواثق ، وبانصياع الكل وراءه . فوضع معظم أمواله في سهم الأقطان الذى -حسب ونس : ' طالما تجاوز السهم ١٩ جنيها و٦٣ قرشا ، فسيصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا ' . ما حدث أن لم يصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا ، إنما هبط إلى ١٣ جنيها ، وخسر رزق نحو ثلث أمواله في خبطة واحدة ، فكانت مأساة تقارن بمآسى صديقه عارف الأسرية . أخذ يشنع على ونس في كل مناسبة ، لكن أحدا لم يتعاطف معه ، فهو المسئول عن قراراته في الأول والأخير .

النتيجة أن عهد بمحفظته للاثنين سويا ، أسد وعارف ، ما يتفقان عليه يفعلانه ، بالذات وهو غائب . لكن بعد وقت قصير ، ومع ما أثبتته عارف من قراءات واطلاع كثيرين ، بالذات عبر الإنترنت ، أصبح هو قائد الثلاثة المعتمد . في الفترة الحالية عاد الأصدقاء الثلاثة لا يفترون من جديد . طوال جلسة البورصة ثم لمدة ساعة أخرى ، الفاصل بين انتهاء جلسة البورصة وبداية وردية الشركة المسائية ، يجتمع الثلاثة معا على المقهى . كان أسد يقول أحاسيسه ، ورزق يقول أفكاره وما يسمعه من أخبار من موظفى البنك ، لكن دوما كانت الكلمة النهائية لعارف . وبالطبع كانت كل القرارات التي اتخذها ونفذها لنفسه أو باسميهما خلال جلسة البورصة تثير الجدل ، من قبيل : ' أنت حمار ؟ ! ' ، ' حد يعمل كده برضه ؟ ! ' ، فكان رده الدائم : ' أنتما تدعيان العبقرية بأثر رجعى ، بعد أن علمتما إلى أين اتجهت الأسعار . القرارات على أرض الواقع تؤخذ تحت ضغوط حقيقية ، أقلها أن تخاطر بتخمين لأين سيتجه سعر السهم . وبعدين ، أنا بأعملها محبة ، وإللى موش عاجبه يتفضل يشغل محفظته بنفسه ! ' . وينقذه نظرة من أيهم للساعة تنبئ بأن موعد الذهاب للشركة قد حان . وفي اليوم التالى يعود الحال لما هو عليه . هو ينفذ ما يرى ، وهما لا يكفان عن التفرغ والانتقاد ، لكن دون أية خطوة جدية منهما لسحب القرار الاستثمارى منه .

ذات مرة قال أسد باندفاعه المعتاد ، سأبيع كل أسهمي وأشتري كيوبيد مثلك يا أستاذ وحيد ، لا يمكن أن يكون أى منا يفهم أفضل منك . لم يجاره وحيد ، والسبب الذى لا يصحح به أبدا أنه يستثمر فى كيوبيد لأسباب أيديولوجية وليست مالية فقط . قال لأسد يمكنك أن تشتري مرقس أو حديد عز أو السى آى بى أو أى بنك كبير أو المصرية للاتصالات أو كيوبيد أو شركات البترول أو الشرقية للدخان أو النجاجون الشرقيون ، وتربح ربحا مؤكدا . لكن هذه شركات لها وزنها وسمعتها ، وأسهمها واحدة حقها فى السعر . الأرباح الجدية لا تأتي من شراء مثل هذه الأسهم . واقتح عليك استثمار جزء من أموالك فى سهم لشركة طباعة مغمورة (هى معروفة للعموم ، لكن بالنسبة لمستثمرى البورصة لا تثير أدنى انتباه ، ونادرا ما يتم التداول عليها) ؛ ذلك لأنه يتوقع لها أن تبدأ فى تحقيق أرباح فى خلال ستة شهور ، وحيث إن الكل يعرف مدى جدية أصحابها ، كما يعرفهم هو بحكم تخصصه السابق . وقال موجزا الفكرة : ' الصبر هو كلمة السر (نبيل مصححا : ' كلمة المرور ') . اشتر رخيصة جدا ، واصبر ! ' .

ويومها سخر ونس من كل هذا التعويل على الصبر : ' صبر ، يصبر ، صبارص ! ' . لكن ضهرى تدخل مدافعا عن وحيد : ' مضبوط ! بت مغلوبا ولا تبت غالبا ، هذه هى قاعدتى الذهبية فى البورصة . دائما احتفظ بأسهم أقل من قيمتها الحقيقية ، وستربح ربحا ممتازا ' ، ' أنتم ناس قنوعين ' ، ' بالعكس إحنا إللى طماعين بجد ، بنص على المكاسب الكبيرة ، موش على شرشرة قرش وقرشين ، إنما فيه فرق بين الطمع وزوغان العين ' ، ' يا عم وحيد أنت حاسوب ، وعين الحاسوب فيها عود ! ' ، ' وماذا لو أصبحت كل الأسهم واحدة حقها فى السعر ، ظالمة موش مظلومة زى ما بتقول ، هل ستقولون ساعتها إن المضاربة غلط برضه ؟ أظن ما فيش قدامنا ساعتها غير اللعب على الشرشرة فى حركة الأسعار ' ، ' ممكن ، أو ممكن برضه تشتري الأخص فيها ' . ولكن يعود وحيد برأى أكثر صرامة : ' حينئذ من الأفضل أن تذهب بالنقود للبنك ، لأن السوق ساعتها ستكون على وشك الانهيار ' . ويتمهل الحاج قليلا قبل أن يعارض ونس من جديد وإن بلهجة خفيفة متواضعة هذه المرة : ' هو إيه العيب فى الصبر ؟ كثير من المشاكل الواحد منا بيتعب جدا علشان يجلبها ، ثم لما يلقاها تحلت فجأة يفرح ويتفاخر بأنه عمل شىء خارق ونجح ، بينما فى الغالب مجرد مرور الوقت هو إللى حلها . ده بالظبط زى إللى بيحصل للأسهم ، تفضل تحت تحت لكن فجأة لازم ترد لفوق ! ' .

هذه الأيام باتت المواجهة بين وحيد وونس بالغمز واللمز والغناء ، ولم تعد سافرة بالضرورة . بحكم التلاصق اليومي وانخراط وحيد فى نوع من الصداقة ليس معه وحده ، إنما مع الجميع ، وكما الجميع ، ولم يعد ذلك الدخيل الغريب ، حتى وإن لا زال على أفكاره الدخيلة الغربية . عرف كل منهما طريقة تفكير الآخر ، وصار عيبا ، أو على الأقل من غير المجدى ، الدخول فى مثل تلك المواجهات . اليوم يوشك الوضع على الاختلاف مرة أخرى . السبب أن اكتسب عارف بعض الشهرة فى القاعة منذ بدأ ينتقد قرارات وونس . بالذات انتقاد جريه وراء شراء السهم بعد أن يبدأ صعود السعر بالفعل : ' أنت تركب القطار بعد أن أخذ سرعته بالفعل ، فتعرض للإصابة . لماذا لا تأتي مبكرا وتركب براحتك وتنتظره إلى أن ينطلق حين يجين موعده ؟ ' ، ' أسهمكم دى قطارات لا مواعيد لها . بتتأخر بالشهور ' . فرد عارف بأن ضرب له المثل بأقوال لوارين بافيت أكبر مستثمر أميركى وثانى أغنى رجل فى العالم ، تطابق تقريبا نظرية وحيد فى الصبر . وفى يوم آخر بكتاب للوليد بن طلال قال فيه إنه يجوب الصحراء سيرا لليل كاملة قبل أن يتخذ قرارا استثماريا ، هذا بينما وونس يقرر البيع والشراء فى أقل من ثانية .

هذا التمرد الكبير كانت له نتيجة أكبر فى مكان آخر متوقع ، أن رد كثيرا من الاعتبار لووحيد من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن جعل القاعة ككل تشهد الانقسام على نفسها لأول مرة فى تاريخها . هذا الكاتب الاقتصادى الكبير والخبير ، يستحق فى الواقع من العملاء احتراما أكبر مما سمح له به صوت وونس العالى الأجنس طيلة الساعات الأربع للجلسات ، وقبلها وبعدها بنصفى ساعة آخرين . دفاع ضهرى عن وحيد لم يكن ذا وقع كبير على أهل القاعة ، فكلاهما فى نظرهم مستثمر طويل المدى ، وهم لا يريدون هذا . أيضا يعتبرانها من طبقة أخرى بحكم حجم ثرواتها . عارف شىء مختلف ؛ إنسان بسيط ، وفى نفس الوقت كان يسعى للربح مثلهم من خلال التداول طوال الوقت . وحين يقول شيئا يكون له بعض الصدى لديهم .

من البداية كان عارف هو الوحيد الذى اهتم بقائمة وحيد الموضوعة تحت الزجاج المستدير . كان يعتمد على مكررات الرجحية الموضح بالورقة ، واشترى لنفسه ولصاحبيه بعضا من أسهم شركات مغمورة تكاد تكون فى طور الولادة ، وقرر أن يتداول عليها . اليوم ها هو وحيد يقترح شيئا آخر ، شيئا أكثر إثارة : أن تستثمر فى شركة خاسرة ! وأن لا تتداول على السهم على وجه الإطلاق . فقط تتركه إلى أن يصل لثمنه الحقيقى ،

ولا تحاول البيع وإعادة الشراء طمعا في فروق سعر تافهة ، ذلك أن السعر قد ينفجر فجأة في أية لحظة ، ولو كنتم خارجا ساعتها فستضيع فرصة المكسب الجدى فيه التى سببها كونه مظلوما مهضوما .

طبعاً لم يكن يقصد بالخاسرة الشركات التى يعشقها ونس ، التى تضخمت أسعار أسهمها بفضل المضاربة ، إنما شركة جادة تمر بمحنة ما ، أو لا تزال فى طور التمويل الأولى للاستثمار ، فأصبح ثمن أسهمها بخساً ، لكن من المتوقع لها أن تجتاز تلك المحنة أو أن تدخل فى طور الربحية . أيد عارف بشدة اقتراح شركة الطباعة ، وقال لأسد لنتظر لسنة أو حتى سنتين . الأرباح الحالية لا تعبر عن قوة الشركة ولا عن مستقبلها . على غير المتوقع تضاعف سعر سهم الطباعة فى شهر واحد ، ربما لأن البعض فكروا أو قدروا الأمور بنفس طريقة وحيد . هنا صاح أسد : ' أنت لك عقل جبار يا أستاذ وحيد ! ' . وغنى ونس : ' جبار ! جبار ! جبار ! ' ، كسخرية ضمنية بالطبع . ويميل عارف على أذن وحيد هامساً بسر لم يقله حتى لصديقيه ربما حتى يواصل الاستمتاع بانبهارهما بتنبؤاته : ' سعادتك عارف أنى شغال فى شركة إنترنت ، من فترة وأنا بأستخدم جوجل ماب لمراقبة مخزونات الشركات وحركة النقل الخارجة والداخلة منها ، اكتشفت أنها طريقة للتنبؤ بنتائج الأعمال أسهل وأسرع من ضرب صحويية مع موظفى الأمن فى كل الشركات دى ! ' .

كل ذلك أدى لتشجع بعض العملاء -وبالذات العميلات- على التقرب لوحيد أكثر مما سبق ، قائلين إنهم سئموا من نصائح ونس التى لا تجلب إلا الخيبة . أغلب هؤلاء العميلات متقدمات فى السن ، والكثير منهن موظفات بنوك سابقات . وهذا ليس غريباً ، فموظفى البنوك هم الأقرب لشغل البورصة ، ولفهمه ، أو على الأقل إدعاء فهمه . كذلك كان لديهم دوماً فرصة السماع عن الطروحات الأولية ، والاشتراك فيها . بل كان يتاح لهم كثيراً شراء الأسهم بالتقسيط ، وهى صيغة للتمويل تتبعها أحياناً البنوك وصناديق العاملين فيها ، كنوع من الحوافز للموظفين من ناحية ، ولتمويل طروحات الشركات من ناحية أخرى ، بالذات لو كان البنك طرفاً على نحو أو آخر فى عملية الطرح . نبه ضهرى وحيد إلى أن العادة أن من يدير محفظة يحصل على الأقل على ٢٥ ٪ من ربحها ؛ هذه هى القاعدة هنا . ألم تلاحظ أن روميو يملئ كثيراً من الأوامر بأسماء أناس آخرين ؟ إنهم أقارب له أو صديقات سابقات ، عهدوا له بمحافظهم .

وحيد كان يعتذر فى الغالب ، والسبب الظاهر أن معظم محافظ أولئك السيدات صغيرة جداً ، بحيث لا تحتل تحركات كثيرة . والسبب الأعمق ، أنه لا يؤمن بالمضاربة ، ولم يمارسها هو شخصياً ، إلا بنسبة صغيرة من محفظته المجمدة ككل فى سهم كيوبيد . مارسها بهدف اكتساب المهارة ليس إلا ، وشجعه على هذا أن رأى ضهرى يشتري بعضاً من أسهم شركات المطاحن والإسمنت فى أوقات معينة من السنة . ويقول هذه شركات لا تتوسع كثيراً ، ومن ثم توزع على مساهميتها أرباحاً نقدية (كوبونات) جيدة ، وفى مواسم معينة أنت تحصل على ربح جيد من الاستثمار القصير فيها . ومارسها أيضاً حتى يفهم العقلية المحيطة به ، وطبعاً مارسها فى حدود الأسهم القوية ذات القيمة ، وليست أوراق المضاربة التافهة التى لا تساوى ثمن الخبر الذى كتبت به كما يصفها ، أو لعله أخيراً قد يتطوع ببعض النصيحة من حين لآخر حين تطلب منه فيما يخص اللحظات المناسبة للبيع والشراء . من هنا كانت نصيحة وحيد المعتادة لكل من يأتى له طالباً المشورة أو إدارة المحفظة ، أن يقسموا محافظهم ما بين النصف فى سهم كيوبيد باعتبارها أحد أكثر الشركات وعداً ، والنصف الآخر فى سهمين أو ثلاثة يختارونها بأنفسهم من قائمة قصيرة يقترحها عليهم ، أغلبها من الشركات الصناعية العريقة أو شركات التقنية الكبرى . ويعزز رأيه بالاستشهاد بعارف ، هو يتداول يومياً ، لكن على أسهم لن تخذلك أبداً ، ويهوى سعرها فى لحظات . أما لو أرادوا الاستثمار طويل المدى حقاً وينسون الأسهم حتى تأخذ حقها ، فقائمة الشركات المغمورة معروفة له جيداً .

تنبه إدوارد لهذا . قال لوحيد فيما بدا مزاحاً : ' أنت يا عم ها تعلمهم الاستثمار الطويل ، وإحنا بأه نفلس ونقفل الشركة ! ' .

كان يقصد أن دخل الشركة الوحيد هو عمولات البيع والشراء ، لكنه جزئياً كان يقصد أيضاً ألا تتحول قاعة المستثمرين لساحة حرب بين العملاء ؛ إذ كان يتوقع أن شخصاً مثل ونس قد يفتك بوحيد ، يسئ إليه بالكلام مثلاً ، فيخسر هو عميلاً مهماً . لكن بعد أن وجد بعض الالتفاف التدريجى من العملاء والعميلات حول وحيد ، وأن طابع المرح السائد على دوماً على القاعة أقوى من أن يعكره شئ ، بل وقد انسحب على وحيد نفسه أيضاً ، وبات الحوار بين ونس ووحيد على ما فيه من تناوب يأخذ طابع الود والهزار ، تبين له أن ثمة قوة مفيدة من وجود شخص مثل وحيد ، ويمثل ثقة العملاء فيه ، يومياً فى شركته .



– العلم يشبه الرؤية عبر الماء يظهر الأشياء دقيقة كما هي ، والدين يشبه الزيت يريك الأشياء ذهبية براقه ،

أما لو خلطت الاثنين فلن ترى شيئا على الإطلاق !

– إسقاط القداسة عن إله السماء هو الهدف الأسهل في معركة التنوير ، لكنه لا يكفي لتحقيق صفاء الرؤية الكامل .

الأهم إسقاط القداسة عن إله الأرض : الإنسان !

لا يبدو أن أحدا ممن يأتون للشركة يمارس الصلاة ، هذا رغم وفرة كلامهم ودعائهم أن يرزقهم ربنا بارتفاع أسعار الأسهم ، ورغم إمكان سماع بعض رنات الخليلوى ذات الطابع الديني ، مسلمة ومسيحية (بالذات في مواسم هبوط الأسهم) .

الحقيقة أن الحاج ضهرى يصلى مرتين يوميا ؛ صلاة الصبح عند الاستيقاظ ، وصلاة العشاء قبل النوم ، ويعتبرهما كافيتين للتواصل مع ربه ، يستمد منه القوة والرضا في الأولى ، يعترف بذنوبه ويدعو لمن يعرفهم في الثانية . هذا ما قاله لوحيد ، الذى لم يكن مرتاحا جدا لما فعله مع أسد ، معلقا بأن حياة كل الإرهائيين بدأت بأن دعاهم أحد يوما للصلاة . وكان رد الحاج على الملحوظة مسهبا جدا ، أفاض خلاله في توضيح أن الإسلام هو دين التسامح وأنه لا يعرف العنف . ثم استرسل في أنه شخصيا يعرف جيدا كيف يفصل بين العلم والدين ، وهو الأمر الذى تسبب -كما هو الحال طوال الوقت مؤخرا- في حوار وإن لم يستمر طويلا بينه وبين وحيد ، أو هكذا كل حواراتهما تبدأ عابرة سلسلة ثم سرعان ما تعود مسهبة حادة :

– العلم يشبه الرؤية عبر الماء يظهر الأشياء دقيقة كما هي ، والدين يشبه الزيت يريك الأشياء ذهبية براقه ، أما لو خلطت الاثنين فلن ترى

شيئا على الإطلاق !

– إسقاط القداسة عن إله السماء هو الهدف الأسهل في معركة التنوير ، لكنه لا يكفي لتحقيق صفاء الرؤية الكامل . الأهم إسقاط القداسة

عن إله الأرض : الإنسان !

الحقيقة أيضا أن أسد ليس فظا جدا أو مستهترا جدا ، كما يبدو للبعض ، سواء في رمسيس أو في المقهى . وجهه الآخر شديد الاختلاف . المفارقة أن وظيفته هي موظف خدمة عملاء في ' تى إى داتا ' . حين يجلس خلف المكتب أو حين يرد على الهاتف ، يبدو مهذبا للغاية مع عملاء الشركة ، نشطا لبقا خدوما وحلالا لأية مشكلة . كان هو الأكثر مبادرة بين صديقيه لاستجلاب العاهرات لثلاثتهم ، وكان يستخدم شقته التى وفرتها له أسرته الأفضل قليلا من توسط الحال . مع ذلك هو الوحيد الذى تزوج حتى اللحظة من بين صديقيه . أنجب طفلة أسماها سوزان . أصر أن تدخل مدرسة القلب المقدس ؛ يقول كى يحميها من التطرف . مع ذلك وجد أن قضية لماذا هناك فى الدنيا مسلمون وهناك مسيحيون تشغلها ، وإن تأكيدا بدرجة أقل كثيرا مما يجرى فى المدارس الأخرى ، بالذات المجانية . كان يقول لها : ' عمو عارف مسلم وعمو رزق مسيحي ، لكن شوفى أصحاب إزاي وما يستغنوش عن بعض أبدا ! ' . أيضا هو سعيد بأن تأتية ' سوزى ' تتحدث عن دروس السلوك التى تعطيها لهن ' السستر ' ، أى إحدى الراهبات . ابنتى تقول شكرا كلما قدم لها أحد خدمة ، بما فى ذلك أنا أو أمها . إنها ستكون شيئا مختلفا عن طبائعى السيئة .



طول عمرك ما ركعتها ،

وعاوز تفهمنا أنك يوم ما صليت ربنا كسر لك إيدك ؟

الحقيقة الأدق ، أن أسد يقوم أخلاقه بالتقسيط . الوظيفة علمته التهذب مع العملاء والعميلات . الجرى وراء العاهرات انتهى مع وقوعه فى حب زميلته وزواجه منها . يوم أضاءت قاعة السينما بينما سوزى لا تزال تضحك بهيستيرية ، وأمها حائرة ما بين تهدئتها وبين ممالكة نفسها هى الأخرى من الضحك ، فوجئت الاثنان بأسد لا يضحك إنما يمسخ دموعا غزيرة من عينيه . لقد تأثر بشدة بالمشهد الأخير من الفيلم ، المشهد الذى راح اللمبي يعلم فيه ابنه الحروف الإنجليزية . من ساعتها قرر أن يلحق سوزان بالقلب المقدس ، وأن لا مكان بعد اليوم لألفاظه الخارجة داخل جدران البيت . هكذا أصبح المتبقى فقط هو شركة السمسرة والمقهى ، كى ينفس فيهما عن جنى لسانه .

فى الصباح التالى لواقعة الصلاة جاء بيده اليسرى وقد لفت فى الجبس . راح يشرح للحاضرين كيف انزلق من على سلم بيته متكئا بجسمه الثقيل على يده . ثم اقترب من ضهرى محاولا إثارة شففته : ' شفت إالى حصل يا حاج ؟ ' . ثم بنبرة تمسكن واضحة : ' ها أصلى إزاي أنا

دلوقت ؟! ' . ' ينفجر ونس ضاحكا : ' أنت طول عمرك ما ركعتها ، وعاوز تفهمنا أنك يوم ما صليت ربنا كسر لك إيدك ؟ ' . يدافع عنه الحاج : ' عيب يا ونس الكلام ده ، لا يعلم القلوب إلا الله ' . ٩٩ . / من نظريات المؤامرة التي يتخيلها ونس هي أوهاام محضة . هذه المرة كان على حق . لقد اشترى أسد الجبس والشاش من الصيدلية وجبس نفسه بنفسه .

لم يعرف الحاج هذا الأمر قط ، وإن ربما خمنه ، لكنه في النهاية كان راضيا على حرص أسد على ضبط تصرفاته وألفاظه ، ولم يحدث أن دعاه ثانية للصلاة أبدا !



جاندى ومارتن لوثر ومانديلا لم يمسكوا شخصا سلاحا يوما ، لكنهم قطعوا أشبع وأشرس وأشره مصاصى دماء عرفتهم البشرية .

أسلحة الشعوب المتخلفة هي ' الإرهاب ' والإعلام وأضافوا مؤخرا الديمقراطية وحقوق الإنسان ،

مؤكدین للمرة الألف أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان كان أكبر جريمة ضد الإنسانية ارتكبت إطلاقا !

- أكيد شغلانة الصحافة خلتك تلف العالم ؟

- (يضحك بشدة :) مين ؟ أنا ؟ أنا الصحفيين بتوعى لما كنت أروح لهم قاعة التحرير ، يصمموا كلهم ' احلف يا أستاذ ، قول وحياء غربتي ! ' .

- آه ! أنت بتاع قراءة ، موش لف ؛ فكر ، موش صحافة !

- تقدر تقول كده ! سفرياتى موش كثير . الصحافة بالنسبة لى نافذة . تقدر تقول إني بأرمى إالى فى مخي وأمشى .

- تعرف أن المصرى طول عمره لم يعرف الحركة فى البعدين الأول والثانى ، مزروع فى الأرض زيه زى النبات بالظبط ، عرف مباشرة البعد الثالث ، الزرع وهو ينمو للأعلى ، الهرم ، المسلة ، التطلع للسماء ، وعرف البعد الرابع ، الخلود فى الأورايون ، أما الحركة الأفقية فدى شغلانة البدو .

- (ونس مقهقهها :) عندنا فى الهندسة بنسبها ٢ degrees of freedom من ٤ ، ها ها ها ها . (ثم يغنى :) عواد باع أرضه !

- عندنا فى الهندسة ؟ أنت آخرك تقعد مع بواب الكلية ، وتعزمه على سيجارة ، وجايز كمان يكون هو إالى كان بيعزمك .

- تعبير عجيب ؟ بأرمى إالى فى مخي وأمشى ؟ إيه الناس كلاب بترمى لهم حطة لحمة من بعيد علشان موش عاوز تحتك بهم ؟ تكتب تقول مثلا الاقتصاد الحر هو الحل ، لكن أن يطبق أو لا يطبق شىء لا يخصك . موش جايز ده سبب مشكلتك ، ما فيش قضية ؟

- كل ده وما فيش قضية ، أنا آرائى بتصدم طوب الأرض زى ما بيقولوا !

- قصدى ما فيش كفاح ، ما فيش لذة الكفاح ، موش حاسس أنك طرف فى معركة ، لا يهملك أن تكسب أو تخسر ، بل تقريبا مفترض أنك خاسر لا محالة .

- موش ها أعترض . طول عمرى بأعتبر كفاح الإنسان الحقيقى مع نفسه . أنا بأكافح فى القراءة والبحث والتفكير ، وأحاول كتابة معلومات وآراء أفضل ما أستطيع . ما بعد ذلك ليس مهمتى .

- تصدق لو قلت لك أنى لفيت العالم ؟

- أصدق ، ما أصدقش ليه ؟ على الأقل العراق وتركيا إالى ما بتبطلش الكلام عنها أنت وونس ؟

- كل حطة . الحكاية بدأت معى وإحنا لسه طلبة . كانت موضه ، شوطه وماشيه فى الشباب . فى الصيف نجمع العنب فى إسبانيا ، الورد فى هولندا ، نغسل صحون فى النمسا ، برضه ما يضرش ، طالما أبأؤنا ماسكين فى الأرض وموش غاويين سياحة . بس عاوز أقول لك حاجة . تقدر تقول أنى ما وقعتش فى الغلط مع ستات أبدا . مرة أو اتنين طيش شباب ، وبالذات من ساعة ما تجوزت إجلال ، ما كررتهاش تانى ولا حتى فكرت فيها .

- عظيم !

- تعرف أنى عندى مزرعة مانجو ، نوع اسمه كيببت . رحبت جبت الزريعة بنفسى من جنوب أفريقيا ، طبعاً أيام قبل ما يستولى مانديلا وعصابتة ونسوانه عليها وينهبوها وتبقى خرابة . نفس وضع روديسيا بعد ما سرقها مجرم رسمى تانى اسمه موجابى وسماها زيمباوى . برضه زرتها قبل وبعد إالى حصل ، وشفنت التقدم وشفنت الكوارث .

- إيه ؟ ' كافحت ' ضدهم ؟

- (ضاحكا :) أيوه ! كافحت أنى كنت أول من زرع الكيببت فى مصر . الكيببت دى شجرة قصيرة جدا ، زراعتها صعبة ومحتاجه عناية دقيقة . الشجرة أو الشجيرة من دول تنتج فقط ٣٠-٤٠ حبة ، لكن الواحدة تزن كيلو كاملاً ، وسعر الكيلو خمسون جنيهاً ومخصص فقط للتصدير أو للفنادق ٥ نجوم . البشائر فى سبتمبر وذرورة الموسم فى نوفمبر ، لما تخلص كل المنجى م السوق تطلع هى . على فكرة إحناء كرماء يجد . إالى يزرعوا مانجو من النوع ده ، ما يقبلوش أبداً هدايا من أصحاب المزارع الأخرى ، علشان ما يضطروش يردوا الهدية بالمانجو الغالية . أنا أرد الهدايا . صحيح موش بنرد القفص بقفص ؛ لأن الكل عارف إن الكيببت إنتاجه قليل ، لكن مبدأ التبادل موجود ، ولازم نرد قيمة الهدية مضاعفة مرتين وثلاثة .

- أنا ملاحظ فعلاً أن أحياناً بعض العملاء يستلفوا منك علشان يسددوا أى زيادة فى مشتريات الأسهم ؟

ونس كان متابعا للتحديث وتدخل فى اللحظة المناسبة : ' يا ريت بس ينوبنا م الكرم جانب ؟ ' .

- قلت لك ده موش موسم الكيببت يا حلنجى أنت . وزى ما قلت أنا ناوى فعلاً أعزمكم كلكم عندى فى المزرعة على أول الموسم فى سبتمبر .

شعر وحيد أنه لو علق على ما جرى لجنوب أفريقيا سيكرر كلاماً عن تعريف أرسطو للديموقراطية بأنها حكم الختالة ، أو لو علق على ملحوظة الزعماء المزواجين بتعريف أرسطو للقائد كمتكشف بالضرورة ، أو عن تعريفه لمعنى القيادة الحق ، لربما ذكر شيئاً غير لائق . من هنا راح يقلب فى تاريخ عمره الذى غادره المرح من سنوات ، عن طريقة تؤيد بظل خفيف ما سمع ، لكن الأمر لم يكن سهلاً ؛ لذلك راح يتحدث فى موضوع آخر لم بيد أن كانت له مناسبة : الإرهاب !

قال : ' تعريف الإرهاب هو زى القاتل وليس زى القاتل . لا يهم أن يكون الضحية يرتدى ملابس مدنية ، المهم أن يكون القاتل يرتدى ملابس رثة . لا أحد قرأ اتفاقية جينيف التى يقولون فى إعلاننا إنها تشرع مقاومة الاحتلال . إن بها شروطاً تجرم كل ما فعل فى التاريخ باسم مقاومة الاحتلال . شروطاً فى الزى وفى طريقة حمل السلاح ، وفى عدم الإنطلاق من مناطق مدنية ، وطبعاً عدم الهجوم على أهداف مدنية . حتى المقاومة الفرنسية ضد النازى الشهيرة جدا ، لم تلتزم بها يوماً ، فما بالك بالفلسطينيين وحزب الله والعراقيين والإيرانيين ، الذين يستعدون لكل حرب بمخطف أفراد من الطرف الأخر ، كأى هجم رخيص ، أو بالتهديد بصواريخ القاهر والظافر ، أى لا يريدون قتالاً إنما فدية . علشان كده أنا لا أسمى هؤلاء إرهابيين . بالعكس المفروض أن أميركا (الحضارة) هى التى ' ترهب ' من يعاندها . هذا واجبها وتلك وظيفتها ، أمن العالم وحماية اقتصاده البالغ تقريباً أربعين تريليوناً سنوياً . أما أولئك قاطعو الطريق باسم الاستقلال ، أو عامة باسم إلغاء فوارق طبيعية بين البشر لا يمكن أبد الدهر أن تلغى ، فلا يستحقون أصلاً وصف إرهابى . هؤلاء ببساطة بلطجية صغار ، عصابات ، هباشة لعرق البنائين الحضاريين والمتحضرين ! جاندى ومارتن لوثر ومانديلا لم يمسكوا شخصياً سلاحاً يوماً ، لكنهم قطعاً أبشع وأشرس وأشره مصاصى دماء عرفتهم البشرية . إن أسلحة الشعوب المتخلفة هى ' الإرهاب ' والإعلام وأضافوا مؤخرًا الديمقراطية وحقوق الإنسان ، مؤكدين للمرة الألف أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان كان أكبر جريمة ضد الإنسانية ارتكبت إطلاقاً ! ، كلها بعد أن بدأ الغرب يراجع نفسه فيها وفى ملائكتيتها الزائدة ، وفى أنها هبطت بمتوسط معايير الحياة الإنسانية يوم وضعت - باسم المساواة - الكلمة العليا والسلطة السياسية والإعلامية وكل السلطات فى يد وضعاء البشر وفى يد أخط الطبقات والشعوب . نفس الأسلحة التى نستخدمها ضد بعضنا البعض ، هى التى نستخدمها ضد الغرب . إنها أسلحتنا التى ليس لدينا سواها . مع ذلك نحن بارعون حقاً فيها . المفارقة أن الغرب لا يريد الاعتراف لنا بهذا ، ويصمم على النظر لنا كمتخلفين غلبة يستحقون شفقتهم . الأمر لم يبدأ بصوت العرب أو بقناة الجزيرة . منذ لفقنا قصة مذبحه دير ياسين ونحن أساتذة فى الإعلام والبروباغاندا . منذ تعلمنا الانتخابات ، والإخوان فى الصدارة . هل سألت نفسك من هم أشد المتشدقين بالديموقراطية عندنا اليوم ؟ إنهم الشبوعيون والناصريون

والإسلاميون ، الذين يعلم كلنا أنهم ديكتاتوريون حتى النخاع ، ونعلم ماذا سيفعلون بمعارضيههم بمجرد توليهم السلطة . هل سألت نفسك من هم أشد الناس تمسكا بحقوق الإنسان اليوم : إنهم نفس هؤلاء الذين لا يعترفون بحقوق أحد ! ' .

التجاوب الوحيد جاء من ونس ، وجاء تهكميا : ' لا جديد في كل هذا . بل العرب هم مخترعو البرويجاندا . منذ سوق عكاظ وأنت تلقي قصيدة في خصمك ثم تقتله ، دق الأعناق وجز الأوصال ثقافة وتفخيخ الذات بالأحزمة الناسفة أسلوب حياة ، السعى للموت أشرف الأشياء وعشق الحياة عار ، أما الموت كهلا في الفراش فهو مهانة عظمية . ما الجديد في دير ياسين ؟ التنكر في زي امرأة منقبة وقتل اليهود بينما هم يحاولون إخلاء النساء والأطفال ، ثم إقامة الدنيا ضدهم ، أمور لا جديد فيها . شطارة وعبقرية وذكاء . لا جديد في التشدد بحقوق الإنسان حين تكون ضعيفا ، ثم قتل الجميع يوم تصبح قويا . اليوم ارتداء النقاب أصبح أهم مطلب حقوق الإنسان ، ولم يفكر أحد أن يسأل أحد هذه المنقبة ، كيف ترى هي حقوق ' المتبرجات الفاجرات ' ، أو حقوق أهل الذمة ، أو حقوق المرتد عن الدين . هل هذه التي تريد أن يدافع المجتمع عن حرمتها فيما تلبس ، ستدافع عن حرية زميلتها في الشغل أو المدرسة أو الشارع أو الباص ، لو جلست أو مشيت لجوارها بالبيكيني أو بدون ملابس ؟ يا عم وحيد ، عن أي جينيف تتحدث ؟ الشريعة الإسلامية لا تعرف جينيف ! حين يمسك السود الحكم في أي مكان سيظهرون أبشع عنصرية في التاريخ ، وحين يمسك الإسلاميون الحكم سيظهرون أكبر تعصب في التاريخ ، أما اليوم فهؤلاء وأولئك يملأون الدنيا ضحيجا عن حقوق الإنسان . أريد أي أحد يفهمني ما هو العيب في الفصل العرقي في باصات وكنائس أميركا أو في معسكرات هنودها ، أو في كانتونات جنوب أفريقيا ، أو في أسوار إسرائيل ، أو في أي مكان ؟ أليس من حق أي أحد أن يعلق عليه باب بيته ؟ ألم يقرأ أحد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يقول إن من حق الإنسان أن يحمي نفسه من الرائحة النتنة لجاره ؟ ثم ألا يلحظ هؤلاء حين يتشدقون هم أنفسهم في ذات الوقت بالسلام العالمي ، أن الفصل العرقي هو أنجع وسيلة لإطلاقا لتحقيق السلام بين الشعوب والأعراق ؟ ألسنت أنت القائل يوما إن مآل العينات المتبقية من البشر يوما هو الحميات الطبيعية ، يعني الفصل العرقي هو مآلنا جميعا ؟ ' .

لم يلحظ وحيد أن كلاما كهذا قد يتعارض مع دفاع ونس المعتاد عن العرب فيما يخص البيزنس والاستثمار ، أو مع هجومه السابق عليه بخصوص العرقية ؛ ربما فقط لمح عقله الباطن أن ثمة شيئا غير عادى في كلام ونس ، لكن من كثرة ما اعتاد على الكلام غير المنطقي أو غير المترابط في هذه البيئة الرمسية العجيبة ، لم يتوقف طويلا عند الأمر ، وشرذ من ثم في شيء آخر : ' أفترض أني خاسر لا محالة ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



حاولت وحياتك يا سيدنا الشيخ ، لكن ردهم دائما أن المرأة موش جوهرة ، المرأة إنسان !

... إنما أنت عارف مين سر البلاء بجد في البلد دي ؟ ... النصارى !

أقول لهم ليه ترسموا العذراء مريم بحجاب وأنتم موش بتلبسوه ، تصور يردوا يقولوا إيه ؟

العذراء دي المدام بتاعة ربنا ولازم تلبس حجاب ، إنما العاهرات إللى في الشوارع يلبسوه بمناسبة إيه ؟

تصور بيقولوا على سيداتنا الفاضلات ذوات الحجاب عاهرات يا شيخ حجاب ؟ !

القادم الجديد اليوم كان وجها يلفت كل الأنظار . وكيف لا ، وهي المرة الأولى التي يظهر فيها أحد يمثل هذا الجلباب الأبيض القصير واللحية الكثة في وسط شركة رمسيس . ونس عرفه على الفور . جاء حجاب راغبا فتح حساب باسم زوجته . ميرفت تحاشته أصلا ، على الأقل خوفا من التعليق على شعرها المكشوف . فشلت كل محاولات سامر لإقناعه باستحالة طلبه . وقال له : ' لما الأستاذ إدوارد يفضى ، تدخل له ' .

- إدوارد ؟ إيه الاسم ده ؟

دارت الهمسات خلال فترة الجدل هذه . اسمه الشيخ حجاب ، كان عندنا في المطرية ، الحكومة قبضت عليه ، ولما أفرجت عنه عينته هنا في روكسى . احسبها أنت بأه ، إيه إللى تم بينهم . ثم احسبها كمان منين الفلوس إللى جايها معاها ، أتاوة بيع الكتب والشرايط على باب المسجد ، ولا نفحة من الحكومة ، صفقة مع المباحث ؟ هكذا رسم ونس ملامح المؤامرة . ضهرى يرد على ونس بأن الأمر لا يعدو البيروقراطية المعتادة لوزارة الشؤون الروحية : ' ما عندهم معتدل ولا متطرف ، كلهم موظفين بيتخانقوا على الدرجات ، وعلى الأماكن الطرية . والتطرف هو الحل ، لأنه يبعدك عن الأماكن الشعبية ويجدك في الحمت النضيفة ' . لكن سوسن تصحح قائلة : ' أصل أنت موش من هنا يا حاج ؛ كل

يوم الجمعة ، المطرية كلها هنا ! ' ، وتؤمن على كلامها عميلة عجوز : ' طول عمرنا ما شفنا الحاجات دى فى مصر الجديدة ! ' . ويعود ونس متصنعا الخبرة بالشأن الجهادى : ' لا فرق بين نقود الجهاد (= الحراية الشرعية) ونقود المجاهدين ، وغالبا الإخوان عارفين أنه بيستثمرها باسمه ! ' .

لا يتوانى الشيخ حجاب ولو للحظة عن ممارسة الدعوة لله بإخلاص وتفانى . حين أوعز روميو لسوسن بالقيام والذهاب لحجرة إدوارد ، جاء حجاب على الفور ليجلس بجوار ضهرى . سألمهم : ' هل أدبتم الصلاة . ممكن أصلى تانى معاكم ' . لا يجد ردا ، فيفهم أنهم غير معنيين بالشأن . يتوجه إلى ضهرى ، أو بالأحرى للحيته : ' أنت يا حاج ، واللحية دى مزينة وجهك نورا على نور ، عليك على الأقل أن تقودهم للصلاة كل يوم ، إن ما كانوا عاوزين ينزلوا الجامع ، والله يغفر كل الذنوب ، ثم إن الصلاة فرض من الله عز وجل . ولا خير فى رزق يغنى عن ذكر الله ، والله عز وجل يقول وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' . فرد عليه ضهرى : ' بص يا سيدنا ، أنا شخصيا العلاقة بينى وبين ربنا مية مية ، كل يوم أنا بأكلمه وهو بيكلمنى ، وما أفنكرش إني محتاج أى حد يتدخل بيننا ؛ أما عن الناس إالى أنت شايفهم هنا دول ، فكلهم ناس تمام ، خيرون وأفاضل وإخوة ، وما فيش بينهم وبين بعض غير المعروف ، أما ما فى الصدور فيعلمه الله ، ولا شأن لنا به . أحيانا ييجى لهم مزاج يصلوا وأحيانا بيشتغلهم الشغل ، لكن طول عمر ما حد قال للتانى أنتى ما بتصليش ليه أو أنت بتصلى ليه ' .

- خليفهم يصلوا علشان ربنا يبارك فى الأسهم .

ضحك الحاج بينه وبين نفسه ، فقد تذكر رنات الخليوى الدينية ، أو أن البعض ينزلون فعلا للصلاة حين تعانى أسعار الأسهم من هبوط حاد . لكنه اكتفى بالقول : ' ربنا يصلح الحال يا شيخ ! ' .

ظهر إدوارد فى وسط القاعة وبادر حجاب الذى نهض ذاهبا إليه ، بالكلام بلهجة حادة ، وتقريبا بدون إلقاء التحية : ' ما ينفعش يا سيدنا الشيخ . لازم زوجة حضرتك تيجى بنفسها ، أو تعمل لك توكيل فى الشهر العقارى ' .

- زوجتى منقبة ولا تغادر البيت أبدا .

رمق إدوارد بطرف عينه ونس وروميو يتهاامسان ، وندا على جانب فمه شبح بسمه باهتة : ' منقبة ! جايز واخدة بشلة فى وشها ! ' . ويرد روميو : ' أنت ليه كده يا مؤامرة على طول سبى الظن . موش جايز تكون مزة تفك من ع المشنقة ! ' . وينهرها ضهرى : ' هذه اسمها غيبة ، اتلموا شوية ! ' . ويستمر ونس : ' عارف عود المسواك إالى فى جيبه ده بيبيعه بكام ؟ بعشرة جنييه . أنا مستعد أورد له بخمسين قرش ' .

- ولماذا الحساب باسمها إذا كانت لا تغادر البيت ؟

- غريب منك هذا السؤال يا أستاذ . (يهمس ونس لروميو بنظرية مؤامرة أخرى : ' أراهن إن ما كان متجاوز أربعة ، وفتح حساب بكام مليون لكل واحدة ، ويلاعب بالأسعار بالبيع والشرا من حساب للتانى !) .

- ما فيش حل إلا توكيل فى الشهر العقارى . هم ها يتصرفوا ، يخلوا واحدة ست توثق لها ، أو يشوفوا طريقتهم إيه . إنما إحنا بالنسبة لنا ، لازم الشخص نفسه أو توكيل رسمى عنه .

على حين غرة ، وفى خطوة غير متوقعة على وجه الإطلاق ، ينادى روميو على الشيخ حجاب ، ويقول له بجدوء لكن على مسمع من الجميع ، ممن راحوا يتضحكون ويحاولون كتم ضحكاتهم مما قيل : ' أقعد هنا يا سيدنا الشيخ ، زى ما كنت قاعد . ده اسمه المقعد الخامس ، أهم كرسى فى الصالة كلها ، وما يقعدش عليه إلا الناس البركة إالى زيك ! ' .

إذن لم يكن إيعازه لسوسن بالنهوض لتحاشى جدال لا لزوم له حول ساقبها العاريتين أو شعر عانتها ، أو هكذا فهم الجميع ، إنما لشيء آخر حسب حسابه أو بالأحرى انتواه : ' السلام عليكم ! السلام عليكم ! ' (قالها حجاب يمينا ويسارا) .

- (مشيرا لوحيد :) لا يا سيدنا الشيخ ، ده موش تبع السلام عليكم . ده تبع السلام على من اتبع الهدى . لا سلام مع الكفار أمثاله .

- هو نصرانى ؟

- حاجة زى كده ؛ تقدر تقول عليه من بتوع القوانين الوضعية ، والعياذ بالله . الأدهى وأضل سبيلا أنه ما بيشتغلش غير فى سهم اسمه كيوبيد ، وكيوبيد ده من آلهة المشركين .

- استغفر الله ! شرك ؟ !
- أيوه شرك ! إحنا موش عندنا ' إنما المشركون نجس ' ، صح ؟
- بالطبع !
- أخونا ده موش نجس وبس ، إنما النجس نفسه ، نجس مصفى ، أو بلغتهم الكافرة pure nagas !
- أعوذ بالله ! بس يا أخى لا تقل ' أخونا ' ، هذا محرم شرعا . فى السعودية لا يجوز أن تقول للممرضة الكافرة سيستر .
- المهم ، سبينا منه ! أنا أريد استفتاءك فى شىء مهم يا سيدنا الشيخ .
- تفضل يا أخى .
- هى القياجرا حلال ولا حرام ؟
- حلال بالتأكيد .
- أتستخدمها أنت ؟
- لو احتجتها استخدمتها .
- إجابة دبلوماسية ! (ثم يستدرك بصوت عال فجائى :) بس إالى اخترعوا القياجرا كفار ؟ !
- سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .
- لكن هذا دعاء الركوب يا مولانا ؟ !
- وفيه نحن نتحدث الآن ؟ !
- آه ! لقد فاتنى هذه ! يعنى ربنا سخر شركة فايزر ، أكبر شركة صيدلة فى العالم ، علشان تعمل القياجرا علشاننا إحنا المسلمين ؟
- الله سخر الكون كله لعباده المخلصين .
- يعنى ربنا سخر أينستين علشان يخترع القنبلة النووية علشاننا إحنا ، موش علشان اليهود ولا الأمريكان ؟
- بالتأكيد .
- وعلشان نقلهم بما ؟
- يا أخى ، الإيمان هو الفيصل . عقيدة التوحيد تفتح للمؤمن أبواب السماوات والأرض وتنصره على أعداء الإسلام بإذنه تعالى .
- بارك الله فيك يا سيدنا الشيخ . لقد أرحت قلبى . (ويصبح متهللا زافا البشرى للجميع :) القياجرا حلال يا جماعة ! (ويواصل :) طب ما رأيك فى قياجرا الستات إالى طلعت اليومين دول ؟
- أعوذ بالله ! قياجرا للنساء ؟ بالتأكيد دى أحد أسلحة أعداء الإسلام لإفساد أخلاقنا وإضعاف شعوبنا وإغراقنا فى الرذيلة مثلهم !
- الله يفتح عليك يا سيدنا . إحنا قادرين عليهم من غير قياجرا ، لما ها نقدر وهم واخدين قياجرا ؟ ! (وينفجر من فى القاعة ضاحكين) .
- بس على فكرة ، هى لها اسم تانى : نياجرا ، موش قياجرا ، ولا قياجرا زى ما بتقول .
- لااااا ! دى اسمها فجور !
- (ضاحكا :) حلوة !
- يا ريت يا أخى تبدأ تنصح الستات هنا يلتزموا بالحجاب الشرعى ، ما أراه فيهن ليس إلا نصف كاسيات عاريات والنصف الآخر عاريات عاريات ، والعياذ بالله من غضب الله . أنصحك أن تخبرهن أن المرأة جوهرة مصونة ، در مكنون . يا بنى [بضم الباء] ، إن لهذه الكلمة مفعول السحر !

- حاولت وحياتك يا سيدنا الشيخ ، لكن ردهم دائما أن المرأة موش جوهرة ، المرأة إنسان ! ... إنما أنت عارف مين سر البلاء مجد في البلد دى ؟ ... النصارى ! أقول لهم ليه ترسموا العذراء مريم بحجاب وأنتم موش بتلبسوه ، تصور يردوا يقولوا إيه ؟ العذراء دى المدام بتاعة ربنا ولازم تلبس حجاب ، إنما العاهرات إल्ली في الشوارع يلبسوه بمناسبة إيه ؟ تصور يقولوا على سيداتنا الفاضلات ذوات الحجاب عاهرات يا شيخ حجاب ؟ ! بدمتك شفت كفر وضلال أكثر من كده ؟ ! ... والأدهى بعد كده ياخدوني تريقة : مريم لو ربنا قال لها افتحي رجلكي علشان أنفخ في فرجك كانت لطشنته بالقلم ، والكلام ده إल्ली أنت عارفة ، وكمان يبسألوا هل الهوا هو إल्ली حرك شهوتها ولا ربنا نفخ بالذكر بتاعه . أنت أكيد عارف الستات وكيدهن . تخيل يقولوا لى كلمة الفتوحات الإسلامية موش معناها سيف وقتل إنما كلمة جنسية أبيحة ، وأن الأربعة آلاف إल्ली جم لمصر بقوا ٨٤ ألفا بعد ٩ شهور من مجرد ٤ زوجات و ٦ ملكات يمين ، والغالب فتحوا أكثر والذرية كانت مليون وزيادة ؟ أو تخيل يقولوا عندكم ' التين والزيتون ' لأن شريعتكم مقلوبة بتاكلوا الحلو في الأول والمخلل في الآخر ؟ يا شيخى ، كل تفكيرهم -والعياذ بالله- إما في الجنس أو في الطبيخ ، وفعلا صدق قره عيني رسول الله حين قال ناقصات عقل ودين ، فما بالك بالنصرانيات ؟ !

- كان يجب أن تتوقع منهم هذا يا أخى . إن ما بعد الكفر ذنب ! (ثم يهمس في أذنه :) هل تعتقد أن عدد العرب في مصر كبير جدا هكذا ؟ ! ليس سهلا يا أخى أن تجد أربع زوجات وست ملكات يمين . للأسف الملاعين والملعونات كثيرون وكثيرات في هذا البلد يا أخى ، ولطالما قاوموا نور دعوة الإسلام !



إذا كنا جربنا كل شيء ولم نجرب الإسلام ،

فماذا بحق الجحيم كنا نفعل طيلة ١٥٠٠ سنة ؟ !

- بص : أنا قلبي انفتح لك يا شيخ حجاب ، علشان كده أنا ها أديك نصيحة ستحل لك مشاكلك مع هذه الشركة وهؤلاء الناس الكفار والعياذ بالله (مشيرا للجالسين) .

- (بلهفة :) ماذا يا أخى ؟

- أحسن لك يا سيدنا الشيخ تنسى موضوع البورصة ده خالص .

- لماذا يا أخى ؟ هناك شركات ملتزمة بالشريعة .

- أنا معاك ! ، فيه أسهم مسلمة وأسهم نصرانية وأسهم كافرة وأسهم مشركة وأسهم مرتدة وأسهم عاصية وأسهم مغضوب عليها وأسهم ضالة وأسهم مكروهة وأسهم بما شبهة ؛ كل الأنواع موجودة ، بس عاوز أفهمك حاجة : كل الشركات دى إल्ली ع الشاشة حرام ! لو موش سياحة وموش بيرة وموش بنوك ، ها تلقاهم مستلفة من بنوك شغالة بالربا . ثم إن البورصة دى من أولها لآخرها قمار . بتختار السهم بختك يا بو بخت . حتى لو شرعى . هو قمار برضه . السعر يعلى يوطى ، النية جوانا كلنا قمار .

- ولماذا لا تسميه رزقا ؟

ويضحك الجميع مرة أخرى وهم ينظرون لرزق وأسد ، ويواصل روميو : ' لو ع الرزق صحيح ، أحسن لك تروح تحط فلوسك في بنك إسلامى ، وترضى بالرزق إल्ली ييجى لك . بس ادعى أنه ما يكونش هو نفسه واحد فلوس من حد شغال بالربا أو بيشر بيرة ' .

- الفتوى بتقول المضاربة حلال ، طالما الشركة حلال .

- لآ ، بس فيها شبهة يا سيدنا . دى زى الرهان على حصان السبق . أنت من مصر الجديدة ، موش كده ؟ عارف السبق إल्ली بعد الميريلاند ؟ أنت بتراهن على حصان وأنت وحظك . ما حدش قال الأحصنة حرام ، إنما السبق حرام . للأسف ، كان فيه اقتراح تتعمل بورصة للأسهم الإسلامية ، لكن حكومتنا الكافرة رفضته ، قال إيه ؟ ضد المواطنة ! يبقى البيت بيت أبونا والصليب يطردونا ؟ !

- يبدو عليك أنك أخ فاضل ؟ (قالها وهو يغلق أزرار قميص روميو ، بينما الكل يضحك مرة أخرى ، ويواصل :) أنا معجب بتمسكك الكبير هذا . على يد من تلقيت العلم ؟ كما تعلم كل تعليم الأزهر لا لزوم له ، وعليك التلمذ على يد شيخ حقيقى .

- أنا عارف يا سيدنا الشيخ . الأزهر قطاع عام (ق . ع .) ، وزى كل القطاع العام ينتج سلع فسدانة ومنتھية الصلاحية . المفروض يتخصص وتتباع أسهمه هنا في البورصة علشان ينصلح حاله .

- يا بنى ، لا غنى عن التلمذة ، هي الطريق الوحيد لطلب العلم . أنا عن نفسي بأدعو في كل فتاوى للتحوط للشبهات . لكن لماذا لا تفعل ذلك أنت ، أقصد لماذا لا تترك البورصة ؟

- أصل البورصة دى يحوش عننا جميعا ، إدمان ، مرض ، زى السجائر ، زى الخمر والهيروتين كده . ادعى لنا ربنا يتوب علينا جميعا .

- كالميسر والخمر ؟ إن كلها من الكبائر والعياذ بالله . ربنا يقوى إيمانك يا أخی (يضحكون مرة رابعة) ، الاحتياط للشبهات أضمن طريق للجنة . (ويرفع صوته بلهجة الخطيب :) لا تتقاعسوا عن التوبة يا إخوة الإيمان ، فعذاب القبر حق واقع ، ليس له من دون الله دافع . إذا كان هذه الأسهم ربا وميسر فلتتركوها ، ولتجهوا للبنوك الإسلامية . عليكم بالبنوك الإسلامية على الفور . لقد جربنا الرأسمالية ، جربنا القومية ، جربنا الاشتراكية ، جربنا كل شىء إلا الإسلام !

الصوت الذى ظل صامتا طوال الوقت ، لا يشارك بالكلام ولا حتى بالضحك ، صوت وحيد ، أتى عاليا ذا نبرة صارمة وبسرعة غير محسوبة ، وإن لا ترقى لمستوى الاحتداد الظاهر هذا الذى فعله مرة واحدة يوم سأله زهرى عن التعارض بين العلمانية والاقتصاد الحر . أتى بما أرغم خطوات ساقى حجاب المهول خارجا على التلثم بعضهما البعض للحظة : ' إذا كنا جربنا كل شىء ولم نجرب الإسلام ، فماذا بحق الجحيم كنا نفعل طيلة ١٥٠٠ سنة ؟ ! ' .

- العياذ بالله ! العياذ بالله ! العودة لله هي طريق الصلاح . هي سبيل نعمة الأمة . والنصر على الكفار . السلام عليكم !

... ويواصل الهرولة منصرفا ، دون أن يسمع بالكامل بقية عبارة وحيد التى حاول قولها بصوت أعلى حتى تصله : ' من قال إني من أنصار القوانين الوضعية ؟ بالعكس ، أنا أؤمن بالقانون الإلهى الوحيد فى هذا الكون -قانون أمانا الطبيعة ، قانون الدغل ، ولا أؤمن بالقوانين الوضعية التى هي الأديان ! ' .



لقد خلقنا الرب عرايا وعلما الأنبياء الخجل !

بالطبع توالت التعليقات على كلام روميو : ' عفارم يا روميو ! ' ، ' تخيل لو كان ده ها ييجى يعكنن علينا كل يوم ! ' ، ' الشيخ حجاب فى كرسى السيتى ستارز ؟ ' ، ' دى باين عليها آخر الأيام ! ' . وعن جرأة وحيد اتفقوا على قول أسد : ' بصراحة يا أستاذ ، الحق يقال ، إالى شجعك كلام الأستاذ رامى ! ' . وتحفظ عارف : ' الكلام فى الدين موش عاوز شجاعة كبيرة اليومين دول . ما تنسوش أن أولاد حارتنا من يوم ما انطبعت من ٣ سنين ، وهي مبوظة أمخاخ ناس كثير ! ' . ويدخل ونس كالعادة فى حوار جانبي مع روميو : ' على فكرة كلامك عن العذراء مريم غلط . أنت فاكِر ، ما كانت أمك بغيا ' و' أحصنت فرجها ' ، هي إهانة ضمنية لها ؟ بالعكس هو بيتكلم بجد ومنتھى الاحترام ، لأنه بما أن كل نسوان جزيرة البعر -بمن فيهم أمهات المؤمنين- كانوا عاهرات يتبادلونهن كالبهائم ، فمجرد فكرة وجود امرأة غير منكوحه هو قداسة تفوق الخيال فى نظرهم ! ' . ويرد روميو بممارسة لعبتهما المعتادة فى التهكم على الأسماء : ' تفتكر واحد اسمه حجاب متجوز واحدة منقبة ، يخلفوا إيه ؟ ' ، ' يخلفوا خمار ، ها ، ها ، ها ' ، ' لأ ، وأنت الصادق ، لو بنت تبقى خمارة [بفتح الخاء] ! ' ، ' ها ! ها ! ' . ويشبط زهرى من مزاجهم : ' أنتم ؟ آه منكم ! قليل عليكم تتجرجروا من عينيكم يوم القيامة ! ' . ثم يردف مازجا الجدية بالمزاح بالتوجس : ' لعلمكم حجاب ده موش سهل ، وموش قليل . ولو أفتى بجل دم واحد زى وحيد ، مجلس الأمن بتاعكم ها بيوظ للأبد ! ' . أما سوسن التى نادرا ما تحدث أحدا ، إلا روميو بصوت منخفض ، فقد قالت له ، إنما بصوت مسموع نسبيا للباقيين هذه المرة : ' عارف لو الراجل ده كلمنى حاجة على هدومى كنت ها أقول له إيه ؟ ها أقول له إالى قاله مايكل أنجلو ، عارفه يا روميو ؟ ' ، ' بتاع السقوف والتمائيل ؟ أيوه ، كان مقرر علينا فى كلية السياحة ! ' ، ' أيوه ! بتاع السقوف والتمائيل ! قال لقد خلقنا الرب عرايا وعلما الأنبياء الخجل ! ' ، ' لأ ، دى ما كانتش مقررة ! ' ، وهنا تتلقى عاصفة أخرى مستقلة من التشجيع من أسد وجوقته : ' أخيرا ميس سوسن نطقت ! ' ، ' أدى دين الفطرة وإلا بلاش ! ' ، ' تصدقى أنهم علمونا الخجل من غير نص واحد صريح لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ينهى عن العرى ! ' ، ' إمبارح سمعت واحد شيخ بيقول الإنسان لما كان متخلف كان عريان ولما اتقدم بقى بيبلس ، هل معنى كده أن ربنا كان متخلف ؟ ! ' ، ' خللى المشاوخ على جنب ، ما فيش حاجة واحدة فى

حياتنا إلا وعارضوها ؛ التصوير الفوتوجرافي ، الراديو ، السينما ، التليفزيون ، المواطنة ، حقوق الإنسان ، البحوث الجينية بتاعتك ، وبعد كده لما يلقوا ما فيش فائدة يوافقوا عليها ، وكمان كل مرة يطلعوها إعجاز علمي للقرآن . 'ويلق نبيل : ' عارفين بابا روما قال إيه لفرانسيس الأسيسى الراهب الفقير شبه العريان المطرود من الكنيسة ، وإللى كان البداية للفرنسيسكان وكل حركات خدمة المحتاجين ؟ ' ، ' إيه ؟ قال له : ' لقد خلقنا الرب عرايا وعلمنا الأنبياء الخجل ؟ ' ، ' تقريبا ! ركع وقبل قدميه الحافيتين المتسختين وقال له : ' فى خضم استحواذ الهاجس الأكبر المسمى الخطيئة الأصلية على عقولنا ، لعنا نسينا الشئ الآخر الأهم : البراءة الأصلية ! ' . ده كان فى القرن الـ ١١ . هل تعرفون أن الأسيسى جه مصر وبقي صديق للسلطان الـ ... ؟ ' ، وهنا يقاطعه وحيد بتعليق سخيف نسبيا : ' حقا : الشيطان لا يسكن إلا قلوب أولاد الرب ، ذلك أنهم هم الذين اخترعوه ! ' .

يهدأ الضحك ، ويتسلل للجميع الشعور بأن نصر روميو على حجاب ، ما هو إلا نصر أجوف ، وأن المناوشات والصدامات الحالية والتي تحذر بعض الأقلام أنها قد تتحول قريبا لحرب أهلية تحتاح مصر ، قد باتت طوبوها أقرب حتى لمصر الجديدة نفسها ، أقرب بكثير مما سبق لأبيهم وتخييل ، بل ربما يجد يوما كل منهم يرفع السلاح فى وجه صديقه هذا الجالس إلى جواره الآن . هنا فقط يتدخل وحيد بجديفة غاضبة كانت على ما يبدو تعتمل داخله طوال الوقت : ' نهضة إيه إللى بيتكلم عليها أحيانا ده ؟ ' جربنا كل شئ إلا الإسلام ؟ ' إناها نهرز ! لأ ، بصراحة جربنا كل شئ إلا حاجة واحدة : الديكتاتورية العسكرية اليمينية ! ' .

ويسأل أسد بلهجة التلاميذ : ' ودى تبقى إيه يا أستاذ ؟ ' .

- تبقى ديكتاتورية الحرية !

ويأخذ وحيد يشرح نظريته فى النهضة : ' كتعريف أقصد بالنهضة بلد متخلف يريد اللحاق بالعالم المتقدم . الحضارة هى ثورة تقنية ، ابتكار تقنيات الغد يعنى : روما - بريطانيا - أميركا ، وبس . ودى بطبيعة التقنية إللى بتخلقها بتنشأ وتتطور ببطء وبدون ديكتاتورية . التحضر أو ' النهضة ' هى اكتساب شعب متخلف لتقنيات اليوم . ودى سريعة تتم فى ١٠ سنين ، ٢٠ سنة ، لكن محتاجة للديكتاتورية العسكرية اليمينية إللى قلت عليها . هكذا فى القرن العشرين تقدمت تركيا أتاتورك ، وإيطاليا الدوتشى ، وإسبانيا فرانكو ، وبرتغال سالازار ، ويونان عسكر فيلم زد لو كنتم شفتوه ، باختصار كل الساحل الجنوبي لأوروبا تقريبا . وتقدمت كوريا (المغدور) بارك تشونج هوى ، ومن ثم كل نمور آسيا . والذروة الأعظم من الجميع بلا شك تشيلى بينوتشيت . لكن للأسف هكذا الكل تقريبا مغدور أو ملعون . بعد ما يعمل النهضة ، وبعد البطون ما تشيع ، والمؤخرات تتغلى ، يغتالوهم أو يتندوا يحاكموهم باسم حقوق الإنسان والديمقراطية . حتى ألمانيا بسمارك وياپان الميجى فى القرن التاسع عشر ، لو اعتبرناها نهضة بالمعنى إللى أنا قلته ، كانت برضه كده ، ديكتاتوريات عسكرية يمينية . بريطانيا وأميركا بس هم النموذجين الكبار إلى تطورا تطور تدريجى وطبيعى ، موش نهضة بمعنى نهضة ، قسرية وسريعة . وللأسف الشديد - سواء عجبنا هذا أو ما عجبناش - لم تحدث نهضة واحدة بأسلوب غير ذلك الأسلوب ، تطبيق التحديث والاقتصاد الحر بالقمع والبطش ورغم أنف الرافضين ' .

وانحالت الأسئلة : - طب وناپوليون ؟ - طب وستالين ؟ - طب وعبمعصور ؟ - طب والصين ؟ - طب وماليزيا ؟

وطال الحديث : ' ناپوليون نهضة لم تكتمل ، مسبوقه ومتبوعه باشتراكية متطرفة أو ما يسمونه هم بالجمهورية ، زائد كم من الحروب والتوسع غي وفوق طاقة بلد زى فرنسا . الاتحاد السوفييتى موش نهضة ، إنما نكبة . ديكتاتورية عسكرية لكن يسارية . عيش الناس فى فقر علشان يصنع أسلحة ويطلع الفضاء ، والنهاية اتهار لنفس السبب إلى اتولد بسببه سنة ١٩١٧ : الجوع . عبمعصوره شرحه ، عسكر يسارى سرق كل الناس وجوع كل الناس . الصين ، رغم أن اسمه الحزب الشيوعى ، ورغم أن أهدافه الحقيقية مشكوك فيها ، إلا أنه يطبق تلك الديكتاتورية النخبوية اليمينية التنافسية فى بقعة صغيرة من الصين معزولة عن كل ما عداها ، شريط صغير على الساحل . ماليزيا نفس الوضع ، صنع نهضتها الشمال ذوو الأصول الصينية ، وليس عرق المالاوى . والاثنان على أية حال ، الصين وماليزيا ، لا أثق أنهما تجارب نهضة أصيلة أو عميقة أو سوف تستمر ' .

- طب الهند موش ديكتاتورية ؟

- وموش نهضة ! لما نص الوقت يحكمها الاشتراكيون يبقى التطور إللى بيحصل فى النص التانى يعتبر بطيء ولا يمكن تسمى نهضة . ممكن مثال تانى ، تونس . بورقية فرض العلمانية والتحديث بالقوة ، ليست بالصرامة التى فى التجارب الشهيرة الكبيرة ، ربما الصرامة فى العلمانية ، لكن

ليس الصرامة في حرية الاقتصاد أو في أعمال القوة . دى أقرب تجربة لنا ، وأقرب شيء عربي لما يقول الكتاب ، ولا أقول أكثر من أنى أتمنى لها مواصلة الازدهار والنجاح .

وعارض ونس : ' السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة ' .

- بالظبط ! هذا ما أردت قوله ؛ انزع عن الحكومة سلطاتها وميزانياتها ، لن تجد أى فاسدين ! هؤلاء سينشئون حكومة تتخلى طوعا عن سلطتها على الاقتصاد وعلى الأفراد وعلى المجتمع ولن تتمتع سوى بميزانيات بسيطة ووجهات إنفاق محدودة محددة وواضحة . لا فرصة للفساد أصلا .

- وما الذى يضمن لنا ألا ينحرف هؤلاء ويفسدون ؟ لا تزال السلطات الأمنية بأيديهم ؟

- من لديه الرغبة في تحرير الاقتصاد ، لا يمكن بطبعه أن يكون فاسدا ؛ لأنه لو كان يفكر في الفساد لما وقف في صف الاقتصاد الحر أبدا . من الناحية الأخرى ، من نالوا حرياتهم من الأفراد والشركات ، لن يتخلوا عنها بسهولة ، وسيصبحون قوة هائلة تحكم مسيرة المجتمع . ثم إنه بمرور الوقت ستتدخل الآلات الذكية أكثر وأكثر في حياة الكوكب وفي صنع القرار وفي دوائر الحكم ، وهى مطلقة الموضوعية ولن تفسد مجال . الحرية لو وصلت لمستويات معينة ستحمى نفسها بنفسها . كن متأكدا من هذا يا مستر مؤامرة !

أما أخبت الأسئلة فيأتى من ضهرى ، من غيره ؟ : ' ويا مستر أرسطو ، فين المادية هنا ؟ إيه الفرق بينك وبين الشيوعية ، نجبة تفرض أيديولوجيتها على المجتمع فرضا ؟ ' .

- المهم إيه الأيديولوجية دى ؛ أيديولوجية مادية أم معادية للمادية ؟ والأيديولوجية المادية على فكرة لا يصح تسميتها أيديولوجية ؛ هى قانون طبيعي وليست فكرا أصلا ، ناهيك عن أن يفترض أنه سابق على المادة أو أفضل منها ، كما تقول كل الأفكار الأخرى عن نفسها . إنها لسان أمنا الطبيعة نفسها . شخصا حين أقول هذا يسعنى أن يصفنى أحد بأنى مفكر . هذه الكلمة تنطبق على آلاف الكتاب ، لكن النطق بلسان أمنا الطبيعة ليس فكرا كباقي الفكر ، بل للدقة - كما قلت - هو ليس فكرا أصلا ، إنما مادة . الفارق بين هذه تلك أن أمنا الطبيعة أشبه بجواد جامع ، إما أن تركيبه وتطلقان سويا لهدف مشترك ، وإما أن تركيبه ووجهك للخلف وتتوقع منه أن يطيعك ، باسم الاشتراكية أو الإنسانية أو أيا ما كان ، وهذا لم وما لن يحدث أبدا . أمنا الطبيعة قوية جدا ، بحيث لن تستطيع أن تثنيها عن وجهتها أبدا . الإنسان صنعة لها ، وليس إلهها أو سيدها . لا يجب أن ننسى أنها المادة التى صنعت أجسادنا منها ، وأنه بالتالى لا يمكننا التمرد عليها أبدا . كل ما تستطيع فعله هو أن تقترح عليها شيئا هنا أو هناك يسهل أو يسرع لها تحقيق أهدافها ، لكن تحاول أن تتحدى موجة البحر العارمة فسوف تقتلك حتما !

- يعنى أنت موافق على المذابح ؛ بينوتشيه قتل ٣٠ ألف فى مذبحه الستاد ؟

- كلهم كانوا ماركسيين ، ثم أن مذبحه واحدة تكفى !

كلام لم يقله وحيد لأحد منذ أضحي حطاما بشريا ، بل منذ كان يكتبه قبل ١٥ سنة . وكان استرجاعه له -ولو حتى لبسطاء شركة رمسيس- مصدر سعادة داخلية غامرة له ، وحتى ولو من قبيل : ' أنا بأرمى إالى فى مخى وأمشى ! ' . حين هموا بالانصراف مال ضهرى على وحيد قائلا : ' ١٤٠٠ ، ' ، ' ماذا ؟ ' ، ' ١٤٠٠ ، ' ، ' ليس ١٥٠٠ سنة ' ، ' أوه ، هل تقصد بالتقويم الشمسى ؟ ' ، ' بل أقصد أن أحدا لا يضمن أن يكمل الإسلام ١٥٠٠ سنة ! ' .



عثر أخيرا على الخبيثة الحقيقية الكبيرة

تملك ونس الفضول حول ما يمكن أن يحتويه الحاسوب الشخصى لرئيس التحرير السابق ' للاقتصاد اليوم ' . من أين يأتى بأسماء تلك الشركات العجيبة التى تريح ٥٠ % / خلال أسابيع قليلة ؟ إنه بالتأكيد يحوى ثروة عن أسرار الشركات وأخبارها . على الأقل تلك البيانات التى يصنع بها الجداول التى يلقي محاضراته علينا استنادا إليها . كان فى كل مرة يذهب فيها مثلا لدورة المياه ، ينتقل لفترة قصيرة جيئة وذهابا لمائدة وحيد ، ويطلب منه أن يحدّثه عن حاسوبه ، لكن وحيد لم يجد ما يقوله . راح يسأل السؤال تلو الآخر ، لعله يلقي إجابة مثيرة للاهتمام : ' هل تستخدمه فى الكتابة ؟ ' ، ' هل تستخدم برنامجا معيناً للتحليل الفنى ؟ ' . أخيرا لاحظ أن وحيد يترك الجهاز لدى تركه الشركة .

- فين الكمبيوتر ؟ هل تستغنى عنه بعد الظهر ؟

- لأ ، أنا بأتغدى في المطعم ، وأتمشى شوية ، وأنا مروح بأعدى آخده من نصر الله . هو بيبس في الشركة زى ما أنت عارف .

آه ! نصر الله ! أمسكت بك يا بطة أخيرا ! تصنع ونس أنه ينقل من شاشة المعلومات اللحظية أسعار الأسهم في ورقة ، ودام على هذا الحال إلى أن انصرف كل العملاء . نادى على نصر الله ، وقال له : ' عاوز أشوف شوية أرقام قديمة في كمبيوتر الأستاذ وحيد ' . حاول نصر الله المناقشة ، فقال له : ' ما تخافش ، لو فيه أى حاجة ابقى قول للأستاذ وحيد إن أنا قلت لك ' . ويدس في يده مائة جنيه : ' روح هات لنا غدا أنا وأنت ! ' .

فوجئ ونس بأن الجهاز يطلب كلمة مرور لدى فتحه . في الحقيقة لم يكن وحيد يقصد حماية معلومات بعينها ، بقدر ما هي عادة قديمة منذ أيام كان يحتوى حاسوبه أخطر المعلومات والمقابلات . طلب ونس ابنه على الهاتف في دمياط . شاب مهوس بالحواسيب . قال له : ' بسيطة ! قول لى إيه الطراز ، وما أجيب لك شريحة بايوس ، نشيل إالى جواه ، ونحط دى ، وبعدين نرجعها تانى ' .

- أنت اتجننت ؟ عاوز نفك ونلحم جوه الجهاز ؟

- فيه حل تانى : الفلاش ديسك ! صحيح ما عايش سهل زى زمان تفكه وتحطه في جهاز تانى وتقرأ كل حاجة ، بس في الحالة دى ها نحتاج

- لا حل تانى ولا ثالث . انسى ، انسى ، أنا ها أتصرف . على فكرة دى كانت خدمة لواحد صاحبي . خلاص ، خلاص ، هو ها يروح به للتوكيل .

لم يشأ ونس أن يورط ابنه في سلوك شبه إجرامى كهذا . بل لم يشأ أن يتورط هو أو يورط نصر الله أكثر من هذا . قرر أن يسلك الطريق الصعب . أن يجلس وقتا أكثر مع وحيد ، ويتفقد ملفات الجهاز بنفسه قطعة قطعة . لعدة أيام بدا الأمر محبطا . لم يجد بالحاسوب وصفة سحرية للتداول بالبورصة . فقط اعتناء شديد بحفظ المعلومات . لا يوجد أكثر من بيانات أسعار يومية ، يستنزها وحيد من على الإنترنت ، ثم يحولها بمعرفته ملف إكسيل ، فرخ مفرد كما يسمى ، ثم بعد ذلك يحول محتويات هذا الفرخ لما يناسب برنامج رويترز الشهير ' ميتاستوك ' الذى يحول هذه الأرقام لمنحنى ، وكذا يقدم عليه بعض التحليلات . كل شىء بالإنجليزية ؛ أسماء شركات دقيقة ورسمية ، ما فيش الأخطاء الموجودة في البيانات العادية ، تلقى مثلا أعلى سعر أقل من سعر الافتتاح ، أو أقل سعر أعلى منه . لوهلة تخيل ونس أنه يعرف كل شىء أفضل من وحيد . لماذا كل هذا المجهود من أجل تفاصيل غير مهمة ؟ إن مثل هذه الأرقام توجد جاهزة يضعها البعض يوما بيوم على الإنترنت . ثم إذا كان وحيد يمتلك هذه النسخة الأصلية باهظة الكلفة من الميتاستوك ، لماذا لا يشتري من خلالها في خدمة البيانات اللحظية من الرويترز ؟ إنهم سيقدمون له كل شىء بالإنجليزية كما يريد ، وأتحيل أنها ربما كانت دقيقة جدا . كل إالى أنا شايفه أنه عامل الحكاية شغل يد ، تحفة لو تحب تقول ، بس ما فيش حاجة مهمة .

الواقع أن وحيد لم يكن مهتما جدا بكل هذا ، ثم إن المجهود لم يكن ضخما كما بدا لونس . كان يستخدم برمجية داخلية في داخل برامج الأوفيس تسمى بالماكروهات ، صممها بنفسه ، تصحح تلقائيا كل الأسماء وكل الأخطاء ، وفي غضون خمس دقائق من تنزيل صفحة الأسعار اليومية ، يكون قد بدأ يتفرج على المنحنيات المحدثة . كان الأهم عنده من كل هذا ، أن يجمع مثلا بيانات الشركات نفسها لا بيانات أسهمها . وهذه كلها يجمعها في ملف واحد يبين تطور الأرباح ، زائد سجل للأحداث المهمة في تاريخها . وفي الواقع كان يحتاج الأسعار اليومية أساسا من أجل أن يحدد القيمة السوقية للشركات ، ويحدد مدى غلو أو رخص الأسهم بالنسبة للأرباح التي تحققها الشركة . وليس من أجل التحليل التقاني ، الذى عادة ما أعاظ ونس بوصفه هذا النوع من التحليل بأنه يتكلم عن الأسهم كما لو كانت أوراق كوتشينة ولا وجود أصلا لتلك الشركات التي تمثلها ؛ باختصار هو لا يأتي بأسماء تلك الشركات من أى مكان . هو فقط يقرأ الميزانيات . ثم ما كل هذه النسخ الإلكترونية من الميزانيات ، وكأنه يواظب على جمعها منذ قرن كامل ؟

بسرعة ينقل ونس الملفات التي أعدها وحيد كملخصات لبحوثه وأرقامه ، ذلك لذاكرة فلاش صغيرة كان يضعها في جيبه ، لكن في الحقيقة دون أية نية لاستخدامها استخداما جديا . هو يؤمن فقط بالمضاربة ، بحركة الأسعار ، ولا يهمه إن كان وراء هذا السهم أو ذاك ، شركة عملاقة ، أو حفنة هواء ، وطبعا لا يهمه إن كتبت أسماء الشركات بطريقة أنيقة ، أم بحروف كبيرة كلها .

على أنه بعد بضعة أيام أخرى من التلصص الودى ، عثر أخيرا على الخبيثة الحقيقية الكبيرة : ملف وورد من بقايا أيام وحيد الغابرة ، ملف بالإنجليزية أسماه الأجندة ، به أرقام هواتف كل اسم مهم قد يخطر ببالك في هذا البلد ، وربما خارجه أيضا !
فعلا ، كان على أن أتوقع هذا من البداية . وحيد لا يحمل هاتفا خليويا . يقول إنه تخلى عنه منذ مرضه ، ولا يجد داعيا للعودة إليه . طبعا ، لا بد أن يحفظ أرقام هواتفه بهذه الطريقة !



أنا أوافق من يرفضون فكرة أن الإنسان أصله قرد .

... في الواقع هو أصله عدة قرود !

بدأ هذا الصباح الربيعي باحتفالية كبيرة . ما أن أعلن وحيد أنه اشترى شقته الحالية حتى انمالت التهانى . وطبعا تحننه ونس كلفت وحيد أن يصدر أمرا بأن ينزل عم نصر الله ويشترى شنطة مكسرات : ' طب استنوا الحاج لما ييجى ! ' ، ' أكيد الحاج عارف الموضوع قبلنا كلنا ! ' ، ' فعلا هو عارف وحضر معاي كتابة العقد ! ' ، لكن زهوة كل هذا نسيت بعد دقائق ، إذ كان ثمة ضيف يسلب الأبصار أهل على القاعة : منى زهرى عبد الحميد المصرى .

هكذا سمعها الجميع تملى بعد قليل اسمها لسامر المنبهر تأدبا أمامها ، والذي راح يملأ خانات تعاقدها مع الشركة نيابة عنها ، إكراما لأبيها وطبعا إكراما لإشراقها ؛ طالبة في منتصف دراستها لعلوم الحاسوب في الجامعة الأميركية ، رشيقة تكاد تطل على النحافة ، بشرة مرمرية لامعة لا يضاهاها في نعومتها سوى نعومة شعرها الكستنائى الطويل المنسدل إلى الخلف ، رقبتها طويلة مستقيمة تتماشى مع سموق بدنها .

المكون الثابت في ملابسها هو بنطلون الجيبين الضيق الذى يزيد من الإحساس بطولها وبنحافتها . الطول الذى كان الانطباع أولى لعملاء رمسيس لحظة وقعت أبصارهم عليها آتية بصحبة أبيها الأقصر كثيرا . هذا قبل أن يعرفهم بما ويعرفها كل واحد منهم بنفسه ، وتنفجر القاعة في مهرجان من التهليل والثناء ، وكل الكلمات التى يمكن أن تقال لأب إعجابا بابنته ، ومقارنة لجمالها هو المزعوم بجمالها هى الحقيقى .

أما النصف العلوى من ملابس ابنة زهرى فيتغير طوال الوقت ، ما بين حريرى خفيف ، حتى الجيبين الخشن ، لكن المشترك دوما أن يظهر جزءا من بطنها ، أو ربما ميليمترات قليلة من شعر عانة خفيف مشذب على هيئة مستطيل رأسى ، هذا بالذات إذا ما رفعت رأسها أو صدرها أو أحد ذراعيها لأعلى .

هى تحب لو كان وجهها أطول قليلا . هو ليس مستديرا بالضبط كما وجه والدها غير قوقازى الملامح ؛ لذا فهى ترسم مثلثا من الرووج الداكن كما جناحى طائر صغيرين على وجنتيها ، بما يجعله -أى الوجه- يوحي بأنه أكثر طولاً . فى جميع الأحوال خداهما مثاليان ، متسعان مسطحان تماما بلا أدنى تقعر أو تحدب ، لكن ما أن تبتسم حتى تنزوع غمازتين عميقتين فيهما ، تجعل وجهها الساحر ساحرا جدا ، عصريا جدا ، أحد أجمل الوجوه .

عينها واسعتان حقا ؛ وواسعتان معناها أن القزحيتين نفسيهما واسعتان والعينان ككل مستديرتان ، وليس كما قد تسمى بعض النساء العيون بالواسعة لو كانت طويلة أفقيا ، حتى لو كانت شبه مغلقة فى بعدها الرأسى . هناك ظاهرة غريبة فى عيني منى . حين تأتى من الخارج حيث الضوء الساطع ، يخيل إليك أن قزحيتى عينيها بلون رمادى فريد رائع . لكن بعد مرور ساعة أو نحوها ، تكتسبان شيئا من اللون العسلى ، ولا تبدوان فاتحتين جدا كما كانتا . هذا شىء يلاحظه كل أحد فيها ، ولا تبدو هى مقتنعة جدا به ، وتعتبره نوعا من المغازلة ، على الأقل لأنها لم تسمع بمثله من قبل ، ولا تعتقد أنه صحيح علميا . كل ما تفعله أن تذكر من يقول لها هذا بشراستها : ' أنتم موش بتقولوا على قطة بتخربش ؟ خلاص ! يبقى عيني لازم تكون عينين قطة ! ' . والدها يدللها بقطة ، وكانت تفرح بهذا وهى صغيرة ؛ لأنها تحب القطط . وعندما علمت بعد ذلك أنه لا يقصد الرقة والجمال ، إنما الخربشة ، فرحت أكثر . هذا هو الاسم المفضل لديها مقارنة بذلك النداء المقرف : ' يا بت ! ' ، الذى تحاول بكل الطرق أن تثنيه عنه ، ومنها حين تياس جدا تقول : ' أنا دلوقت كبيرت ودخلت الجامعة وبأدرس كمبيوتر ساينس ، على الأقل ما تقوليش يا بت ، قول لى يا بايت ! ' .

أما لماذا ظهرت هكذا فجأة ، فهو النتيجة الغائية لجدل حامى الوطيس احتدم أياما بينهما . لديها فى الصيف القادم شهر أجازة ، فى نفس الوقت تريد أن يشتري لها أبوها سيارة . بطبيعته العملية اقترح عليها أن تشتري سيارة مستعملة تناسب حداتها فى القيادة . ثم اضطر لأن يقترح

عليها سيارة صينية الصنع جديدة ، كحل وسط لمطلبها بسيارة تويوتا جديدة ، هذا رغم عدم ثقته بالمرءة في المنتجات الصينية . صديق لي اشترى صاعقة ناموس صينية ، لم تصعق ناموسة واحدة ، وبحلول المساء صعقته هو وانتحرت . رخص ثمن سلعهم ليس بسبب عبقرية خاصة لديهم تاهت عن الجميع ، إنما لأنهم لا يستطيعون الارتقاء فوق مواصفات حياة الفقر المدقع . يا ابنتي ، أية سلعة صينية لا تشتغل جيدا لأكثر من أسبوع ؛ إنما مصممة للقتل لا أكثر . هنا باغتته باقتراح أربكه أما إرباك . أن يعطيه ثمن السيارة نقدا ، وسوف تضارب هي في البورصة لمدة هذا الشهر ، وبعدها ستشترى السيارة أيا ما كانت الحصيلة . حاول نهرها بكل الشدة . طلعى البورصة دى من تفكيرك خالص . دى حاجة بتاع إالى ع المعاش زينا . أو لو عاوزه تقولى بتاع العواطلية قولى . دى شغلانة موش منتجة ، وأنتى تفكرى فى تخصصك وبس .

كانت ثورته هائلة ، لدرجة أن عرض عليها أن يشتري لها السيارة التي تريد ، بشرط أن تبعد عن سكة البورصة دى خالص . منعها كبرياؤها -أو قل عنادها- من القبول . هي أرادت البورصة فى حد ذاتها ، هي خطتها لذلك شهر العطلة . حاولت أن تشرح له أن بالجامعة الأميركية مختبرا يعلمونهم فيه الاستثمار فى البورصة . أيضا ليس كل من يشتغلون فى البورصة غير منتجين . إدارة المحافظ خدمة يحتاجها المجتمع ، ولا بد لأحد أن يؤديها . لم يقتنع بل راح يسب ويلعن الجامعة الأميركية .

هنا فقط استخدمت الطريقة الوحيدة التي لا يقدر على مقاومتها . التخلي عن طبيعتها الظاهرية الرعناء الهوجاء المجنونة التي تحبها ، وإظهار وجهها الداخلى الهادئ العاقل الذى تكرهه . بنبرة منظمة ، قالت له : ' أنا فاهمة كل إالى بتقوله . وفاهمة أن الجامعة بيعلمونا الاستثمار الطويل موش المضاربة . وأوعدك ، وأنت تعلم أنى لا أعد وعدا أقول إنه جاد ، ولا أنفذه ، أعدك أن لا أقترب المضاربة ثانية أبدا ، باعتبارها مصدر للمكسب . فقط فى أوقات الفراغ زى شهر الأجازة ده ' . اشترط عليها أن يكون هذا الشهر فقط ، وليس أية عطلات قادمة . وافقت ، فعطلة العام القادم ستكون الأخيرة ، ومضطرة أن تقضيها فى تدريب فى إحدى الشركات مثل آى بى إم أو هيوليت باكارد . ثم بعد ذلك من يدري كيف ستجرها حياتها المهنية . أما الآن فلماذا الانتظار حتى بداية الصيف ، لنفتتح الحساب الآن ، وأتركه لك فرما يحقق بعض الأرباح الإضافية ، قبل أن أبدا أنا ، وأعلمكم جميعا كلمة مضاربة معناها إيه ؟ !

- أدي الاتفاق يا وحيد ، ٣٥ ألف ما فيش غيرهم ، وإن شا الله تجيب مارصيديص !

- (بكل سعادة اليوم الأول لها كمشتمرة رسميا فى البورصة :) اسمها ميرسيديس يا بابا ، مير موش مار . ميرسيديس موش مارصيديص . Mercedes . بتركبوها وما تعرفوش اسمها .

- الله يرحم جدك ، كان بيقول مرشضيظ ! وبعدين يا بت الأمريكان دول بيغيروا نطق الكلام مرة كل ١٠ سنين ، زى ما يكون نطق الكلام موضه وزهقوا منها .

- المرة دى جايز الحكاية موش كده يا حاج . أفنكر السبب برامج القراءة الآلية للنصوص . مثلا st لازم تستقر على نطق واحد ' ست ' أو ' شت ' ، have تنطق هيف بدلا من هاف ، وهكذا . ولا إيه يا مستر نبيل ؟

لم يكن التعارف بين منى وبين وحيد يحتاج لأية مشقة : ' على فكرة يا أونكل أنت شخصية معروفة جدا عندنا فى الجامعة الأميركية ، وبنعتبرك أشهر واحد تخرج من قسم الصحافة ' .

حين يصبح الحوار أكثر عمقا ، يقول محذرا إياها إن معظم أساتذة الجامعات فى العالم يساريون ، وإن عليها أن تحتفظ باستقلاليتها الفكرية عنهم . فتزد : ' لأ ، فى دى ما تخافش على خالص ! ' . ويواصل بلهجة أقرب للشكوى إن الأمثلة العكسية لذلك محدودة جدا ، ويضرب المثل بجامعة شيكاجو ، التي أسسها جون ديفيسون روكيفيلر . فتزد بأنها تعرف عنه أنه صاحب شركة ستاندرد أويل ، وأغنى شخص فى أميركا فى عصره . يلحظ أن لديها قدرا لا بأس به من المعلومات فى مختلف مناحى الثقافة ، يعبر عن إعجابها بها ، ويسألها عن قراءاتها . كما توقع فهي لم تستقها من قراءة كتب كاملة كما بنى جيله ، إنما هو فيض من المعلومات الصغيرة المتفرقة العابرة ، تكتسبها من خلال الملاحظة على الإنترنت أثناء إعداد ما يطلب منها من بحوث فى الجامعة ، أو أثناء التصفح الحر بلا هدى . حيث فى كلتا الحالتين تظهر لها وفى كل لحظة معلومات لم تهدف فى الأصل للبحث عنها ، وتكتسبها كلها ، بمحض الصدفة تقريبا . هذه هي طريقتهم فى اكتساب المعلومات ، ربما ليست عميقة ، لكن قطعيا ليست قليلة ، أو ربما هي فقط مختلفة عن طريقة جيلنا . يقول إنه لا بأس بالمرءة . أما فى أيامنا فقد كانت البحوث شاقة للغاية ، كنا نمضى أياما كاملة فى المكتبة للبحث عن معلومة لا تشغل سوى سطر واحد فى البحث ، والآن نأتى بها فى لحظة بكبسة زر . تقول نحن طبعنا نلجأ للكاتب ،

ومعلومات الإنترنت لا يعتمد عليها من حيث المبدأ . هي ليست للمعلومات المتخصصة إلا لو هناك مواقع موثوقة كبرى ، أما حتى اللحظة فهي تستخدم فقط للمعلومات السريعة أو الدارجة . فبإدراكها بأن لا مفر في كل الأحوال من قراءة أمهات الكتب ، ومعظمها على أية حال متاح كنسخ إلكترونية على الغشاء ، الويب .

- شفت لون عينيها ؟ دلوقت اختلف عن ساعة ما دخل !

- شىء رائع .

- العين معجزة ، وعين منى معجزة خاصة جدا . أنت لا يمكن أن تجد ساعة يد في الطريق وتقول إن التطور صنعها ، لا بد أن هناك صانع . سبحان الله !

وينسى وحيد الضيفة الجميلة ، ويدخل في مجادلة علمانية شرسة مع والدها ضد فكرة أن العين كعضو شديد الاستعداد تعد أكبر دليل على وجود يد الخالق ، إذ لا يمكن أن تكون قد جاءت بصدف التطور : ' ما هذا إلا دليل مضحك ، ليس فقط لأن ٤ بلايين من السنين تكفى لصنع أى شىء بالتطور الوظيفى أو حتى بالصدفة ؛ إنما لأنه ثبت أن العين تحديدا قد تطورت على الأقل في مكانين مستقلين تماما في المملكة الحيوانية ، وانتهت فيهما لنفس الشىء تقريبا ، وأنت يا دارس البيولوجيا تعرف هذا جيدا ! ' .

- (وكالعادة مؤخرا يعكس رأيه مزيادا عليه :) ليست العين وحدها ؛ أنا أعتقد أنه سيأتى يوم يثبت فيه العلم أن على الأقل البيض والصفير والسود ليسوا من أصل واحد ، إنما تطورا على نحو مستقل من أصول غير بشرية مختلفة وفي أماكن مختلفة ولا علاقة بينها ! أنا أوافق من يرفضون فكرة أن الإنسان أصله قرد في الواقع هو أصله عدة قروود !



سهم الدواجن محتاج ترقد عليه ٢١ يوم !

- على فكرة أنا بأحب الفلسفة جدا ، زيك يا أونكل ؟

- بجد ؟ وأية فلسفة تميلين إليها أكثر ؟

هنا ينفجر الحاج في الضحك ، فيكتسح الاستغراب معالم وجه وحيد : ' إيه الموضوع ؟ (ويفضول باسم :) عاوز أعرف بجد ' .

تجيب منى على السؤال : ' أنا أقرأ كل الفلاسفة ، وليس لى موقف بعد ؟ ' .

والدها لا يزال يضحك : ' قولى له إيه أول فلسفة آمنتى بيها ؟ ' .

- (تكشر :) وإيه إالى يضحك فى كده ؟ : فلسفة ميرى پوپينز .

- (وحيد يضحك هو الآخر لكن محاولا ألا يفسر هذا على أنه إهانة أو استخفاف :) فيه فلسفة اسمها كده ؟

- أيوه يا سيدى ، فيلم من إالى كنت بأشترتهم لها قبل ما تطلع م البيضة ، وبعد كام يوم لقيتها بتقول لى أنا لى فلسفة فى الحياة ، واطلعوا كلكم من دماغى .

- (وقد بدأت تزول الضحكات وتعود الحيرة إلى وجهه :) إيه الفلسفة فى الفيلم ده ؟ شفته كثير وموش واخذ بالى ؟

- أيوه ! أن لا تحزن أبدا ! كل شىء حولك يمكن أن تحيله لمصدر للسعادة بينما ربما يكون فى العادة مصدرا للشقاء ، أنت موش فاكرا الأغنية ولا إيه يا أونكل وحيد ؟

- (وحيد يتفكر :) ده يبقى اسمه إيه بالظبط ؟ سارتر يقابل ماكيافيللى ؟

- (بغضب :) ميرى پوپينز ماكيافيللى ؟

- وهو ماكيافيللى شتيمة يا منى ؟

شردت لبرهه تحول خلالها الغضب لابتسامه جانبية شريرة يعلوها حاجب ارتفع عن مكانه المعتاد : ' سارتر يقابل ماكيافيللى . يا لها من فكرة ! ' .

رغم أن من السمات الجوهرية لما يسمى بما بعد-الحدائثة تمجيد الأفكار والنظريات حتى تصبح بلازما سائلة لا قوام لها ، وكذا -على الأقل عمليا- تعريفها للمستقبل بأنه عشر الدقائق القادمة ، وهى أشياء فعلتها منى على نحو واضح ، إلا أنها -لحسن الحظ- نادرا ما تستخدم مصطلح ما بعد-الحدائثة كما يهوى الكثيرون والكثيرات من أبناء وبنات جيلها ممن حققوا أو حققن بعض الاطلاع مثلها ، وإلا كان وحيد قد ترك كل شىء وتفرغ لمناقشتها فى ذلك . على الأقل هذا لم يحدث فى يوم الزيارة العابرة الأولى هذا ، ولم يحاول ضهرى أن يعاجل بتفجيره وقرر أن يدعه يأتى تلقائيا كى يتفرج هو ، فهو على أية حال يرى الأمر بطريقة مختلفة قليلا ، أكثر احتكاكا بالواقع من وحيد وأيضا أكثر سخرية . يرى أن من يقرأون مثل ابنته هم الأقلية بين الشباب ، إلا أنهم لا يختلفون فى شىء عن لا يقرأون ، فهؤلاء يصلون لذات النتائج بطريق أسرع : تعاطى الحشيش !

أيضا شرد وحيد وعاد لضهرى وكأنه اكتشف شيئا : ' كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شىء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابي فيها ' .

- ماذا ؟

- أليس هذا كلامك ؟

- (ضاحكا :) أنت لسه فاكِر ؟ !

- ما الفرق بينه وبين فلسفة الأنسة منى فى الحياة ؟

- أنت عاوز تشبهنى بالبت التافهة دى ؟ ! إالى ما تعرفهوش يا سيدى أن إالى بتقول لك كده ، حاولت الانتحار من كام سنة !

ولم يلحظ أحد ما كان يقوله أو أراد قوله الحاج ، لأن منى كانت تصيح بأعلى صوتها بطريقة مسرحية :

' Supercalifragilisticexpialidocious ! '

يلتف الجميع حولها طالبين أن تعيد نطق الكلمة العجيبة ، فتفعل بابتهاج وزهو ، ويفشل معظمهم فى محاكاتها ، ويضحك وحيد (الذى نادرا

ما يضحك) ، ويقول : ' دى صعبة على ! أنا مستواى وقف عند A Spoonful Sugar ! ' .

ثم تشرع فى الغناء Chim Chim Cher-ee ، ويهز رأسه معها ، لكن ونس الذى لم يرتح لهذا التحول لأشياء غير مفهومة ، فضل إعادة

الحديث لنقطة الكلام الأولى ، الطلوع من البيض :

- إيه الكلام إالى كله دخان ده . ما تخلونا فى البيض أحسن . حاجة بنفهم فيها . صح يا حاج ، ولا بنتك ها تنسيك سهم الفراخ ؟ !

- فعلا ! هات لنا سهم الدواجن ع الشاشة لو سمحت . انبش عليه لغاية ما تلقاه !

- (يبدأ البحث فعلا وهو يعنى :) انبش عليه تلقاه ، انبش عليه انبش . بس أنا خايف يا حاج لما نجيبه يعمل ريحة ويزيل المكان .

- موش أكثر من الأسهم المعفنة إالى أنت حاططها .

- سيبه فى حاله أحسن ! جازي ثقل بركته لو بصينا عليه . ' يتنظر ' يعنى !

- خمسة وخمسة فى وشك !

- جازي يطلع مصفر تحت (كما قلنا تعبير دارج معناه أن كمية طلبات الشراء صفرا) !

- اخرس ! ها تلقاه مصفر فوق ، وبصفارين كمان !

- ها تشوف إيه ؟ سهم حاله نايم ، باين العشة ضلمة .

- بيقولوا لك فى البورصة ما تحطش كل البيض فى سلة واحدة .

- يعنى البورصة ما يفهمش فيها غير الفراجية إالى زيك ؟

- لاحظ أن القط المستعجل يجيب عيال عميا !

- الظاهر كمان الكتاكيت أكلتهم القطة وخلصنا .

- أهو أنت كده ، عاوز كل حاجة سلق فى سلق . مية مغليلة ترمى فيها السهم وتطلعه مستوى ؟ فيه حاجات لازم تستوى على نار هادية ، تسببها لغاية ما تتحمر !
- أنا حاسس أن أنا إالى اتشويت !
- هو أنت كده عليك بيضة على طول .
- بيضة نعامة وغلاوتك عندى ! (صانعا كفى يديه على هيئة بيضة ضخمة) .
- يا راجل يا بريشت ! تعالى نعملك عجة ! ولا أقول لك : روح اتكحرت بعيد ! ها ! ها !
- يا بيضة أنت ، يا حلو ! إنما بجد يا حاج ، تفتكر سهم زى ده ها يطلع م البيضة إمتى ؟
- لما يدفأ ها يطلع .
- أو جازي البيض يطلع ممشش . ها ! ها !
- عيب ! ده موش ها يفقس ، ده ها يكاكى مرة واحدة !
- إالى أنا حاسه أن السهم ده بيندبح .
- ده أنت إالى بتفرفر .
- طيب ! حلق يوستووورك !
- بطلنا نشتغل فى الفيومى من زمان . إنما إيش عرفك يا دمياطى أنت بلغوة الفيومية ؟
- أنا أعرف كل خط الصعيد ، فرخة فرخة ، ديك ديك ، وكتكتوت كتكتوت . إنما قول لى يا حاج : أنت فعلا دارس السهم ده كويس ؟
- طبعا ! دارسه ريشة ريشة ! ها ! ها !
- السهم ده موش ها ينصلح حاله إلا لو اتقسم .
- دى شركة محترمة ، ما يهمهاش اللعب بسعر السهم . أصلك متعود ع الأسهم إالى فيها فرة !
- معلهش أصل ما أخذتش المصل .
- حاسب أحسن تيجى شوطة تاخذك .
- آدى السهم يا سيدى قدامك ع الشاشة ، يا ريت بس ما نتعديش إنفلونزا منه !
- بس ! ارفع إيدك بسرعة عن الماوس ، أحسن ينقرك !
- ما تخافش على ، أنا محربش !
- شفت ! زى ما قلت لك . سهم محترم . منفذ من الصبح لغاية دلوقت ١٠٠٠ سهم بس . ده معناه أن الناس بتيجى البورصة وتسببه فى البيت .
- قصدك تسببه فى الخن . ها ! ها !
- ثم يتقسم إيه ؟ ده كله ما يجيش تمن فرخة .
- يتقسم صدور لوحدها ووراك لوحدها . ها ! ها !
- خليك فى حالك أنت يا بو حوصلة مخنوقة .
- يا عم إحنا غلابة . كل ديك يصيح على قد حوصلته . يا ريت تاخذنا ولو حطة على جناحك .
- خف وأنت تطير .
- طب وإذا كان سهم الدواجن ده مكسور الجناح ؟

- فشر ! ده دلوقت بيرفس فى الأرض وها يطير !
- طب الحق اقل الفقص !
- ققص الصدر ؟
- ها يطير ؟ ! (ويدندن :) طير يا حمام ! (ثم مشيرا لصديق أدهم الشرقاوى فى الأوبريت الإذاعى القديم :) يا خوفى يا بدران ، يكونوا نتفوا له ريشه ؟
- ليه ، هو أنت فاكركل الدنيا ريش منفوخ على الفاضى زيك ، يا بو عرف واقع ؟
- يا عم أنا غلبان . فرخ رجله مكسورة .
- لآ ، وأنت الصادق شكلك بيقول أن الحشو كان غلط . كمان دماغك الأصلع ده بيفكرنى بكتكوت رموه إخواته فى الميه !
- بس يا حاج موش جايز العشة تكون ع السطح ، صاحبك بيحجى يطير ينزل على جدور رقبته !
- بص : أنا ها أفهمها لك لو عاوز تفهم : م الآخر كده ، وخدها قاعدة ، سهم الدواجن محتاج ترقد عليه ٢١ يوم ! (مشيرا لمؤخرة ونس الضخمة :) أمال عملوا دى علشان إيه ؟
- (باستنكار ضجر :) ٢١ يوم ؟ يا إल्ली يعيش ؟
- (يواصل الإشارة لمؤخرته :) على فكرة إحنا عاوزين نقيسك !
- ها تلقى العنقود لسه ما نزلش !
- قصدك اتقطع ! (ثم مشيرا لكرشه الضخم ، ومذكرا إياه بمجموعة الأسهم الخاسرة التى لا يزال يحتفظ بها :) حالتك صعبة يا مترغط أنت : حامل فى تسعة شهور ، وخسارتك موش عاوزة ترجع أبدا ؟ !
- (بنفس الضجر واللامبالاة :) ربنا ينتعنا جميعا بالسلامة !
- أسهمك دى كلها اتصممت خلاص ! المضاربين الكبار بيرموا لك العضم !
- طيب انفحنا شوية هرمونات من عندك .
- اشترى سهم الفراخ وأنت تكسب .
- أوعدك لما الديك بيبيض ها أشتريه !
- أحسن لك من الأسهم إल्ली أنت مشتريها ، إल्ली تبلها وتشرب ميتها .
- وسهم الفراخ أعمل عليه شوربة ! ها ! ها !
- اسمع الكلام ! ده سهم مغذى وها يرم عضمك .
- فراخ المزارع ما ترمش حاجة !
- أنت ها تعمل لى فيها شركسى ؟
- لآ ، بس البلدى يوكل .
- اسكت أحسن أعملك پانيه . اصطحب وقول يا صبح .
- صبح ؟ أنا أصل لسه ما سمعتلهوش أذان ؟
- اخلص ! شوف حالك . لقط رزقك !
- ألقط ؟ ده أنا قربت أصوصو .

- يا حبيبي يا بتاع الغلة أنت ، اشتريه أو ما تشتريهوش أنت حر . كده صح : قلت لك ألف مرة كل ورقة ولها كيال ، إللى ما تفهمش فيه ما تدخلش فيه . إنما إللى أعرفه أن ده سهم ها يكسر الدنيا .

- ها يكسر ؟ آه ، دخلنا فى الكلام الأبيح ! (ويطلق نفيده النحاسى إثناء للمناقشة) .
- (وبدوره يصدر ضهرى ذات الأمر :) خلاص يا أخويا ! كتكت بيتك ! كتكت بيتك !



الفن الهابط رسالة سامية ؛ هو الفن الوحيد الهادف بمعنى الكلمة !

من كافة الجوانب : الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون !

كان من الممكن أن تستمر مثل صراعات الديكة حامية الوطيس هذه لنهار كامل ، ولا تلقى إلا كل التشجيع والتعزب بأعلى أصوات الهتاف من كل الحاضرين : ' إدى له يا حاج ! ' ، ' اوعى تسكت له يا عم عبده ! ' ، وهلم جرا ، إلا أن الصدفة لعبت دورها هذه المرة ؛ إذ انشد تفكير ونس رغما عنه ، لمحاولة تذكّر أغنية لفريد الأطرش عن جنيّة بما طير خانة أليفه . دندن مقاطع قصيرة شعر بأنها غير مطابقة للأغنية ، وحين يأس قال بضجر متصنعا لهجة الناقد الفنّي وهو ينظر بطرف عينه لوحيد : ' أغنية زى الزفت ! الناس تعرف أن الطيور رمز الحب والرومانسية والإخلاص ، وصاحبك ده نيلها خالص ! ' .

- دى أسمهان ، موش فريد يا جاهل .

- أسمهان جميلة . إزاي غنت أغنية زى دى ؟

وينقلب يعنى : ' ليه أخى غرامى ... وغرامى هالكنى . روحى وقلبي وجسمى وعقلى وجمالى ... فى يدك . يا حبيبي تعالى الحقنى شوف إللى جرى لى ! ' . لكنه بعض لحظات يكتشف أن لا إشارة بما للفراخ ، يمتدح معانيها الجريئة بسرعة لوحيد ، ثم يعرج على الفور محاكيا ما كانت تقوله زينبات صدقى عن الكتاكيت ، ويتذكر السياق الذى جاءت به فى الفيلم ، دون بالطبع أن ينسى إلقاء محاضرة عن الفن الجميل بتاع زمان . يلتقط أسد خيط الغناء وهو الذى نادرا ما يعنى ، قائلا : ' هش هش يا ديك ، الفرخة دى موش ليك ! ' ، ' ارحمنا من الغنا الهابط بتاعك يا أسد ' ، ' طب نأخذ رأى الناس المتخصصة . إيه رأيك يا أستاذ وحيد فى الفن الهابط ؟ ' ، ' الفن الهابط أعظم فن . من السهل أنك تعمل فن راقى ، لكن من الصعب جدا أنك تعمل فن هابط ' ، ' يسلم بقك يا أستاذ . سمعت يا سى عارف يا فيلسوف الغبرة ؟ الفن الهابط هو إللى بيعيش . قول كمان يا أستاذ . قول لنا إيه رأيك فى أفلام إسماعيل يس ؟ ' ، ' أو ميلودراما حسن الإمام ؟ ' ، ' أو الأفلام الهندية ؟ ' ، ' كلامك مطبوط . شيكسبير كان رمزا للفن الهابط فى أيامه . العقاد وإللى زيه قالوا لنجيب محفوظ الرواية فن هابط ، كلهم ماتوا وهو إللى عاش . الفن الهابط رسالة سامية ؛ هو الفن الوحيد الهادف بمعنى الكلمة ! من كافة الجوانب : الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون ! ' .

ولحسن الحظ يتذكر ونس أخيرا أغنية لعله يدارى بها الإحراج الذى سببته له سابقاتها ، وكذا بعض الصدمة التى سببها الموقف غير المتوقع لوحيد من الفنون الجماهيرية : ' يا أبو الريش إن شاء الله تعيش ! ' . أما أسد فقد فضل تحويل الحوار لدفة أخرى ، أو بالأحرى استئناف الحوار الأصلي من حيث توقف : ' إنما إيه رأيك فى الفراخ يا أستاذ روميو ؟ تحب العتاقى ولا البدارى ؟ ' ، ' كل الفراخ حلوين ! ' .

مرة أخرى يعاود وحيد الضيق من أن ينقطع جبل أفكاره فينسى ما كان يفكر فيه أصلا . لقد انتزعه ذلك الحوار العجيب من دوامة أفكاره . آه ! لقد تذكرت . انتحار منى . هل هذا معقول حقا ؟ نعم ، الإحصاءات القادمة من أميركا تقول أن الغالبية الساحقة من الفتيات لا تصلن لسن السابعة عشرة إلا وقد مررن بمحاول انتحار واحدة على الأقل ، فاشلة أو ناجحة . منى ، هذه المملوءة بحجة وتفاؤلا ومثلها الأعلى فى الحياة ميرى پوپينز ، أقدمت على الانتحار . كيف ، ولماذا ؟ فى أميركا يقول مكتب التعداد إن هذا يحدث غالبا لأنفاه الأسباب ، مشادة بسيطة مع الأسرة أو مع الخليل ، ال boyfriend ، أو حتى أحيانا بسبب رفض الأسرة قيامها برحلة أو بسبب عدم زيادة مصروفها اليومي . أوه ! إن حالتى ليست كارثية جدا . على الأقل أنا لم أفكر فى الانتحار رغم كل ما حدث لى .

يعود وجه وحيد للابتسام ، ويتطلع من جديد لوجه منى بعينين مغممتين بالإعجاب ، ويقول : ' هل تصدقون أن ابن وجدى الديق وآمال نور لم يشاهد أى فيلم إلا فى سن العاشرة ؟ ! ' .

- فاكهه يا أونكل ؟

- طبعا ! وأنتى فكرتيني به تانى النهارده ؟

- (وقد فغرت فاهها إلى أقصاه :) موش ممكن ؟ ! ميرى پوپينز ؟ !

- موش بالظبط . البيت إلى جنبه بالظبط : the movie that everybody hated but the people ؛ الفيلم إلى كسر إيرادات

ذهب مع الريح ؟ !

- (تفغر فاهها مرة أخرى :) The Sound of Music !

- فاكهه كويس المكان والحفلة كمان ، وفاكر فرحت به إزاي . كان فى حفلة فى نادى تابع لكنيسة ، وكان بعد كام شهر من انتهائه فى

السينمات . كنت ما بأبطلش أسمع المزيكا على البيك أب كل الشهور دى ، وده جايز إلى خللى ماما تقرر أنى لازم أشوفه . (بعد برهة أخرى

لكن أقصر :) ماما آخر واحدة يمكن وصفها بالترتمت ، إلا أنها كانت جد زيادة حبة أو حبتين ، مع نفسها ومعنى ومع كل الدنيا . رغم طبيعة

شغلها واعتزازها المهول به ، كانت تفضل ألا أضيع وقتى فى الأفلام . حتى التليفزيون اشتريته متأخر ، وكل فترة لبنان ما كانش عندنا تليفزيون .

- جايز ده إلى وجهك أكثر للقراءة يا وحيد .

- أكيد ! (ثم يحول وجهه لمنى والعينان بعد شاردتان قليلا :) شايقة الفرق بين جيلنا وجيلكم ؟ آلاف الساعات قراءة ، بينما أنتى من فيلم

واحد بقيت فىلسوفة ، وأنتى فى اللفة زى ما بيقول پاپا .

- اسمها قبل ما تطلع من البيضة !

- أنت تسكت خالص ، أو أقوم أرميك فى شوية ميه ، وأثبت لكل الناس دى أنك ها تعوم زى البيضة الفسدانة !

يسكت ونس بالفعل ويعود ضهرى لوحيد بمزيج من احتجاج ظاهر وإعجاب باطن : أنت ها تقولى ؟ آه منهم يا أخويا يا وحيد ! شافوا فى

اللفة حاجات ما شفنهاش إحنا فى عشرين سنة ! إحنا بنحب توم وچيرى لغاية السن دى ، لأن كنا بنشوفه بالصدفة وبصعوبة فى السينما .

الطفل دلوقت لما يوصل ٤ سنين يقول أنا كبرت على لعب العيال ده !

هنا راح ونس يدندن : ' دو ... رى ... مى ... دو ... مى ... ' ، محاولا إثبات أنه ليس غريبا جدا عن دنيا الثقافة العالمية .

- أنت لسه لك نفس تغنى يا راجل يا بريشت ؟ !



إحنا موش عاوزين الجنة ' السماوية ' ،

عاوزين بس الجنة ' المصرية ' !

منى التى وطدت صداقتها بوحيد فى خلال دقائق ، بدأت توطد صداقتها بذات السرعة مع دائرة أوسع ، رغم علمها أنها جاءت ليوم واحد ،

ولن تأتى ثانية قبل شهر ونصف . أقرب دائرة جغرافية هى بطبيعة الحال دائرة المقاعد الدائمة . من الطبيعى أن يجذب روميو انتباهها . سألت

أبيها ، فحذرهما منه ، علاقات نسائية وغير نسائية ، ولم تكن تحتج لأكثر من هذه الكلمة ، كى تلصق كرسيها على الفور إلى جواره وتبدأ تجاذب

أطراف الحديث معه . طبعا فى البداية بخططها الاستثمارية الفذة . لقد قررت الاستثمار فى الأسهم الصغيرة . إنها تشبه لعب الكوتشينة . من

يفوز فى لعبة البريدج ، هو من يحسن تخمين من يملك ماذا من الورق ، ومتى سوف يكشفه .

- شايق عماليل البت يا وحيد ، أقول لها روميو ده خطر خالص ، تروح لازقة كرسيها فيه ؟

لم تمض دقائق حتى عادت منى إليهما ، وقالت كأنها حققت غزوا عظيما : ' سيبوا لى روميو إلى تابعكم ده . أنا فاهما أحسن منكم كلكم ،

ولى كلام كثير معاه . الظاهر يا پاپا أنت إلى خبرتك محدودة فى الحياة . أنا أعرف ١٠٠ روميو زيه بالظبط ، وفوقهم كمان ١٠٠٠ جوليت زيهم

بالظبط برضه ! ' .

- لا ! دى آخر الأيام يجد ! تصدق يا وحيد بتقول أنها موش ها تتجوز قبل سن السبعين ، وماسكة لى فى حكاية أستاذة الجامعة بتاع رومانيا إالى خلفت فى سن حاجة وستين . أنا ها أوديكي لدكتوراة تطبط لك الصواميل ، وإن ما عرفتش تطبطها لك ، أنا عندى طرق أظبطها لك بنفسى . قومى قدامى أعرفك على دكتوراة سماء .

منى المندهشة من سرعة تلاحق الهجوم عليها تستعجل من الجالسين إلى يميناها ، روميو أو ونس ، معلومة سريعة : ' دكتوراة سماء مين ؟ ' .
يرد ونس ببرود : ' سماء ! حاجة زى الجبلوى بتاع نجيب محفوظ . قاعدة لوحدها بعيد عن كل الدنيا . إما فى مكتب إدوارد وإما فى نادى هليوبوليس . إحنا موش عاوزين الجنة ' السماوية ' ، عاوزين بس الجنة ' المصرية ' ! ' .

تفهم منى المقصود بهذا التلاعب بالكلمات ، ويتهلل وجهها : ' أهلا بك فى القناطر يا أونكل ! ' .
وتنجح لعبة فى صرف انتباه الحاج عن موضوعه الأصلي ولو مؤقتا : ' قلت لكم على موسم المنجى ها أدعيكم كلكم . أول دعوة لازم تكون على حاجة تستاهل ، بعد كده ابقى تعالوا زى ما أنتم عاوزين . ولو سمحت يا ونس ما تفتحش الموضوع ده تانى ' .

ويجد ونس مدخلا جيدا للتدشين صدافته لمنى : ' أنا رأيت من رأيك بالظبط . نلعب كوتشينة ، بس على كبير . البريدج موش أشهر لعبة فى الكوتشينة . أشهر لعبة هى الولد يلم . لو لميتى أغلبية الورق ها تكسى كل حاجة . دى اللعبة بتاع كبار البورصة ، موش السنالكج إالى زينا . پاپا ضهرى زائد الأستاذ وحيد ، محفظتين ربنا يزيد ويبارك زمانهم عدوا الخمسين مليون ، زائد شوية الفكاة بتاعة بقية الناس إالى قاعدة دى ، نسيل كل المحافظ ، وندخل على شركة من بتوع بورصة ال ٥٠ . نلم أسهمها م السوق . ساعتها ها يبقى الكل عاوز يشتري وما حدش معا بيع . السعر يطلع كل يوم ٥٠٪ ، بعد ١٠ أيام نبيع ، ونكون كسبنا ٥٠٪ ، ونسب السهم ينزل ونرجع نلمه تانى ، وهكذا ' .
يعلق إدوارد من موقع الوقوف الذى اعتاده وسط العملاء : ' وييجوا يقفلوا لنا شركتنا بالشمع الأحمر ! ' .

ويقاوح ونس : ' لما نبقى مجموعة ما حدش ها يتجاوز نسبة الخمسة فى المية من ملكية الشركة ، ولا ها يكون فيه سين وجيم . كمان يا سيدى ممكن كل مرة نلم سهم مختلف ' .

- هو لازم خمسة فى المية . مجرد أن الطلبات كلها تيجى من شركة واحدة ، ها تثير الريبة ، وندخل تحقيق .
لم تنجرف منى فيما يبدو لاقتراح ونس الخلاب . والدليل أنها مالت على أبيها وهمست قائلة : ' حنفيه هنا وحنفية فى البيت ! ' .

- يعنى إيه حنفيه يا بت ؟
- يعنى الأستاذ ونس ده ما بيطلش نصائح .
- فعلا هو ما بيطلش إلحاح .

- بأقول ما بيطلش نصائح ، زيك بالظبط يعنى . خليك ' دئىء ' ، زى ما بتقولى دائما . اتعلموا اللغة صح ، فيه فرق بين حقنة وبين حنفيه . يا حنفيه ! الظاهر أنا نفسى إالى ها أضطر أبقى حنفيه بسببكم !

- (يحاكيها بسخرية وقد أصبح الصوت مسموعا وفهم الجميع عم يدور الحديث :) ' اتعلموا اللغة صح ' ، لغة إيه يا بت انتي ؟
- حنفيه يا پاپا . ما تعرفش حنفيه . كل البابا وكل الماما حنفيات . نصايح محفوظة . زى ما تكون كتيتب إرشادات بيوزعه عليهم مع قسيمة الجواز . ما هم الشيوخ والقسس حنفيات برضه ، بس من غير جلده . ولو واحد منا فى الجرووب حب يعمل علينا حنفيه بنخرب بيته ونظرده .

مع ذلك يكرر ونس اقتراحه حول المضاربة بأموال كبيرة ، بما يرشحه لأن يعد فى نظر منى حنفيه وحقنة فى آن واحد . هنا ينفذ صبر ضهرى ويثور غاضبا رافضا سماع المزيد : ' أنا جايب البت هنا علشان تعلموها الوساخات بتاعتكم يا بتوع الصين وفرنسا أنتم ؟ إحنا ما بنلعبش حاجة على المستخبي . بنلعب شطرنج بس . كله ع المكشوف ! ' . وبالفعل يشدها من ذراعها قائلا : ' تعالى نشوف حكاية شاوشيسكو الأول ! ' .

يذهب بها لمكتب إدوارد ، حيث تستقبلها سماء بألفة وترحاب شديدتين ، وثناء على جمالها ودكائها . تفهم أن منى لا تفكر فى تقليد البروفيسور الرومانية كما فهم والدها . ولا تفكر مثل عمته نائبة رئيس السى أى بى ، التى هى على أعتاب الخمسين دون إنجاب ، وفقط تحتفظ ببويضات مجمدة لنفسها . أيضا منى لا تفكر حتى فى الكلونة (أن تكون طفلتها نسخة طبق الأصل منها) ، إنما تقول ببساطة إن الهندسة

الجينية ستصبح حقيقة واقعة قريباً ، وسيمكن تصميم الأطفال بصفات خارقة حسب الطلب . من ثم هي لا تفكر مطلقاً بالزواج ، هذا الذى أصبح بالفعل نمطاً بائداً للاجتماع الإنساني ، كما تقول الإحصاءات الواردة من الغرب ، المنازل القائمة على شراكة الزواج باتت أقلية وإلى انقراض . هم يقولون أيضاً إن الرعاية الصحية ستصل قريباً بكفاءة الجسم البشرى لأن يعيش لمائة وخمسين سنة . إذن الموضوع كله مؤجل . لو حدث وفكرت فى الإنجاب ، لن تكون هناك مشكلة فى أى سن ، بحمل أو بدون حمل ، أى شىء . كان الرأى متكاملًا متبلورا ، إن لم يكن حادا صارما ومحسوما سلفا . لكن هذا لم يمنع سماء من أن تشرح لنى نظرتها الشخصية هى للحياة : النقيض الكامل !

إن من لا يشتغل فى التوليد هو إنسان لم يعيش أصلا . تصف تفصيلا كيف يستقبل الطفل حجيم الحياة لأول مرة بعد الجنة المثالية له فى الرحم ، حيث لم يكن يبذل مجهودا حتى فى التنفس . يصرخ صرخة هى الأكبر والأسوأ والأكثر ألما فى حياة أى إنسان . إلا أن هذه الصرخة تحديدا تحيل فى لحظة تقلصات البطن الرهيبة إلى ابتسامة عريضة على وجه الأم . إذا كنت أرى أن من لا يشتغل فى التوليد هو إنسان لم يعيش أصلا ، فأقل شىء هو أن تحرض المرأة على الإنجاب . الكلوثة وتأجير الأرحام تقنيات مفيدة للحالات المرضية ، لكنها إهدار لشيء عظيم بالنسبة للإنسان السوى . إنها متعة لا تفوقها متعة ، الحمل والإنجاب ، والتمتع بنمو الطفل .

حاولت منى المجادلة ، إن ما سيحدث فى السبعين هو حمل أيضا ، ربما ليست به كل حيوية الحمل فى سن صغيرة ، لكنه يظل حملا . واضطرت فى النهاية لاحترام الحماس الروحاني الشبق ، لدى سماء للحياة والميلاد والخلق ، فوعدها بالتفكير فى الأمر .



أولاد حارتنا لا بتاعة المسلمين ولا المسيحيين ، بتاعة اليهود !

عادت منى لقاعة المستثمرين الخارجية لتجد أن من تركتهم بدءوا يتحولون قليلا للاهتمام بشىء آخر ، الجبلاوى ، الذى أحاله نبيل - كما أى شىء آخر - إلى درس فى اللغات . خمنت هذا حين سمعته يقول : ' نجيب محفوظ واخذ الاسم من كلمة جبل يجبل فى الترجمة العربية للأصاحب الأول من التكوين ' . ثم للتأكيد يتلو على مسامعهم العبارة الافتتاحية للقداس القبطى : ' يا الله العظيم الأبدى الذى جبل الإنسان على غير فساد ... ' . ثم تسمع وحيدا يسأل متعجبا : ' إنما أنت موش قبطى يا نوبل ؟ ' . وونس يسأل موحيا بخبرة عريضة ما مع الأديان : ' أنتم بتقولوا ' الله ' زى المسلمين ؟ كنت فاكرا الإله بتاعكم اسمه الرب ' ، ' إيه يا عم عبده ، إذا كان أنا اسمى نصر الله ؟ ! ' . وعارف يقدم الاعتراض الوحيد الجدى : ' تفسير غريب أوى يا مستر نبيل . إالى أنا عارفة أن الجبلاوى جاية من أن ربنا هو جبل موسى ، الجبل إالى كلمه . الأزهر فهم كده ! ' . ويصحح زهرى لكليهما : ' جايز جبلاوى معناها حاجة تالته : الهجام أو الخط بتاع الجبل ! ' . ممكن ! نجيب محفوظ ده بحر ما لهوش قرار ! ' . وقبل أن يكمل نبيل شرح أن محفوظا استقى الرواية من قصص الكتاب المقدس وليس من قصص القرآن ، يصيح روميو : ' أنتم ها تقوموها حرب أهلية ؟ خلاص خلصنا ، أولاد حارتنا لا بتاعة المسلمين ولا المسيحيين ، بتاعة اليهود ! أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' . ويردف عارف متفائرا : ' على فكرة أنا الوحيد فيكم إالى اسمى موجود فى أولاد حارتنا ! ' . وهنا ينسون محاضرة نبيل ونهرات روميو ، وينهالون عليه لكرا وضربا ودفعا : ' أنت ها تستعبطنا ؟ ' ، ' فاكرا نفسك وحدك إالى بتقرأ ؟ ' ، ' اسمه عرفة موش عارف ! ' .

تقف منى حائرة غاضبة وأخيرا تقول بسخط ، وقد انمحت معظم معالم البهجة التى رسمها على وجهها استعراض الفراح ، والذى خيل لها خطأ لوهلة أنه أقيم خصيصا من أجلها : ' أوف ! هو ' جبل ' جوه و ' جبل ' بره ؟ ! ' .

ويهمس وحيد فى أذن زهرى : ' أنت لسه فى القالاتين قلت لى أنك بتخوفها من الحب ، وكمان قلت الحب للأذكىاء . ارسى لك على بر ! ' .

- ها تقول لى بر تانى ؟ !

- دول ٣ بر دلوقت ! الجنس ولا الزواج ولا الحب ؟ أنت ها تجنن البنت !

- أنا إالى ها أجنن . عاوزها تخرج من الوحداية الشيطاني دى ، البت نافرة أوى وفردية أوى ، وعلشان كده وديتها لسماء تنصحها . ما كانش قصدى الزواج ولا طبعها الحب والهيام ، دى كانت تبقى مصيبة . قصدى تخرج شوية من ' البرانية ' إالى هى فيها . صحيح هى مع

أصحابها طول الوقت . لكن لما بيتفسحوا ما بتروحش معاهم . ما فيش علاقة إنسانية خالص . أصحابها بالنسبة لها شغل وبس . فيه حاجة موش طبيعية وخالص . (صارخا وأنه وجدها :) هي زيك كده : موش بتحب الناس !

- (شاردا :) حب الناس ؟ ! تعبير غريب ! (ثم يعود :) على أية حال أنا لا أسمى ذلك عدم حب للناس ، كل ما هنالك أن ليس لدينا الوقت لهم . أنت تعرف طبعا عبارة ' الآخرون هم الجحيم ' ، وتعرف من قالها ؛ ساعتها كان يقال على أمثاله أنه من فلاسفة الغربية والاعتراب . ما يدهشني حقا أن يتحدث البعض عن الماضي كعصر الحب والتواد والتراحم والتواصل الإنساني ، بينما التواصل فيه لا يكاد يذكر مقارنة بتواصل البشر اليوم . آنذاك لم يكن لدى الناس أكثر من زيارة الأهل والأصدقاء لساعات معدودة مرة كل أسبوع أو شهر ، بينما الآن البشر over-communicated أو over-socialized ؛ يتواصلون طوال الوقت ٧×٢٤ عبر الإنترنت والهواتف الخليوية وغيرها كثير مما بات يزرع حتى في الجسم الآن ، يتوادون وهم في الشارع والنادى والحمام وأى مكان ، يجوبون بعضهم البعض ويتلهفون لرؤية بعضهم البعض على الشاشات أضعاف أضعاف ما كان يجوبون ويتشوقون في الماضي . ترى هل يعود زمن العزلة الجميل يوما ، أيام كنا نهرب للإنترنت من صحب العالم ، ذلك قبل أن تصبح أكثر الأماكن ضوضاء قاطبة ؟ ! هذه ستكون أول نصيحة أسديها لابنتك النابجة الآن : **unplug yourself!** ؛ افصلي نفسك ولو لبعض الوقت يوميا عن الشبكة الشيطانية لكوكب التواصل اللعين المدعو كوكب الأرض ، ذاك كى تجلسي مع نفسك قليلا ، تحبينها وتصادقينيها ، وتتأملان سويا في الحياة ، أو تتعابثان مع كتاب يزرعكما بالفكر والأفكار ، وتفضضان أنتما له بما يشغلكما !

- الظاهر إني جيتك علشان تكحلها رحت عميتها !



هذا الرجل لم يغب عنا يوما واحدا لمدة ١٥ سنة

يلحظ الجميع أن نبيل لم يأت اليوم . يتصل به إدوارد فلا يتلقى إجابة . بسرعة يضع ونس السيناريو المنطقي للأمر : ' دكتورة سماء موش ما جاتش النهارده كمان ، تلقاهم يا عم لقوا حتة تاني أحسن من هنا ! ' ، ' كفاك سخفا ! هذا الرجل لم يغب عنا يوما واحدا لمدة ١٥ سنة ! ' . إدوارد يعلم أن نصر الله كان يزوره أحيانا لينظف له شقته ، وأن معه نسخة من مفتاحها . يكلفه بالذهاب وفتح الشقة في كل الأحوال . يعود نصر الله هلعا : ' المستر نبيل تعيشوا أنتم ! ' .

يهرعون فيجدونه ممددا على ظهره على سريره مفروود الذراعين بحيث تدليتا من جانبي السرير . يلحظون اللون الأزرق في الجثة ، يقول ضهرى : ' هذا مات مخنوقا ، ولا بد من إبلاغ الشرطة ! ' . بكى أغلبهم . منهم وحيد ، آخر من يمكن تصور أن سببا ما يمكن أن يجعله يبكي ذات يوم . قال وهو يدارى دموعه عبثا : ' لقد اتقنا على أن نترجم كتابا سويا . هو الذى شجعنى . قال لى هذا قد يحل عقدتك ، ولعلك تعود للكتابة من جديد ! ' . بعد قليل بدأ سامر وميرفت يتصلان هاتفيا بكل من ورد اسمه في أجندة مستر نبيل .

في اليوم التالى تدخل سماء متلهلة تروى في جزل أنها لم تأت بالأمس لأنها سهرت طوال الليلة السابقة في توليد بنتين توأم جميلتين وبصحة جيدة : ' توأم ! شىء لم أحظ بمثله منذ عشر سنوات ! ' . وتبدأ على غير العادة في تحية الجميع بأسمائهم ، معتذرة أن كانت نائمة طوال نهار الأمس ولم ترد على تليفون أحد إن كان قد اتصل بها .

لم يرد أحد . يخبرونها بمصرع نبيل . تصمت صمتا مطبقا وتكاد تنهار للأرض .

حين قالوا لها : ' إحنا نازلين ' ، ' الجنازة هنا في البازيليك ' ، اكتفت بالإشارة بالرفض بيدها .

- ها تفضلى قاعدة كده ؟ استحالة نسيبك !

لم تشر لهم حتى بالانصراف ثانية .

- إوعى عينك تغيب عنها يا مينا ، وأى حاجة اتصل بنا .

ويلبث مينا جالسا في مواجهتها ، محذقا محاولا فهم ما لن يستطيع فهمه أبدا من هذا الصمت !

... الصمت الذى لبث خمسين ساعة !



٤ المصري



سى السيد ؟ ! لك حاجات يا حاج !

فى آخر يوم من أغسطس ٢٠٠٦ ، كان وحيد قد خرج من المستشفى حاملا بعد آثار ذلك الشلل النصفى ، بوعد أن تزول لو داوم على العلاج والجلسات الكهربائية وما إلى شابه . أثناء ذهابه للحمام متوكئا على الحوائط ، مر بأمه التى كانت جالسة على غير عادتھا فى ردهة الطابق العلوى هذا . لم تشأ الجلوس ببهو الثيللا كالعادة ، ولا المكوث بحجرتها . لم تطاوعه عضلات وجهه على الابتسام عرفانا بجنو ملاكه الحارس الوحيد . بادلته التحية دون أن تنهض ، فلم تشأ أن تبدى عليه جزعا لا فائدة من ورائه ، أو تشعره بالاحتياج أو العجز . لاحظت أنها كانت تمسك بمجلة . تذكر أنه لا يزال بعد كاتبا ، وأن هذه الغريزة لا يجب أن تنزع منه أبدا . طاوعته عضلات فمه بالكاد وهو يسألها أين صحف اليوم ؟ فردت عليه بلا مبالاة ' الظاهر البواب ما جابهاش النهارده ' . تصنع وحيد التجوال فى البيت تماشيا مع نصائح الأطباء ، وعيناه تجولان بحثا عن الصحف ، لعله يتابع بعضا مما فاته . ثم خطر بباله أن ينظر فى كوم الصحف المتراكم تمهيدا لإخراج الشغالة له للخارج فى يوم معين من كل شهر . فقد كان من عادة آمال أن تحتفظ بالصحف لفترة فى البيت لعلها تعود لها لسبب ما . فر طرف الكومة بحثا عن صحف من الفترة الأخيرة التى قضاها بالمستشفى ، لكن بأسرع مما توقع -أو على غير ما توقع- سقط بصره على تاريخ اليوم . يا للهول ! نجيب محفوظ مات بالأمس !

سحب الصحيفة بسرعة ، فهم ما قصدته أمه إشفاقا على حالته الصحية ، ولما تعرفه من حب قديم لديه لميرامار . ربما تعمدت أن تجلس فى الردهة لاكى تسهر عليه فقط ، إنما لتتحاشى فتح أى من جهازى التلفاز بالثيللا ، فى البهو الكبير أو فى حجرتها . لكن ما لم تكن تعرفه أنها هى نفسها ستموت فى غضون شهور ، وأن الحزن عليها سيفوق كل أحزان الكون . فى الفراش راح يقرأ ويقرأ . أو فى الحقيقة لم يقرأ شيئا إنما فقط تسمر بصره على صورة لنجيب محفوظ أخذت قبل سنتين ، بدقن غير حليق وچيرسى صوفى يحيط برقبتة .

كان الوقت عصرا ، ولم يفق من سباته إلا على جرس الباب يدق . بعد لحظات دخلت إليه ربيته الصحفية الشابة هالة . بعد قبلاات الترحيب بالسلامة ، لاحظت الصحف وأردفت : البقية في حياتك يا أستاذ ! هل ذهبتى للجنازة؟ كيف لم يذهب هو للجنازة؟ كيف لم يعلم؟ بل كيف ظل طيلة السنوات الأخيرة يعلن عن رغبته في مقابلة محفوظ الذى لم يقابله أبدا ، وصديقه محرر السينما بالأهرام يعده بأن يخبره لدى ذهابه إليه ، وأن يذهبوا سويا . لكن هذا الصديق نفسه فيما يبدو لم يعد يذهب لنجيب محفوظ ، منذ انقطعت صلته شبه الوظيفية به كمساعد له ، أو ربما ضيقا لأن آخرين قد حلوا محله . كنت أريد أن أقبل يدك ، ولو سمحت لى بالكلام لقلت لك إني ربما أكون أكثر من فهمك حق الفهم . كنت أعلم أنك لن تجاوبنى بأكثر من ابتسامة ، لكنى كنت أريد أن أوجز لك نظرتى فى ثلاثيتك . وإن قصص الفتوات -التي قرأت واحدة أو اثنتين منها عرضا بالجريدة- هى أعظم تجسيد لأمننا الطبيعية ولصراع التطور ولسيادة مبدأ القوة والتحيؤ للأليق ، وأن المشكلة دائما أبدا لم تكون القوة أو اللا قوة ، إنما الأخلاقيات المتضمنة فى ذلك الأقوى ، وأجزم أن ما من أحد خاض فى هذا أفضل منك .

قال وحيد لهالة لى طلب عندك . أنا عاوز نسخة مكبرة من هذه الصورة . استخدمى شطارتك الصحفية واعرفى مين المصور وهاتى لى نسخة منها ، يا ريت لو تقدرى فى برواز . لم ينتظر وحيد حتى أتته هالة بالمطلوب الذى وعدت به خلال يومين ، إنما هرع بمجرد خروجها وسحب حاسوبه وقبل أن يخطط لمكان يصله فيه بالتليفون ، وجد شاشته تعلن العثور على مدخل لاسلكى لشبكة الإنترنت . ربما تركه أحد الجيران مباحا لمن يشاء ، وفى ٢٠٠٧ لم تكن الدنيا على الحال التى هى عليه اليوم ، حيث باتت الإنترنت فائقة السرعة التى تبث بجودة التليفزيون على الحزم مكونا تلقائيا لجميع خطوط الهواتف ، والأبطا قليلا مجانا فى الهواء فى كل مكان تصل إليه شركات الاتصالات ، أو فى بعض الأماكن أصبحت أشبه ما يكون بالصرف الصحى ، تدفع لها رسما بسيطا دون أن تعرف حتى على أية فاتورة يتم تحصيله ، الكهرباء أم الهاتف أم المياه ، كل ذلك بالطبع حسبما اتفق . المهم أنه لم يمنع نفسه من الدخول السريع على ما فيه من تطفل . وبعد دقائق كان يضع الصورة المنشودة كخلفية مكبرة لما يسمى قمة النضد فى حاسوبه .

تنصرف هالة الغالية . ينادى الخادمة ويرجوها أن تأتية بالمذبايع . يجد البى بى سى العربية تعيد بث برنامج قديم عن نجيب محفوظ . به كلام رائع لمحفوظ ، ربما ليس جديدا جدا بالنسبة لى . لكن ما هذا الشيء الذى ينقلونه عنه ؟ اللعنة ! لقد سرق منى هذا اللص اللعين أكثر ما أعتزرت به فى حياتى ، شعارى فيها : ' حين أكتب لا أفكر فى أية اعتبارات ' . اللعنة ! سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !

ثم ما هذه الآلة العجيبة المسماة المذبايع ؟ هل لا تزال تستخدمها أمى حقا ، أم هى لمجرد الاستماع لمكتبتها الهائلة من أشرطة الكاسيت . أذكر كم أصابها الجنون يوم عادت من لبنان ، واكتشفت أنه لم يعد يوجد فى مصر سوى شركة واحدة لبيع أقراص الموسيقى ، تقع على يمين المدخل الطويل لسينما راديو القرية من شمال طلعت حرب . الغم لم يزاولها إلا حين بدأت فى نفس السنة تقريبا ، تنتشر الشركات التى تصدر الموسيقى على هيئة الشرائط المغناطيسية هذه ، وتنقل لها طوفانا من الموسيقى العالمية ، كلاسية وعصرية . اليوم كل ما يخص أكاسيد الحديد قد اندثر هو أيضا بدوره ، لا أشرطة موسيقى ، لا أقراص حاسوب رخوة ، ولا حتى صلدة . كل شىء إما أقراص مكتنزة وإما ذاكرة يسمونها بالفلاش . الكتب نفس الشىء . لم أتخيل للحظة أن أتخلى عن مكتبتى الثمينة ، التى هى حياتى نفسها ، لصالح قرص حاسوبى صلدة ، أو حفنة أقراص داتا دى فى دى ، قرص واحد فى الواقع يتسع لألف مكتبة لو شئت . حتى الأفلام التى احترفتها لم تعد ' أفلاما ' ، إنما صورا فيديوية فائقة الحزم تبث فى قاعات العرض السينمائى ، وأحيانا حتى تبث لها عبر الساتلايت !

كم عصرا مرت به أمى ، ولا تزال صلدة عظيمة لا تحدش ولا تمس . لقد دالت دولة الفينيل ، ودالت دولة السيليلولوز ، ودالت دولة السليلولويد ، ودالت دولة الحديد ، والآن كل شىء إما ألومنيوم أو سيليكون ، وأنت هى أنت بشموخك الجبار . بل قل كم عصرا مرت أنا به قزمها الصغير . هذا الآلة العجيبة ، المذبايع ، كانت كل حياتى يوما . أليست الحياة دائرة مغلقة ؟ أليست الحياة والموت دورة مغلقة ؟ اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ هذه الآلة التى لم أمسسها منذ عقود ، ها هى الآن أنيسى الوحيد . حين كنت صغيرا لم تكن لى متعة فى الحياة أهم من البحث كل مساء عن محطة صوت أميركا . لا يفوتنى يوم واحد من الاستماع لزنب الحكيم وما تقدمه فى برنامج للموسيقى الغربية ، فيما أذكر ربع ساعة عبارة عن ثلاث أغان زائد رابعة كلاسية قديمة . أوه ! كيف لم أظن لهذا قط حتى الآن ؟ ! يا للهول ! الأمور كانت أخطر مما أتخيل . هذا المذبايع لم يكن للموسيقى فقط . أليس ذلك البرنامج الأسبوعى عن الشخصيات الأمريكية الريدادية ، الذى لا أذكر منه الآن شيئا إلا جزءا

من مقدمته يقول إن أميركا تبجل من يستطيع كذف كرة البيسبول لمسافة أطول ، أليس هو النبتة ، أليس هو الشرارة ، التي اشتعلت وتشعبت فوقها أغصان كل معتقداتي الاقتصادية والفلسفية ، التنافسية والسوق وأرسطو وأما الطبيعة ؟

... فقط شيء واحد غامض كان يحدث كل ليلة ، كان يتلو كل هذا برنامج صغير عن المهاجرين لأميركا ٥ دقائق ينتهي به البث وقد كان مجرد ساعتين على ما أذكر ، ما أن يبدأ حتى كانت أمي تهول وتغلق الراديو ؟ ! 'وحياة غربتي' ، أو 'وحياة الجينينات' ، لم تحاول أبدا شرح لماذا تفعل هذا ، فقط تقول هذا ميعاد النوم .

وحيد لا يقرأ الروايات . قرأ القليل جدا منها . لمحفوظ قرأ ميرامار في صغره وأدمن مقاطع منها تناجي ميوله الفلسفية ، بعد ذلك زاد انبهاره بها عندما كبر وشاهد فيلم كوروساوا القديم 'راشومون' ، ولاحظ أن محفوظ استخدم ذات الفكرة الخلابية في رواية ذات الحدث من منظور أربعة أشخاص ، فيبدو جد مختلف في كل مرة . حين فاز محفوظ بنوبل ، أرسل وحيد في طلب الثلاثية وفي طلب 'أولاد حارتنا' ، على الأقل جريا على موقفه المعهود من الأدب الذي يستقله ، موقف ألا يظل معزولا عن شيء يتحدث عنه كل الناس ، فيبدو كما الأصم في زفة عرس . جاءته الثلاثية أولا . قرأ أول عشرين صفحة ، حيث أمينة تطرد العفاريت التي تنهش وجهها طوال الليل إلى أن يأتي الإله (الزوج) الذي تحتفى مع قدومه كل الشياطين هاربة إلى جحورها ، ثم سرعان ما يتضح أنه إله مزيف ذو وجهين ، ووضع من مجرد هذه الصفيحات نظرية فحواها إن أمينة هي مصر التي اخترعت فكرة الإله كلي الجبروت كى تعبه لأبد الدهر ذليلة مهيضة ، ولا تحصل في مقابل هذا ، ولا حتى في مقابل بيع الفكرة لكل البشرية ، سوى على الضعة وذل العبودية الاختيارية اللانهايين (كلها بغض النظر أصلا عن كون ذلك الإله وهما خواء هباء) . في اليوم التالي جاءته أولاد حارتنا في نسخة مهربة من بيروت ، فقرأها في مشوار واحد وسكر حتى الثمالة من أفكارها . ثم شغلته الشواغل كرئيس تحرير ، وانصرف عن إكمال الثلاثية .

الآن -وحيدا طريح الفراش لا ترتفع عيناه بالساعات عن الصورة الإلكترونية لوجه محفوظ المتجدد بالتعابير- خطر بباله -دون أدنى سابق إنذار- أن يكتب رواية هو نفسه . لا يمكن أن تظل مصر بدون أديب يوصف باليميني ؛ هم في حاجة لأحد يحاربونه ! ارتسمت في لحظة معالمها . إنها قصته هو ، لا تعوزها الدراما ، قصة أسرته وقصة معارفه ، قصة تجربته بما فيها من أحلام وإخفاقات . قد تروى قصة مصر أيضا ، وربما تعرج على بعض الجيران العرب . لكن على الأرجح لن تكون ارتقاء وصعودا كما حدث مع ارتقاء الطبقة الوسطى الفكرى والمعنوى الذى جاهدته جيل كمال عبد الجواد ، إنما غالبا العكس : النصف الآخر للدورة ، الإنحلال التدريجى الذى لا محيد عنه . بسرعة حدد الفصول ، جاءته البداية والنهاية ، وجاءته الفقرة الافتتاحية لكل فصل . لكن سرعان ما استسحف الفكرة برمتها . نعم ، من الصحيح أن كتابة الأدب تعطى حرية أفضل بكثير من السينما . فى السينما أنت محكوم بقبول لا نهاية لها ، بوسيط تعبير ضيق ، وبجمهور له أهواء وتيارات ، وبمميزات ضخمة لا بد من استردادها . أما الأدب فيبدو أيسر كتابة ولا تحده قيود . إنه كلمات وأفكار سلسلة تذهب حيث تشاء ، واقتصاديا هو حفنة ورق لا يكلف تعميمها إلا آلاف قليلة من الجنيهات ، وما يتطلبه من بحث وتدقيق ومعلومات هو شيء طبيعى مطلوب وبديهى لأى تأليف كالسينما وغيرها . لو كنت فى الخارج لأتوا حتى بمن يدققها لى . لكن فى مقابل كل هذا ، ما أدرانى أنا بصناعة الأدب ؟ إني حتى لم أكتب للسينما بنفسى ، فقط تعلمت كيف أحكم على ما يكتب ، ويا ليت حكمتى كان صائبا دائما .

إذن الحل الأمثل -طالما خفت ولو مؤقتا ضغوط شيطان الكتابة ، الذى لم يكن رجيمنا جدا على أية حال- هو أن أشغل محبسى بقرأة الثلاثية . 'سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !' . تكررت وتكررت ، إلى أن وصل إلى منتصف قصر الشوق ، حيث تبلورت لديه مشاعر أشد اختلاطا . شجعه أن يتحدث محفوظ عن مثقف مثله . لكن كل القصص التى يكون بطلها مثقفا أو صحفيا أو ما شابه ، قصص سخيفة ، لأنها لا تهم القارئ العام ، وتفشل . لو جعل نفسه بطلا لقصة ستكون السخرية عنها ، سيضيف لحياته فشلا على فشل . نعم ، نجيب محفوظ يجسد نفسه فى كمال عبد الجواد ، لكن بعد أن قدم بانوراما عريضة لشخصيات كثر ، أغلبها من طبقة يعرفها عموم الناس .

هنا تكاثفت المشكلة الأكبر . 'سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !' . أنت متخصص فى الفلسفة ، مثلى لنقل . لكنك كتبت كل شيء ، ولم تترك لتافه مغرور كشخصى شيئا كى يكتب . فى ثلاثة كتب جمعت موسوعة لكل البشر وكل المشاعر وكل الأفكار ، حتى أعمقها فلسفية . ارحم خللى رحمة ربنا تنزل ، كما يقول المتدينون . كل فكرة يعترضها حتى الثمالة ، كل موقف له ألف زاوية وزاوية عنده ، كل شخصية لها عنده داخل ثناياها ثنايا أخرى ، إلى ما لا نهاية من ثنايا أدق أصغر وأغرب . داخل كل قريح يوجد قريح أدق أصغر وأغرب . ارحم خللى رحمة ربنا

تنزل . حتى ما خططته من أفكار وشخصيات ومواقف تخيلت أنها تخصني وحده ، وجدتها موجودة ، على الأقل في النصف الثاني من المجموعة ، وعلى نحو يكاد يكون حرفيا . لقد سبقه إليها نجيب محفوظ -سرقها- بلا حياء .

يا للهول ! الأمر إذن ليس مجرد قصص فتوات شبه رمزية . أنت كلك من تفتح وعيه لحظة راحت نظرية التطور تعصف بعقول العالم شرقه وغربه ، وكانت تحظر من المدارس حتى في أميركا نفسها ، التي هي أكبر تطبيق عملي لها في التاريخ ! كل ما فيك يا سيدى يستوجب الحسد ، لكن لو سمحت باختيار واحدة فقط ، فهي لحظة نشأتك هذه ! إنها السر في أنك المفكر الوحيد في تاريخ مصر وربما في تاريخ كل الشرق ، مترابط الرؤية من الألف إلى الياء ترابط جزئيات الحديد الصلب ، أقولها وليغضب من يغضب . اليسار يكره الدراما ، ويصنع كتباً وأفلاماً شديدة الملل ، لأنه يزعم أن تلك تلاعب رخيص مصطنع بانفعالات المتلقين ، وأنت ' ديمقراطي ' للغاية حين يتعلق الأمر بالمشاعر . الأمور التي تحتاج لعقل وخبرة ربما لا ينبغى فيها أخذ آراء الجهلاء ، لكن حين يتعلق الأمر بالسعادة والمتعة الفردية ، فالحرية والاختيار حقوق أصيلة لكل إنسان . اليسار يكره الدراما لأنها صراع ، والصراع الوحيد الذى يعرفونه هو صراع النهب الطبقي ، صراع التحيؤ للأسوأ ، وأنت ولدت في لحظة مخاض استنارة العالم الفكرية المؤلمة على قانون عمره من عمر الأزل ، قانون اسمه التحيؤ للأليق ، وللأليق فقط . اليسار يرى القوة ظلم ، وأنت تراها حق . طبيعى ! فحتى لو ساد القهر والطغيان حين ، فإن ثقتنا لا حدود لها في تدخل قانون الدغل لإحقاق الحق . تدخل القانون الذى لا يقبل التفاوض أو المساومة ، فلولا أن كانت قوى الخير تنتصر على قوى الشر ، لما حدث النشوء والارتقاء أصلا ، ولما وصلت البشرية لهذه النقطة أبدا ، بل لما وصلت الأرض لمرحلة ظهور الإنسان أساسا . طبيعى بالتالى أن يكره اليسار النهايات السعيدة باعتبارها تعقيب مصنع الأوهام والأحلام الهولليوودى الإمبريالى الشرير للطبقات والشعوب الكادحة ، وأنت كل نهاياتك إيجابية منتصرة لأنك الناطق الأكثر من رسمى بلسان وروح إلهنا الحق ؛ أمتا الطبيعة ! ولا غرابة ، فهم يكرهون الفن للمتعة ويسمون الفن للنكد فنا للمجتمع ، والمقصود فن لاستلاب المجتمع . اليسار يكره الحلول الفردية ؛ إما حل جماعى وإما أن يبقى الإنسان مهزوما مأزوما للأبد ، وأنت كل حلولك فردية لأن هكذا علمتنا تجربة نشوء كل حضارات الإنسانية الثلاث على مبادئ الحرية والتنافسية وتحمية الكسول الضعيف والمتخلف . باختصار ، اليسار يريد استرقاق واختطاف كل هؤلاء الناس كبيادق لأجندته الانتهازية الانتهاجية و ' الفردية ' جدا ، وأنت بكلمة : الحرية كما يجب أن تكون !

إذن يجب فعلا صرف النظر عن فكرة كتابة قصة ، حياتى وخبراتى أغبى من أن أزعج أحدا بها ، وحياتى أضيق من أن يوجد فيها أمثال شخوص محفوظ . حياتى لم ولن يكون بها بطل بعرض وطول أصغر شخصياتك . حياتى تافهة ولأرضين بهذا . والحل الأمثل أن أهون المرض على نفسى بالاستمتاع بقراءة محفوظ . باستهلاك الكتابة بدلا من إنتاجها ، استهلاك محفوظ ، وربما غيره لو سح الوقت ، أو سمح المزاج .

ألعل هذه كلها من طبائع الأمور ؟ اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ حين نكون شبابا نؤمن بالعلم وبالثروة وبالعالم وبالآشياء الضخمة والتغييرات الشاملة . وعندما تضعف بنا الحياة ، نقبل عما فاتنا من متعتها الصغيرة ، قصص عادية لأناس عاديين ، فتهزنا وتدمعنا وتضحكننا ، بأتراحها البسيطة وأفراحها الأيسر . تدفعى قلوبنا وتلثم شروخ الزمن فيها . أرسطو هو عنفوان الشباب ، لكن حين نحن يطل أفلاطون برأسه .

اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ تقاطع الدموع عيوننا نصف قرن ، ثم تغدق علينا كرمها الفجائى دفعة واحدة ، من مجرد قراءة قصة مختلفة . لماذا ؟ لا بد من سبب . ما السر في تلك القصص ؟ يا للهول ! لا يوجد سوى سبب واحد . إن بما كل هذا الحب الدافق . الحب ، الشيء الذى تخلو منه حياتك .

اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ من الأفضل ألا نكبر أصلا ! الآن فقط فهمت لماذا ينتحر أناس بدوا أحيانا شديدى البأس : إنهم لا يريدون أن يجربوا الضعف !

ترى كيف تفكر فتاة رائعة كهالة في شخص مثلى ؟ هل هي فتاة عادية تسعى لما بسمونه بالأمان المادى ، و ' تحلم ' بواحد مثلى ، وتدخل في مناورات ومناوشات للحصول على أفضل صفقة ممكنة . مستحيل بالتأكيد ، هذه ليست هالة . لكن لماذا لم تتزوج حتى الآن وهي في الخامسة والعشرين ؟ الأرجح أن لديها مخططاتها حياة مهنية عريضة . أتريد مفكرا ومثقفا مثلها ؟ ربما . لكن لا شىء يبدر عنها . لماذا تؤجل بالكامل مشاريع العاطفة ؟ يا لهذا الجيل الغامض ؟ جيل ؟ وغامض ؟ هل نسيت من أنت ؟ ألم تؤجل أنت أيضا مشاريع العاطفة ، بل وربما ازديتها ؟ آه ! الخامسة والعشرين ، إنها أقل حتى من نصف عمرى . هل أحبها ؟ هل يمكن أن أحبها ؟ أم هل هذه هي محنتى ؟ آثار جانبية لتلك الكومة اللعينة من الأدوية ؟ أمحتى أقوى من تربية أمى لى ، التى طالما نهرتني عن إظهار مشاعرى ، تربية لا شك أنها تلتقتها هي نفسها عن أمها

الإنجليزية . لا غرابة أن أول شيء علق بذاكرتي من طفولتي المبكرة جدا هو نظرة وجه أُمى المتقطب لى يوم كسرت كوبا . عندما كبرت فهمت أنها لم تقطب فى وجهى لأنى كسرت الكوب ، إنما لأنى بكيت لأنى كسرتة . ما أرفع الخيط الذى تطالبينى بالسير عليه يا أُمى ؛ هكذا كانت عبارتك التى لم أنسها للحظة : ‘ ما بين الحرية وبين عبودية ما تحب خيط رفيع يا بنى ! ’ . كلها فهمتها وحاولت تطبيقها إلا ما يخص الحب ؛ شربت الخمر وكل ما هو دون الإدمان من العقاقير ودائما ما توقفت قبل خطك الأحمر ، حتى الصادقات لم أغمس نفسى فيها أكثر مما يجب ، ثم أنى لم أعبد نفسى يوما بل أزدرى العرق البشرى برومته واشتمت من خيالاته الزائف ، أما الحب فهو عبودية بحكم التعريف تقريبا ، فكيف أحب دون أن أصبح عبدا ؟ !

يا لها من حياة دوارة . الحياة تبدأ بالبكاء وتنتهى بالبكاء . ولا غرابة . ترى هل هذه الدموع التى جاءتنى الآن رغما عنى هى معمودية الشفاء بعد طول جذام ؟ أم هى أم الفواجع ؟ الطامة الكبرى ؟

يا للهول ! هل ما ينقصنى هو ذلك الشيء المسمى الحب ؟ يا لها من فكرة مرعبة أطبق الشلل والموت ولا أطيقتها !

وعاد ليسرح من جديد -طويلا- فى الصورة ذات الإطار الخشبى عتيق الأسلوب التى أحضرتها هالة ذات الشطارة النادرة هذا المساء ، ويقول بأسى ‘ لقد سرقت كل أفكارى أيها اللعين ! ’ ، هذا بينما أخذت جاذبية الأرض تجر من مقلتيه كرتين بللوريتين من الدمع الحار ، وتسحلهما ببطء فوق خديه شبه المتخشبين .

سى السيد ؟ ! لك حاجات يا حاج !



الرجل الثانى مين فيهم يا روح أمك ؟

لم يعرف أحد عندما ضربت إنفلونزا الطيور ، العالم ومن ثم مصر فى ربيع ٢٠٠٦ ، لماذا يرتفع سعر سهم شركة الدواجن ، بينما هى تغلق مرابيتها ومسالخها ، بل وبواباتها الخارجية غلقا ، يوما بعد يوم ، وعلى امتداد كل البلاد . كل يوم كان السهم يزيد بنسبة ٥ ٪ القصوى ، وكل ما يطرح من أسهم يشتري عند هذا السعر الجديد المتصاعد . الآن يعرف الجميع أن ضهرى عبد الحميد المصرى كان ذلك السبب الغامض .

ذات يوم جاء بشنطة بلاستيكية مملوءة بشرائح البنجر ، قائلا أنا أزرقه وأكل منه يوميا . إنه يقى من ضغط الدم ، وكذلك يعالجه . لما لم يقبلوا جدا عليه ، ناهيك عن أنه كان هو مخترع نظرية أن البنجر يخفض ضغط الدم المرتفع ، وليس أية جهة علمية ذات شأن ، عاد فى اليوم الثانى بزجاجة بها سائل قرمزى ، وقال هذا عصير بنجر ، أنا موش عازمكم عليه لوجه الله . أنا عاوز رأيكم ينفع معلبات ولا لأ . لم يرد أحد ، لكن هب روميو أمرا ميرفت : يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدبني فلوسى . أنا عندى فكرة ها أشارك فيها الحاج . ها نفرم البصل والتوم ، ونبيعهم مجمدين ، بدل الستات (أو الرجالة) ما تطلع عينها فى التقشير والدموع ، تلقاهم جاهزين م الفريزر للحلحة على طول .

ما حدث بعد ذلك يومها أن شرب الجميع البنجر عن آخره . وفى اليوم الثالث أتى الحاج بزجاجة ماثلة ، قائلا ربما أفكر أيضا فى افتتاح مصنع لمشروب غازى مصنوع من عصارة البنجر . النتائج مبشرة ، لكن نظرية خفض ضغط الدم أصبحت على المحك فجأة . كان من المفترض حسب نظريات ضهرى الطبية أن يؤدى البنجر لهدوء أعصاب الجميع ، إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو . لم تمض دقائق حتى دخل مينا فى مشادة مع سامر الذى كان يقوم بوظيفة خدمة العملاء فى ذلك اليوم ، وربما كان متوترا قليلا بسبب مرض وغياب الحبيبة . مشادة مارس فيها مينا كالعادة سلطته الطبقية : ‘ بأقول لك هات لى ال EGS (رقم القيد بالبورصة المصرية) بتاع شمال الصعيد . علشان أدخل أمر العميل ’ . ألقى سامر الورقة بغیظ ، ثم لاحظ وجود العميل ، فوضعها تحت رزمة الأوامر أمامه . زاد تسلط مينا : ‘ أنا هنا الرجل الثانى ، وبأقول لك هات كود الشركة علشان الأمر يدخل ، ميرفت ما تقولش لأ على حاجة زى دى ’ .

هنا انبرى له ضهرى ناهضا : الرجل الثانى ؟ الرجل الثانى مين فيهم يا روح أمك ؟ رشدى أباطة ؟ ولا أيمن الظواهرى ؟ ولا نادى الزمالك ؟

تكهرب الجو ، ولاحظ البعض أن ضهرى لم يتحرج من الثورة لصالح موظف صغير ضد أحد أصحاب الشركة ، ناهيك عما قد يفسر عليه موقفه من أنه نوع من الانحياز الدينى ، من مسلم ضد مسيحي لصالح مسلم . كان هذا ملموسا مثلا من خلال سيدة عجوز تهمس بملامح غاضبة لأخرى جالسة بجوارها ، بينما تشير فى نفس اللحظة للصليب المطبوع على رسغها . لكن الحقيقة أن الحاج لم يكن يتحرج من شيء

كهذا ، لم يكن يتحرج من أى شىء إطلاقا : روح اتبيل يا سى تانى ! شوف شغلك بنفسك ، أنت منفذ واعمل شغل المنفذين . قبل كده إدوارد قال لك كل المعلومات موجودة على شاشة التنفيذ واعمل بحث . سعادتك كسلان ، والراجل ده شغال خدمة عملاء ، موش سكرتير لك . أنت هنا موش ريس على حد ، أنت تنفذ زى أى منفذ فى الدنيا .

حاول مينا الرد : مين قال كده ؟

- أنا بأقول لك كده .

ثم علا صوته جدا وهو يدفع ورقة أمر الشراء بسلسلة لكلمات قوية لصدره : سامع ؟

تذكر وحيد ما مر عليه مرور الكرام يوما من جدل دخله ضهرى ضد إدوارد حول غزو الأقباط لمصر الجديدة ، وغيرتهم من الشركات الأمريكية . الآن هو يضيف لغزا جديدا بموقف يتجاوز حدود صلاحيات عميل شركة أيا من كان ، مع أصحابها وموظفيها . أما ثالثا فاللغز الأكثر غموضا من أى شىء ، فهو لماذا يقطع ضهرى أصلا كل هذا المشوار البعيد يوميا ، من أجل شركة صغيرة بعيدة تافهة وفوضوية كشركة رمسيس . من هنا قرر وحيد أن يستجلى كل الأشياء دفعة واحدة . انتظر حتى عاد ضهرى لمقعد على المائدة المستديرة ، وبدا كمن يحاول أن يخفف عنه من غضبه ، فسأله : لماذا تقطع كل هذه المسافة يوميا ، وهناك شركات كثيرة أقرب وربما أفضل ؟

أجاب بدهشة : أنت ما تعرفش ولا إيه ؟ العيال دول ، إدوارد ومينا ، بيقوا أولاد خالتي .

فغر وحيد فاه : تقصد أن أمك مسيحية ؟

- آى ، نعم !

- وماتت مسيحية ؟



أدرك هذا المستوطن بحسه المغامر أن ثورة كبرى تجرى على أرض مصر

الجذور الأولى لقصة القرابة بين هاتين الأسترين تطعن فى الماضى قرابة قرنين من الزمان . بطلها الأول كان شخصا اسمه مايكل كوك . هذا المغامر هو بالأصل مساح إنجليزى . ومساح تعنى من يستخدمون أجهزة كالنيودوليت والميزان وما شابه ، لرصد وترسيم تضاريس الأرض ، ومعرفة المناسيب الخاصة باليابسة أو بمجارى المياه ، ووضع العلامات عليها ، وهكذا . جاء إلى مصر فى ثلاثينيات عمره سنة ١٨٥٤ ، السنة الأولى لحكم سعيد باشا . كان مشروع بناء القناطر الخيرية ، الذى دشنه مُجد على باشا سنة ١٨٤٣ ، قد توقف طويلا كل فترة حكم عباس باشا الأول المتشكك جذريا تجاه شىء اسمه التحديث (لعل كل حكام أسرة مُجد على أناس ممتازون ، إلا من حملا اسم عباس . لكن على أية حال لا يذكر الرجل قط بمثالبه الكثيرة وتشدده الدينى ، إنما فقط بالمشروع الوحيد الذى وافق عليه : خط القاهرة-الأسكندرية الحديدى ، الذى جعل مصر ثانيا بلد فى العالم يعرف اختراعا اسمه السكك الحديدية بعد بريطانيا العظمى ، يمكنها به أن تنابذ ألمانيا أو اليابان أو حتى أميركا أنها سبقتها لشىء ما فى العصر الحديث !) . ما حدث أن أتم سعيد مشروع قناطر الدلتا -أو القناطر الخيرية كما صارت تعرف- بعد ١٧ عاما كاملة من بدايات أبيه لها ، ثم أجرى فيها من بعده إسماعيل إصلاحات وتعديلات كبيرة مهمة ، هى التى أخرجت منفعتها وكمونها الحقيقيين .

شارك مايكل كوك إبان حكم ذلك الوالى الطموح سعيد باشا ، فى بناء القناطر . لكن ما غير وجهة حياته أن شارك أيضا فى البعثات النيلية التى راحت تقترح أماكن للسدود الأخرى اللاحقة اللازمة لاستكمال مشروع إدخال هذا النهر العظيم إلى عصر نظم الرى الحديثة . من هنا فقد تفقد مجرى النيل كله ، عرف كل البلاد وكل القرى . وفى خاتمة المطاف أيقن أن الأماكن شبه المؤكدة لاقتراح القناطر القادمة ، هى أسيوط وإسنا فأسوان بالترتيب . اختار أقربها للقاهرة وأقربها لاحتمالية التنفيذ ، أى أسيوط ، ثم وجه جنوبا منها قليلا . اختار -بدلا من شد الرحال عائدا للجزر البريطانية- سفح الجبل الغربى المواجه لمدينة أبو تيج . كانت فكرة إحكام الوالى -أى مُجد على وورثته- قبضته على ملكية كل أرض مصر ، قد تراخت ، بل وثبت فشلها . واستبدلها سعيد -الذى كان النقيض المطلق من أخيه عباس- بنظام ملكية الأرض الأوروبى ، فأصدر قانون توريث الأراضي سنة ١٨٥٥ ، حيث سرعان ما أصبح كل المطلوب ملكية الأرض وحق التصرف الكامل فيها بعد ذلك ، هو حيازتها لمدة خمس سنوات ، ودفع ضريبتها خلال هذه المدة .

أدرك هذا المستوطن بحسه المغامر أن ثورة كبرى تجرى على أرض مصر ، هذه المدعوة من قديم هبة النيل . مع ذلك لم يكن قادرا على امتلاك الكثير من أرض زراعية منتجة بالفعل ، فأثر ملكية أرض أغلبها صحراء ، لكن شاسعة الأطراف لا تقل مساحتها عن ألفى فدان . كان واثقا أن بناء القناطر الجديدة في أسيوط ، سيرفع منسوب النهر ، ويجعل في وسعه رى كل تلك المساحات بسهولة . مع ذلك لم ينتظر حتى تمام هذا ، واستورد من إنجلترا طلمبات تعمل بقوة البخار ، وبدأ بالفعل في زراعة ما تيسر له من تلك الأرض .

لم يعجبه أن يسمى ' طباح ' بدلا من كوك ، إذ كانت ثقيلة النطق وصعبة الكتابة بالحروف اللاتينية . فأخذ يبحث في الكلمات العربية المرادفة لمشروعه ، بالأصل كى يختار اسما لنفسه هو شخصيا . من بين ما قيل له كلمات مثل قرية وبلد وبستان وضبعة وعزية وكرمة وغيظ وغوطة . اختار هذه الأخيرة . سيكتبها بالحروف اللاتينية Goethe بحيث تطابق اسم الشاعر الألماني الذي كان قد عاش حتى أواخر القرن السابق ، وبدأت تظهر للتو ترجمات بالإنجليزية لمؤلفاته فيهرت الدنيا . أما بالعربية فغوطة كلمة معروفة تعنى الأرض الممتدة السهلة الطرية التي لا تخفى خطرا . وأسعد كوك أن مال عليه أحدهم مفهما إياه أنها كلمة شعرية هي الأخرى ، أو على الأقل هي كلمة مندثرة بعد انقلاب الواو ياء لتصبح غيطا لا غوطة . بحكم الضرورة -وبحكم الارتياح لانتمائه الجديد- غير أيضا اسم مايكل إلى ميخائيل ، ولم يكن ثم مجهود أو صعوبة في هذا الاختيار الجاهز سلفا . وبالزواج من ابنة لأحد أعيان أسيوط ، مدهشة الجمال خضراء العينين كلون الزرع الذي يجبه ، تأسست من كل هذا وذاك أسرة ميخائيل غوطة التليدة العتيدة .

لم يتحقق حلم ميخائيل غوطة بالسرعة التي تخيلها . لم يشرع في بناء قناطر أسيوط ، إلا في السنوات الأخيرة جدا للقرن ، تحديدا من ١٨٩٨ إلى أن انتهت في ١٩٠٢ . مع ذلك لم يعجزه هذا . قبل أن يتحقق تشييد القناطر كان هو وأولاده ، قد زرعوا بالفعل كامل الأرض تقريبا باستخدام ماكينات البخار الحديثة ، وكذا أنشئوا مزارع للمواشى ، وككل صاروا من أعيان الصعيد كاملى الأوصاف والعراقة . مع ذلك فقد عاش غوطة ليرى إنشاء القناطر . وكان -على كهولته- يذهب لعاصمة المديرية ليعاين المشروع ، متمنيا لو كانت الأقدار قد بكرت به قليلا ، وأصبح أحد المشاركين في تنفيذه . مما اثار حسده لعدم المشاركة ، رغم كل ثرائه وسعة عيشه ، أن قناطر أسيوط دخلت تاريخ الهندسة المدنية كأول منشأة مائية في العالم تستخدم فيها الطفلة المحروقة (الپورتلاندا أو الإسمنت في التسمية الضرورية اللاحقة) ، كرابط للأحجار الجيرية ، حيث من خصائصها أن تتماسك وتقوى بفعل الماء .

علم أيضا أنه يبنى بالتزامن -أو متأخرا في حدود شهور فقط- خزان أضخم في أسوان ، وأنهم بدءوا بالمثل مشروع قناطر عند زفتى على فرع دمياط ، وأن قناطر إسنا الموعودة قد يشرع بها في حدود سنوات قليلة ، كذلك ربما يبدأ بعد ذلك التفكير في قناطر رابعة عند نجع حمادى . قالوا له إن الإنجليز موجودون الآن بأنفسهم في مصر ، بعددهم وعتادهم ، بمهندسيهم وعسكرهم .

قالوا له إن كل الأحلام المؤجلة لحكام مصر طيلة نصف القرن الأخير ، سوف تتحقق خلال سنوات قليلة مع قدوم القرن الجديد . وقد كان ! قالوا له إن اقتصاد مصر سيشهد طفرة خلال مجرد السنوات العشر القادمة ، سوف تضاعف كل ما تحقق لها من اقتصاد طيلة ٧٠٠٠ سنة . وقد كان !

عاش كوك -الاسم الذى كان لا يزال يناديه به الكثيرون ولم يتلاش إلا برحيله- عاش حتى بلغ ما بعد المائة . ومن عجائب القمص أن خلد الاسم رغم ذلك ، بأن صار أحد أفعال اللغة العربية الدارجة في الصعيد الأوسط أن يقال ' كوك ' ، بتشديد الواو ، بمعنى طعن في السن وذهبت ذاكرته !

أحد أحفاد ميخائيل غوطة ، ويدعى حارس غوطة ، كان أن شد رحاله إلى القاهرة ، كى يحصل على إجازة في المحاسبة . لم يكن من عشاق الزراعة ولا الريف ، وبالفعل انتهى به المطاف محاسبا في بنك قاهرى صغير مملوك لأسرة يهودية ، ارتقى فيه إلى أصبح نائبا للمدير . تزوج من فتاة أرمنية ، أعجبه فيها شعرها المموج الضخم . تقليديا يعتبر الإنجليز الأرمن شريكين ، لكن حارس قال إذا كان جده قد تزوج من مصرية ، فليس من الأسوأ أن يتزوج هو من أرمنية . عائلتنا ترى في امتزاج الثقافات شيئا جيدا ، وعميدنا هذا تسمى حتى اسما ألمانيا-عربيا-مصريا في آن . مع ذلك انضمت هي لطائفته البروتستانتية وارتبطت بكنيستها المجاورة لهم ، وتخلت لحد كبير عن طائفة الأرمن وكنائسها . أنجب حارس ابنتين توأم دعاها ماديلين وماريلين . أو مادلين ومارلين في التعريب العربى السوقي الذى كان يكرهه وينهر عنه بشدة . من خلال هاتين الفتاتين الطائشتين بدأت قصة القرابة الغربية المشار إليها .



كان الشبان ويسمى الطلعة معسولى الكلام ،

والفتاتان فانتين مولعتين بحب الحياة والسعادة والاستمتاع !

فى مطلع الأربعينيات ، فى مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا ، نشأت الصداقة بين الشابين عبد الحميد المصرى وأرميا رمسيس . يوم تقديم الأوراق تعارفا . الأول جاء قادمًا من مدرسة بالقناطر تدعى مدرسة نور السلام . هذه كانت مدرسة ابتدائية ، وكلمة ابتدائية فى تلك الأيام تعنى دراسة ثانى سنوات ، وتقريبًا تحل محل المرحلتين الابتدائية والإعدادية الحاليتين . كانت نور السلام مملوكة للجالية الهولندية ، ويتولى التدريس فيها هولنديون وهولنديات ، ثم آلت لاحقًا للطائفة الإنجليزية المصرية ، وما نور السلام إلا بيسوع المسيح . وتاريخيًا يمكن اعتبارها أحد رموز التحرر فى مصر ، حيث كانت رائدة فى حقل المدارس المشتركة ، والتعليم السابق كله كان كاثوليكيًا يفصل بين البنين والبنات بجدر حديدية .

أما هذا التعليم الكاثوليكي ، وما أكثر مدارس فى منطقة الفجالة ، فقد كان النبع المنطقى لتعليم أرميا . سأل عبد الحميد المساعدة من أرميا فى تدبير حجرة للسكنى ، فهو من القناطر الخيرية ، ويفضل تحاشى السفر الطويل . وإن الحقيقة أن شوقا اعتمل داخله لحرية نسبية تتيحها الإقامة معظم الأسبوع فى القاهرة الصاخبة بعيدًا عن الأسرة . فقال له : بسيطة ! تعال معى ، نحن قريبون من هنا ، فى حدائق شبرا ، وأبى سيدبر لك كل شىء .

حدائق شبرا كانت اسمًا على مسمى . مزارع لا تحيطها الأبصار . كل المساكن مكونة من طابق واحد . من بينها كان ' الخواجة ' رمسيس قد بنى عددًا من البيوت ، بهدف التأجير . فملكية العقارات تعد استثمارًا مربحًا ، وفى ذات الوقت بابًا للوجاهة . أو لعلهم يعتقدون أيضًا أنها ستخلد ذكراهم ، ربما كما حدث مع خوفو وخفرع ، فالواضح أن الناس اعتادوا أن يشيروا للبيوت ويسمونها بأسماء مالكيها من بنوها . أسكن الأب عبد الحميد المصرى بلا مقابل تقريبًا ، لسببين : الأول عربون صداقة وبيزنس مع كبار مزارعى القناطر . والثانى حتى يذهب الولدان للمدرسة سويا ، وكذا يستذكران الدروس سويا ، فتقل مشاغله على ابنه .

بعد ثلاث سنوات من الزمالة انتقلا سويا لتوفيقية أخرى ، مدرسة الزراعة العليا . رغم أن أحدهما جلس بجوار الفتيات فى فصول دراسية امتدت لسنوات طويلة ، والآخر لم يعرفهن إلا بالتسكع خارج أسوار مدارسهن ، إلا أنه كان تجمعهما منذ الطفولة الوسامة وشدة التألق . وكانا نجوما وسط الفتيات كلما تيسر الأمر . ويبدو أن الأمر سيتيسر فعلا ، وبأيسر مما تخيلا ، فهما -١٩٤٥- أول دفعة يسمح فيها بدخول الفتيات لمدرسة الزراعة بالجامعة المصرية . إلا أن القدر كان يخطط لحدث ذى شأن عظيم ، فى مكان بعيد على الضفة الأخرى للنهر .

عيد الفصح ١٥ نيسان ، وعيد رأس السنة اليهودية أول تشرى ، وعيد الغفران أو يوم الصوم الكبير - كما يسمى فى مصر على الأقل ، فهو بالفعل صوم ٢٥ ساعة متواصلة- يقع فى العاشر من تشرى . تحتفل مصر رسميًا بثلاثة أعياد يهودية كل سنة ، هى هذه الأعياد ، بمعنى أن تعتبرها الحكومة عطلات للمصالح والبنوك والبورصة ... إلخ . دخلت مصر حربين ضد إسرائيل ، دون أن تلحظ أية مشكلة مع هذه الأعياد ، ولم تتنبه لأن الأمر لا يماشى جدًا ثورية ثوار يوليو ولا شوقيينتهم العروبية إلا بعد الحرب الثالثة ، سنة ١٩٦٧ ، فألغوها . باستثناء عيد الفصح ، كل أعياد اليهود الرئيسة أعياد كنيية ، بل كنيية جدا . كلها صوم واعتكاف وندب وندم وعذاب . لا مظاهر للاحتفال ولا حتى للتزاور ولا حتى الذهاب للمعابد للصلاة . الفصح هو العكس . لذا كانت المناسبة السنوية الوحيدة التى يزور فيها حارس غوطة زملاءه ورؤساءه فى البنك فى بيوتهم هى يوم ' البيساح ' ذاك .

هذا العيد الذى يمتد بعد ذلك لسبعة أيام ، هو عيد الحرية ، ذكرى الخروج من عبودية مصر . وهو عيد الربيع وبواكير الحصاد . وثالثًا هو عيد الطعام ، ليس فقط الفطير الذى صنعه وأكله على عجل العبرانيون صبيحة يوم أصبحوا عبرانيين . إذا أضفت لكل هذا وذاك أن أغلب أصدقاء حارس من اليهود كانوا صهاينة ، أى علمانيين ، أى يحتفلون بأكل المنوعات قبل المسموحات ، يفضلون رغد المن والسلوى على شظف فطير الماتسا ، ويفضلون الحياة والاستمتاع على اجترار ذكريات الفقر والذل ، ستكون الخلاصة أنه لم يكن لدى حارس أية حجة للتقصير فى أداء واجب المعايدة ، وقضاء يوم بهيج هو وزوجته مع أصدقائه من حفدة موسى . أما الفتاتان ، فمنذ يفعتا فقد أضربتا على مصاحبة والديهما فى رحلة حى الظاهر لتلك البيوت اليهودية . كان موقفهما مفهومًا . على أية حال بم سيفيدهما التعرف على شبان يهود ؟

في ذلك المساء ، الثلاثاء ١٦ أبريل ١٩٤٦ ، الموافق ١٥ نيسان ٥٧٠٦ ، وقع ذلك القدر الموعود بين المتسكعين والمتسكعات ، من ذوى وذوات الخبرات المسهبة في الهيام والسياحة . الحدث هو تلاقى الصديقين مع الأختين التوأم . أما المكان فهو شوارع روض الفرج العامرة ، التي لا يضاهاها سوى صخب عماد الدين ، ولعله لا يضاهاها . وتأكيدها هي الأكثر حيوية وبهجة من جاراتها في حدائق شبرا الساكنة سكوت القبور ، تلك التي جاء منها الأربعة جمعاء .

إنها ، روض الفرج ، نموذج كلاسي للقاهرة الزياطة التي طالما وصفها الرحالة المستشرقون . القاهرة التي لم تفت على مهندس الصوت اللماح في لورانس العرب ، الفيلم الغارق على العكس طوال الوقت في صمت الصحراء السحيق .

إنها ، روض الفرج ، أصوات وأصوات . حوافر الدواب تناجى أبواق العربات . جرتها المحركات أو جرتها الأحصنة ، لا فرق . أيضا لا فرق عند الكلاب التي ترد على كل صيحة بوق بتحية نباح أفضل منها . ناس وناس . لا أحد يكف عن التنادى بأعلى صوت ، سواء للتحية أو للوعة على عيل تائه ، لعرض محاسن الملوخية أو مفاتن البلح الأمهات ، استجداء للروبيايكييا أو للإحسان ، غناء للعرقسوس بصحبة الصاجات النحاسية ، أو مزايده على صوت قرع حبات الدومينو . أما الأحداث الأكبر ، ومن ثم الأكثر ضجة وبهجة ، فهي الملاهى والمسارح . المطربين والراقصات ، الأراجوز والحواة ، سيرك مؤسسى في خيمة ، أو آخر مستقل ، عرض رجل واحد في العراء . أيضا هناك فوق الكل ، الزفة النحاسية الأسبوعية لپروجرام السينما ، كل سينما ، والكل حافل ، عرض مستمر ، ٣ أفلام بقرش تعريفية ، زفة لا تنسى شارعا ولا حارة إلا وحيته بالاسم . ترفع الصور الضخمة وتوزع الصور الصغيرة ، وزيلليون طفل حافي يهمل من ورائها .

إنها ، روض الفرج ، 'مولد' يدوم ١٢ شهرا في السنة ، لا يكاد يعترف حتى بأن للمسارح والسينمات شيء اسمه موسم ، له بداية وله نهاية وله عطلة .

بينما كان زملاء مدرسة الزراعة -وغير الزراعة- لا يمسون إلا مجتمعين في المقاهى وعلى النواصي عبر القاهرة ، يتجادلون بعنف هل مظاهرة ٢١ فبراير وتوابعها ، كانت كافية لغسل ما جرى لهم فوق كوبرى عباس قبل ١٢ يوما منها ، أم أنها أتت بضحايا أفدح وفليظل لسيناريو الانتقام بقية واجبة ، كانت روض الفرج هي القبلية الوحيدة التي لا يملها قط الأنيقان عبد الحميد وأرميا . كانا يقولان الانجليز انتصروا في الحرب على ألمانيا بجلال قدرها ، فما المشكلة أن ينتصروا هنا أيضا .

كانا يتسكعان في بهو إحدى السينمات ، يستطلعان أفشيات العرض القادم . بدأ الأمر برمته ، بأن تسمر الصديقان أمام تشابه الأختين التوأم . بسرعة اشتغل عقل عبد الحميد -ابن نور السلام المشتركة- وقال : أنتم مثلتم في الفيلم ده ؟ فيه واحدة شبهكم بالظبط .

- أنتم شفتم الفيلم ؟

- أيوه شفتاه قبل كده . وجاين نشوفه تانى علشان معجبين أوى بجمال الممثلة إالى شبهكم . ها يعجبكم قوى !

طبعاً لم يكن هناك أحد يشبههما ، إلا أن الحيلة أتت أكلها . لم يكونوا بحاجة للتواعد على اللقاء . كل الأربعة كانوا يتجولون في نفس المكان والأوقات أكثر من مرة في الأسبوع ، تكرر اللقاء ، وتكرر . كان الشابان ويسمى الطلعة معسولى الكلام ، والفتاتان فانتين مولعتين بحب الحياة والسعادة والاستمتاع ! حينئذ ، في الأربعينيات ، كانت قصص الحب الكبيرة تكتسح روايات الشاشة مصرية وأجنبية . وراح أربعتهم يناقشونها باستفاضة شديدة حتى أدق التفاصيل .

- أنا من القناطر الخيرية .

- تعرف أن جدى الكبير هو إالى بنى القناطر .

- مين ؟ المهندس فاوولر (يقصد السير الإنجليزي چون فاوولر الذى كان المستشار الهندسى للخديوى إسماعيل) ؟

- فاوولر ؟ فاوولر مين ؟ جايز حاجة أصغر شوية !

- (بابتسامة استنكار ودودة) عامل ترحيلة يعنى ؟

- لآ ، أكبر شوية : فنى مساحة .

وراحت ماريلين تروى حكاية مايكل كوكوك وكيف أصبح ميخائيل غوطة وأمسى عين أعيان أبو تيج . وعبد الحميد يستمع باهتمام منقوص ، بقدر ما ذهب منه للفتاة نفسها وملاحمها الباهرة ، وجسدها المتفجر فى فستانها ضيق الخصر واسع الذيل رقيق القماش ذى رسومات الزهور الزرقاء الكبيرة ، ولبدنها البنية الهائشة الضخمة التى بدت وكأنها تناضل من أجل التملص من ذلك الرأس الجميل والرפרفة بحرية فى كل اتجاه .

أرميا كان فى الضفة الأخرى للشارع ذى الأرضية البازيليتية الفاحمة ، يحادث ماديلين عن تجارة البلح التى سيديرها بعد انتهائه من دراسة الزراعة . ولما عرفت أنه مسيحي ، على العكس من صديقه ، لم تتهيب عن ذكر ، أو لعلها قصدت التباهى ، كيف أتحا وأختها تذهبان للكنيسة للحظات عابرة ، أو لا تذهبان إطلاقا ، تضعان قليلا من نقود العطاء التى أخذتاها من البيت ، أو لا تضعان إطلاقا ، ثم تأتيان من الحدائق إلى روض الفرج ، بحثا عن الترفيه ، فيلما كان ، أو قزقة ترمس أو قرص كوز ذرة مشوية . هذا بينما والداها يعتقدان أنهما تقومان بهذه الرحلة فى الأعياد ، أو حين تستأذنان بها ، وليس بانتظام أسبوعيا ، يوم الكنيسة أيضا . الحقيقة أن ماديلين لم تتخيل أن أختها أيضا قد بادرت للتباهى بذات الشئ مع رفيقها رغم اختلاف الديانة بينهما !

كان حارس غوطة صديقا جيدا لابنتيه . لم يكن هو ولا زوجته من دعيهما للذهاب للكنيسة . هذه كانت فكرة وجدت الابنتان فيها ذريعة جيدة للخروج الوفير . فى كل الظروف لم يكن الأبوان قلقين على الخروج المتكرر للابنتين ، ويطمئنان نفسيهما دوما بأحما طالما تخرجان سويا ، فلن يحدث مكروه . هو نفسه لم يكن يذهب للكنيسة إلا مرة واحدة فى السنة ، يوم الجمعة العظيمة . وكان يختار كنائس بعينها عبر القاهرة -ليست بروتستانتية بالضرورة- يعرف أن الفتيات الصغيرات تقدمن فيها عرضا تمثيلا موسيقيا للصلب . زوجته كانت تذهب بكثرة نسبية لكنيسة الحى ، لكن بهدف تكوين الصداقات لا أكثر .

كانت الدراسة المعتادة للفتيات فى تلك العقود الأولى من القرن العشرين ، دراسة نسوية تعادل الثانوية العامة الحالية ، تؤهلهن بالأساس لأشغال البيت كالطهى والحياكة وتربية الأطفال . كان حارس يحرص أن يأتى لابنتيه بالصحف والمجلات المتوافرة بمختلف اللغات ، ويشجعهما على شرائها والبحث عنها بنفسيهما . وكانت تلك التى يأتى بها هو ، تهتم غالبا بالموضوعات العلمية ، بالذات الخاصة بالصحة والتغذية . هذا من ناحية بحكم دراسة الابنتين ، ومن ناحية أخرى للثقافة العامة ولإيمانه الكبير بالعلم ، ومن ناحية ثالثة لشئ من الوسواس الصحى فى نفسه . كان صديقا جيدا لهما ، لكن مع كل ذلك كانت فكرة إقامة علاقة حب بشابين ، نقلة كبيرة لا يمكن توقع رد فعل الوالدين عليها . على أية حال قبل أن يكتشف أحد الرحلات السرية الإضافية للأختين ، أو يوشى بغياهما أحد من أصدقاء أمهما بالكنيسة ، كان عبد الحميد المصرى وأرميا رمسيس قد تقدمتا بالفعل لزيارة بيتيهما .

ذعر حارس غوطة . ما هكذا تخيل أبدا زوجى ابنتيه . أثرياء نعم ، متعلمان معا ، لكن ليس ثراء الريف ، وليس تعليم الزراعة . أراد لهما زيجات مدنية أكثر عصرية بكثير ، أطباء أو مهندسون مثلا ، أناس يعرفون أربع لغات على الأقل . ثم لم يعرف ماذا يفعل فى كون أحدهما مسلما . زوجته الأرمنية الحسنة ، كانت مشغولة فقط بالتدقيق فى وسامة الشابين ، وكأنها تعطى موافقتها ضمنا وسلفا . تصميم الفتاتين كان هائلا ، وكان لهذا وحده القول الفصل . واحدا تلو الآخر ظهر والدا الشابين فى مكتب حارس بالبنك المواجه لمبنى البورصة ، يطلبان التعارف والمصاهرة . حزن هو -وليس زوجته- لبعض الوقت ، لكنه فى النهاية سلم بالأمر . وبعد ذلك حين رأى ابنتيه سعيدتين مع زوجيهما ، وبدأ ظهور الأحفاد ، عاد هو أيضا سعيدا .

أما بالنسبة لماريلين فلم يخطر ببال أحد أن يطلب منها أن تغير ديانتها ، ما جرؤ أحد ، وما كانت لتفعل على أية حال ، لا لشئ إلا لأنها كانت تعتبر نفسها فوق كل الأديان ، بل فوق مسألة الدين برمتها .



وصلت للقاتل !

تستجوب الشرطة بواب عمارة نبيل ، فيثبت أنه كان مسافرا يوم الجريمة لأهله بالشرقية . تتجه الشكوك لنصر الله ، فهو الوحيد الذى يمكن أن يدخل الشقة بمفتاح . لا آثار عنف ، لا عداوات ، لا بصمات چينينية أو غير چينينية لأحد غيره ، غالبا السرقة هى الدافع . إذن ما سرق يعرفه شخص يعرف محتويات الشقة جيدا ، وهذا ينطبق على نصر الله وحده . يبكى نصر الله ويقسم بالمسيح والعدراء أنه برىء . لا أحد يصدق أن نصر الله ضئيل الجسم هذا يمكن أن يكون الجانى . ضهرى يقول أنا لى نظرية فى الناس وحتى لو نصر الله طول الباب موش هو القاتل . يوافق

الجميع ، وتمر الأيام ولا حديث لهم إلا تخمين من القاتل . فكروا في سعاة البريد والدليقري وما شابه حتى أعيتهم الحيلة . الوحيد الذى لم يبد مقتنعا جدا بتلك المقترحات هو ضهرى . رأيه -أو كما يسميها ' نظريته في الناس ' - أنه بمرور السنوات يصبح السعاة أصدقاءنا ، ثم أنهم أناس ذوى وظائف اعتادوا الكدح في الحياة وتحمل المسئولية وليس سهلا أن يفكروا في القتل .

فجأة ذات يوم يهب ضهرى من مقعده ويهرول لإدوارد صائحا طالبا الاطلاع على ملفات عملاء الشركة : ' عاوز أشوف صورهم في البطاقات ' .

- ولكنها معلومات سرية .

فيرد بحزم : ' تحب أشاركك في الشركة علشان ترضى توريها لى ؟ ' .

- لآ ، موش مستاهلة !

وينادى المحاسب تادرس ويطلب منه الملفات .

- إيه وصلت لإيه ؟

- وصلت للقاتل !

- مين ؟

- شاب طويل نحيف أسمر كان من حوالى شهر ييجى يقعد قدامنا أنا ووحيد . ما شفتهوش ولا مرة بيكتب أمر ولا بيكلم حد ولا حتى يطلب مشروبات . بيتفرج على الناس موش أكثر ، ودلوقت اتضح أن ما لهوش حساب أصلا . كده أنا فهمت ليه هو كان يقعد ورا كل الناس ، وودنه على طول مع مكتب خدمة العملاء .

- طب وبعدين ؟

- موش عارف !



يا عيب الشوم على بنات الإنجليز لما يلطموا !

- تقصد أن أمك مسيحية ؟

- آى ، نعم !

- وماتت مسيحية ؟

قالها متعجلا القصة ، فزل لسانه ، لكن ضهرى يرد ضاحكا : من أخبرك أنها ماتت ؟

- لم تمت ؟ أفصد هل لا زالت على دينها ؟ أنا آسف . آسف بجد . أتمنى لها الصحة وطول العمر .

- أختها التوأم ، خالتي ، هى التى ماتت . عدة أيام قبل حضورك إلى هنا . رمسيس أغلقت ثلاثة أيام ، ولم يحدث أن أغلقت أبدا ، فتلك مخالفة قانونية ، فقط نصر الله يعتذر لو أتى أحد على غير المتوقع . لكنك كما ترى كل الناس هنا يعرفون بعضهم البعض ولم يحدث أن اشتكى أحد .

- لكن ما الذى يضحكك ؟

- يضحكنى ما فعلته أسمى يوم الخميس الماضى . رجعت من هنا لقيت الدنيا مقلوبة . خرجت علشان تروح السوق ، عندها بدل الواحدة عشرة يخدموها ، لكن بتصمم تجيب حاجتها بنفسها . فوق التمانين ومصممة تشتري هى كل حاجة . فى السكة قالت أمر على جارتنا أم منصور آخذها معاى . هناك اكتشفت أنها نازلة من غير چيبة . هى بتلبس أسود من يوم پايا ، خرجت بفستان النوم الداخلى الحريرى الأسود فوفه چاكت أسود ، لكن ما فيش چيبة . جاييز ما حدش يلاحظ ، وغالبا ما حدش لاحظ . لكن هى فضلت تلطم وتلطم وتلطم . وأم منصور تمدى فيها ، ما حصلش حاجة يا ماريلين ، ما حدش خد باله يا ماريلين . وهى تنتحب : يا دى المصيبة ! كان ها يحصل إيه لو رحت السوق

على طول ! أنا ضعت ! أنا عاوزة أموت ! وهاتك يا بكا لساعات وساعات . هديتها وأنا بأكتف ضحكتي . حاولت أقلب الموضوع هزار : ده أنت عملتي أكثر من كده في شبابك ! يا عيب الشوم على بنات الإنجليز لما يلطموا ! زاد الصراخ . إلى أن فهمت أنها حانقة ليس على ما ارتدت ، إنما على وهن عقلها . أنا خلاص خرفت . أنا عاوزة أموت . أخذتها لدكتور أعصاب ، وإداها مهدئات ، لكن حالتها النفسية لسه تعبانة .

ذهب ضحك ضهرى ، وعاد الجميع للتركيز في الأسهم ، إلى أن توقفتهم بعض العمليات الكثيفة على أسهم الدواجن ، فبادر وحيد بالسؤال :

- إيه قصة غرامك مع سهم الدواجن ؟

عاد ضهرى لوحيد : فإكر حكاية إنفلونزا الطيور من كام سنة ؟ بعث مزرعة الدواجن بتاعتي وبدأت أشتري أسهم في مصر للدواجن . الكبير كبير ، والصغيرين ما لهومش مستقبل . وكنت عارف أن الموضوع طالما ما فيش مصل ، وما فيش دبح في المزارع الصغيرة أو محلات التجزئة ، أن الشغل ها يقتصر على الشركة الكبيرة . ولغاية ما أخذت كل الأسهم إلیي أنا عاوزها ، كانت فلوسى تضاعفت ، بدل ما كنت خسرتها لو استمرت فاتح المزرعة . صحيح تضاعف نظري ، أرباح راسمالية يعنى . وصحيح سعر السهم كان لازم يرجع لطبيعته . بس موش ده المهم . المهم أنى أبقى جزء من كيان كبير . وفعلا بعد شوية صدرت قوانين تقصر المرابى والمسالخ على الشركات الكبيرة ، الشركة رجعت تكسب ، والسهم ارتفع جدا تانى .

- أنا عارف دى وعارف رأيك في الشركات الكبيرة (ضاحكا : إلیي زى منى لما تعقل !) . سؤالى هو ليه تستثمر من البورصة . بفلوسك كان ممكن تبقى شريك ستراتيچى وعضو مجلس إدارة ، ولك رأى في الشركة بخبرتك .

- هم بيطالبوني بكده ، يقولوا لى على الأقل ابقى ممثل صغار المساهمين يا أخى . لكن أنا موش عاوز . زهقت . عاوز أرتاح شوية . آجى أتفرج على الفيلم ده كل يوم .

ويتدخل ونس مرة أخرى : السينما التذكرة دلوقت بخمسين جنيه . هنا الإثارة ببلاش !

- متأكد أنها ببلاش ؟

- قصدك أنى بأخسر ؟

- قصدى أنك هنا ما بتتفرجش غير على فيلم واحد ، فيلم ' الأبطال ' بتاع فريد شوقى ؟

- آه ! ' ضاعت فلوسك يا صابر ! ' ؟ يا سيدى موش مهم . اخسر فلوسك ولا تخسر صحتك !

- أنت عاوز مليون سنة علشان تخسر صحتك دى كلها !

- ما تستعجلش ، هى البورصة إيه غير تهذيب وتأديب وإصلاح !

شاركهما وحيد الضحك ، لكنه فضل إنهاء الحوار الذى بدأ يتحول لمناظرة . وجد ونس يتأهب للرد فرفع صوته ليجارى طبقته الجمهورية : الفيلم ده ؟ ! لك حاجات يا حاج !



الأرض بتتكلم عبرى !

- أبوى دخلنى كلية الزراعة علشان أمسك المزارع بتاعتنا . كنت بأطلع الأول ، تقديراتى ما حصلتش في تاريخ زراعة القاهرة من ساعة تأسيسها ، على الأقل لغاية ما اتخرجت أنا . جازي بعد كده ابتدوا يدوا درجات بالهبل . كان ممكن أتعين معيد وأبقى زى ما عمل إخواتى الصغيرين بعد كده . يسرى بقت أستاذة تجارة والنهارده نائب رئيس السى آى بى ، زى ما أنت عارف . مجدى بقى أستاذ اقتصاد والنهارده وزير الاستثمار . عارف إيه إلیي خلانى أرفض أبقى معيد ؟

- مزارع الأسرة ؟

- إطلاقا ! إلى شفته وأنا طالب في المزارع به . قلت كلية الزراعة دى ما علمتنيش حاجة أصلا . أنا أمى زراعة ، وها أخطط مستقبلى على هذا الأساس . وقررت أحصل على دكتوراة الزراعة التفصيل بتاعى أنا . ومن هنا بدأت ألف العالم ، أزور المزارع ومنشآت الري ، وأشوف الزريعات والتقاوى الجديدة ، طرق التصنيع والتخزين ، كل حاجة . يوم ما عملت مزرعة الدواجن كانت بأحدث تكنولوجيا موجودة في العالم ، ولا تشبهها أى مزرعة في مصر ، كبيرة أو صغيرة . يا وحيد يا صديقى ، العلم ! العلم ! العلم !

ويستدرك متذكرا شيئا : على فكرة جايز تعرف أن ما فيش دلوقت حاجة اسمها مزارع الأسرة ، مزارعى أنا ما فيش غيرى . أبونا قسم الأرض علينا إحنا الثلاثة بالتساوى . يسرى لما اتخرجت قررت تبيع ، ووافقها مجدى . كان لسه طالب ، وكل طموحه يبقى زيها أكاديمى في الجامعة . باعوا كل نصيبهم . اشتريتها منهم ، إلى قدرت عليه بفلوسى قدرت ، والباقى بقرض من البنك . ما كانش فيه مشكلة في ضمانات القرض ، الأرض الأصلية بتاعتنا ، زائد أرضهم الجديدة ، كانت تغطى بسهولة جدا . المشكلة أنى كان لازم أسدد ، ومن هنا دخلت في مشاريع زى الكيبت والدواجن وغيرها ، وربنا وفق وسددت ، وما خسرناش أى جزء من الأرض . يسرى ومجدى قالوا إحنا موش بتوع زراعة ورعاية أرض ومواشى . الكلام ده كان بعد اتفاقية السلام في ١٩٧٩ ، وحتى قبل انسحاب إسرائيل . راحوا اشتروا معظم أرض الشريط الحدودى مع إسرائيل . صحرا وبرخص التراب ، وأعلى ما فيها كام شجرة زيتون أثرية . قالوا دى أحسن استثمار . في يوم م الأيام لما يتعمل سلام بجد ، المناطق دى ها تبقى أغلى من وسط القاهرة ، من كورنيش القاهرة ، وها نعمل فيها إلى ها نقدر عليه من مشروعات صناعية وتكنولوجية . (ثم متنهدا :) هيبهيه ؟ أحلام ! إنما كله على الله . جايز أولادهم يستنفعوا بها .

- أنا عارف الحكاية دى ، وقلت لمجدى إنى معجب جدا باللى عمله هو وأخته . على الأقل بيبصوا لقدام فعلا . مرقس بيشتري كورنيش القاهرة المطل على النيل القديم ، وها اشتريا الكورنيش المطل على المستقبل .

ويغنى ونس : الأرض بتتكلم عبرى ! الأرض ، الأرض ، الأرض ! وفجأة يوجه زهرى سؤالا لوحيد ، وكأنه يستدرك عن رأى قاله : أنت عارف أحمد شوقى قال إيه عن أمريكا ؟

- هو قال حاجة عن أميركا ؟

- (بحزم :) طبعا ! قال : صلاح أميركا للأخلاق مرجعه !

- (يضحك :) طيب ! للأخلاق ، موش للعلم .

- برضه الأدب فضلوه عن العلم .

- ارسى على بر مرة من فضلك ! ... أنا شخصيا لا يعينى لا العلم ولا الأخلاق ، بقدر ما تعينى الغاية التى وجدا أساسا من أجلها : التقنية . لذا أنا أفضل مقولة زكى نجيب محمود المادية جدا ، الأرسطية جدا ، والرائعة جدا في طريقة إعادة صياغتها لتعريف فرويد للحضارة : إنما الأمم التقنيات ما بقيت ، فإن هم ذهبوا تقنياهم ذهبوا !

- أنت لا تفهم ؛ إنه يقرع العرب !

- أنا أفهم أن اليسار طالما أساء لهذا الرجل وأقصاه عن معسكر المادية لحساب ماديتهم الماركسية الزائفة .

ويبدأ ونس في تذكر بعض الشعر والتغنى به : ' إنما الأمم الشركات ما بقيت ، فإن هم ذهبوا شركاتهم ذهبوا ! ' . ولا يملك روميو الإ التعديل عليه كالعادة : ' إنما الأمم الشرهات ... ' .

ولبرهة يجتر الكلام السابق ، ويتساءل في إعجاب : دكتوراة تفصيل ؟ ! لك حاجات يا حاج !



هل أنا بحق الجحيم في حاجة لأن أكون متدينا كي أو من بالاقتصاد الحر ؟

مصطلح اليمين المسيحي نفسه ينطوى على تناقض فاضح . لا يمكن للمسيحي الحقيقي أن يكون رأسماليا حقيقيا والعكس بالعكس .

أحيانا تكون هناك أشياء واضحة للعيان ، لكن لا يراها أحد :

الرأسمالية التنافسية تجد سندها العلمي -بل هي حرفيا- الدارونية التي يعتبرها المتدينون أعدى أعدائهم ،

والاشتراكية في تكافؤها وإنسانيتها ومساواتها بين الناس لا تخرج في كثير أو قليل عن المسيحية !

عرف كل عملاء رمسيس عن وحيد كونه شخصا هادئ الطباع لأبعد مدى . لذا كان الأمر أشبه بالصدمة ، حين وجدوا ضهري (وضحى بالذات) ، محل نوبة غضب فجائية وغير متوقعة من وحيد . كان قد أشار لمن يسمون في أميركا بالمحافظين الجدد ، وبعضهم يسمى باليمين المسيحي ، ثم سأله عن كيف يكون علمانيا كما هو واضح من كلامه ومن كتاباته ، وفي نفس الوقت مؤمنا بحماس بالاقتصاد الحر . ثار وحيد غضبا مجدة ، وقال من بين ما قال : ' هذا خلط خبيث وسخيف . هل أنا بحق الجحيم في حاجة لأن أكون متدينا كي أو من بالاقتصاد الحر ؟ مصطلح اليمين المسيحي نفسه ينطوى على تناقض فاضح . لا يمكن للمسيحي الحقيقي أن يكون رأسماليا حقيقيا والعكس بالعكس . أحيانا تكون هناك أشياء واضحة للعيان ، لكن لا يراها أحد : الرأسمالية التنافسية تجد سندها العلمي -بل هي حرفيا- الدارونية التي يعتبرها المتدينون أعدى أعدائهم ، والاشتراكية في تكافؤها وإنسانيتها ومساواتها بين الناس لا تخرج في كثير أو قليل عن المسيحية ! ' . وبعد أن صمت لبرهة عاد ليواصل بذات الحدة : ' جورج دبليو . بوش ، الرئيس الذي كثيرا ما أطلق عليه هذا المصطلح لم يكن شخصا مسيحيا حقيقيا ، مع ذلك فالجزء المسيحي الوحيد فيه -وهو الطيبة وحب الخير والإحسان- تناقض على نحو واضح مع مبادئه الرأسمالية ، وأعطيك أمثلة : ١- منح أفريقيا معونات طائلة لاعتبارات أسمائها بالإنسانية ، بينما كان مبدأه الأصلي الرسمي المعلن أن لا معونات إلا للتنمية مؤسسات رأسمالية تنافسية . ٢- دعم كوبونات الغذاء لفقراء الأميركيين بينما كل الرؤساء قبله -بمن فيهم الديمقراطيون- كانوا يعتبرونها برامج رفاة اشتراكي أوروبي لا يصح تطبيقها في أميركا . ٣- برنامج ' لا طفل يترك خلفا ' التعليمي ، تناقض صارخ مع مبدأ الخصخصة . ٤- برامج قروض الإسكان التي ... ' .

فكر ضهري لوهلة أن يمتص غضبة وحيد بالتحول مثلا لسؤال عن أسهم شركات الاستثمار التي أضيفت مؤخرا ، والتي يشك الكثيرون في جديتها ، لكنه أثر المواصلة . أثر الدخول مباشرة للبحث النقاش الذي أراده في الأصل ، والمفارقة أن الدين لم يكن جزءا أساس منه ، لكنه على ما يبدو أخطأ اختيار ذلك المدخل : ' لعلمك أنا لا اشتراكي ولا يوتوي ولا أو من حتى بمجتمع الأخاء الديني ، ولا كل الأونطة دي . لكن كلامكم أحيانا يبقى زيادة خالص . ممكن أفهم كثير من كلامكم أنتم يا تنوع الرأسمالية المتوحشة . (مشددا :) أفهم موش أوافق ، خد بالك ! أفهم الضرائب ال flat ، أفهم حتى الضريبة متساوية على الرأس موش بالنسبة خالص ، أفهم حتى ما يقاش فيه ضرائب أصلا . أفهم الفائدة صفر زي اليابان . أفهم حاجات كثيرة . أفهم تخصصصوا الهرم تخصصصوا النيل تخصصصوا الشوارع ، تخصصصوا حتى الخصخصة نفسها ، كل ده موجود بره في بعض حتت . أفهم أى حاجة . أفهم حتى أن ممارسة الطب تكون من غير رخصة من الحكومة ، والمريض هو المسئول عن اختياره وعليه يسأل الأول ، وكل شئ يخضع لسمعة الشخص ، أو لعضوية الطبيب في جمعيات تدي الزمالة ، لو زمالة أميركاني أو إنجليزي أروح له ، لو عضو نقابة الأطباء المصرية ما فيش داعي ... إلخ . كل ده ممكن أفهمه ، لكن فيه حاجة موش قادر أفهمها بتاتا : إزاي العربيات تبقى من غير رخصة ؟ متهيأ لى أنتم عليكم عفريت اسمه الحكومة وعاوزين تلغوه بأى طريقة . يعني عاوز مثلا العربيات تمشى تطلع دخان زي ما هي عاوزه ؟ ' .

- لأ طبعا ، بس السوق هو إلىي يجل كل حاجة . كل مشكلة السوق ها يجلها بنفسه من غير تدخل حكومي . هي دي الفكرة .

- إزاي ؟

- المتضرر يؤسس جمعية لحماية المستهلكين أو في الحالة دي سميها مثلا جمعية مستنشقي الهواء ، ويرفعوا قضايا مدنية ويشردوا أصحاب العربيات البايطة ، ويستولوا على كل ممتلكاتهم . القضاء المدني قادر على حل كل شئ ، ولا داعي للقانون الجنائي مطلقا . حتى في حال حدوث اختلالات أمنية ، الشركات الكبيرة تستأجر شركات شرطة وشركات جيش قطاع خصوصي وتظبط الأمن .

- طب كمان تلغوا رخص السواقة ؟ مستحيل . أنا عندي بنت مجنونة كلكم عارفينها . من كام سنة قررت تنتحر . بدل شوية الحبوب الخائية إلىي أخذتها ، كان ممكن تاخذ عربيتي ، وتطلع على الطريق الصحراوي وتتمرحج بيمين وشمال وتموت ألف واحد معاها .

- سؤال وجيه . بس هل القانون الخالى أو الحكومة هم إلى منعوها من كده . أسألها ، ها تقول لك فكرة هائلة ، ولو كانت جت فى بالى كنت عملتها . أو جازيز تقول لك أنا عاوزه انتحر وبس ، موش عاوزه أقتل حد . أى حاجة إلا أنها ها تقول لك ' أصل أنا موش معايا رخصة ! ' . صح ولا غلط ؟

- كلام غريب وغير مقنع ، لا أكثر ولا أقل ! (الحاج الذى يمكن بسهولة تشتيت اهتمامه بعيدا عن الموضوع الأصلي ، يضحك :) على فكرة ، أنا عارف منى ها ترد تقول إيه بالظبط !

- (مبتسما بفضول :) إيه ؟

- ها تقول أنتم صدقتوا أنى عاوزه أنتحر بصحيح ؟ تفتكر واحدة ببجاعتها ممكن ترد تقول إيه ؟

ووحيد مستطردا وكأنه غير معنى بحاشية الكلام : ' فى مصر بييجى عشرين حزب ليبرالى وخمسين جورنال ليبرالى وعشر قنوات ساتيلايت ليبرالية ، هم بيسموا نفسهم كده ، لكن تعال حلل كلامهم ، بالظبط ها تلقاهم نفس الأفكار الاشتراكية والقومية والإسلامية . كلهم بلا استثناء واحد على يسار الحكومة ، وكلهم بلا استثناء واحد يجربها فى الاتجاه الخطأ ، تماما كبقية المعارضة . لو كل صحفى من كل جورنال ليبرالى مزعوم كان اشترى نسخة من كتاب دراكر إلى كنا بتتكلم عليه ، كان زمانه فى الطبعة العاشرة ، موش خمسين سنة ولسه الطبعة الأولى ما خلصتتش . الليبرالية الحقيقية ما حدش يقدر عليها فى مصر ، ولا حد فكر فيها أصلا . الليبرالية إلى بجد معناها أكبر قدر من الحريات ، ما حدش ينط فى جيبك باسم الضرايب ، يقول أنا عارف مصلحتك فى صرفها أكثر منك ، وما حدش ينط فى سريرك باسم الأخلاق ، يقول لك أنا عارف الصح أكثر منك . ممكن توجد حكومة ، لكن تكون صغيرة جدا ومحدودة النفوذ جدا . ممكن تكون لها بعض الوظائف الأمنية أو التنظيمية . ممكن تساعد فى تسريع مشاريع تقنية معينة لا تبدو مربحة فى البداية . جازيز كمان كثير ما يعرفوش أن فريدمان عدو الضرائب رقم ١ ، هو إلى اخترع فكرة تحصيل الضريبة من المنبع ، لكن طبعا ده كان أثناء الحرب ، ظروف استثنائية يعنى . المهم ، جازيز حد يطلع يقترح آليات السوق يظبط نفسه بنفسه فيها ويمنع التضخم ، وجازيز تطلع أفكار للأمن أو لرعاية البحوث غير المربحة تقوم بها الشركات من غير حاجة خالص للحكومة ، وبحوث زى دى موجودة حاليا فى الشركات على أية حال ، بس كل المطلوب أنها تغطى كل حاجة بحيث تلغى الدولة . لا حاجة للدولة حتى فى إصدار النقود ولا رسم السياسة النقدية ، وهذا أمر نشأت عليه أميركا وتطبقه منذ قرون : تحالف من البنوك الكبرى التجارية والاستثمارية يقوم بالأمرين . وبالفعل هو يؤدى مهمة ممتازة ، ولو لى رأى شخصى فهو فقط أن تصبح تدخلات السياسة النقدية أضيق نطاقا أكثر وأكثر ، وأن تدور قرب سعر الفائدة الصفرى ؛ ٢٪ مثلا لمكافحة التضخم ، وصفر ٪ فى حال بروز خطر الانكماش ، وبشرط طبعا أن تتحدد فى كل الأحوال بطريقة طبيعية ، أى بقوى العرض والطلب ما بين الإيدار والإقتراض . (ثم يضحك :) هذا إن لم يكن الأفضل من هذا وذاك أن نعهد للحواسيب الذكية بتحديد سعر الفائدة وتتبعه تلك البنوك باعتباره قوة العلم ولسان الصالح العمومى لكل الاقتصاد والمجتمع ' .

- أيوه إنما الغلابة يروحوا فين فى الغابة بتاعتك دى ؟

- يروحوا عند إلى خلفهم ، يسألوهم إيه كان مشروعهم من ورا خلفتهم . إلى خلفهم غلط يتحمل مسئوليتهم . أما لو أساءوا للمجتمع ، فيعاقبوا . برضه القضاء المدنى ممكن يوصل للإعدام ، لو المحكوم موش قادر يدفع تكاليف السجن ، يعدم . أنا موش عاوز نروح بعيد فى الخيالات . دائما ها تكون فيه جمعيات خيرية ، وتبرعات ، وها تخفف عن الضعفاء . المهم فقط أن نفصل بين ده ، وبين القوانين القاعدية للاقتصاد ، إلى لا بد بينى على العلم المجرد ، بدون أى عواطف أو إنسانيات ، فقط على المنافسة وحرية السوق . أنا شخصيا موش مهتم بالسنياريوهات المتطرفة إلى شاغل نفسك بما . موش مشكلة تكون السواقة برخص ، المهم المبدأ نفسه . قصدى أن مثلا البروفيسور حايك (ضهرى مقاطعا : أيوه ، النمساوى !) ، تنبأ من قبل ما تنطبق الشيوعية فى أى حته ، وقال أن مصادرة الحكومة لحرية السوق ، ستؤدى لمصادرة كل الحريات . كل الدنيا هاجت عليه ، وقالوا إيه العلاقة ؟ وإن ده كلام تخريف . لكن فى النهاية رفعوا له القبعة ، وقالوا أنه تنبأ عشرين سنة لقدام ، وبقى مسلم به أن حرية الاقتصاد هى أم كل الحريات . الموضوع ببساطة نفتح الشباك ولا لأ . الحرية هى الحرية . زى ما التخلف لا يتجزأ ، الليبرالية لا تتجزأ . الحرية الاقتصادية والحرية الشخصية جناحان لطائر واحد ، وجهان لعملة واحدة . أقول لك المهم المبدأ نفسه ، موش مشكلة تكون السواقة برخص ، لكن المهم إيه إلى ها بييجى عليه الدور بعد كده ؟ أنا بأقول الطبيعة هى أصل كل الحريات وهى القانون

الأوحد . المادة هي الأم ، والإنسان ولا حاجة ، حشرة فقدت كل أرجلها ولم يتبق لها إلا اثنين ، أو حتى حسب فيلسوف جازير سمعت عنه اسمه
ضهريوس المصرى (سمعت عنه ؟ !) ، لها رجل واحدة !

- (بفخر :) أنت واخذ بالك ؟ (ويردف :) آه ! كالعادة ، محاضرة فى أرسطو . بأكلمك فى رخص العرييات ، وأنت ... (وفجأة
بصوت مرتفع مستغرب :) أرسطو تانى ؟

- (ضاحكا :) أرسطو إلى الأبد ! بعدين استنى هنا ! فقراء إيه وغلابة إيه ؟ حيلك ! حيلك ! موش أنت إالى كنت قلت كفاية ٨٠٠
ألف مصرى علشان يطلع نفس الناتج الداغن الإجمالى ؟

يهدأ ضحكته وبعد قليل يتذكر أن من الواجب عليه يشرح لظهرى سر غضبته الأولى ، اليمين المحافظ . يقول إن الأقليات الدينية طالما عدت
تقليديا جزءا من الحزب الديمقراطى . وإن ريجان هو الذى أتى بهم للحزب الجمهورى يوم أتى بكل أميركا إليه . وإن جورج دبليو . بوش الذى
طالما وصف برأس اليمين المسيحى ، كان محظورا هو نفسه من دخول كنيسة بلدته . ويضيف أن تحريضات اليسار الطبقيّة الرخيصة هي التي تسد
كل السبل أمام اليمين لاكتساب الأصوات لتمرير برنامجه الاقتصادى الأشبه بالدواء المر ، إلا من خلال الدفاع عن الدين والأخلاق . وأضاف
أنه شخصيا لو خير مثلهم بين الحرية الاقتصادية وكل بقية الحريات لاختار الأولى ، لأنها المادة ، وبالتالي هي الأم التي ستولد منها يوما كل
بقية الحريات . إن المشكلة تكمن فى الانتخابات ، ولو حدث يوما وعدنا لتعاليم أرسطو وألغيت الانتخابات ، فلا أعتقد أنك ستجد يمينا واحدا
يرفع شعار الدين . دائما أبدا الأرسطراطية هي ميثاق الاستنارة والتحديث ، وليس الخرافة والظلام ...

حبس وحيد بقية العبارة ، وهى أن الدين لم يكن يوما إلا سلعة للمحتاجين والفقراء ، وعلى أية حال هز الحاج رأسه موافقا ، ومعلقا بما يعد
تناسيا لأصل الموضوع ، ونسيانا لأن هذا قد يخالف دفاعه هو نفسه عن الفقراء قبل لحظات : ' فعلا ، طول عمرنا نعرف أن الفقراء هم يؤر
الإجرام ، إلى أن ظهر الشيوعيون وحاولوا إقناعنا بشيء آخر ! ' . ثم مرة أخرى يغير كل شيء منقلبا هذه المرة إلى الفكاهة : ' يبدو أنك أنت
الساذج : أساسا تعريف السياسة هي أن تقول الشيء وتفعل عكسه ، هذا حتى تحصل على أصوات من هنا ومن هناك ! ' .



حلو أوى شووز النابكى إالى أنت لابسه ده يا حاج !

مرة أخرى اجتر وحيد الحوار ، ولم يستغرب الكلام عن الكبير والصغير ، لكنه استغرب كلمة زهقت . إن بها وترا مسه هو من الداخل ، فعاد
يستدرج الحديث مرة أخرى :

- خسارة تعترزل يا حاج . أنت لسه شباب . جازير حتى أصغر من إدوارد ؟

الحاج كان يجتر بدوره شيئا آخر ، وينفجر غضبا : ' إيه إالى أنت قلته عن الغلابة ده ؟ يعنى إيه يروحوا للى خلفوهم ؟ عارف أنا بكرة ها
أعمل إيه ؟ ها أجيب مرزية معاى ، وها أظبط لك بما النقر إالى محشبة وساخة فى دماغك دى ' .

وطيبته يعود الحاج متذكرا سؤال وحيد ، ويضحك : أنا شباب ؟ أنا أكبر من إدوارد ب ١٢ سنة . أنا مواليد ١٩٥١ وهو ١٩٦٣ . جوز
خالتي كان عنده مشكلة إنجاب ، أو حاجة زى كده . بعد إدوارد بتسع سنين جابوا مينا ، وكانت خالتي قرب الخمسة أربعين . (ثم مشيرا
لونس :) البغل ده هو إالى من مواليد ١٩٥٥ !

- زبى يعنى .

- (وكأن الدعابة لا يمكن تفويتها :) أنت بغل ؟ ... غريبة ! أنتم فعلا مواليد سنة واحدة ؟ (ضاحكا مرة أخرى :) وهو يقول لكل الناس
يا ابني ويا بنتي ، وأنت بتقول لكل الناس يا عم فلان أو يا عمو أو يا مدام أو يا ست الكل . بصراحة كانت حاجة ملفتة لما لقيتلك من أول يوم
ما بتقولش للواد نصر الله غير يا عم نصر ، وبعدين لاحظت أنك بتقولها لكل !

ربما لا يعلم أنى أخشى أن أنسى أسماء الناس ، أو بالأحرى لا أحب أن أنادى أحدا بأسمه ، لعلنى فى الحقيقة لا أحب التقرب بشدة من
أحد . هنا قاطعه ونس متسائلا : أنت شهر آيه يا وحيد ؟

- أغسطس !

- أنا قلت كده برضه ، أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة ، أنا فبراير !

لم يهتم أحد بالملحوظة التي يعرفون حجم خطئها ، ويعود وحيد لحوار ضهرى : بس أنت ما بيانش عليك خالص يا حاج ! ٥٩ سنة ؟
لم يرد الحاج . إن ضهرى على العكس من مزاج ابنته منى يجب وجهها العاقل ولا يجب وجهها المجنون . هذا ليس لأنه عاقل أو يجب العقل ،
إنما العكس بالضبط ؛ هو شخص يشعر بالشباب الدائم ولا يفكر في تقدم العمر ، يمارس الرياضة ولا يرتدى إلا الأحذية الرياضية وهى إحدى
العلامات المميزة لمظهره ، وفي شبابه كان منطلقا مغامرا لأبعد الحدود . كبر ابنته وتعقلها لا يسبب له أى ضيق أو ربما لا يفكر فيه أو يستشعر
أصلا مدلوله من حيث مرور الزمن . فقط شىء واحد يجعله يشعر بالكهولة : أن تظهر منى جموحا لا يقوى هو على الإتيان بمثله أو لم يصل إليه
في شبابه . بمعنى آخر المعادلة معكوسة هنا : منى الصغيرة تشعره بالكبر وكلما كبرت يزول عنه هذا الشعور !

يستغرب وحيد شرود ضهرى النادر من نوعه ، فيعيد الإلحاح على السؤال : ' حلو أوى شووز النايكى إالى أنت لابسه ده يا حاج ! ' .

- طبعا لا يمكن ألبس غيره . حتى لو ها ألبس بدلة سموكنج ، ما استغناش عنه . بيخليك ضامن رجلك تنزل مطبوط على الأرض . لو
حصل ولبست جزمة عادية رجلى تتلوى تحتى ١٠٠ مرة فى اليوم . هو بيحميك من شر نفسك .

- يا سلام ! للدرجة دى ؟ تعرف أن نايكى دى هى أول رمز للحدائة فى بلاد كثير ؟

- طبعا أعرف ، أول سلع عرفها العالم مكتوب عليها ميد إن تايلاند ، أو ميد إن فييتنام ، وغيرها . وأولاد الذين يقولوا عليها بتستغل
الشعوب الفقيرة ، وبتضر صحتهم ، وبتلوث البيئة . هم كانوا عايشين أصلا علشان يكون عندهم صحة ولا بيئة ؟ !

- ما كنتش متخيل أنك فخور بالنايكى أوى كده .

- أنا فخور بحياة الريف ، الهوا النضيف ، الخضرة ، والكورة !

- كورة ؟

- طبعا كل يوم جمعة لازم ماتش كورة مع عيال المنطقة بتوعنا .

- يا سلام ؟ !

- مصيرك تزورنا وتشوف !

- (يجتر الكلام السابق :) يحميك من شر نفسك ؟ ! لك حاجات يا حاج !



هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ فى هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ !

لا تقل لى إنك تزدرى وتحترق لكنك لا تكره ، إذ أن الكراهية تأكل الروح .

هل تزدرى وتحترق الصراصير والجرذان أم تكرهها ؟ يا أستاذنا ، قليل من الكراهية قد يسمو بالروح ويظهرها !

بالمثل الحياة الواقعية لا تسير طبقا للمنهج العلمى ، وقليل من التطرف فى المواقف على حساب الدقة العلمية ،

هو ما سيأتى بنتائج واقعية على الأرض ، لأنه سيجذب أولى القرار ونقطة الوسط ككل نحو آرائك درجة أو درجتين !

لا تزال كلمة ' زهقت ' ترن فى أذن وحيد : إنما ليه بتقول زهقت م الشغل ؟

- كده ، البنى آدم موش ممكن يشتغل أكثر من ١٠ سنين فى نفس المهنة . موش قالوا كده فى كتاب ' صدمة المستقبل ' ؟

- أنت قرئت صدمة المستقبل ؟ ده من سنة ١٩٦٨ !

- أنا قرئت تقريبا كل ما كتب بالعربى أو ترجم للعربى !

- أوه ! بس الكتاب اتكلم عن إعادة التدريب ، عن حاجة إجبارى بسبب تطور التقنية . ما قالش بعد ١٠ سنين تغير تغير وظيفتك

بمزاجك .

- أنا إالى بأقول .

- على فكرة أنا اتأثرت كثير بصدمة المستقبل ، وإن كان توفلر ككل ما عدش يعجبني . بقيت بأسميه إلكترونية .

- عارف ، قرئت المقالة دى . إنما بتسأل ليه عن عمرى ؟

- أنا ما كنتش بأسال عن عمرك ، أنا كنت بأسال عن ليه زهقت . الشعور ده عندى بالظبط ، وتقريبا زى ما أنت شايف فكرت زيك وعملت زيك .

- يعنى أنت كتبت بحريتك متعمد علشان تسبب الوظيفة ؟

- أول مرة واحد يقول لى حاجة زى دى !

- أنا متابعت كويس . أنت وغيرك . وحسيت ساعتها أنك بدأت تتغير . تبقى أكثر حدة .

أوه ! إنها أنت مرة أخرى ! هالة الصغيرة المتهتكة ! لماذا لا يريد شبحك أن يتركنى ؟ لطالما صرخت فى وكأنى طالب عندك ولست رئيسك : يا أستاذ ، هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ فى هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ ! لا تقل لى إنك تزدري وتحترق لكنك لا تكره ، إذ أن الكراهية تأكل الروح . هل تزدري وتحترق الصراصير والجرذان أم تكرهها ؟ يا أستاذنا ، قليل من الكراهية قد يسمو بالروح ويطهرها ! بالمثل الحياة الواقعية لا تسير طبقا للمنهج العلمى ، وقليل من التطرف فى المواقف على حساب الدقة العلمية ، هو ما سيأتى بنتائج واقعية على الأرض ، لأنه سيجذب أولى القرار ونقطة الوسط ككل نحو آرائك درجة أو درجتين ! الملح والفلفل ليسوا طعاما لكن الطعام لا يستغنى عنهما ! دائما ما تتركينى بمثل هذا الكلام ، لكن لى الرد جاهزا : نعم أعلم أنك لست بتائهة بعد-حادثة كبقية جيلك وأنك صاحبة مبادئ كبيرة ، لكنك دون أن تشعري تنتمين لجيل عملى بأكثر عما يجب ، والبراجماتية تغلب عليكى من حيث لا يجب . سماء طبية وسأسأها غدا إن كان إمكانى العيش بدون ملح أو شطة أم لا ، وسوف أثبت لكى أيتها المغرورة أنكى لا تفهمين الحياة أفضل منى !

- تفتكر أنى كنت حاد بجد ؟ كل تصورى أنه كان كلام علمى موضوعى وهادئ .

- أنا حسيت غير كده . أنا حريف قراءة ، ولى إحساس بها . (ويشرح :) القراءة فى دى من صغرى . فى الأرياف على أيامنا كان تقريبا ما فيش تسلية تانى . لما رحلت القاهرة للدراسة استمرت أقرأ . بعد كده ، أنت فاكر هى إيه وظيفة صاحب مزرعة دواجن أو بستان فواكه . البداية بس هى إلى صعبة . إنما بمجرد ما تطوع العمال والملاحظين على أسلوبك ، تبتدى تترتاح . ثم إن الدواجن موش حاجة هاى تك يعنى ! طول النهار قاعد تحت شجرة . العيال يبجوني بالشاى والعصاير . كل كام يوم تلقى نفسك لازم تعقد صفقة ، شراء لوازم أو بيع منتج . عدا ذلك كرسى خيزران فوتيه هنزاز مريح ، وترابيزة صغيرة خيزران برضه ، وكتاب ، ولما أتعب أقوم أمر ع الشغل . دى كانت حياتى سنين وسنين . دلوقت إلى بقيت صايع . وقت كثير جدا بيضيع فى مشوار مصر الجديدة كل يوم .

لم ينهض من كان يحدته مع انتهاء الجلسة ، إنما راح يجتر الكلام السابق : مرة كل ١٠ سنين ؟ ! لك حاجات يا حاج !



أنا إلى قتلته !

ينهار إدوارد : ' أنا إلى قتلته ! ' . ويحاول ضهرى أن يحمل على الكلام .

كانت الأيام قد مرت ، وقابل ضهرى نصر الله فى السجن وسأله هل كان لدى نبيل أشياء ثمينة ، أو نقود ، فنفى . تذكر تلك الصكوك . ذهب للنيابة وطلب أن يسمحوا بإعادة تفتيش الشقة من أجلها . اتضح أنها مفقودة فعلا . توسط ضهرى لدى أخيه الوزير ، كى يأتية من البورصة بأسماء أصحاب الصكوك الورقية .

- دى مسألة تتوقف عليها حياة إنسان .

- أيوه ، النيابة ممكن تجيب أمر قضائى وتأخذ البيانات إلى عاوزاها .

- أنا موش غايبة عنى سكة النيابة والمباحث ، أنا لى سكك تانى .

- أنا بأخاف من سككك دى .

- أنت عارف كلها فى الحق ، وطول عمرى ما عملت مشكلة أو خالفت القانون .

- أيوه بس مشكلتك دى صعبة شوية . لازم تلف على إدارات حفظ الأسهم فى كل البنوك والشركات إالى عندها حفظ أسهم ، وتشوف كل شخص أودع صكوك .

لكن أخيرا يرضخ بضجر : بص : أنا ها أكلم لك البورصة ، وها أشوف يقدرنا يعملوا لك إيه .

‘ أنا إالى قتلته ! أنا السبب . لو ما كنتش قلت قدام كل الناس على حكاية الصكوك دى ، ما كنتش جرى حاجة . موش مرة ولا اثنين . ٣ شهور كل شوية أفكره ، وبرضه قدام كل الناس . كان ناقص أعمل إعلان وأعلقه ! غباوة ما بعدها غباوة . كان واضح أنه موش عاوز يجيبهم . سماء قالت لى . إنما كنت عامل أن قلبى عليه أكثر من نفسه . أدبى قتلته . فيه ألف حاجة أغلى من الصكوك . حياته نفسها كانت أغلى حاجة . دى إالى ما خطرتهش ببالى أبدا . غباوة ما بعدها غباوة ! ’ . منذ اللحظة لازم إدوارد إحساس هائل بالذنب ، ويحاول ضهرى أن يحملها على الكلام : ده نصيب . الأعمار بيد ربنا موش بإيدينا حد . خليك معاى شوية أرجوك . أنت فاكركان عنده كام سهم ؟ أكيد قال لك ؟

- مراته اشتريته باسمه عن طريقنا . المفروض فيه صورة من الفاتورة فى ملفه .

لحسن الحظ جاءت قائمة إيداعات صكوك بما قيمته ٥٠٠ سهم قصيرة . أحدها من الفيوم وتستبعد ، والثانى أودعه محامى من حى الزيتون . يجمع الحاج نحو عشرين من مساعديه ومعارفه من القناطر ، إضافة لتطوع أسد وصديقيه ، ويدهمون مكتب المحامى . يعترف أن شابا أتى إليه بما وعرضها عليه بسعر رخيص .

- أنا عارف أنها مسروقة ، لكن إيه الغلط فى أبى اشتريتها ؟

- دى موش مسروقة ، دى عليها دم !

- للأسف ما فيش فى إيدى حاجة أعملها .

لم يهدأ الحاج بالوصول لهذه الطريق المسدودة ، وقال : ماشى يا متر ! سيب حكاية أن نجيب الواد علينا إحنا ، بس أنت لازم تشهد إالى حصل قدام النيابة ، ولو فيه نتايح لكده تضرك عليك أنك تتحملها .

ثم صرخ فيه : ماشى ؟ !

نظر المحامى للحشد الذى يملأ مكتبه جلوسا ووقوفاً ، وزم شفثيه موحياً بالموافقة . جعل ضهرى المحامى يصف الشاب بدقة على مسامع منهم . الأوصاف مطابقة لما قاله هو . أعاد الحاج تلقينها بدقة لمراقبيه ، طويل وأسمر أكثر الشعر وعظام الفك الخلفية تحت الأذنين بارزة بوضوح . ملامح ريفية فرعونية كلاسية ، لكن ليست شائعة جدا فى مدينة كالقاهرة ؛ زائد جلد خد سميك ذى حفر غائرة ، من النوع الذى سبق له الإصابة بعدوى جلدية ما . كانت نظرية ضهرى أن المجرم لا بد وأن يعاود جريمته . نبيل هو المسكين لأنه من ناحية رآه كهلا ، كما لعله من طريقته الراقية فى الكلام توسم فيه الثراء . وبعد أن انصرفوا راح يوزع عليهم الأدوار . الذهاب يومياً لشركات السمسة المختلفة ، حتى الإيقاع بالمجرم .

حين أمسكوا بهذا المدعو طه موسى إبراهيم سامى اقتادوه بالسيارة إلى القناطر . ‘ يا بن دين الكلب ! صلبت الراجل فى سريره وهو مستكين ومستسلم ؟ ! إالى أنت قتلته ده أطيب راجل فى الدنيا ! ’ . لم تنته الجملة حتى كانت قد يقيتها لكمة مروعة القوة ذهبت لمنتصف الوجه بالضبط . شملت نصف الأنف العلوى والنصفين الداخليين لكلتا العينين . النتيجة أربعة خيوط من الدم انسلت ببطء ، من فتحتى الأنف ومن ركن كل عين . مع ذلك قابل الطرف الآخر هذه اللكمة المحترفة بصمت أكثر احترافاً . المهم ، أنه بقليل من التعذيب اعترف . لقد تتبع نبيل يوماً حتى عرف العمارة . فى اليوم التالى انتظره أعلى السلم حتى عرف الدور والشقة . فى اليوم التالى ، وخشية أن لا يفتح له ، انتظره أعلى بدور واحد ، ولدى فتحه الباب دفعه للدخل وأغلق الباب خلفهما . خشية أن يتعرف عليه لاحقاً خنقه . أصلاً نبيل لم يقاوم ، فقط استكان على السرير فى هدوء .

أخذه ضهرى للشرطة ، فإذا به يتهمه هو ورجاله باختطافه . بقليل من التعذيب ، اعترف من جديد . يشكر ضهرى الضابط على جهوده فى استخلاص الاعتراف ، وأمامه يعطى المتهم نصيحة أخيرة : المشنقة أسهل وأرحم وأريح حل قدامك . حاول تغلفص منها ، وأنت عارف أبى ها

أجيبك من تحت الأرض . وتحت الأرض ليه ؟ ها أخطفك من قدام باب المحكمة ، وأنت عارف أنى أقدر كده كويس . ها أقطعك حتة حتة . أنا بتاع فراخ ، الدبح والتشفية تخصصى . أنت سمعت عن عذاب القبر ، ولا موش مؤمن به زى ؟ ها أعيشه لك حى . ها أخلع لك صباع صباع ، وها أحشى لك مكان كل جرح ملح بشطة علشان ما تموتش . ها أخليك تموت بالتقسيط على ٤٠ يوم و ٤٠ ليلة ، ومن غير ما تنام لحظة واحدة !

وكان يوما مشهودا حين عاد نصر الله للشركة ، مشهودا له ، ولشيلوك هولمز الذى أنقذ رقبته ، ولكل من استقبلوه أو حضروه . طال المزاح حول المشروبات التى 'لم يعد لها طعم بدونه' ، واجتهد فيه الجميع : 'كنا يتامى من غيرك !' ، 'ما كناش عارفين قيمتك لغاية ما بقينا بنعمل الحاجة بنفسنا !' ، 'كنا بنقول عليك حرامى لغاية ما خلىنا الولد بتاع القهوة يجيب لنا المشروبات !' ، 'تعرف أن الأستاذ إدوارد ما رضيش يعين حد بدالك ؟' ، 'قال نستنى لغاية ما نصر الله يتعدم !' ، 'أنا قلت كده ؟' . ويديرون الدفة جميعا -كالعادة بقيادة الطيبة ميرفت- للدفاع عن إدوارد : 'أوعى تصدق يا نصر الله !' ، 'تعرف أنى أنا إلىلى كان المفروض أروح الشركة إلىلى اتمسك فيها الواد المحرم ، إنما واحد من رجالة عم ضهرى قال أنا عارف المكان وأروح أنا !' ، 'كلك شهامة وجدعنة يا أستاذ أسد !' ، 'تعرف كمان أن كان إحساسى أنه ها يتمسك فى اليوم ده فى الشركة دى' ، 'حصل ! أسد قال كده فعلا ، وكان مفروض هو إلىلى يروح فعلا ! يا مولانا ، اللهم اعطينا من بركاتك ، واكفينا شر حركاتك !' ، 'أنت كل حاجة تقول عليها إحساسى ، ومرة تصيب وألف تخيب !' ، 'حكايك دى يا بنى جت على دماغنا كلنا !' ، 'معلش يا عم ونس ، أنا آسف . آسف لكم جميعا !' ، 'ده حتى بقينا بنكنس الشقة بنفسنا !' ، 'وسط ما إحنا قاعدين كان عم ضهرى يقوم يسحب المقشة وهات يا كنس !' ، 'الله يخليك لنا يا حاج . أنا حياتى كلها ملكك من النهارده !' .

أما النقاشات الفلسفية بين وحيد وضهرى ، فقد طالت يومها من جديد حول مشكلة البطالة ، وكيفية معالجة مشكلة العاطلين قبل أن يتحولوا لقتلة كذلك الشاب .

- أهم ما سمعوش كلامك . ما راحوش للى خلفوهم . راحوا لنبيلى وقتلوه !



هذا يوم لم يشتر أو يبيع أحد فيه أية أسهم

بعد أسبوع من عودة نصر الله بعد تبرئته من قتل نبيلى ، اختفى هو أيضا !

منذ الصباح ظلوا ينادون عليه . كلما تذكر أحد أنه يريد شرب شىء ، ينادى عليه . لا يرد ، وينسى السائل الأمر وينشغل بالأسهم ، هذا إلى أن يتذكر أحد آخر وينادى ، فينادون جميعا معه . استمروا على هذا الحال إلى ما بعد مرور نصف ساعة من بداية الجلسة ، بعدها استرايت ميرفت فى الأمر ، وذهبت إلى المطبخ . عادت لتقول روحوا شوفوا نصر الله ما له !

نحس ضهرى مسرعا . وجده ينتحب بشدة . أخذ يهزه ويسأله ، لكن نصر الله ظل يتصرف وكأنه لا وجود له . نحس فجأة ، وعلى نحو يخلو من أى توقيف أو حتى اهتمام ، ولى ظهره للحاج ، وخرج مسرعا للقاعة . خيل للحاج من ذلك الجبين المقطب ، ومن الطريقة العنيفة التى دفعه بها ، أنه ربما انتوى ضرب أحد ما ، أو ربما قتله .

وقف وسط قاعة العملاء ، وقال بأعلى صوته : 'لما كنت غايب كنتوا بتشربوا قهوة إزاي ؟' . ردوا فى استغراب 'أسد كان بيتصل بالقهوة إلىلى بيقعد عليها ، وكان القهوجى يجيب لنا الطلبات هنا' ، 'ومن ساعة ما جيت أنا بتشربوا قهوة إزاي ؟' . لم يرد أحد . ببساطة لأسبوع كامل ، لم يكن أحد يشرب قهوة ، ولا يفكر حتى فى طلب قهوة . 'أنتم فاكرين أنكم بكده بتحبوا المرحوم نبيلى ولا بتحترموه ؟' .

على الفور فهم الكل ما يدور حوله الموقف ، هم كل منهم بالقول إنهم لا يريدون شرب قهوة ، لكن الألسنة لجمت ولم ينبس أحد ببنت شفة . هذا إلا وحيد الذى نحس فى ذات اللحظة صائحا بصرامة وحزم غير عاديين ، ربما معتادين من ضهرى ، لكنهما لا يتماشيان بالمرّة مع ما عرف من شخصيته هو : بس ! بس ! بس ! ولا كلمة من أى حد ! ما حدش ينطق أى كلمة تانى فى الموضوع ده . روح أنت يا عم نصر الله ، اعمل طلبات الناس النهارده ، وبكرة ها يكون عندك كل البن إلىلى أنت عاوزه . ما تخافش يا بنى ، إحنا موش ها نقطع عادة المستر نبيلى . أنا ها أجيب البن . وموش عاوز أى اقتراح أو تعليق من أى حد ! الموضوع انتهى !

في هذا اليوم بالذات ، ران الصمت القاتل حتى نهاية الجلسة . لم يمزج أحد . لم يغن ونس . لم يحلل أحد الأسعار . لم يتنازح أحد . لم يسخر رامى من أحد . فقط تذكر في صمت عبارته التي ينهر بها نصر الله حين يقف للاستماع لحواراتهم بدلا من أن يحضر القهوة . لم يتناقش وحيد وضهرى . البعض انصرف مبكرا . وتقريبا هذا يوم لم يشتري أو يبيع أحد فيه أية أسهم .

وفي المساء استقل وحيد السيارة الفورد ١٩٤٩ للمرة الثانية إطلاقا ، وذهب لباب اللوق . وظل يسأل نفسه طوال الرحلة عما عسى كان عليه شعور الراحل نبيل وهو يقدم الخدمات لكل الناس ولا يطلب شيئا في المقابل !



ما فائدة النساء ؟ ما فائدة الغريزة ؟

باين على وشى . لم تعد تقولها يا ضهرى . لا أعلم . ربما لم تأت مناسبة . أيا ما كان ، أعتقد أنى أنال مع رمانه أكثر مما أحتاج . أرسطو لم ولن يسمح لى بأكثر مما فعله كل جمعة وسبت . أعتقد أن ابتسامتها وحدها تشفينى وتشبع احتياجى . ما فائدة النساء ؟ ما فائدة الغريزة ؟ ماذا يريد الإنسان أكثر من الدفء والحنو الذى نمنحه لبعضنا البعض مرتين كل أسبوع ؟ مظاهر اجتماعية ؟ شركة بيزنس اسمها الزواج ؟ شهوات جامحة ؟ طعنات عنيفة ؟ هذا ليس أنا ، ولن أكون .

في اليوم التالى بدت رمانه سعيدة جدا ، وهى تستعرض أصابعها لوحيد . لقد شفيت تماما . عليكى أن تكونى أكثر حرصا من الآن فصاعدا . احذرى من الشتاء القادم عندما يأتى . لقد عادت لك ابتسامتك الجميلة . أخيرا ظهرت ميرى پوپينز فى حياتى . إنها ملكك يا حبيبى . كلى ملكك يا حبيبى . ها هى ابتسامتى تسعده من جديد . هو لا يعلم أن ابتسامتى القديمة التى أحبها قد ذهبت للأبد . الموجود الآن ابتسامه من صنعه هو . لولاه لما عاد لى الابتسام قط . لو فقدته لأى سبب لن تعود لى البسمة ثانية أبدا .

يقبلها وتتفحص عيناه وجهها طويلا ، تفقد كل جزء فيه بإعجاب وسعادة ، ويقول بخنو ناعم ' لقد جاء دورى أن أحملك أنا ! ' .

... شدها إلى الحمام .

... نزع عنها ملابسها قطعة قطعة ببطء .

... نزع ملابسها هو بسرعة .

... تمدد فى حوض الحمام .

... دعاها بيد ممدودة .

... أجلسها فوقه .

... تعاشقت أعضاؤهما .

... لأول مرة .

... وبدأ ببط فى تبليل جسمها بالماء الساخن براحة يده .

لبثا على هذا الحال ، لساعة . ربما ساعتان . لم يحسب أحد الوقت . هو لا يرفع عينيه عن وجهها البسام . وبدلا من ذلك الصمت المشترك الطويل أمام الأغاني ، طلب منها أن تكلمه عن كل شىء . كل ما تعرف عن الحياة . عن الناس . عن سر صفائك وابتسامتك . ستكونين معلمتى . نافذتى على الدنيا . لن أجد نافذة نقيه وشفافة مثلك . نافذتى على الأمل .

... وتشهق فجأة : حبيبى !



أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط !

- ياااا ، ياااا ، يا مخسرنى !

- أنت إذن من عشاق أم كلثوم يا أستاذ ونس ؟

- من قال لك ذلك؟ نعم، كنت أسمع أم كلسون كثيرا، ثم سألت نفسي يوما بت الوس... لغاية ما تقول 'يا مسهرنى' يكون نص الجمهور نام. الوقت من ذهب يا أسد يا بنى. لم أعد أسمعها، لكن لا مانع من أن أردد ما زلت أتذكره منها!

'إياك تجيب سيرة الست تانى على لسانك الوسخ ده، وإياك حتى أشوفك تحاول تغنى أغانيها تانى!' . تدخل ضهرى بجدة ناهرا ونس. بنت الوس... لغاية ما تقول 'يا مسهرنى' يكون نص الجمهور نام؟ آه، يا سافل! ... لكن مهلا! أليس هذا بالضبط ما حدث معى يوم قررت الإقلاع عن الذهاب للمساجد. شىء مخزى ألا يكون للوقت قيمة عند الخطيب. يقضى ربع ساعة فى الصلوات والتسليمات، قبل أن يدلف لموضوع الخطبة. لماذا لا يدخل للموضوع مباشرة؟ ربما لا يكون عنده موضوع أصلا، كل أسبوع تقال نفس الأشياء. كل صلاة تقال ذات التلاوات وكأنها تعاويد. سحبت حذائى وخرجت. لكل منا لحظة التنوير الخاصة جدا التى يترك فيها مملكة الخرافة لمملكة العقل. هى لحظة وليست صيرورة process طويلة، وهى تختلف تماما من شخص لآخر، ولم يحدث لاثنتين أن تعلمنا نفس الأسباب أبدا. لكنى لست علمانيا قحا كهذا الوحيد. أعتقد أنه لا يؤمن بوجود إله أصلا. لماذا لا أسأله مباشرة. على رأى السادات، إحنا هنا فى مصر ما بنخاااافش!

- تعرف مين كانت أفكاره زيك كده يا حاج. يؤمن بوجود إله، لكننا لا نعرف عنه شيئا. (كأن ذات التساؤلات والأفكار كانت تدور فى ذهن الرجلين فى نفس اللحظة، تخاطر كما يسمونه فى علم نفس الخوارقيات!) .

- مين؟ بوذا؟

- ممكن! أنا قصدت أينستين. بيسموها deism، إيمان بوجود إله لكن بعيد عن الأديان.

- من أين فهمت أنى deist؟ هذا غير صحيح. أنا بأصلى كأى مسلم. أنا مسلم، وما عنديش أى مشكلة مع الإسلام. هو زيه زى غيره، يفتح لك طريق لرنا. طريق أنت إالى بتسلكه، والدين مجرد وسيلة. الدين حاجة كويسة. تقدر تقول بترطب على الصدر.

- أنت صوفى يعنى؟

- برضه موش عاوز أسميها كده. أنا موش ماشى على طريقة حد. لا بوذا ولا الحلاج ولا السيد البدوى. طريقي هى قلبى.

- يعنى! هى دى عامة الصوفية، فيما أفهم.

- مثلا أنا لما بأكون فى الخارج كنت أدخل أصلى صلواتى فى أى كنيسة تصادفنى.

- إشعنى؟

- أكيد مكان روحانى، وعلى الأقل طاهر. (وبضيف ساخرا:) موش أضمن من غرفة الفندق؟! هو أنا عارف كان بيحصل إيه عليها الليلة إالى فاتت. أنا ما أقدرش أوقف عقلى عن السؤال. أنا موش مكنته زيك آجى عند نقطة وأقول ستوب. end of the program. ده سؤال لا يجب أن يسأل. لازم أسأل كل حاجة، بما فيها كانوا بيعملوا إيه على أرضية أوده الفندق اليوم إالى قبله! موش لازم علشان أسأل عن حاجة أهما تتدمر. منين جبت القانون ده؟ ده اسمه عند أينستين نفسه 'اليقين'؟ أنا موش عاوز يقين يا سيدى. إنما ما تمنعش أفكر. القراءة علمتنى شيئا: أنت لا تزداد علما أبدا، أنت تزداد جهلا فقط! كل موضوع تقرأه يكشف لك أن هناك ١٠ مواضيع جديدة أضيفت لقائمة ما تجهل. ما تمنعش أعتقد فى الحاجة إالى تريخى، وإالى تمشى لى حياتى صح. رنا ما بتلقاش غيره فى لحظات الشدة أو المرض. بينقدك من اليأس ويديك الأمل لو اظلمت الدنيا فى وشك. كمان هو بيخلق فيك الوازع والأخلاق. نص الناس دى تبقى مجرمين لو ما فيش وازع. لما الوازع يبقى فعال قوى كده، موش ممكن يكون وهم. موش ممكن تقنعنى أن رنا موش موجود وأنا بأحسه كل دقيقة فى حياتى. أنا بأتكلم عن حاجة بأعيشها كل يوم وبتغير كل حاجة وبتأثر فى كل حاجة، فى وفى تصرفاتى وفى إالى بيحصل حوالى. أنا بأكلمك عن حاجة حقيقية ملموسة بأشوفها يعنى، وأنت جاي تقول لى طول الموجة وعرض الموجة؟! (ثم ينقلب مازحا:) أنت عارف إيه الفرق بين الكمبيوتر والإنسان؟ الأول يجاوب بنعم ولا، والثانى يجاوب بنعم وإن شاء الله!

- أنت ما فيش حاجة ما قررتهاش؟ الحكاية موش أدب وتاريخ ودين بس. ده أنت متابع العلوم والفيزياء كمان. أقدر أسأل هو أنت فيه

حاجة ما تعرفهاش؟

- فيه!

- إيه ؟

- الكذب .

- (يضحك للمصادفة الغريبة :) طب هي دى الأخلاق العلمانية بتاعتنا . لا تكذب وافعل ما شئت . لا تكذب فى الزواج ولا المال ولا فى العداوة ولا فى أى شىء ، ثم لك كل الحرية فيما تفعل ، وتحمل النتائج . حتى القتل ، ادخل مبارزة شريفة وجها لوجه ولا تقتل أحدا غيلة .
- برضه الوازع .

- وازع اجتماعى موش خيالى . أنت ها تضيع فى داهية لما الناس تعرف أنك كذاب .

- تعرف أن لا تكذب دى موش فى الوصايا العشر .

- لاحظتها إزاي دى ؟

- موش محتاجة ملاحظة . الموجود ألا تكذب على المحكمة الشرعية ، أى على رجال الدين . إنما الكهنة أنفسهم من حقهم كل حاجة . (ويضحك :) جازير شغلنهم نفسها معتمدة ع الكذب !

يتدخل ونس بالغناء : ' حلو وكداب ! ' ، يقطعه من لحظة لأخرى مستعرضا بعضا من ثقافته الدينية : ' ما هي الحالات الثلاث التي أحل فيها الكذب ؟ ' ، ' عارفينها كلنا ! ' ، ' الصداقة والزواج والحرب ، إنما كل مناشط الحياة ، ماذا تبقى ؟ ' ، ' تبقى الكذب على السلطة الدينية ، هذا يعاقب بقطع الرقبة ' ، ' قبل ما تخلوها ١١ وصية ، تقدرؤا تقولوا لى مُجد نفذ كام واحدة من العشرة أصلا ؟ ' ، ' ولا واحدة ! سجد لأصنام وآلهة أخرى ، سرق ، قتل ، زنى ، اشتهى امرأة يا ريت قريبه إنما ابنه شخصيا ومن أجلها ألغى شيئا إنسانيا جميلا هو التبنى فشرد ملايين الأطفال حتى نهاية الزمان من أجل لحظة شهوة مهتاجة نحو امرأة بيضاء فارحة ، فى كل هذا وذاك لم يقدر السبب ولا أى يوم ولا حتى الأشهر الحرم ، إنه حتى لم يكرم أباه ولا أمه لأنه ابن زنا أو زى ما بتسميه كتبكم نحلة فى ربوة . فاضل كام واحدة ؟ ' ، ' ما فيش حد تشرد لا حاجة ؛ هو حرم تبني الرضيعة لكن أتى بدلا منه بزواج الرضيعة ! ها ! ها ! موش بأهزر ، بأتكلم جد ! ' ، ' طب وعيسى بتاعكم ابن إيه ؟ سيبك من يوسف أبوه إالى اختفى لا حس ولا خبر ، أكرم أمه ولا كان بيطردها كل ما تحب تقابله ؟ أربعة أناجيل طويلة عريضة ليس بما موقف واحد يجمعهما معا ! ' ، ' عيب الكلام ده يا جماعة ، دى حاجات صعبة أوى ، وما نعرفش بتجييوها منين ؟ ! ' ، ' بلاش ! طيب تعرفوا من هو أعظم منافق للتاريخ ؟ ' ، ' أنت ! ' ، ' غلب حماركم ؟ ! أقول لكم أنا ؛ الراجل إالى طلب من مُجد يوصف له بيت المقدس بعد الإسراء قائلا إنه زاره هو نفسه ، ولما وصفه له هلال وصاح أنت بحق رسول الله ، بينما البيت (الهيكل) مهدوم أصلا له ٦٠٠ سنة ! ' ، ' الراجل خايف على رقبته يا عيني ! ' ، ' صح ! الجبن سيد الأخلاق ! ' ، ' لأ ، وأنتم الصادقين النفاق سيد الأخلاق ! ' ، ' هي جت على دى ؟ حكاية الإسراء شلפטت كل معلومات التاريخ والجغرافيا إالى اتعلمناها فى المدرسة ! ' ، ' يا عم المسجد الأقصى بتاع القدس لسه كان ها يتبنى بعد ١٠٠ سنة ! ' ، ' سيبك من دى ، جازير كان قصده هيكل سليمان ، أو أى حنة سماها هو المسجد الأقصى ، جازير أى حاجة ، لكن إالى ما لهوش حل فعلا : إيه هو المسجد الحرام ؟ ' ، ' أنت بتدق على حاجات عجيبة يا عم ونس ' ، ' عجيبة إيه يا متخلف ؟ ده يقولوا القصة كلها بما فيها آية الإسراء من تأليف عبد الملك بن مروان بعد ما بعث يهد الكعبة ' ، ' كل ده دليل أن النبي -عليه الصنان والسباخ- بتاعكم أمى فعلا ، وإللى علموه كام حاجة عن الدين من أحبار اليهود والمسيحيين ضحكوا عليه ! ' ، ' صح ، قالوا له حاجات لا وجود لها ولا حتى فى مواويل الإسكيمو ' ، ' أنت عارف إسراء يعنى إيه ؟ يعنى كان عنده اكتئاب ! ' ، ' أيوه ، وزود عيار الشرب ' ، ' لأ ، زود عيار البروزاك ، ونام نوم رهيب ، ها ! ها ! ها ! ها ! ' ، ' لأ ، زود عيار بول البعير ' ، ' صح ! بول البعير : التطور الطبيعى للحاجة الساقعة ! ها ! ها ! ها ! ' ، ' مراته بتاع اليوم ده -طبعا إالى هي كانت السبب فى اكتنابه- قالت فرشته كانت سخنة جدا ليلتها ! ' ، ' يعنى أنا لو طلعت للسماء وقابلت ربنا فعلا ، ها أرجع برضه بإيدى فاضية زيه ؟ ! ' ، ' طب ليه ما تقولوش إن كل الأديان رزق الهبل على المجانين ؟ ! ' ، ' وحش وكداب ! ' .

بينما يشرد وحيد قليلا ويتساءل بصوت أقل من أن يوصف بالمسموع : الحقيقة وحش ما حناش قده ؟ ! أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد

جهلا فقط ؟ ! لك حاجات يا حاج !



- الخلاصة : ها أنذا أتيتك بدليل علمي تجريبي قاطع وغير قابل للدحض ،

يثبت عدم وجود خالق على أي نحو أمكن أو سيمكن للبشر التفكير فيه ؛

فقط من الجائز أن تكون هناك كينونة خارج-كونية لا نعرف من صفاتها إلا :

١- أنها أضخم حجما بمراحل من كوننا ، ٢- أنها بالاحتم غير صاحبة وجود أو أثر أو قدرة على الاتصال إلى ما داخل الكون ،

لأن ببساطة تامة -طبقا لنظرية النسبية كما قلت- فارق الأحجام يمنعه !

... يا حاج ، مع احترامي الكامل لأينستين : عبارة ' الرب لا يلعب النرد مع الكون ' صحيحة ،

لكن ليس معناها عدم وجود نرد ، إنما عدم وجود رب !

- هل أفهم من كده أنك عاوز تقول إنك أول من أتى بدليل إثبات لعدم وجود الإله ،

بينما كل التاريخ قبلك مجرد الدفع بكونها فرضية من بتوع علم المنطق لا تقوم عليها أدلة كافية .

كل العلمانيين قبلك حاولوا إقصاء أو تنحية dismiss الإله من الطبيعة قطعة قطعة ، حاولوا النفي negative من موقف المدافع ،

أما أنت فتأتي بالدليل الهجومي الثبوتي affirmative الإيجابي positive على خلو الكون من إله ؟ !

- ليس فقط أني تخطيت الخيط الرفيع بين القول لا أو من بوجود رب إلى القول أو من بعدم وجود رب ؛

هم -على أقصى تقدير- أثبتوا أنه غير موجود في كوننا المعروف ،

لكنهم لم يغلقوا الباب أمام احتمال وجوده في كون آخر أو زمان آخر ، وأنا أول من فعل هذا !

- هل تتصور أن أينستين المؤمن ده ، هو أكثر واحد إيدانا دليل على استحالة وجود إله ، أو على الأقل استحالة وجود صلة بيننا وبينه ، أو بينه وبيننا . أكيد قرئت عن مناظرته الشهيرة جدا مع نييلز بور . لما عارض بشدة مفهوم اللا يقين ، ورفض فكرة أن الجسيمات من الممكن أن توجد على أكثر من حالة في نفس الوقت .

- أيوه لما قال له الرب لا يلعب النرد مع الكون ؟ طبعا عارفها ، كل يوم أقولها لبنتي بتاعة ما بعد-الحداثة : هناك فرق بين أن يكون مكان الجسيم غير معروف أو مستحيل معرفته بواسطة الإنسان ، وبين أن يكون بلا مكان أصلا !

- ما هو يعنى إيه لا يلعب النرد ؟ يعنى أن الحقيقة موجودة ، أى الجسيم موجود ، لكن من المستحيل نوصل لها ، أى نوصل لرصده . هنا أينستين بيناقض نفسه ، وبالتحديد في نفس السياق إلی قال فيه الجملة !

- يعنى موش أنا وحدي إلی بأقول الحاجة وعكسها !

- (ضاحكا :) لأ طبعا ، أنت وكل المصريين وأينستين !

- (باستنكار يكاد يلامس الرفض الغاضب :) أنت جبار صحيح ! الجملة المشهورة اليتيمة إلی جاب فيها أينستين سيرة ربنا ، وختلت ناس كثير في الغرب متمسكة بالإيمان ، مستكترها علينا ، ويتقول إن هي نفسها إلی بتثبت أن ما فيش ربنا ؟

- بالظبط ! أليس ممكنا أنه توجد حياة ذكية بالصدفة على أحد إلیكترونات جسمك ؟

- ممكن !

- هل يمكن لك أن تعرف بوجود هذه الحياة ؟

- ممكن !

- لأ ، موش ممكن . فارق الأحجام يمنعك . هو ده كلام أينستين . هو يقول الحقيقة موجودة ، والمشكلة أننا لا نستطيع الاستدلال عليها . المشكلة ليست في الكون ، المشكلة في الإنسان . كى ترصد وجود جسيم أنت تحتاج لأن تضربه على الأقل بفوتون واحد من الضوء . وفي العالم الصغير جدا ، فوتون ممكن يدمر أكوان كاملة ، موش يغير حالتها بس . أنت تحتاج لموجات ذات أطوال أقصر بكثير كى لا تدمر تلك الجسيمات ، لكن ساعتها لن تستطيع أنت رصد هذه الترددات الفائقة جدا . إذن الشيء القطعي أن هذا الإله المزعوم لا يعلم أى شىء عن وجودنا على وجه الإطلاق ، ويستحيل عليه ذلك مهما حاول . العكس صحيح برضه . هذه الحياة الذكية لا تستطيع أن تتوصل لك لأنها تحتاج

لمستويات طاقة وأحجام ضخمة تفوق قدرتها بكثير كى ترصد وجودك . جازيز كمان يكونوا بيعبدوك وداخلين فى حروب أهلية أو علمية مع بعض بسبب الدين ، وما يعرفوش أنك مجرد شخص فاسق من القناطر الخيرية عايش على هواه .

- أنا لست فاسقا !

- ذلك معناه أننا أصغر حجما من أن نمتلك أدوات رصد لرؤية ما وراء هذا الكون . إنها ذات القوانين أيضا بالنسبة للماكروكوزموس . حين نتحدث عن مسافات شاسعة تحتاج أزمانا طائلة وسرعات هائلة لوصولها ، فإن الكون ، أو الزمان-المكان ، الزمكان ، ينحنى حسب تعبيرات نظرية النسبية ، ولن نستطيع الإفلات من هذا الكون أبدا ولو انطلقت بسرعة الضوء ، أو كما قيل على نحو أكثر تحديدا لن ترى فى النهاية إلا قفك ! المؤكد يقينا أننا لن نعرف أبدا إذا كان يوجد خالق لذلك الكون الكبير البعيد أم لا ، وبنفس القدر من التأكيد واليقين هذا الخالق لن يعرف هو نفسه بوجودنا . هذا الكون ربما يكون مجرد ذرة فى كون آخر أكبر ، أو ربما رذاذ تنفس أو براز كائن ما ضخم ، أو ربما باللون ينفخ أو كرة قدم يلعب بها البعض كما تفعل أنت أسبوعيا فى القناطر ، المؤكد فقط أننا لن نعرف أبدا لأن الضوء ينحنى ولن يخرج لخارجه أبدا .

- هذا يذكرنى بقوانين نيوتون التى سميت قوانين لأنه بدا أنها تنطبق على كل الكون ، ثم حين عرفنا الأكوان الأكبر جدا والأصغر جدا اتضح أنها مجرد حالة خاصة تنطبق فقط على الأحجام الملموسة بالنسبة لنا . أنت بتلك الطريقة قد تثبت عدم وجود وحى ، لكنك لا تثبت عدم وجود إله ، هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه .

- وهل أحتاج لأكثر من هذا ؟ ! لو أن ثمة كائن ما أضخم ، وراء هذا الكون ، فهو فقط حياة أكبر منا حجما بواحد إلى جانبه مئات الأصفار ، لا أكثر ولا أقل ؛ كينونة قد تكون أفضل ، قد تكون أسوأ ، لا نعرف . كائن مادى -أى من نفس مادة كوننا- غالبا ، ربما قبيح أو شريه أو جماد أو أى شىء ، لا نعرف ولا يهمنا أن نعرف . حتى لو هو كائن ذكى طيب وحكيم جدلا ، فهو لم يرسل لنا شيئا ؛ هو لا يستطيع أن يرانا ، لا يستطيع أن يسمع صلواتنا ، هو لم يخلقنا ، هو لا يعرف بوجودنا أصلا ، ناهيك عن أن يتحكم بمصائرنا أو يقيمنا من الموت أو يحاسبنا (طبعاً لا أحد يستطيع إقامتنا من الموت لأننا نعلم أن حيواتنا لا تقوم على نفخة روح إنما على تفاعلات كيميائية تنتهى للأبد بموتنا) . من ثم أقولها بضمير علمى صارم (ومنهج العلم ليس فرضا افتراضه وليس أيديولوجية مسبقة وضعناها ، بل شىء ثبت على نحو متواصل عملى واقعى وجازم صحته على امتداد آلاف السنين منذ أرسطو حتى اليوم) ، أفولها : نظرتى تلك عن النرد هى أعظم دليل علمى تجريبى قطعى وقائم بذاته يهدم من الجذور فكرة الرب الصانع ناهيك عن فكرة الإله الأمر الناهى المعبود : لأنه لو كان هو خالق الكون فمن المستحيل أن يكون خالقنا ، ولو هو خالقنا فمن المستحيل فى نفس الوقت أن يكون هو خالق الكون ؛ ذلك أنه لا يستطيع أن يفعل الأمرين معا ، فارق الأحجام يمنعه . إذن إذا كنت -باستخدام المعارف الجديدة للنسبية والفيزياء الجسيمية- قد فندت كليا هكذا فكرة الإله كلى الجبروت -هذه التى جاءتنا بها الأديان المسماة بالتوحيدية ، أكون -وحتى دون الاحتياج لأدوات منطق أرسطو لربط الأمرين- قد أثبت أنه لا وجود لأية آلهة ولا لمفهوم الإله من الأصل ، وأن من الواجب شطب الكلمة جذريا من القاموس .

- ألا يقولون إنه فى الأكوان بالغة الصغر يستحيل التمييز بين الجسيم والموجة ، وفى الأكوان بالغة الكبر يستحيل التمييز بين الجرم والسديم ، ألا يذكرك هذا بثنائية أخرى : المادة والروح ؟ ثم ما أدراك أنه لن تظهر يوما نظرية تدمر نظرية النسبية (لاحظ أنهم أسموها نظرية ، فلم يعد أحد يجرؤ بعد على الحديث عن قوانين) ؛ نظرية جديدة تقول إن التواصل لا يحتاج لفوتون بالضرورة ؟ الفوتون قد يكون مجرد وسيط ، وهناك جسيم أصغر جدا يعطيه المعلومة فيفهمها بطريقته ثم يوصلها هو لنا !

- فوتون رسول يعنى ؟ ! ممكن ! كمان كلامك صحيح : كلمة قانون تسرى فقط على الأحجام الملموسة لنا ! (ثم فجأة :) لا ! استثنائى لحظة واحدة ! لو أن هذا الإله الذى خلقنا هو وسيط بيننا وبين إله أكبر هو خالق الكون ، فإن لا أحدا منهما فى هذه الحالة كلى الجبروت ، لأن ببساطة فارق الأحجام قد يمنعه . أوه ، يبدو أننا لن نستطيع الاستغناء عن أرسطو حتى أبد الدهر ! (ويضحك :) جازيز تطلع النظرية إالى بتقول عليها لكن ساعتها ها يكون اسمها نسبية النسبية ! أنت تقول إننا لا نزداد علما أبدا إنما نزداد جهلا فقط ؛ هذا ينطبق هنا كأدق ما يكون الانطباق . نسبية النسبية جازز ، إنما العودة تانى للمطلق مستحيل ؛ فبعد نظرية النسبية قد مات المطلق مرة واحدة وللأبد ، وبالذليل العلمى الحاسم ، وانتقلنا فى معرفتنا بما وراء الطبيعة من ' لا ' نعرف إلى ' لن ' نعرف (وللأسف لا يزال البعض يعيش فى مرحلة شديدة البدائية سابقة على الاثنين ، اسمها الدين يقول فيها نحن نعرف) .

- أنا أعرف وجود الرب بإحساسى ، وليس بأينستائين .

- الخلاصة : ها أنذا أتيتك بدليل علمى تجريبى قاطع وغير قابل للدحض ، يثبت عدم وجود خالق على أى نحو أمكن أو سيمكن للبشر التفكير فيه ؛ فقط من الجائز أن تكون هناك كينونة خارج-كونية لا نعرف من صفاتها إلا : ١- أنها أضخم حجما بمراحل من كوننا ، ٢- أنها بالحثم غير صاحبة وجود أو أثر أو قدرة على الاتصال إلى ما داخل الكون ، لأن ببساطة تامة -طبقا لنظرية النسبية كما قلت- فارق الأحجام بمنعه ! ... يا حاج ، مع احترامى الكامل لأينستائين : عبارة ' الرب لا يلعب النرد مع الكون ' صحيحة ، لكن ليس معناها عدم وجود نرد ، إنما عدم وجود رب !

- هل أفهم من كده أنك عاوز تقول إنك أول من أتى بدليل إثبات لعدم وجود الإله ، بينما كل التاريخ قبلك مجرد الدفع بكونها فرضية من بتوع علم المنطق لا تقوم عليها أدلة كافية . كل العلمانيين قبلك حاولوا إقصاء أو تنحية dismiss الإله من الطبيعة قطعة قطعة ، حاولوا النفى negative من موقف المدافع ، أما أنت فتأتى بالدليل الهجومي الثبوتى affirmative الإيجابى positive على خلو الكون من إله ؟ !

- ليس فقط أنى تخطيت الخيط الرفيع بين القول لا أؤمن بوجود رب إلى القول أؤمن بعدم وجود رب ؛ هم -على أقصى تقدير- أثبتوا أنه غير موجود فى كوننا المعروف ، لكنهم لم يغلقوا الباب أمام احتمال وجوده فى كون آخر أو زمان آخر ، وأنا أول من فعل هذا ! ويتداخل ونس بأغنية كالعادة : ' رب إيه إالى أنت جاي تقول عليه ؟ ! ' .

- أنا معك أن العلماء آخر من نسألهم عن المتضمنات الاجتماعية والفلسفية لاكتشافاتهم ؛ لم يخطر ببال نيوتون أن ثلاثة أسطر صغيرة كتبها ستفتح لنا طريق السفر للفضاء ، داروين ظل مؤمنا بالرب حتى آخر لحظة ، أينستائين يتحدث أحيانا عن الرب وكأنه بديهية ، من اكتشفوا أشباه الموصلات لم يخطر ببالهم أنهم فى الواقع يخلقون كوكبا جديدا بالكامل ، وهكذا وهكذا . مثلا لولا سبنسر لما وجدت لنظرية داروين أية متضمنات فلسفية ولا اجتماعية ولا دينية ولا سياسية .

- (مقاطعا بسخرية :) وطبعا لولاك أنت لما وجدت لنظرية أينستائين أية متضمنات فلسفية ولا اجتماعية ولا دينية ولا سياسية !

- (يواصل بذات الجدية :) الاستثناءات هنا قليلة جدا ، وشخصيا لا أعرف منها إلا جيمس واتسون ، الذى كان وظل يعلم ماذا يعنيه الذى إن إيه اجتماعيا وسياسيا وفلسفيا وكل شىء . مع ذلك أقول لك لا تكذب على نفسك ؛ إحساسك الذى تتكلم عنه يدور فقط فى حدود الملموس ، والمهم أن كلنا لا يعرف أى شىء . فقط -لحسن الحظ- نعرف شيئا واحدا : نعرف أن الأديان تخاريف . نعرف أسماء الذين اخترعوها ، نعرف خريبتهم السيكلولوجية المهترئة ، نعرف أنها أتت من عقلية بدائية محدودة المعرفة والتصورات لدرجة مفرعة . إنسان العصور القديمة والوسطى ، ذو الجلايب والشبابش الذى لا يتجاوز من حيث المعرفة والقدرة العقلية طفلا معاصرا فى إحدى المدارس الحديثة فى السادسة من عمره ؛ بل فى الواقع هم أسوأ بكثير : عقليات تطيرية superstitious ترى فى كل صدفة -عادية كانت أو غريبة- ترتيبا إلهيا . فى تلك الأيام كانوا يتخيلون الهواء وقد امتلأ بالعفاريت (لو شئت تخيل الجو حقا ، فقد لا تجد أفضل من الصفحات الأولى جدا من ثلاثية القاهرة لنجيب محفوظ ، وستعرف ساعتها ماذا كانت تصارع الست أمينة بالضبط طوال الليل) . كان المرض خلاا أصاب الجسد بسبب تجربة إلهية أو عقاب ، لا بسبب ميكروبات أو فيروسات . كانوا يرون فى الكوارث الطبيعية أو حتى كسوف الشمس أو شح المطر ، نذر غضب مشنوم ونقمات من الآلهة على عصيانهم وخطاياهم . الزلازل يسببها تملل كائنات العالم السفلى من تصرفات البشر . المطر كان إما نعمة إلهية وخير مطلق ، وإما نقمة غضب لو كان أكثر مما يجب أو لو صاحبتة البروق والرعود والعواصف ، أو حتى أحيانا مجرد إله ييكى ناعيا ما آل إليه حال الدنيا ، أو لأن قلبه قد رق لتجمع الناس واسترضائهم له بالسجد والتعاويد كى يستسقى الأرض العطشى . كانت السماء سقفا أزرق اللون يمكن الوصول له لو أمكن بناء برج بالارتفاع الكافى (فقط اختلفوا هل هذا السقف المرصع بالثريرات مسطح أم نصف كروى ، لكن كما تعلم لم يختلفوا قط على أن الأرض نفسها مسطحة . ثم أن الإله نفسه كان أكثر منهم سداجة -أو عملا بالمبدأ المصرى ما أهبل من سيدى إلا سقى- لم يعرف أنهم كلما صعدوا لن يجدوا إلا المزيد من الهواء ، بل حتى بعد فترة لن يجدوا الهواء ذاته ، فخاف من هؤلاء الغزاة وسارع لبلبله ألسنتهم قبل أن يدقوا أسواره ويحتلوا أراضيهم ، أقصد سماواته !) ، والنيازك أحجارا سوداء مقدسة يرسلها لنا الآلهة كى نسجد لها ، أو بالمثل كان كل المطلوب لمعرفة أين تغرب الشمس السفر بالقدر الكافى غربا !

- أيوه ! تنام فى عين طين ملتبهة . ذو القرنين !

- إيه؟ شافها ' بتطش ' فى الأطلنطى؟! ماذا لو ذهب شرقا لبحر اليابان ليرى من أين تولد شمس اليوم التالى، أو لعله ذهب ولم يفهم كيف تخرج كتلة النار الملتهبة تلك من المياه الباردة جدا هناك. لعله آثر الصمت ولم يخبر أحدا، أو لعله قال ' فى سره ' الكلمة الأثيرة جدا على ألسنة أهل ذلك الزمان إن فوق كل ذى علم عليم.

- أنت موش فاهم الفكرة. هى لا تطش، ولا تموت، فقط بثر الطين كيف يجحب الضوء، لو البثر عادى أو لو فى الأطلنطى لن يأتى الليل أبدا. ثم كيف تتكلم عن ذى القرنين بهذا التهكم وهو قريك؟
- يعنى إيه؟

- ما فيش حد فتح العالم بالشكل ده المذكور فى القرآن إلا الأسكندر تلميذ أرسطو صاحبك.

ويتدخل ونس: ' المفروض يا وحيد لازم تبتدى تقلق، لأن جازر يطلع أن كتب أرسطو بتاعك محرفة! ها! ها! '.

- كمان لاحظ يا روميو أنه كان زيك!

- قصدك ' زى والعياذ بالله '؟

- أيوه! روح شوف أى فيلم وأنت تعرف، ولا تحب نؤلف لك كتاب اسمه ' التاريخ الممجوج ليأجوج ومأجوج '!

ويتدخل ونس من جديد دون أن يفهم أحد لماذا يسخر ميرا مرورا مرارا من المقدسات الدينية: ' المفروض تنبسط لأن ده أوكازيون من القرآن الكريم -ودليل أنه كريم بجد- أنه خللى واحد بينام مع رجالة زيك، نبي مؤمن وورع وعلى دين إبراهيم حنيفا. كمان كريم أنه ما خدهوش وهو عيل وسابه يعيش لغاية ما بقى عجوز. الشمس خلاها إلى مستقر، وفى قول آخر تنام تحت العرش، وفى قول ثالث واحدة **disposable** جديدة كل يوم، وفى قول رابع حاول جعل القصة أكثر خيالا قالوا عنها إنها مربوطة فى ساقية تجرها الملائكة وبعد العين الحمئة تدخل لسابع أرضين وتطلع من فتحة فى الناحية الثانية فى الصباح إلى بعده. ها! ها! إنا علمونا فى المدارس أن الليل والنهار ليس سببهما دوران الشمس حول الأرض زى الطاحونة، إنما دوران الأرض حول نفسها زى النحلة. ها! ها! ... أو فى قول أخير: الكتاب أصلا اسمه الكرهان الكريه! ها! ها!

يهدأ ضحكهم، ويعود الحوار كالعادة جادا بين وحيد وضهرى: ' لأ وأنت الصادق ده دليل الإعجاز العلمى للقرآن بجد: الأرض تبلع فى بطنها كل يوم نجم حجمه قدها أكثر من مليون مرة؟ فى كل الأحوال الواضح أن قرونا طويلة مرت حتى دون أن يقرأ أحد هؤلاء شرق الأوسطين الجهلة معارف اليونان العلمانية القديمة التى كانت لها نظريات ونظريات أفضل كثيرا، أقلها ما يذهب لكروية الأرض، بل ويقدر قطرها بدقة.

- هذا ليس لب المشكلة. هل لم يكن القرطبي مثلا يعرف من خلال ثقافته العامة فكرة أن الأرض كروية، ومع ذلك لم يجرؤ هو ولا غيره على المساس بالمقدس؟ بالعكس، راح ببساطة ينتصر للقرآن فى تفسيره له بمهاجمة نظرية كروية الأرض، هذا فى ذات الوقت تقريبا الذى فيه كان الفاتيكان يعارض جاليليو فى نظرية أكثر جموحا ألف مرة هى أى من الكرات تلف حول الأخرى، الأرض أم الشمس؟! هذا ليس بيت القصيد، السؤال هو: هل أعطانا العلم الإجابات؟

- لقد قلت لك يا حاج إن هناك أسئلة لا يجب أن تسأل أصلا.

- أنا لا أعرف عم تتكلم، إنما أقصد الأسئلة الغبية أو غير العلمية التى لا إجابة لها تحت أية ظروف. حسب أينستين كى تستدل على الحقيقة تحتاج لأن تدمرها أولا. نحن لا نعرف، ولن نعرف أبدا. أجزم لك أن من المستحيل أن نعرف. ثم لننظر للأمر من زاوية أخرى: أنت ترتدى بذلة وحذاء أنيقين، ولا أفهم كيف تقبل كلاما قاله إنسان بجلباب وشيشب؟!!

- وماذا كان يرتدى أرسطو؟

- حتى لو كان أرسطو لا يرتدى شيئا، فوضعه مختلف، هو إنسان كان يرصد الطبيعة بتواضع، و فقط كما يراها. لو قال خلقنا من الماء كل شىء حيا، قبلتها منه قدرت له علمه وغفرت له جهله بالفيروسات وبالحواشيب وبالهندسة النانوية، لكن أن يقولها الآلهة والأنبياء فسأقول هؤلاء نصابون. كل ما درسه أشياء واقعة فى مستوى جلبابه وشيشبه، لم يدع أبدا أن وحيا هبط عليه، أو أنه سافر به للسموات العلى، ولم يحدث أن طلب منا مرة واحدة الإيمان بأشياء فاحشة الخيال.

- تعرف أن داروين جه في القرآن ؟

- ها ! ها ! زى رزق كده ؟

- بأتكلم جد : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض !

- هم يفسروها فعلا كده ، وبيقولوا إعجاز علمي ؟

- لا ، حاليا يفسروها حاجة تاني ، إنما بكرة -وفي الفوضى الدينية إلی إحنا فيها- انتظر أى حاجة !



هذا الإله البائس الفاشل المتير للشفقة المنتحب طوال الوقت لاكتشافه أنه آخر من يصلح لمهنة الخلق وكل ما يصنعه يرتد إلى صدره ،
لم يأت صدفة ؛ إنما لأن الإنسان قد خلقه على صورته ومثاله ،

ولم يكن أبدا بوسع الأنبياء -تلك الختالة البشرية معدومة المواهب الذين امتهنوا الدجل لفشلهم في كل الحرف الأخرى-

خلق إله أفضل !

شهرتها الرئيسة أنها كانت الوحيدة التي تحدث يوما كل الأفلام التي راحت تصيح في إجماع غريب ' الذئب ! الذئب ! ' ، تحذر من شركات السينما الاحتكارية ، كشركة وحيد ، وكشركة أخرى أكبر نشأت بتمويل من كيوييد . لم يسمحوا لها بكتابة ما أرادت في ' الاقتصاد اليوم ' ، فأسست موقعا على الإنترنت ، كان أول -ومن ثم أنجح- موقع للرأى باللغة العربية عرفه الغشاء . لم تكن حتى كلمة blog الشهيرة جدا لاحقا قد اخترعت بعد . حين أصبحت الكلمة متداولة بعض الشيء بتأسيس الكاتب السياسى المشهور أندرو سوليفان موقعا له على الإنترنت في آخر يوم من سنة ٢٠٠٠ ، كانت هالة تحتفل بمرور ٣٠ شهرا على تأسيس موقعها . موقعها الذى كان شيئا أكبر وأكثر طموحا من كل تعريفات الكلمة سواء كمحتوى أو كتقنية حاسوبية . الكلمة التي أصبحت اليوم تخصى بالملايين على الإنترنت وكل من ينشئ صفحة بمنتدى يسمى نفسه blogger . وظلت هالة تكره أن يصفها أحد بهذا الوصف ، وكتبت ذات مرة ' أربأ بكاتب محترف كسوليفان أن يقبل أن يسمونه كذلك ! ' . موقعى موقع وليس ' قرمة غشاء ' . أيام كانت تسمى المواقع ' صفحات غشاء ' ، كانوا يصنفوننى أنا كموقع . الياهو أدرجتني في غضون سبعة أيام ، بل وخلقت من أجلي تصنيفا جديدا . والمعتاد أن طابور الانتظار كان يطول للجميع آنذاك عاما على الأقل !

المهم ، على ذلك الموقع كتبت هالة الحبيبة أن هؤلاء الذين يتوسعون في بناء شركات عملاقة للثقافة ، لن يحنكروا شيئا لسبب بسيط أنهم سيفلسون قريبا ، ذلك أن الثقافة العربية برمتها ، كتب وأفلاما وموسيقى ، من امرئ القيس حتى عمرو دياب ، لا تساوى بليونى الدولار التي كانوا يتسابقون لدفعها فيها . كانوا يدفعون مبالغ تصل لمائة ألف جنيها لحقوق ملكية بعض الأفلام ، أفلام عبد الحليم حافظ مثلا . قالت هذا هراء مطلق يستحق الرثاء عليهم ، لا الذعر منهم . الفرصة الوحيدة في رأيها ، هي أن تشتري شركة واحدة كل الثقافة العربية بسعر جيد ، قدرته بليون دولار كحد أقصى ، ثم تذهب بعدها ساعية لشراء ستوديو هولليوودى . الوليد بن طلال كان الاسم الذى طرأ بإهالا في تلك السنوات الباكرة في أواخر التسعينيات ، وليس ' هؤلاء المغامرون التافهون ' حسب وصفها غير محمود العواقب جدا . امتدحته قائلة إنه لا يكاد يشبه المستثمرين العرب في شىء ، مشيرة إلى تفرد شخصية والده وإلى نسبه من جهة الأم وإلى تربيته وإقامته في الغرب وإلى مستشاريه اليهود وسلوكه الاستثمارى على نحو عام . أسهبت في شرح أن هكذا فعل الفرنسيون ومن قبلهم اليابانيون مع هولليوود ، بدرجات تتراوح ما بين الفشل الذريع والنجاح بعد لأى . ذهبت هالة لأبعد من ذلك . قالت إن العرب لديهم مشكلة إضافية ، هي أن صورتهم سيئة في الغرب ، واقتزحت أن أفضل شىء إطلاقا لتحسين صورتهم ، هو أن يخرسوا تماما ، لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا ، ذلك أن -على حد تعبيرها- كل إناء ينضح بما فيه .

شجاعة التلميذة النجيبة ، زائد رؤيتها المتفردة الثاقبة ، ناهيك عن أنها لم تكن تفعل سوى المشى على خطى حماقة وحيد الكبيرة قبل شهر قليل في الكتابة بلا حسابات ، رفعتها كلها للسماء في عيني أستاذها ، هذا رغم أن وصف ' المغامرين التافهين ' انبسط عليه هو أيضا (على الأقل في نظر القراء) ، ورغم أن نبوءتها المريعة بإفلاس تلك الشركات ، كلفته تقريبا عمره كله (قالت أيضا بوضوح لا يحتمل اللبس إن مجرد قبول نوم كروز الظهور في برنامج لأوپراه وينفرى اليسارية المتطرفة أسقطه للأبد من نظرها) . بعد ذلك ظلت تعاريف وحيد بتخليه تقريبا عن كل شىء . إذا كانت الاقتصاد اليوم ، وحيد أساسا وهالة بالدرجة الثانية ، قد كتبت إنترنت وخليوى وساتيليت ... إلخ ، لأول مرة بالعربية في الصحافة ، فموقعها فعل ما لم تفعله أو ربما ما لم تقدر عليه الاقتصاد اليوم : أضاف المزيد والمزيد من ' أول من فعل كذا بالعربية ... ' ، خارقا جميع

المحظورات . كانت أول من كتب كلمة علمانية بالعربية على الإنترنت ، وأول كتب كلمة جنس بالعربية على الإنترنت ، هذا يوم كانت كل مواقع الإنترنت العربية تعد على الأصابع ، وموقع الرأى الوحيد هو موقعها . وبالفعل كانت أول بشير إطلاقا للثورتين ، ثورة العلمنة والثورة الجنسية ، اللتين اجتاحتنا مجتمعاتنا في السنوات الأخيرة .

إذا كانت جدلية الرد هي المرة الوحيدة التي كتب فيها مقالا علمانيا ، وكان ذلك في مجلة الجامعة الأميركية وهو طالب ، فإن حالة كان موقفها مختلفا . كانت تقول إننا يجب أن نكون عمليين ، الناس ناثهون ، المثقفون أنفسهم ناثهون . طالما فكرة الإله قائمة في عقولهم ، أيا ما كانت طبيعتها ، لن يتقدموا أو يبدعوا أو تتحرر أفكارهم . والواجب أن نعطيهم شيئا يمسكونه في أيديهم ، يعينهم على غسل المخ الديني الكاسح حولهم ، ويهز المسلمات المتوارثة في عقولهم . وإن هذا لن يتحقق دون أن ندحض لهم مفهوم الميتافيزياء ذاته من الأساس ، بأسانيد عقلية وعلمية قوية . كان من بين جدلياتها واحدة حول لماذا يمثل الأوكسيجين ٢٠ ٪ من الهواء ، هل لأن المعجزة الإلهية جعلته مناسباً لنا ، لرتاننا ولاحتياجاتنا ، أم لأننا تطورنا في غلاف جوى من الأصل هذه مواصفاته ؟ من جاء أولا ، نسبة العشرين بالمائة أم الإنسان ؟ هل المسافة بيننا وبين الشمس صممت خصيصا بحيث تناسب 'معجزة' ظهور الحياة وازدهارها ، أم نحن الذين تكوننا بناء على هذه درجة الحرارة الموجودة سلفا كما حددها حجم الشمس وعمرها ونوعيتها وتفاعلاتها ومسافتنا نحن عنها ... إلخ ؟ أو مثلا هل خلق الرب البرتقال خصيصا من أجلنا كي يقينا الزكام ، أم أنه كان موجود أصلا ، ولو كان قد ظهر بشر لا تفيدهم نباتات الشتاء في الحماية من أمراض الشتاء لانقرضوا ، وبقي أمثالنا نحن فقط ؟ ... أو مثلا لماذا يبدو الكون شديد الدقة ويخضع لترتيب order صارم ، هل لمعجزة خارقة في خلقه ، أم لأن ببساطة -وبحكم تعريف الكلمة لا أكثر- الكون قد 'كان' لأنه ذو نظام ، والكون غير الخاضع لترتيب ذى حد أدنى من الدقة هو مفهوم مستحيل من الأساس ، ومن ثم لا معجزة أصلا في أى نظام أو ترتيب لأنه بدونه لم يكن ليوجد الشيء ابتداء ، أو لو وجد لافتر على نفسه ؟ ... هكذا كانت أحيانا تسأل !

ومما حق شعبية خاصة جدلية أخرى حول هل الإنسان مخير أم مسير ، ولو كان مسيرا فلماذا يحاسب ، ولو كان مخيرا فلماذا يحاسب أيضا ، أو هل خيره أحد في أن يكون مخيرا ؟ ألم يكن بوسع خلق إنسان غير قابل للسقوط أصلا ؟ بل لماذا هذا الإله مزعوم القدرة الكلية لا يخلق آلهة ؟ المسلمون يقولون التوحيد وهي سخافة وفرضية شديدة الافتراضية هزلية وبلا معنى ، لم تستحق التعليق منها سوى بأن ما الميزة في الواحدية أصلا ، فالواضح أنها -وليس أكثر- مجرد هاجس سياسى حياتى لدى تحديدا البدو الجرايع البدائيين دائمي الصراع على التحيؤ الضنين ، هذا إن لم تكن الواحدية في حد ذاتها نتاج طبيعى يترجم ما تعيش فيه بيئتهم الفاحلة من فقر وضحالة . أما المسيحيون فيقولون بما هو أسخف وهو أنه لا يخلق آلهة إنه لا يعطى مجده لأحد ، وكان ردها بسيطا : لماذا ؟ ما المشكلة في أن يعطى مجده لكل أحد ؟ أليست تلك أنانية وأمراضا نفسية مزمنة لديه ؟

ثم ما كل هذه الجلبة التي يثيرها المسيحيون عن واقعة الصلب ؟ السبب الذى يقولونه مضحك : بدون سفك دم لا تحدث مغفرة ! من وضع هذه القاعدة أصلا ؟ ولماذا لا يغيرها ببساطة بدلا من الحرص على تشكيليات هذه المسرحية الطقسية الدموية السخيفة ؟ إنها فكرة وثنية جدا أصلا ، بل أول فكرة دينية إطلاقا وقد عرفتها كل أقدم القبائل البدائية ، فنحروا القرابين للطواطم حيث لم تكن هناك آلهة ولا حتى أوثان بعد . ألم يكن باستطاعته خلقنا غير قابلين للسقوط ، أم هو مسلسل فشل الذريع الذى نكبنا نحن به ؟ ثم كذلك من الذى اخترع فكرة الخطيئة الأصلية أصلا ، وقال إن اللعنة تورث ، ويجب أن يظل الدم يسفك من أجل مغفرتها ؟ لو شئتتم الفكرة الحقيقة خلف هذا فهى أن الدم لا يسفك بالمرّة من أجل المغفرة إنما من أجل ملء بطون الكهنة ؛ بلى ، كل ما تدور حوله كل الأديان هو طعام الكهنة !

الكارثة الأفذح أنك حين تسألهم ، لماذا لم يخلق الإله الإنسان (ناهيك عن بقية الكائنات) ، كائنات مثالية غير قابلة للسقوط أو للسلوك الضار ، تكون إجابتهم : لقد أعطاه الحرية ! أى يقولون لك ضمنا إن الحرية هي السبب في كل مصائب العالم ، أى مرة أخرى يبحثون عن مسوغ جديد لتسلط رجال الدين على رقاب البشر . ثم لماذا يضيع ذلك الإله التافه وقته في مراقبة البشر حتى في مجاهل أفريقيا وعد حسناهم وسيئاتهم (حسب الإسلام ، حيث لو تساوت الكفتان يلعبون ضربات جزاء) ومحاسبتهم (حسب كل الأديان) ؟

ثم ما كل تلك السادية التي عنده وهو يتلذذ بتعذيبهم عذابا أبدا ، فيما لا ذنب لهم فيه . ألا يعلم الإله سلفا بما سيفعله كل إنسان ، وأين سيكون مصيره الأبدى ؟ إذن هو خلق كل هذه البلايين من فئران التجارب البشرية ، فقط كي يستمتع بإلقائهم في النار ؟ ثم ما معنى عذاب

النار ؟ لا أفهم من أين أتوا بهذه الفكرة السخيفة أن هناك شواء في النار ينتظر الناس بعد موتهم ؟ لو كان إله التوحيد السقيم العقيم ، القبيح الوضع ، هذا قد ظهر في ألاسكا أو سيبيريا ، وليس في صحارى منطقتنا ، هل كان سيعدنا في النار أيضا ، أم كانت ستصبح الجنة مواقد مشتعلة والجحيم ثلاجة عميقة ؟ ثم لماذا جنة -لغويا وموضوعيا- تعنى حديقة ، أى زروع وأعشاب وهر ، أليس ذلك هو الحلم البدوى الصحراوى المجدب ؟ لماذا لا تكون مثلا سفينة تجوب الكواكب والنجوم والسدم ، أليس هذا أجمل وأروع ؟ لماذا لا تكون حتى مجرد مكتبة عملاقة أو دار سينما عالية التقنية أو نظاما متطورا للألعاب الفيديو ، أليس هذا أكثر إثارة وممتعة من أية حديقة ؟ !

جانبيا طرحت هالة بعض أسئلة للمسيحيين ، لعل أبرزها هو لماذا كان للرب ابنا وليس ابنة . راحت تسرد من تاريخ الأناجيل المحرمة كيف أن مريم المجدلية -التي أهالت عليها الكنيسة التراب لألفتين كاملتين- كانت هى نبي المسيحية الحقيقي (بفرض أن أحدا كان يفكر ساعتها فى شىء أكثر من إضفاء الروحانية الصوفية على شريعة موسى الفظة الخالية من الروح ، ناهيك عن أن يفكر فى خلق دين جديد مستقل عن اليهودية) . خالفت هالة نظريات مشاهير البحات العلمانيين ممن يقولون إن الكنيسة الأولى بذكورتها هى من ألصقت بالمجدلية تهمة الزنا واعتبروا أنها ذاتها هى المرأة التى أنقدها يسوع من الرجم وهى المرأة التى مسحت أرجله بالطيب وجففتها بشعر رأسها ، بل ربما هى أيضا المرأة ساكنة السامرة ، أى كل نساء الإنجيل المجهلات ممن لم يجرؤ كتاب الإنجيل على تسميتهن لأنهن جميعا ببساطة ذات المجدلية زوجة الرب ممن لا يصح لأحد الخوض فى ماضيها وعرضها ، فقالت -أى هالة- لا بأس عندى إن كانت قد اتهمت المجدلية بالزنا فعلا ، فالأرجح أنه مجرد أن كانت مثقفة ودارسة وتجيد اليونانية ومخالطة للأجانب أن اعتبرها ذلك الشعب اليهودى المتخلف متحررة أكثر مما يجب لامرأة ، وساقوها للرجم !

فى جدلية أخرى فاقت كل الحدود ، طرحت هالة پروفايلا نفسيا مرضيا شديد الخلق والاضطراب والمعاناة لإله التوحيد بعد أن اتضح له أن كل ما خلقه قد ثبت فشله ؛ لم يصنع مخلوقا واحدا قريب من مستوى الجودة ناهيك عن المثالية ، بل إن كل مخلوقاته -مادية أو ملائكية- تنكرت له وتحولت لنيران عكسية فى وجهه : يصنع ملاكا فإذا به يتقلب شيطانا ، يصنع إنسانا كصورة منه شخصا فإذا به يفضل تحديه والتمرد عليه ، بل فى الواقع لم ينجح أى من مخلوقاته فيما صنعه أصلا من أجله ، فأى نوع من الخالقين هذا ؟ من الوعود المبتهجة إلى الهبات السخية ، لم يحدث أن فعل شيئا واحدا لم يندم عليه لاحقا (ربما فقط لم يندم على الإبادة والانتقام) ، فأى نوع من الآلهة هذا ؟ الأسوأ من هذه وتلك فى نظرنا أنه إله مريض نفسيا ، مصاب بداء الإسقاط ، إذ راح يلوم البشر أو الشيطان وغيرهم من مخلوقاته ، ويعاقبهم على نواقصهم وتشوهاتهم التى هى فى الحقيقة نواقصه وتشوهاتة هو الشخصية وأبرز دليل على إخفاقه الذريع فى مهنته مقارنة بأبسط حداد أو نجار نعرفه . ثم راحت تفسر الأمر قائلة : إن الأصل فى كل القصة أن هذا الإله البائس الفاشل المتبرح طوال الوقت لاكتشافه أنه آخر من يصلح لمهنة الخلق وكل ما يصنعه يرتد إلى صدره ، لم يأت صدفة ؛ إنما لأن الإنسان قد خلقه على صورته ومثاله ، ولم يكن أبدا بوسع الأنبياء -تلك الختالة البشرية معدومة المواهب الذين امتهنوا الدجل لفشلهم فى كل الحرف الأخرى- خلق إله أفضل ! ... هكذا كانت أحيانا تجيب !

أقامت هالة على موقعها محكمة مهنية تناسب ذلك الإله على ما اقترفه من أخطاء فادحة فى الخلق تسببت فى تعاسة المخلوقات ، ذلك من شياطين شريرة وموت محتوم وشيخوخة مؤلمة وميكروبات قاتلة وحشرات ضارة ونفسيات مختلفة وتعصبات دينية ... إلخ ... إلخ ، ودعت لعضويتها كل من يمكن أن تنطبق عليه صفة مبدع أو خلاق فى مختلف مناحى النشاط البشرى ، وكما توقعت أصدرت حكمهم بالإدانة والإعدام . أيضا قالت -من بين ما قالت- إنه إذا كان الإله على مثل هذه الدرجة من الفشل وقلة والحيلة ، فما الذى يضمن لنا أنه سيكفل لنا الجنة لو سرنا خلفه ؛ فى كل الأحوال المشى وراء الشيطان أضمن بكثير . بهذه الكلمات -ودون أن تدرى وقطعا دون أن تقصد- كانت ملهمة من حيث لم تحتسب لسلسلة من طقوس عبادة الشيطان فى قصر البارون المهجور ، ذلك فى السنوات الأولى لأول عقود الألفية . على أية حال ، بعد سنوات كاملة من تأسيسها لموقعها بدأ ظهور مواقع علمانية كثيرة على الإنترنت ، لكن أيا منها لم يكن يمثل عمقها ولا سعة خيالها ، كما أن قلة فقط هى التى كانت تكتب بأسمائها الحقيقية مثلها . بمعنى أو بآخر ، ها هى تواصل المسيرة ، مسيرة الفكر العمق والنضال من أجل الحدائث ، بينما معلمها يهرول وراء إنتاج الأفلام ، التى أيا ما كانت أهميتها فهى لا تضيف الكثير لمسيرته الفكرية السابقة . كانت أيضا تبدو كمن تعابره ، كلما قالت له أنه منذ ظهرت مؤسسات قياس الجماهيرية على الإنترنت ، وموقعها يحتل المكانة الأولى بين كل مواقع العالم المناظرة بمختلف اللغات . لقد كان ولا يزال الأنجح إطلاقا فى التصنيف المسمى ' مواقع كتاب الرأى متعدد الاهتمامات ' ، وبفارق شاسع عن كل المواقع المثيلة . لم يغضبه أى من كل هذا بالمرّة ، لكن فى ذات الوقت لم يحدث أن قال لها قط إنه يرى فيها امتدادا له . مع ذلك كانت تلحظ بسهولة

نظرات الحب في عينيه ، زائد لهجة الاحترام والهدوء الزائدين في كلامه معها ، الأشياء غير المعتادة من شخص حاد الأفكار متهور مثله ، وكأنه -ربما- يخشى أن تنهال عليه تقريبا ، فقط كما اعتاد هو أن يفعل مع الجميع !

حتى لو لم تكن هالة قد صنعت الكثير من الأحداث على نحو مباشر أو درامي ، فلا يمكن تجاهل أن كتاباتها كان لها أثر واضح على بعض كتاب التيار الرئيس في الصحافة والإعلام ممن لهم أصلا ذات الأفكار ، فأعطتهم شجاعة ، أو على الأقل غير أن يحاكيها بعض الحرية التي تتمتع بها دونهم . أما الآن -وأواخر عقد الصفریات- وقد صارت الإنترنت وسيلة الإعلام الأولى ، والتقنية الرئيسة لمشاهدة التلفزيون نفسه ، بل أصبح الحاسوب الشاشة الوحيدة لممارسة كل شيء وفي كل مكان ثابتا أو متحركا ، أصبحت هالة سلطة لا يستهان بها في الثقافة الناطقة بالعربية ، ومن مداعبات وحيد الدائمة لها تعليقا على تأثيرها الصامت على المثقفين وصناع القرار أن كان يصفها بأنها من يحكم مصر من خلف الستار . ثقتها بنفسها تغيظني . هل تصدقون ماذا قالت عندما قلت لها أفكارك حلوة اكتبي بالإنجلش ؟ قالت بعد قليل الترجمة الأوتوماتية ستصنع نسخ بكل اللغات من موقعي ، وليس الإنجليزية فقط ! هذا صحيح من حيث أن أفكارها الجامحة شبه الخيالية هي التي تجد طريقها للتنفيذ فعلا ، ووحيد لا يجد مشكلة في تفسير هذا ، ويقول إن السبب ببساطة هو مادية فكرها ، فكل الآخرين يقولون كلاما أجمل منها بكثير ، لكنه في النهاية مجرد كلام . أما هي فتقول إن ذلك الشعور بالجبروت لا يأتيها أبدا ، وإنما تنتظر اليوم الذي تلقى فيه حقا اهتماما من هؤلاء لأنها جهزت كلمة لهذه المناسبة هي ذات كلمة تشرتشل ' أنا أقف هنا (أي رئيسا للوزراء) فقط لأني فشلت (أي في إقناعكم بخطر النازية) ! ' .

يا أستاذ ، هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ في هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ ! لا تصدقوا كل ما تسمعون . إنها تكذب ! نعم ، هي تصرخ ، لكن على الإنترنت حيث لا تحدث ذات الجلبة التي يحدثها ما يكتبه أمثالي في الصحف والتلفزيون حيث يتحفر الجميع ضدنا ؛ الإنترنت فضاء واسع ولذا تتبدد الأصوات فيها . على أية حال أعتقد رغم ذلك أن هذه المتزيدة الهوجاء ، هي التي تقود كل مصر ، تقودها وإن بحدوء ؛ تقودها من مركز القيادة الخلفي الذي وظيفته توجيه الصفوف الأمامية . هي لم تدخل قط معارك ضخمة مدوية ولم تتلق يوما تهديدا بالقتل ، لكنها فقط تقول كل ما يجب أن يقال وكما يجب أن يقال وكما لا يمكن أن يقال في الوسائط الأخرى ، بعدها تترك النخبة تقرأ وبالبطء الذي يشاءون يهضمون ما تكتب ويتأثرون به ، ويثيرون -هم لا هي- الضجة بكلمات سبقتهم إليها بسنوات ، وتلك ' الجبارة ' راضية بهذا الدور ... ولا تصرخ !

- أنا لست جبارا !

- ماذا قلت ؟

- لم أقل شيئا .

... لماذا لا تفارق صورتك مخيلتي أبدا أيتها اللعينة !



أسوأ اختراع في التاريخ

- تعرف يا وحيد أنا أكثر حاجة شاغلاني إيه ؟ إल्ली شاغلني عيلتنا رايحة لفين ؟ بأدرسها جيل ورا جيل ، من أول بني هاشم ومايكل كووك لغاية منى بنتي ، أو الطفل إल्ली ها تخلفه يسرى من جوزها الأمريكاني ؟

- قلت بني هاشم ؟

- أيوه !

- كمان موش أي بني هاشم ؛ أنا من الأشراف ؟ جدودنا الكبار من مكة . استقروا في بلبيس في الأول . صحراء ورعى على المطر وكده . وجدى ارتحل وجه القناطر وتزوج فلاحه منها .

ويتدخل إدوارد : ' أنا موش نصحتك بلاش تجيب سيرة الأشراف (الأحطاط الأشظاف الأشلاف الأجلاف) تاني ؛ قرب اليوم إल्ली ها يلموكم فيه في ميدان ويحرقوكم باعتباركم المحتلين إल्ली نهبوا بلدنا ! ' .

- أنا مالى بكل ده ؟ خللى عندك نظر . شايئى قدامك بأقطع لحم حد ؟ كل عيلتنا والحمد لله ناس مسالمة وآخر جمال ، روح اسأل علينا . كل الناس بتحترمنا وتحبنا وما فيش بينا وبينهم غير المعروف .
- ويتداخل ونس : ' بس موش جايز الاحترام والمسالمة دول ، بسبب نصك الإنجليزي والأرمنى ويا عالم إيه كمان ، الشعب المصرى اختلطت فيه كل الأعراق ؟ على الأقل تقدر تقول ربع إنجليزية وربع عربى ونص مصرى ؟ ' .
- موش بالظبط ربع عربى ، ولا بالظبط ربع إنجليزية ، فيه أرمنى وحاجات تانية . مستر وحيد هو إالى بالظبط ربع إنجليزية !
- يا ريت كده وبس : النص المصرى ده ربعين ، ربع صعيدى وربع فلاحى !
- صح يا تخين يا بتاع دمياط أنت . إيه المشكلة ؟ !
- لأ ، فيه مشكلة ! المشكلة أن ها ييجى يوم يقسموك أربعة زى الفراخ بتاعتك . ها ! ها !
- شايئى ؟ الحمار نحق حاجة صح . القبيلة ما عادوش بيعترونا منهم ، بيعتقرونا ، بيقلولوا علينا بقينا فلاحين .
- كله إلا دى ! دى ناس الدم عندهم ما يقاش ميه أبدا !
- بس ممكن لما يتخلط بالميه ، ما يقاش دم . (ويعود لوحيد :) بيعترونا منهم ، أو ما يعتبروناش ، طز فيهم . أنا مشغول بالچينيات ، إالى بيقول عليها المتخلف ده . جايز ده سبب إالى بتقوله عنى إنى كل يوم برأى ، أو إالى بتقوله فى شرك ، أنى ما ليش شخصية . بس أنا مبسوط بنفسى كده .
- إنما إيه اسم ' المصرى ' ده يا حاج ؟
- ' الفخد ' الكبير كانوا فى مستقرين فى شرق الأردن ، ولما كان حد من جدودنا يروح يزورهم يسموه ' فلان المصرى ' ، ' إعلان المصرى ' ، فبقى اسمنا كلنا عيلة المصرى .
- كمل كلامك .
- بأدرس عيلتنا جيل ورا جيل ، وموش لاقى إجابة للسؤال . أنا طالع شوية صغيرة لعيلة أبوى ، لكن يسرى ومجدى طالعين بالكامل لعيلة أمى . تخيل موش مهممين حتى ياخدوا شهادة أنهم من الأشراف (رغم أن موش ضرورى عندنا وشم ع الضهر ولا حاجة) . عيلتنا طالعة لقدام ولا راجعة لورا ؟ هل الاختلاط ده حسنها ولا ضرها ؟ هل لو حسننا التحسين ده مستمر ، ولا ممكن يرد تانى . ونعمل إيه علشان تفضل تتحسن على طول . منى ها تكون إيه بالظبط ؟ أنا ما عنديش إجابات . آه لو تعرف صراصير مخى أنا ، صراصيرك ما تجيش فيها حاجة . بعد عنها أحسن لك ، دى تقرضك قرض وما تخليش منك إلا الشوز ؟
- ما لبث وحيد مندهشا من رأى الحاج فى نفسه ، ومن وعيه بمعاناته ومن جهده الحثيث فى تأمل الأمور ، كل الأمور ، بحيث راح يبدو فى نظر نفسه كمجرد شاب غر يقف بين يدي حكيم كبير ، ويجادله بغير . صمتا طويلا ، وبدأت تتقارب ملامح الوجهين ، وجه وحيد المتهلل ، ووجه ضهرى الغاضب . أصبح كلا الاثنين واجما ، هذا إلى أن فى نهاية المطاف انفرجت أسارير الأخير ، وراح يداعب وحيدا : ' هيبه ! دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! '
- إنما اسمح لى يا حاج أسألك السؤال بطريقة تانى : إزاي بعد كل الاطلاع والتحليل ده ، أنت لسه مؤمن وتبصلى ؟ ' .
- بص : أنا أمى ما كانش لها فى الدين . بمعنى أنى متعود على كل الأفكار الملحدة بتاعتكم دى . ولما تشوف حد كده ، موش لازم أم ، مجرد صديق ، مجرد كتاب ، بتفضل شكاك طول حياتك . طول عمرك ما ها تبقى زى بقية المتدينين ، إالى بأسميهم المتدينين عميان ، متدينين بالوراثة ثم بغسيل المخ منذ اليوم الأول للولادة . لكن كل ده ما لهوش دعوة . لأن فيه أسئلة ما بيجاوبش عليها العلم . الحقيقة وحش ما حناش قده . هل ها نموت زى الصراصير وننتهى ؟ هل هى دى كل قيمة الإنسان ، صرصار اندهس ؟ دى حتى فكرة تجيب اكتتاب ! قدماء المصريين ما اخترعوش فكرة الخلود ع الفاضى أو علشان يسلاوا أنفسهم !
- موش الإنسان وحده إالى ها يندهس زى الصرصار ؛ كل المملكة الحيوانية كده !

- هل تريد إقناعي أن كل هذا الكون بلا هدف ولا حكمة ، وموجود لأنه موجود وخالص . أنت مريح نفسك وتقول موش ها نعرف أبدا . طب ليه ما نحاولش ؟ موش بمزاجي أنى پروسيسور بايظ وميمورى بايظة . فهمت ؟

- على فكرة أنا موش ملحد . أنتم الملحدين . لو عم نبيل بينا دلوقت كان قال لك فى اللغة الإلحاد هو الانحراف عن الصراط المستقيم . البشر كانوا عايشين لآلاف السنين من غير إله التوحيد ، وإللى اخترعوه هم إللى انخرفوا ، ألدوا .

لا يجد وحيد ردا جديا فينطلق : ' قديما قالوا تعدد الأديان يلغيها جميعا ، لأن الإله لا يمكن أن يكون قد أرسلها جميعا ، ولا يمكن أن يكون قد همس لكل نبي فى أذنه أنه خاتم النبيين ، وقرر هو التقاعد . أنا أرى العكس أيضا : تشابه الأديان يلغيها جميعا : لقد أجمعت على خرافة ذلك الهراء المطلق المسمى المطلق ؛ ومطلقيته هذه هى أكبر عائق أمام تقدم أى أحد أو أية أمة . انظر كم التخلف والقهر والحروب وحمامات الدم وعصور الظلام التى عانت منها البشرية بسبب الدين فى حد ذاته ، أو بسبب افتراض كل فصيل أنه وحده صاحب مفاتيح الفردوس والعارف بكنه ذلك الإله . حتى المسيحية رمز التسامح خاضت قرونا من الحروب الداخلية هائلة الدموية فى أوروبا . المشكلة تكمن فى طبيعة ذلك الإله نفسه الـ all-mighty ، المطلق . آلهة الأغريق والرومان خلقت كى ' تتلظش ' و ' تنهزأ ' وفى خاتمة المطاف تهزم . طبقا لما قلته أنت للتو ، هذا ما أرادته شعوبها منها لأنها شعوب عظيمة أو كانت كذلك ، وتلك كانت وظيفتها الأنثروبولوجية التكيفية عند هذه الشعوب . فالآلهة رموز لقوى الطبيعة البطاشة والمفترض فى الإنسان -لو كان يحترم نفسه حقا- أن يروضها لا أن يركع لها . أما الشعوب المنحطة -إللى اتفقنا أنت وأنا أنها منحطة وموش ها نرجع فى كلامنا- فتفضل أن تعيش عمرها ذليلة تحت رحمة أقدار يأتيها بما إله قبيح مشوه نفسيا يسكن سماء موهومة يسمى الواحد الأحد القهار . أليس ذلك الإله الخفى هو أكبر مؤامرة فى التاريخ الإنسانى ؟ مؤامرة وليست نظرية مؤامرة كنظريات ونس ، وبالذات وأن أصحاب المصلحة فيها معروفون بالاسم . ما أسهل أن يذهب شخص لشجرة أو لجبل ، وبدلا أن يفعل كما يفعل كل الناس فى هذه الأماكن فى تلك الأيام (يشخ يعنى !) ، تلهمه رائحة الخراء أن يعود لقومه البلهاء ليقول لهم لقد ظهر لى هناك إله خفى لا يظهر نفسه لأحد قط ، ثم يبدأ يتلو عليهم قاذورات إجرامية كى يستعبدهم لنفسه بها ، اسمها الوصايا العشر أو القرآن أو أيا ما كان . يا له من دجل ، بل يا لها من فكرة جهنمية لا يفتنق عنها إلا ذهن شرق أوسطى سيكوباتى أثيم فريد الإجمام . صحيح ! لماذا خفى ؟ ! لماذا ليست تلك الأوثان الوديعه البديعه التى كنا نعبدها فى الأيام الخوالى ، فى عصر البراءة ؟ بل صحيح ! لماذا واحد ؟ ما الميزة أصلا فى شىء كهذا ؟ أليس ذلك الكون العظيم أجدر بعبدة آلهة تتعاون على خلقه ؟ هل كان سيعيب أى من تلك البلايين من الآلهة لو تخصص كل واحد منهم فى خلق مجرة واحدة معينة ؟ أم أن الأمر برمته مجرد مرض لدى الذهن شرق الأوسطى السيكوباتى الأثيم فريد الإجمام ؟ لماذا قامت الدنيا ولم تقعد من أجل ٣ أو ٤ آيات شيطانية ، بينما رأى كل ما نسب من أطنان الكتب لآلهة السماء الخفية هى جميعا آيات شيطانية . إن أى شىء فى الوثنية هو أرقى وأجمل وأنبل من كل شىء فى الأديان الثلاثة المسماة بالمتجلاة ، وفى قول آخر الإبراهيمية ، وفى قول ثالث أسوأها جميعا : السماوية ، وفى قول رابع أفضلها جميعا : الأخناتونية (طبعا بعد استبعاد البروفة الأولى التى لم يكتب لها العيش ، لكن كتب لها التناسخ : الآتونية العمارنية !) . أنا رأى أن أسوأ اختراع فى التاريخ هو إله التوحيد . أنا أقسم الأديان لقسمين كبيرين : أديان خيرة محترمة وأديان حقيرة شريرة . عموما كل أديان الدنيا خيرة محترمة ، إلا أديان الوحي الثلاثة فهى بالقطع حقيرة شريرة . ليس السبب فقط أن الإله المحترم لا يلهث وراء الناس ، إنما لأن الوحي هو أكثر الأفكار خبثا وشيطانية فى التاريخ ، كل دجال سفیه سفيل ، كل من هب وفرز وشذ ، يخرج يوما ليقول لنا إنه سمع -وحده دوننا عنا جميعا- صوتا أتاه من السماء فيأمرنا بالإنقياد خلف نبوءته وشخصه وسلطانه طائعين كالقطيع . من الأشرف والأكرم والأرقى لى أن أعبد ديانا أو أبوللو أو أفرودايت ، على أن أعبد ذلك اللهو اللغو الغبي الخفى السفيل السافل المريض ساكن المجهول ، إله الخراء ، الإله الذى لا تجذبه إلا رائحة الخراء ، والذى لا يتوالد أو يتعرع -أو حتى يتجلى- إلا فى حقول الخراء . كمان على فكرة أنا لى نظرية أن يوسف جوبلز لما قال كلما كبرت الكذبة كلما سهل تصديقها ، كان يقصد ذلك اللهو الخفى ساكن السماء الذى لا يراه أحد قط . إيه رأيك ؟ ' .

- أنت نازى بأه !

- هو علشان عجبتنى جملة أبقي نازى . على أية حال النازية لو كانت احتلت لغاية فرنسا وروسيا ، كان أكيد إدتنا أوروبا أفضل . كان هناك غلطان لا تغتفران ، خطيئتان ، أوشويتز ودنكرك . اليهود هم أصحاب الفكر والعلوم ، سبينوزا وماركس وأينستين وفرويد وكل الناس دى ، والإنجليز هم الثورة الصناعية إللى ألمانيا نفسها مجرد تلميذ عندها . اسمح لى : زى ما بيقولوا ' العين ما يصحش تعلى عن الحاجب ! ' .

- (دون أن يهتم بالمجادلة في فحوى الكلام ، أو لعله لم ينصت له :) الله يرحمك يا نبيل !

- (مصححا ما قد يكون فهم خطأ :) على أية حال الموضوع طبعاً موش موضوع خطيئتين أو عشر خطايا . أكيد النازية كلها كانت أيديولوجية كراهية ، ردود أفعال ، موش فعل إيجابي رؤية وبناء . وأكيد ما كانش ممكن تعمل غير إالى عملته ، تضرب الكل وتعادى الكل .

- فعلا ، الحقد يأكل الروح !

- وفعلا أنا طلعت بره الموضوع !

- ما فيش أى شىء بره الموضوع . برضه دى لازم تفهمها ! (ثم يعود حانقا :) عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟

- عارف ! مرزبة !

- لآ ، ها أجيب قومبروصور (يقصد كومبريسور) بروحين وشوية بطاس . أصب البطاس فى ودانك ، وأحط فى كل ودن خرطوم ، وأنفض لك محك ده من الصراصير إالى فيه . (ثم يكشف عن السبب غير مبال بأنه يعكس من جديد الضفة التي كان عليها موقفه قبل أيام :) إيه إالى أنت بتقوله ده ؟ الإسلام طور علوم كثيرة ما لهاش أول ولا آخر . ثم الأسطرلاب ده ، موش منتج تقنى ؟

- بص : أنا صحيح جاهل بالتاريخ العربى ، إنما ده بالذات أعرفه كويس . ده اختراع يونانى . الاسم نفسه يونانى astrolabe . منذ الأزل وأثبت العرب أنهم أساتذة العالم فى الدعاية والإعلام والبروباغاندا . الكلام هو مهنتهم الوحيدة ، ويستطيعون لوى الحقائق وخلق الأساطير كما يحلو لهم . اليونان برضه إحنا فاهمينها غلط . على صغرها وعدم توسعها ، هى حضارة بكامل معنى الكلمة ، موش علوم نظرية وفلسفة وشعر وپس ، فقط لأن الانتقال كان سلسا سلميا وغير محسوس منها لروما (بدون حرق للأرامادا وبدون حرب استقلال أمريكية) ، لجاز اعتبارها حضارة مستقلة . حتى الأسطرلاب موش أهم اختراع لهم فى الفلك ، لهم آلة أقعد بكثير اسمها Antikythera Mechanism بتعتبر حاليا أول حاسوب فى التاريخ . أما بالنسبة للعرب فكل علاقتهم بالأسطرلاب هى أنهم عرفوا يستخدموه إزاي ، والسبب طبعاً واحد ما فيش غيره : أنه يينفع فى تحديد القبلة . ربما عدلوه قليلا ، وإن كان من غير المعروف حتى اسم الشخص الذى أعطاه الشكل الكروى ، وهل هو عربى أصلا أم لا ، وهو تعديل ثانوى فى كل الأحوال . على أنه سواء كانوا قد عدلوه ، أو حتى اخترعوه ، فإنه لن يختلف ساعتها عن التحنيط الفرعونى : تقنية مبهرة ، لكن استخدام غير دنيوى . منتج تقنى إالى أقصدها معناها شىء يؤثر على الحياة اليومية للملايين ، زراعة ، طرق ، حدادة ، طباعة ، قطارات ، كهرباء ، سيارات ، طائرات ، تليفون ، ثلاجة ، تليفزيون ، انشطار الذرة ، ترانزستور وأشباه موصلات ، كمبيوتر ، ليزر ، هندسة جينية ، كده ! العلوم حاجة والتقنية حاجة . أفكر زكى نجيب محمود بتاع ' إنما الأمم التقنيات ما بقيت ' ، قال أيضا - ولم يكن فى حاجة للقول لأن العبارة الأولى تكفى - الحضارة الإسلامية حضارة وصفية . أفكر يقصد نفس المعنى الذى أقوله لكن بطريقة مهذبة : أنها أساسا موش حضارة ؛ فقط بعض بحث علمى فردى متفرق ، لأناس غريبى الأطوار يسخر منهم المجتمع ككل ، وحتى تسخر منهم زوجاتهم أنفسهم .

- (ضاحكا :) كحكاية من كان يدرس الصوت من خلال محادثة البئر ! يعنى باختصار عاوز تقول لا توجد حضارة إسلامية ، توجد

حقارة إسلامية !

- أولا وحياتك بلاش تلبسنى تم . ثانيا تقدر تقول لى مثلا إيه معنى التقويم الهجرى ؟ ١٢ شهرا قمريا لا تعنى بالمره أى شىء فيزيائى أو فلكى على وجه الإطلاق . تقويم بدائى جدا أتى من أناس بدائيين جدا ، وأجزم لحجاب وأمثاله أن هيهات ستعيش مصر بالتقويم الهجرى أبدا (على الأقل سنتهم القبطية إالى اخترعوها لها معنى ، حتى وإن كان بعد ٢٠-٣٠ ألف سنة كيهك ها ييجى فى الصيف وبؤونة فى الشتاء وتبوظ زراعة أمنمحات ورمسيس !) . إنهم حتى كانوا يطلقون على السنوات أسماء لا أرقام (الفيل - الرمادة - موش عارف إيه) ، يعنى ما كانوش بيعدوا السنين أصلا !

- رمسيس موش بتاع زراعة ؛ رمسيس بتاع سمسة أوراق مالية .

- ثالثا ليس معنى أن غزا العرب معظم العالم أنهم حضارة بالضرورة ؛ تقدر تقول لى لو هم أصحاب حضارة صحيح ليه بنوها فى الأندلس وما بنوهاش فى بلادهم الأصلية ؟ تقدر تقول لى ليه تسمى ماذن الجوامع منارات وهى لا تنير ؟ أليس لأن الفكرة والاسم سرقا من منارة الأسكندرية ،

والتي بعد أن أخذوا منها الفكرة هدموها ؟ ! رابعا أنت عاوز تناقش بجد ولا بلاش أحسن ، بالذات وأن شكل أخونا روميو موش مبسوط خالص من الصداق ده ؟

وينفجر روميو : ' كل يوم ها تصدعوا لنا دماغنا بالطريقة دي ؟ ! مشترين أسهم وسايينها تعتق زى الخمرة ، وجاين عاملينها لنا بار هنا ! روحوا شوفوا لكم حنة تاني اتناقشوا فيها ' .



زى كل حاجة عند العرب ، الكلام حاجة والفعل حاجة ،

لغو ومظاهر طنانة جدا والكلام موش بفلوس وأبو بلاش كتر منه ، والجوهر هو العكس .

الإسلام حريقة فى الكلام عن التوحيد ، بينما الجوهر وثنى جدا ومشرك جدا . عارف ليه ؟

لأن التوحيد فكرة سهلة بسيطة وتبسيطية جدا ، ولو كان فى وسع مُجدِّ ومستواه العقلى والذكائى ،

خلق -أو التعامل مع ، أو حتى مجرد فهم- عقيدة مركبة ومعقدة لاهوتيا وفلسفيا كالمسيحية لما تردد فى ذلك لحظة ،

بل كان قد بشر بإله ذى سبعة أقانيم ، إن لم يكن ذا ١٦ بعدا (على غرار الكون فى نظرية الوتر الفائق) !

- يا ريت تفضونا من مناقشاتكم إلى لا بتودى ولا تجيب دى ، ولا لها حتى علاقة بالأسهم . هات لى قهوة يا نصر الله ! (ثم يحاول أن يقلب الأمر مزاحا لعلهم ينسونه :) سيبيكم م الرسومات والأفلام والخطب وخلينا فى التقويم الهجرى : عارفين إيه أكبر إساءة للإسلام فى التاريخ ؟ ... أن نبيل أرمسترونج داس على من نصوم لرؤيته ومن نفطر لرؤيته ! ها ! ها ! ... عارفين كمان المسلمين ردوا عليه قالوا إيه ؟ ... قالوا القمر ده بتاعنا ! إشعنى ؟ قالوا أنتم ما سمعتوش عن غزوة بدر الكبرى ولا إيه ؟ ها ! ها !

لكن ونسا يعارضه كالعادة : ' أنت موش مبسوط ، أنا مبسوط ! أنت عاوز تمنع الناس م الكلام ؟ ! كلامك صح يا وحيد : الشهور القمرية لأن اللات هى إله القمر ، وهى نسخة الصائبة من البعل إله البابليين ، ومُجدِّ حط رتوش بسيطة ، غير ترتيب حروف كلمة هلال إلى الله (بفرض أنه كان يعرف حروف الهجاء ، المؤكد أنه كان يعرف أن عليه أن يسب كل عبادة على وجه الأرض لا سيما عبادة بلقيس للشمس ، لكن لم يحدث أن مس مرة واحدة القمر أو عبادة القمر) ، وأمر أن تجلل به قبة كل جامع ، فى وضع نكاح جنسى بين هذا الذكر الأعظم الإله القمر والطفلة مناة الإلهة النجمة الحسناء الصغيرة (يعنى ما تفرحوش يا مسيحين برسم الصليب وسط الهلال ، لازم تعرفوا إيه أصل الحكاية فى الأول !) . زى كل حاجة عند العرب ، الكلام حاجة والفعل حاجة ، لغو ومظاهر طنانة جدا والكلام موش بفلوس وأبو بلاش كتر منه ، والجوهر هو العكس . الإسلام حريقة فى الكلام عن التوحيد ، بينما الجوهر وثنى جدا ومشرك جدا . عارف ليه ؟ لأن التوحيد فكرة سهلة بسيطة مبسطة وتبسيطية جدا ، ولو كان فى وسع مُجدِّ ومستواه العقلى والذكائى ، خلق -أو التعامل مع ، أو حتى مجرد فهم- عقيدة مركبة ومعقدة لاهوتيا وفلسفيا كالمسيحية لما تردد فى ذلك لحظة ، بل كان قد بشر بإله ذى سبعة أقانيم ، إن لم يكن ذا ١٦ بعدا (على غرار الكون فى نظرية الوتر الفائق) ! بفرض أن المسيحية أو غيرها ليست ديانة توحيدية ، هذا لا يثبت تلقائيا زيفها ، لأن لا دليل أصلا على أن الإله واحد ، بل هى مجرد يروپاجاندا صاحبة أصموا بما الأذان والأذهان . أنا إلى طول عمرى ما كتبت موضوع تعبير كويس ، لو فرغت نفسى شهرا لقمتم بتأليف أعظم دين إطلاقا ، وقطعا بلا هفوة واحدة ! ثانيا : صح العرب أو المسلمين لم يصنعوا حضارة أبدا . أفضل الأشياء ابن رشد وابن خلدون ، علوم فلسفية واجتماعية هى فى قول آخر اليونان بلسان عربى (بل هل عربى حقا ، اجث جيدا فى سلالة هذين المفكرين !) ؛ فالشعوب الساموية لا يمكن أن تبدع شيئا من تلقاء نفسها أبدا ، أو ربما أيضا بعض آخر قليل جدا من العلوم الطبيعية ، دع جانبا أنها كلها تقريبا من صنع ١- غير عرب ، أى من بلاد حضارات الهامش الثرية القديمة ، فارسية قوقازية إسبانية ... إلخ ، ٢- غير مسلمين غالبا ، أى مسيحين ويهود وفرس ، طبعا فى حال أن سمحت لنا ' سماحة الإسلام ' بالسماع عنهم أصلا ، ٣- دائما غير مؤمنين ، غالبية أو أقلية ، حتى ذوى الخلفية المسلمة منهم ، لم يكن ينظر إليهم بأكثر من كونهم مجموعة من المارقين الملاحدة ممن يقولون أو يهتمون بأشياء غامضة شيطانية غريبة ، ٤- تحديدا كل ذلك تحت قيادة حكام صريحى ' الكفر ' كالحليفة المأمون ونسله الوجيز ، ممن تبنا أطروحة القرآن مخلوقا ، وحرصوا على سجن وتعذيب أمثال المهوس الدينى أحمد بن حنبل ، وربما كان أول مثال لديكتاتورية الحداثة التى تنادى بها يا وحيد . بعبارة أخرى ، لو كانت الحضارة الإسلامية

حضارة حقا أى ثورة تقنية ، لما اكتسحتها المجول فى أسابيع فى وقت كانت تعد فيه فى أوج شبابها وازدهارها ، وقضوا عليها للأبد ؛ هؤلاء على نحو ما -حسب تعريفك- كانوا حضارة ، ابتكروا إطلاق الأسهم من فوق صهوة الجياد ، وهى تقنية ! أما بالنسبة للأندلس ، العرب لا يعرفون شيئا اسمه البناء ، وعندما بنوا بأنفسهم بنوا الفسطاط ، أى مدينة الخيام ، أما ما بنوه فى قرطبة كان تقنيات وجدوها هناك ، ومهندسين وجدوهم هناك ، وبأموال استولوا عليها من هناك ؛ بل بالأحرى لم يبنوا شيئا أصلا ، إنما تقاتل ملوك طوائفهم على نخب ما هو قائم بالفعل بأيدى غيرهم ، وفى النهاية عندما فاض كيل المسلمين الحقيقيين 'الموحدين' بكفرهم وبموالاتهم لليهود وبفرض ذوبانهم فى حضارة الإسبان هذه ، اكتسحوهم قاتلوهم .

ويتداخل الحاج : ' وماذا عن الفاطميين ؟ هل همج أيضا ؟ ! ' .

- هذه قصة مختلفة . الفاطميون الذين جاءوا من شمال أفريقيا -أولئك المسلمون المتحضرون بدرجة ملموسة ، بفضل احتكاكهم الطويل بالرومان أو انتسابهم أحيانا لهم (طليعتهم إلى مصر -جوهر الصقلي- من صقلية -واضح !) ، والذين من العجيب أن ينسبوا أنفسهم لامرأة وهم فى محيط ذكورى بالكامل- لم يكونوا متدينين . كانوا شيعيين بالاسم والنسب الشكليين فقط ، بل وحتى هذا النسب نفوه لاحقا عن أنفسهم بقدر ما نفته عنهم الخلافة العباسية ، وقالوا إنهم ادعوه اتقاء لشر الخلافة الإسلامية ، بينما هم أمازيغ ، الأمازيغ فى الأصل القديم جدا مصريون ارتحلوا غربا ، ذلك حين غزا الحاكم بأمر الله الحجاز وأتى كما قيل بباب الكعبة وحجرها الأسود المقدس ليجعلهما مرحاضا ومداسا عموميا للمصريين (وكاد ينبش قبر مُجد ليفعل بجنته ذات الشيء ، وكلها للأسف قصص لا يجب أحد ذكرها وكادت تنسى) . كانوا علمانيين لحد كبير ، تؤذن مساجدهم ' حتى على خير العمل ' ، باعتباره أفضل من أية صلاة . ارتحلوا بكاملهم لمصر بما فى هذا رفات أجدادهم معهم ، وولوا قبيلة أخرى من الأمازيغ خلفهم على شمال أفريقيا لأنهم لم يعودوا يريدونها ولا يريدون أرضا ولا إمبراطورية ، فقط لا تمهم سوى مصر . فى مصر والوا لأبعد حد مسيحيها ويهودها . هؤلاء هم من بنى مهندسوهم كل القاهرة الفاطمية (لاحظ تطابقها مع عمارة المتحف القبطى مثلا ، ولاحظ أن اسمها مستقى من كوكب المريخ ' القاهر ' الذى ظهر يوم تمامها ، وهو مؤشر على نوعية ثقافتهم العامة وأيضا الدينية) ، والوزير بدر الجمالى نفسه كان أرمنيا وأسلم إسلاما شكليا ولم يغضب هذا منه أحد ، مسلما كان أو مسيحيا . كل هؤلاء الخلفاء تقربوا بشدة للمسيحيين وكل عطلاتهم كانت فى الأديرة ، بالأخص أشهرهم المعز والعزیز والمستنصر ، بل هناك نظرية تقول إن الوحيد منهم -الحاكم بأمر الله- الذى أصابته لوثة دينية (ربما بعد أن وجد الأمور قد زادت عن حدها ووجد أن أمه مسيحية وأخواله بطارقة وأساقفة !) ، فهدم كنائس مصر وكنيسة القيامة صنعا أول نواة للحروب الصليبية ، والسبب أن رأى زيف إله التوحيد وتحده أن يضربه بالطير الأبايل عندما يهدم بيوته . على أنه فيما يظن سرعان ما عاد ووالى المسيحيين . تقول نظرية الأقباط إنه تصنع مقتله واختفى مترهنا فى أحد أديرتهم ولم يعثر له على جثة ولم يقم له قبر حتى اليوم (وطبعا نظرية الإسماعيليين عامة ومن يسمون بالدروز خاصة ، تكاد تؤله كمسيح آخر رفع للسماء وتعتبره المهدي المنتظر ، وتعالمهم السرية ناقمة بالكامل الإسلام ، شيعة وسنة ، وتقول إن الفاطوم هو ' المقام الإلهى ' ، أى الإله ، ولا علاقة للاسم من قريب أو بعيد بآبنة مُجد) . حماسة شباب هذا الرجل ومثاليته المفرطة -التي ربما تقمصها من المصريين أنفسهم- هى أكثر ما يذكرنى بأصدقائى فى أسيوط ، وأعترف أنى تعلمت من عم ضهرى أن مثل هذا الإخلاص والنقاء صفات مصرية وغير عربية بالمرء . العرب وحدهم ، أهل السنة وحدهم -ولا أحد غيرهم- هم الهمج -بمعنى الكلمة- الوحيدون فى هذا العالم . أخيرا ، بالنسبة للمآذا غزا العرب أغلب العالم بسهولة ، فالتفسير بسيط : ظلام غزا ظلاما تحت جنح الظلام ! ' .

- (يشرد قليلا :) حسب أمى المعز اسمه لديها ' المعتر بمصر ' ، وكانت تصفه بالمهاجر المصرى الذى رأى بلد أجداده تطأها القدم الهمجية فجاء ليحررها من العرب ويعيدها بلدا للبناء ويرجع لها بعض زهوها القديم ومن ثم لكى يستقر فيها للأبد . نعم ، قد أوافقك ، لكن تظل الحضارة يا حاج شىء يجب أن يعنى بالضرورة ثورة تقنية . الدولة الإسلامية لم تأتأ بثورة تقنية ، ولا حتى بمنتج تقنى واحد ، فكيف نسميها حضارة ؟ كل إلى عملته الإمبراطوريات دى أن جاءتنا بكلام × كلام = كلام تريب ، خرافات وأساطير . هات ماعز وشعير ونساء وخذ شوية ورق ، خذ الجنة بتشيك يستحق يوم القيامة . هات تبعية واستغلال وخذ شعارات ، خذ *liberté, égalité, fraternité* . هات حروب وفقر وخذ ثقافة وأيديولوجية ، خذ اشتراكية ، خذ أحلام ويوتوبيات . يا حاج ، من أجل توحيد العالم البعض يبتخرع ثورة تقنية ، والبعض يبتخرع لها جديدا . يا للهزل والهزال ! الفعل الأول توحيد وتعاون وازدهار لكل البشرية من عقل كبير وقدرة حقة ، والفعل الثانى إرضاخ واستعلاء ونزح مباشر لعرق

الغير ، من محتالين قطاع طرق . حتى تكون قائدى أعطى شيئا ملموسا أضعه فى يدى أو بطنى ، ولا تعطى كلاما . هى دى مادية أرسطو إالى دائما نساها .

- اختراع آلهة جديدة؟ يا ريت ! طموحات العرب والمسلمين أصغر بكثير . حتى تحكم العالم ، فقط عليك أن تشتري شحنة سلاح من تشيكوسلوفاكيا ، أو قبلة نووية من عبد القدير خان . ما فيش داعى تفكر فى أنك بتستخدم حاجات اختراعها غيرك . ما فيش داعى حتى تفكر أن إالى اختراع السلاح ده ، ممكن يخترع غيره أقوى منه ، لأنه بطبيعته مخترع ، وأنتك استحالة تهزمه مهما اشتريت من أسلحته ، بينما أنت بالعافية بتحزق علشان تفهم اختراعاته لا أكثر .

- (معتذرا عن اندفاعه :) على أية حال أنا آسف أنى نقلت عليك بموم شخصية ، ما بتهمش حد .

- على فكرة ! عارف كلمة ' خفى ' بتاعتك تبقى إيه بالفرعونى ؟ تبقى آمون ؛ صاحب أضخم معبد لإله على وجه الأرض فى كل التاريخ : الكرنك !

- لا ، لم أكن أعرف . أعرف فقط أن كل ما يخص الخرافة هو اختراع مصرى .



أكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ

- أنا طبعا قرئت التوراة . بأبحث فى التوراة عن طبيعة الشعوب شرق الأوسطية ، وثيقة أنثروبولوجية ، إنما قيمتها الدينية لا أعترف بها . ما تنساش أنها محرفة .

- (يشيخ بيده فى ضجر :) أوف ! مين إالى حرفها يا حاج ؟ اليهود ؟ ومهدف إيه ؟ كان أنبياؤهم منزهين ، وهم حرفوها علشان يقولوا عليهم أوساخ . عيب يا حاج ، الكلام ده ما يطلعش من واحد زيك . هى دى حقيقتهم من غير تزويق ، أو بالعكس بتزويق لكن محدود ، وإالى جعلهم منزهين مزوقين هو إالى قام بأكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ .

- أنت على طول كده مندفع ؟ أنت موش عاوز حد يبقى معصوم ؟

ويتدخل ونس مدافعا عن وحيد : ' معصومين مين يا عم ؟ إذا كان ما عصم نفسه ، ويستغفر من خطاياها مليون مرة فى اليوم ، وعارف أنه سيرد الجنة ، ولن يخرج منها ما لم يتغمده الله برحمته . معصومين دى كلام ، وعند العرب الكلام شىء وما يقصدونه شيئا آخر . السؤال ليس ماذا حرف أو لماذا حرف أو أين حرف ؛ السؤال متى حرف ؟ هل فى الكام شهر ما بين ' لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ' و ' وأولئك هم الكافرون ' ؟ لا توجد فرصة أخرى للتحريف . ثم أنتم زعلانين ليه من التحريف ؟ إخواننا البعدا (مشيرا لإدوارد) إنجيلهم المحرف بيقول لهم أحبوا أعدائكم . موش جازيز الأصل غير المحرف كان بيقول لهم علينا قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمرو أعينهم ؟ عارفين إيه تانى أكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ ؟ ما يقوم به الأزهر الآن من إعادة طبع التراث وكتب الأحاديث برىح حجمها الأصلي ، مسميا هذا بتنقيتها من الضعيف والمدسوس والإسرائيلى . لا يسألون ما قيمة أن يحذفها الأزهر ، ولا تزال السعودية تتبناها ؟ حتى لو شطبتها السعودية فستظل لدى الجميع هى الإسلام الحقيقى ، ولو بقى منها نسخة واحدة سيظل لها اليد العليا فوق ملايين النسخ المنقحة . (ثم ساخطا محتدا بصوت أعلى من صوته العالى المعتاد :) إسرائيليات يعنى إيه ؟ الموساد دس على الطبرى وابن كثير والبخارى والقرطبى ما يكتبون ؟ ! هذه ' إسرائيليات ' ما هى إلا جهود جبارة محمودة لعلماء أوائل حاولوا أن يجعلوا من شرادم أقوال مُجدّ الجاهلة المتفرقة دينا متكاملًا متماسكا ، يغطى كل الموضوعات التى لا بد وأن يشملها أى دين كى يسمى دينا : قصص الخلق والأنبياء وما شابه ، التى يعلمون بعلمهم أنه بدونها لا يمكن له أصلا منافسة الأديان المعروفة (إلا لو استبعدنا السيف طبعا !) . الإسلام ليس دينا بالمعنى المعروف للكلمة ؛ اهتم بمكائد زوجات مُجدّ أكثر من اهتمامه بطبيعة الله ، اهتم بأدق التوافه لكن تحاشى الاقتراب من الأسئلة الكبرى ، حتى سؤال الروح نفسه تهرب منه ؛ وربما كونه دينا غير تام النضج هو سر تضارب مليون فتوى اليوم حول كل جزئية صغيرة ، وهى ظاهرة لا وجود لها فى أى دين . اليهودية احتاجت آلاف السنين كى تنضج وتبلور على نار هادئة جدا ، المسيحية احتاجت ٤٠٠ سنة أخرى من الشغل المتواصل حتى تبلور من رحم اليهودية دينا جديدا ، أما القرآن فقد صيغ من الصفر (الوثنية) على عجل فى سنوات قليلة ، لم يتح حتى لصانعيه فيها الفرصة لتعلم الكثير من أوليات اليهودية والمسيحية . خد دى كمان يا إدوارد : يقولوا القرآن احترم التوراة والإنجيل وكل الأنبياء ، لو حد قال لك كده تقول له الاحترام أنك تحترم التوراة ' المحرفة ' والإنجيل ' المحرف ' والأنبياء

‘ المحرفين ’ ، لكن مرفوض أنك تتخيل حاجات من عندك لا وجود لها أصلا وتقول إنك تحترمها . خد دى كمان : تقول إيه للى يقولوا لك مُجَّد تنبأ بهزيمة الروم ؟ ’ .

- أى كلام ! طبعا لازم يبجى لهم يوم ويتهموا ، فين النبوءة ؟

- غلط ! الإجابة موش كده . الإجابة أن له نبوءة تاني بتقول ‘ لا تقوم الساعة إلا والروم أكثر الناس ’ ، هو ما سمعش عن الصين أو الهند ؟ ثم أن اليونانيين إلى عدددهم صغير أصلا ، بينقصوا (وخلصى على جنب كلام عمك وحيد أن الإنسان كله إلى زوال) !

- مُجَّد بتاعكم ده ما كانش عنده أية فكرة عن الدنيا بره الصحرا بتاعته ، زى حكاية الأسكندر إلى كنتم بتحكوا عليها أو زى أن ما فيش شروق وغروب فى القطب ؟ فإكر أنه ها يقول ده تحرف ، الناس ها تقول آمين . صدقنى أنا ، خيال مُجَّد ده ما يزيدش عن خيال ناقة من إلى كان بيركبها ؛ ما سمعش عن اختراع اسمه مخطوطات أو مكتبات (ولا طبعا شافها) ؟ ده حتى ما عندهوش أى فكرة عن اللغات وفكر كل الكلمات إلى حطها فى القرآن عربية ، وأن ربنا ما بيعرفش غير عربى ، والعربية لغة الجنة ، وطبعا واثق أن الناس ها تقول آمين ! ما يعرفش أن لغة اللوح المحفوظ برمتها لغة مهجنة لقيطة من السنسكريتية والأرامية والفارسية والقبطية والعبرية وعشرين لغة تاني أقدم منها . غلط فى نحو القرآن ١٠٠ مرة ، ومتأكد أن الناس ها تجرى تصلح وراه ، وتخترع قواعد مخصوص علشان تثبت أن كلامه منزل . هو جاهل ، إنما ببساطة متأكد أن إلى حوالياه إما أجهل ينفع الدجل بتاعه معاهم ، وإما أضعف ويمكن قتلهم . أقلها يا أخى اليهود والمسيح والتلاميذ كان عندهم كتب وسمعوا عن الفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، وحواليهم بلاد مثقفة وموش أى كلام يرموه ها يعدى بسهولة كده . مثلا القرآن يقول عن الأرض دحاها أى سطحها وبسطها ، والكتاب المقدس يقول صراحة إنها كروية . لن أقول لك هذا دليل ألوهية ووحى ، إنما كل ما فى الأمر أن هؤلاء اطلعوا قليلا على علم اليونان ، أما مُجَّد فهو أعرابى حجازى جاهلى مطلق الغباء لم يذاكر حتى اليهودية والمسيحية جيدا ، ناهيك طبعا عن علوم اليونان الطبيعية . كل إلى تعلمه مُجَّد فى شبابه عن اليهودية والمسيحية شوية طرايطش كلام من شوية عبيد أعاجم ، أو لو بعض معلومات دينية من كهنة أو حد فاهم شوية زى ورقة ، فهمها طشاش أو ربع فهم . خللى أسماء الأنبياء المحرفة زى يونس ويحيى وعيسى على جنب ، ها نبلعها ! إنما تقدر تقول لى إيه الأسماء الغامضة دى : من هو إدريس ومن هود ومن جريج ومن الخضر ومن صالح ومن بشر ومن شعيب ومن أنبياء أهل القرية ومن عمران ؟ إشعنى بالتحديد آدم ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وهارون وداود وسليمان ذكروا بأسمائهم وبقصص أحيانا معقولة لحد ما ؟ السبب بسيط : أنهم الكبار المشهورون ، إنما الباقون فجائز سمع عنهم مرة أو مرتين ، فنسى الاسم أو نسى القصة أو نسى الاثنين ، فدخل أبو قرش فى أبو قرشين . يعنى حتى موش شاطر فى الغش ! عارف يا ونس إيه إلى حصل بالظبط فى الكام شهر إلى أنت بتقول عليهم ؟ ورقة بن نوفل مات ، وانقطع الوحى ، ثم عاد وحيا مختلفا بالكامل ، عندما تغيرت موازين القوى ولا استضعاف فيها : التثليث أصبح كفر والمسيح لم يعد كلمة الله وروحه ، لم يعد مرفوعا للسماء ، ولم يعد الديان صاحب يوم الدينونة ، وكل إلى سبق وقاله فى صورة وحى من جبريل رجع نسيها كلها ، وفكر أن الناس لازم تنسى هى كمان وتقول آمين ، وإلا الحل سهل دلوقت : يقدر يقطع لهم دماغهم إلى فيها الذاكرة المحرفة دى ! (ويرفع صوته مردفا بتباه مزوج بضحكة تخفف من وطأته :) لآ ! فيه ناس لسه ما نسيتهش !

- بقى هو ده إلى حصل فى الشهور إياها ؟ ! وحياتك أنت موش فاهم حاجة . إلى حصل موش خروج ورقة إنما دخول واحد تاني . الجلسة خلصت وأبقى أقول لك عليه بعدين ! على أية حال ده ما ينفيش كلامك عن موت ورقة ، وده واضح فى اللغة نفسها أكثر من أى حاجة تانية . لو قرأت القرآن بترتيب ما يسمى بالنزول ، لذهلت من تغيير الأسلوب اللغوى ، ولوجدت المراحل اللغوية واضحة وضوحا غريبا : جمل قصيرة بينها سجع وتكرار وإطناب وتطجين ، اختفت وحل محلها جمل طويلة ذات معنى ، حاسمة حادة وتقريرية ، مباشرة وواضحة المحتوى بلا موارد ولا تزويق ولا ألعيب إنشائية ، وفى كلتا المرحلتين لا ناقة لمحمد ولا جمل !

يبدو وحيد سعيدا مبهورا : ‘ إيه الشجاعة إلى نزلت عليك مرة واحدة دى يا إدوارد ؟ ! تقدر تقول إلى قلته ده تاني بصوت عالى ؟ ! ’ .

- (رافعا صوته :) طبعا ! أنت عارف حديث الوسادة ؟

- أيوه ! بتاع روك هدسون ودوريس داى !

- لآ ، موش ده ! بتاع لما شال الوسادة من تحته وقعد على الأرض وحط التوراة على المخدة وحلف أنه مؤمن بما ! ها ! ها ! ها ! كنت

عارف أنك ها تقول روك هدسون ودوريس داى ! ها ! ها ! ها !



أتحداك أن تذكر لى قيمة أخلاقية واحدة جيدة أتتنا بها الأديان ، بما فى هذا المسيحية مفرطة المثالية

(ويفرض أن أى منها أتى بشيء جديد أصلا) :

... العدل ؟ يقصدون المساواة وهى عين الظلم لأنها تنفى التنافسية وقانون التحيو للأليق **Survival of the Fittest** .

... التكافل ؟ مضر جدا لأنه يشجع على الكسل .

... التسامح ؟ كارثة ، لأنه يؤدي لازدهار الغشاشين الاستحلاليين الاسترقاقيين .

... باختصار ، الأفلاطونية خراب وجهل وغباء ! ... ألم تسأل نفسك يوما يا حاج : كل من بشرونا بالمثاليات أوصلونا إلى أين ؟

- إزاي مخك ما يبطلش شغل كده ؟

- ويبطل ليه ؟

- لأن شغله ومجهوده تعتبر فواقد ؟

- الله يسامحك ؟

- أيوه ! بتفكر فى كل حاجة ، وتتعب نفسك فى كل حاجة . قارئ قدى ١٠ مرات ، وأنا إلى كنت فاكتر نفسى موسوعة . لكن النتيجة

أنك توافق على كل حاجة ، وطول عمرك ما طلعت برأى محدد مع حاجة وضد أى حاجة .

- جايز دى الحاجة الوحيدة إلى ما فكرتش فيها ! (ثم حول دفة الحوار لمزاح لا يخلو من عدوانية :) هو أنت عاوزنى ممكنة زيك ؟

- أنت ممكنة فعلا ، بس ميمورى من غير پروسيوسور !

- ماشى يا عم . أنا بأقرأ كتير . وبأفكر كتير . بس ما بأوصلش لقرار ، لأن الحقيقة نفسها صعبة . الحقيقة وحش ما حناش قده . وحش

يأكلك موش أنت إلى تاكله . كل موقف تاخده بتكتشف بعد كده أن فيه حاجات فاتتك ، وعليك تعيد حساباتك .

- آه ! أنا آسف ! أنت عندك پروسيوسور فعلا ، بس بايظ ! ها ! ها !

- يا ريت كنت ممكنة زيك ، أبص للحاجة وأقول دى صح ودى غلط .

موش صح أوى . ألم أكن أنا نفسى مثلك هكذا بالظبط ؟ فى الثانوى والجامعة ، قرأت سارتر وفرويد وپافلوف وداروين وسينسر وفريزر

وماركس وأفلاطون وأرسطو . هكذا كان الترتيب . وجدت كلا منهم مقنعا . السبب أنه يتناول الإنسان من زاوية معينة ، أحدهم يرى أن المهم

رؤية الإنسان لنفسه ومن حوله ، آخر يرى الإنسان غرائز لا أكثر . ثالث يراه كلبا تحركه الكيمياء والكهرباء . داروين وسينسر وفريزر رأوه ككائن

متطور بيولوجيا وأثنوبولوجيا واجتماعيا . ماركس ركز على الكائن الاقتصادي ، أفلاطون ركز بالطبع على المثاليات ، المعنويات ، التيمايوس ،

العزة والكرامة والمجد والفخار بالعربى ، إلى آخر أعراض تلك المتلازمة المرضية العربية القاتلة . وأرسطو على الماديات بمعناها الطبيعى العام ، قوى

الطبيعة يعنى . الوجودية موجودة ، الغرائز موجودة ، المعنويات موجودة ، المادية موجودة ، لكن ليسوا جميعا بنفس الأهمية .

لماذا أرسطو بالذات ؟ لأن ليست كل الأشياء بشرية . محورة الإنسان لرؤيته للكون حول نفسه أمر كارثى . أرسطو كان يتكلم عن الطبيعة

ككل ، حية وغير حية . بمعنى هناك قوانين كونية وفيه قواعد إنسانية . لو حدث تعارض الأولى تجب الثانية . لأننا بشر بنلف وندور حول

الحقيقة لغاية ما نوصل لها . الكمبيوتر مثلا موش محتاج كده . أنا كنت بأقول لأصحابى الماركسيين ، أنا ماركسى أكثر من ماركس ، لأنه بعد كده

فى مرحلة لاحقة من حياته أفسد المادية إلى هى قانون كونى ، بالديالكتيك إلى هو ظاهرة إنسانية ، وجعل منه قانون . ثم خان المادية كلها فى

البيان الشيوعى حين دعا لإيصال الوعى عمدا للطبقة العاملة ، دى موش مادية خالص . الوعى والفكر وكل ده هو إلى كان يسميه بنية فوقية ،

وأنه أقل قيمة من البينية التحتية ، الاقتصاد والتقنية والمادة ككل .

- فعلا الحقيقة وحش ما حناش قده . إلى أنا عاوز أقوله كلهم صح ، ولا زلت مقتنع بهم جميعا ، لكن بدرجات .

- آه ! درجات ! والمكنة بتاعتك بتقول إيه فى موضوع الدرجات ، يا مستر أرسطو ؟

- بتقول أن الكون وقوانينه أقوى من أمزجة أو إرادة عرق بيولوجي اسمه الإنسان في ذرة غبار كونى اسمها الأرض . الكون مبنى على قوانين أساسية . القوة مثلا هي إल्ली بتربط المجرات والكوكب ... إلخ . لو طلعت فلسفة إنسانية تقول كلنا إخوة وممكن نحب بعض نعيش من غير صراعات في مجتمع اشتراكي أو مسيحي ، يبقى بيهرج . الأبعد من هذا ، أتحدك أن تذكر لى قيمة أخلاقية واحدة أتتنا بما الأديان ، بما في هذا المسيحية مفرطة المثالية (وبفرض أن أى منها أتى بشيء جديد أصلا) : ... العدل ؟ يقصدون المساواة وهي عين الظلم لأنها تنفى التنافسية وقانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest التكافل ؟ مضر جدا لأنه يشجع على الكسل التسامح ؟ كارثة ، لأنه يؤدى لازدهار الغشاشين الاستحلاليين الاسترقاقيين باختصار ، الأفلاطونية خراب وجهل وغباء ! ... ألم تسأل نفسك يوما يا حاج : كل من بشرونا بالمثاليات أوصلونا إلى أين ؟ الاشتراكية قالت الحب والمساواة والتشارك ، والنتيجة الفقر للجميع والفساد . الدين قال الأخلاق ، والنتيجة قمع وحروب وتخلف . الاشتراكية والنازية وكل الديكتاتوريات والشموليات قامت تحديدا على ترويح مبدأ واحد بيدو شديد الخير والمثالية : الإيثار المسيحي ، الفرد فى خدمة المجموع ، والهدف والنتيجة أن تستأثر حفنة أفراد على كل السلطة والثروة .

- بص : يا ريت أنت إल्ली تبطل تفكير شوية . الدين إल्ली أنت متغاض منه أوى ، عبارة عن دورات . زى الأسهم كده . ٣٠-٤٠ سنة الناس تتدين ، و ٣٠-٤٠ سنة الناس تسبب . تقريبا جيل كده وجيل كده . حاجة ما لهاش حل . تقدر تخلى الأسهم أخضر على طول أو أحمر على طول ؟ ! بتسميها إيه ؟ دوراتية ؟

- الحقائق العلمية لا تعرف الدورات !

- وأمزجة البشر لا تعرف الحقائق !



المغفلون والغشاشون والضاغنون

- بتقرأ كتب مترجمة بس ؟

- إزاي ؟ أعرف إنجلش ، ولو ضرورى أقرأ به ، ممكن . بس يعنى المعتاد أقرأ معظم إल्ली بيطلع بالعربى .

- بكرة ، أو لو تيجى معاى النهارده ، ها أجيب لك كتاب للأسف موش مترجم ، رغم أنه يعتبر ثورة فكرية ، افتكرته دلوقت حالا لما جت سيرة الغشاشين . ' الجيين الأنانى ' من سنة ١٩٧٦ ، لعالم تطور إنجليزى اسمه ريتشارد دوكينز .

- موش معقول . عندك الكتاب ده ؟ طبعا عاوز أقرأه . تعرف أن حاليا فيه كتب كاملة لمجرد تحليل الثورة إल्ली عملها هذا الكتاب ، فى كل العلوم واجتماعيا وغيره ؟ إنما ليه أنت مهتم بأنى أقرأه ؟

- موش حاجة معينة . رجعت قرأته تانى من كام شهر ، موش عارف ليه . بالذات أنى ما كنتش قرئت الإصدار التانى بتاع ١٩٨٩ . جازير كلامنا عن الجيينات ، إल्ली كنت أعتقد أنى مثقف فيها لغاية ما قابلتك . اكتشفت أن كثير من مناقشاتنا بتروح لحاجات هو تناولها . وبصراحة فى قراءتى المرة دى ، حسيت أن الأفكار إल्ली بيقولها وتبدو بيولوجية جدا ، لها تطبيقات أوسع بكثير من الفصل إल्ली عمله وطبق فيه نظرية التطور على الأفكار . وأنت كده بتقافتك العامة ، أو ولا مؤاخدة ' الشعبية ' يا ' بن البلد الجدع ' أنت ، ممكن تقول حاجات مفيدة فى الحكاية دى . طبعا الفكرة الأساس عنده أن جييناتنا هي الكائن الحى ، وما إحنا إلا مطايا غير عاقلة تركيبها كى تصل لغايتها التي هي التحيؤ survival ، وتضحى بنا بسهولة عندما تؤدى غرضها منا . فى البدء كان الجيين ، وبعدها بنيت فوقه كل الكائنات ؛ هي التي ظهرت أولا ، ونحن الذين بنينا كى تعيش بواسطتنا ، لا أكثر . ظواهر كثير ما أقدرش أفتكرها كلها من عوالم النبات والحشرات والحيوان تثبت كده . من أول أنثى الحشرة التي تأكل زوجها بعد التلقيح ، حتى الأب منا إल्ली يقفز للنهر لإنقاذ ابنه رغم علمه بأنه نفسه لا يجيد السباحة .

- أيوه ، أنا فاكرك الكلام ده .

- على فكرة أنا لى تحفظ على الكتاب ، أقول لك عليه بعدين . أقرأه الأول ، وفيه بالذات جزء عاوزك تقول لى رأيك فيه ، لأنه حاسس ممكن يتطبق على حاجات كثير أبعد من الطيور والحشرات . فيه مثال بيلح على بشكل غريب . بيتكلم عن عشيرة من الطيور أصيبت بنوع خطير من الحشرات الواخزة . ولأن ليس للطيور يدان فإنها تنقى كل جسدها باستثناء منطمة الرقبة والرأس . هذا يتطلب قيام طير آخر بتخليصها لها من

الطفيليات . لو أن الميل الجيني (الموروث) هو الرغبة في تنقية الآخرين من الطفيليات ، أو ما يسميه دكتور دوكنيز suckers (كلمة مزدوجة المعنى بمعنى المصاصين والمغفلين) ، ستكون النتيجة أن تنجو كل العشيرة ولا مشكلة ، لأن كلهم سيسعون لتنقية رقاب ورءوس أقرانهم من الحشرات الفتاكة . لكن هذه حالة مثالية للغاية ، ولا بد وأن التطفرات الجينية ، هذه الذى تحدث عشوائيا عادة ، لا بد ستخلق ميولا تختلف قليلا أو كثيرا بمرور الوقت . ماذا لو أن الميل الطبيعي هو عدم الرغبة في مساعدة أحد ، أو ما يسميه دكتور دوكنيز cheats أى الغشاشون ؟ (كلمة أخرى من مصطلحات القمار كسابقتها) ، ستكون النتيجة الواضحة والفورية هي انقراض العشيرة . ماذا لو أن الموروث الجيني وضع هذا الميل في بعض الطيور والميل الآخر في البعض الباقي . سيسهر المغفلون على رعاية الغشاشين ، وسيحدث أن يجد هؤلاء وقتا أوفر للبحث عن الطعام والتزاوج واللهو ورعاية الأفراخ ، تدريجيا ستحدث صيرورة انتخاب طبيعي تؤدي بعد قليل لانقراض المغفلين . لكن المفارقة أن انقراض المغفلين سيؤدي بعد قليل لانقراض الغشاشين أنفسهم لأنهم لن يجدوا أحدا يخلصهم من الحشرات الطفيلية ، ونتيجة هذا السيناريو هي انقراض العشيرة ككل أيضا . هل الخلاصة أن في كل الأحوال لن تنجو مثل تلك العشيرة ، طيورا ولا بشرا ؟ ربما . لكن ماذا لو أن هناك بديلا ثالثا . ماذا لو أن ثمة ميل جيني موروث يدفعك لأن تعطى فقط حين تأخذ ، أو أيضا بمصطلحات دكتور دوكنيز الضاغنون grudgers ، أى من يذكرون لك جميلك من عدمه قبل أن يقدموا لك جميلا في المقابل .

- أيوه عارف . الضاغنون من الضعينة ، موش كلمة وحشة ، أنت ممكن تضعن المعروف أو الجميل . الإنجليزي يقولوها Scratch my back, I'll scratch yours!

- بالظبط . ساعتها سيعتمد الأمر على الوزن النسبي لكل من تلك الميول الجينية الثلاثة . لو الغشاشون أغلبية أكثر من نسبة ما حرجة ، سيزدهرون وينفردون بالعيش دون سواهم ، ثم بعد ذلك كما نعلم سينقرضون ومن ثم كل العشيرة . لو الضاغنون أغلبية أكثر من نسبة ما حرجة ، سيتعيش الغشاشون على ما هو قائم من مغفلين حتى يؤدي لانقراضهم ، لكنهم هم أنفسهم سينقرضون بعد ذلك لأن الضاغنين لن يقدموا لهم أية خدمات مجانية من طرف واحد ، وستنجو العشيرة من خلال بقاء الضاغنين .

- (يغايظه في لا مبالاة :) قصة غريبة ! أنا شغلتي الدواجن ، وما سمعتش طول عمرى عن الحشرات دى ! طيور تيجي لها براغيت ؟
- (صائحا :) أنت ها تهزرق ؟ أولا هي ، كنموذج ، مؤكد تنطبق على البشر . في كل زمان منذ نشأة الحضارات والإمبراطوريات ، وبالذات الآن . مستحيل لا يحتاج أحد لمساعدة الآخر ، وإلا مات معزولا . نحن في عالم واحد مجلوب ، نشأت الأسس الموضوعية له من شبكة أعصاب ومن دورة دموية ، من خلال ثورة الاتصالات والمعلومات وقنوات الساتلايت وشبكة الإنترنت ، ومن خلال التداخل والتكامل الشديدين للعملية الإنتاجية في الاقتصاد العالمى . صح ؟

- صح !

- إذن ثانيا أنا حاسس أن في ثالث دوكنيز -المغفلون والغشاشون والضاغنون- أساس عميق جدا من أمنا الطبيعة لنظرية اقتصادية كبيرة . 'الضعينة' هي أساس الرأسمالية العلمانية المعاصرة كما نراها اليوم ، خد وهات . والمثال بتاع الطيور برهان 'طبيعي' لا يؤكد فقط فكرة الرأسمالية ، إنما يجم بجميبتها . إنها نهاية التاريخ ، لكن ليس لأنها إنسانية ولا ديمقراطية كما ذهب واحد أنت عارفه ، إنما لأنها تنافسية شرسة ولا ترحم . لأنها أصولية جدا ، لأنها أم كل الأصوليات ، مشيئة أمنا الطبيعة التي لم تتغير لآلاف الملايين من السنين . والحقيقة كده أن كل الفكر المسمى بالإنسانوى ما هو بأكثر من تطفر جيني مناهض لقوانين الطبيعة بل ومؤدى للانقراض ، وهو ليس من طبيعة البشرية الأصلية ، ولا من طبيعة أى عرق تقريبا . ليست فقط كما يقولون قوى يأكل الضعيف جسعا ونهما ، إنما يأكله بالحق ويتركه بالحق بكل ما في الدغل وقوانينه من نبل وعدل وشفافية ، يعنى أخلاقيات القدرة مرة أخرى . شايوك الذى يعاملك بأمانة وكرامة وحق وعدل ، لكن في نفس الوقت بلا رحمة . قانون الدغل الذى بالمناسبة به الكثير من الشرف والشهامة وحتى الحب والحنان . وأكد قرأت كيبلينج صاحب المصطلح law of the jungle ، أو طبعا قرأت فتوات نجيب محفوظ . المهم ، أنا عدت لأنشغل بشدة بذلك النموذج الثلاثى ، وإليك بعض أمثلة لما يمكن أن يثيره من أسئلة : هل من الأرجح تطوريا في مثل هذا النموذج 'المستقر' (وطبعا كما تعلم 'مستقر' هذه مصطلح تطورى بيولوجى) ، أن ينجو المغفلون أيضا لأن عامة سيكون ثمة من سيأدهم المعروف بمنله ، هذا طبعا ما لم يتولد فجأة بسبب التطفر الجيني بعض الغشاشين من جديد ؟ أيضا هل الرأسمالية المعاصرة دى هي الحاضنة وراعية العلم والتقنية ، ولا ينطبق عليها تخوفات أرسطو الكلاسيكية من الأوليجاركية ، بل هم أقرب للنخبة التي نادى

بحكمها 'الأستاذ'؟ هذا مع العلم أنهم ليسوا أول أوليجاركيين عظماء ، فمثلا كراسوس الذى قضى على العبد السفاح الوضيع سپارتاكوس الذى نصب كل القرى وقتل كل من هو ليس عبدا ، كان رجل بيزنس . لكنه رأى الحضارة فى خطر ، فانقلب بنفسه قائدا عسكريا وجند كل أمواله لاستعادة مسار التاريخ وإنفاذه من عصور ظلام سابقة للأوان . إيه رأيك ؟ وإوعى تقول لى أرسطو أولانى وأرسطو تانى ؟



عن يد وهم صاغرون

- رأيت أن الرجل ده بيتكلم فى الدين .
- (باستغراب :) راجل مين ؟ !
- دوكينز .
- إزاي ؟ !
- هو يهودى ؟
- لا يهودى ولا غير يهودى . ده آخر واحد على وش الأرض يمكن ربطه بأى دين . ثم هل فيه واحد يهودى اسمه ريتشارد ؟ ! آه فهمت ! أنت عارف أنه موش يهودى ، وبتحاول تهزر أو تستهزأ .
- برضه لا يمنع أنه بيتكلم فى الدين . إالى بتسميه الضاغنين هو ' العين بالعين والسن بالسن ' . إالى بتسميه المغفلين هو ' من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر ' . وإالى بتسميه الغشاشين هو ' عن يد وهم صاغرون ' . أقطع دراعى الراجل ده عاوز يقول اليهودية هى الدين الصح !
- أنت بتخرف ؟ ! قلت لك ما لهوش دعوة بأى دين ، عالم بيولوجى وبس . (ثم بعد برهة تأمل :) إنما إالى أنت بتقوله ده كلام برضه يقلب الدماغ . أنا بأتكلم فى البيولوجيا علشان أستشيرك فى نظرية اقتصادية ، رحت طالع لى بحاجة تانى خالص . فعلا كلامك صح ، المسيحية طبعا خطة كارثية من المنظور التطورى ، خد وخذ . الاشتراكية والشيوعية والديموقراطية إلى آخر ما يسمى نفسه بفلسفات أو أيديولوجيات إنسانية ، نعم هى ليست المسيحية بالظبط ، لكنها تساوى بين القوى والضعيف ، بين الكسول والمجتهد ، بين من يعلم ومن لا يعلم . أيديولوجيات قائمة على فرضية وجود عدد كاف من المغفلين ، موش عدد كاف ، إنما الكل مغفلين ، وعلشان كده مستحيل كان الشيوعية تنجح حتى لو اتطبقت زى الكتاب . لكن أرجوك من كل قلبى سيبك من الربط بتاعك بين الرأسمالية واليهودية ، اليهودية أصلا اندثرت ، والموجود هو العلمانية بتاعتها إالى اسمها الصهيونية . متهيا لى موش لازم تكون رحت إسرائيل ١٠ مرات زى ، علشان تعرف حقيقة زى دى . إنما إيه إالى دخل الإسلام فى الموضوع ؟
- جايز بيلمح لحد وطالب ، الاسترقاق والاستحلال .
- لااااا ! أنت اتعديت من ونس نظريات المؤامرة !
- جايز قصده المسلمين شافين أن من حقهم أن يستحلوا بقية الناس بالجزية والخراج وغيره ، لأنهم الأسياد و ' خير أمة ' . لا يعلم أن كلنا خير أمة . فيه عندنا شعب الإله المختار ، وفيه أبناء الملكوت ، وفيه خير أمة أخريت للناس . كلنا خير أمة !



المسلمون لو أقلية ها ينقرضوا .

لو أغلبية ، أو لو حكموا العالم ، ها تنقرض البشرية كلها !

- أنا أفضل من أينستين ؟ أنا لم أدع هذا أبدا . (ثم مبتسما :) صحيح أنا اتولدت فى نفس السنة إالى مات فيها ، إنما لا أحد فى الدنيا يمكن أن يدعى شيئا كالذى قلته !
- إذن لماذا تشغل نفسك بأفكار معادية للإسلام ؟

- حتى هذا اتهام ظالم . أنا ما يهمني ش حد يمدح الإسلام أو المسلمين أو يذمهم . ده موضوع لا يشغلنى بالمرة . ما يشغلنى موضوع الانقراض . لو المسلمين بيفكروا كده فعلا ، يبقى ها ينقرضوا لا محالة ! المسلمون لو أقلية ها ينقرضوا . لو أغلبية ، أو لو حكموا العالم ، ها تنقرض البشرية كلها ! دى نظرية بمليون دولار يا حاج !

- (وقد عاد للدعابة :) هات مليون دولار . يساووا كام سهم دواجن دول ؟ الآلة الحاسبة يا ونس . ولا احسبها أنت يا رزق . على فكرة الواد رزق ده عبقرى فى الأرقام . بيص لسعر الافتتاح وفى لحظة يقول لك ٥ . / فوق كذا ، و ٥ . / تحت كذا . ممكنة زيك ، ويعجبك أوى !

- أنت مهرج . شوف بأكلمك فى إيه وأنت بتتكلم فى إيه ؟

- يعنى الخلاصة أن أنت الإنسان عندك ما لهوش قيمة . عشيرة بيولوجية species ها تنقرض فى يوم من الأيام .

- ما تفرقش تنقرض أو تفضل موجودة زى الصراصير والحمير والقروذ ما هى موجودة . المهم أن التقنية إالى اخترعتها لا يمكن تنقرض ، وها تستفيد منها العشائر التالية . أنا موش عاوز أسبق قراءتك للكتاب ، لكن أنت إنسان مزعج ، ومضطر أقول لك التحفظ إالى موش عاجبى فى نظرية الـجيين الأنانى . الكلام ده كتبته فى مجلة الكلية كمرجعة للكتاب . مبدئيا قلت أن دوكينز قلب الأرنب ، خللى الفروة لجوه والأمعاء لبره . جعل الـجيين هو الكائن الحى ونحن مطايا أو روبوتات (بين قوسين) لا عقل لها ولا إرادة . وعلى فكرة هو تنبه لجبروت نظريته وأثرها المذهل ، وفى الإصدار التانى ضرب فى المقدمة مثال يشبه كلامى عن الأرنب ، اسمه مكعب نيكر . المهم ، بعد العرض والمدح الجامع الشامل قلت إن لى تحفظ أو إحساس بعدم الارتياح ، هو أن الجمال الحقيقى للمعادلات يكمن فى بساطتها . ومشكلة دوكينز أنه وضع الإنسان فوق قانون أنانية الـجيينات . زى مثلا أنه ممكن يحدد النسل ، وده ضد إرادة الـجيين .

- لااااا ، أنت محتاج تقرأ كثير فى الـجيينات . أولا جوائز المعادلة أعقد من كده . كثير التصرفات تبدو إثارية ، لكنها فى العمق أنانية . ثم ثانيا ، جوائز العكس هو الصحيح ، الفلسفات الإنسانية التى ابتكرناها قد تكون آليات تدمير ذاتى ، وتؤدى لانقراض الإنسان . دى أنت عارفها ، عادى ، إنما جوائز ما تعرفش أن عشائر كثيرة انقرضت لنفس السبب . ثم ثالثا ، من قال لك أن تحديد النسل ضد قوانين داروين ؟ إنجاب نسل أفضل لا يمكن يكون ضد داروين ، بالعكس إنجاب نسل كثير ممكن يؤدى للانقراض . عادى برضه . رابعا ، ليس معنى الأليق أن تقضى على كل من حولك . الـجيينات أو الأفراد أو حتى العشائر ، تتصارع نعم فيما بينها ، لكن ما أن تصل لصيغة عيش مشترك تضمن البقاء لها جميعا ، حتى تعتبر هنا فقط أنها قد نجحت . الأليق ليس معناها جيين مفرد ، أو فرد مفرد ، أو حتى عشيرة مفردة . الأليق هو وعاء أو بركة pool جيينات كاملة جماعية قادرة فى مجملها على التحيؤ والخلود . يا مستر وحيد الداروينية نفسها تطورت .

- مطبوط ! مطبوط ! أهم قانون فى التطور إطلاقا ، ليس الصراع فقط ، إنما الصراع المؤدى لتوازن مستقر بين الكائنات ، أو بالأحرى بين الـجيينات .

ويتدخل ونس : ' أيوه القانون ده فى الهندسة عندنا . Stability of Equilibrium . استقرار التوازن . صمود التوازن مع الزمن . التوازن حاجة واستقراره حاجة تانية . التوازن ممكن يكون موجود لحظيا ، لكن من السهل ينهار فى أى لحظة . ممكن تحط كورة على قمة تل ، ها تترن مكانها ، الجاذبية تساوى رد الفعل ، لكن شوية هواء بسيط من الجنب ها ينزلوها للسفح . لكن لو حطيتها فى قاع حفرة التوازن ها بفضل مستقر على طول ! ' .

- سيبك من ونس ده . معلوماته فى الهندسة موش أحسن كثير من معلوماته فى الأسهم . أخذ الشهادة فى ١٠ سنين ! خد مثال للموضوع ده من عالم الحيوان ، الحاجات فيه دمها أخف . لو قنفذ عاوز يحارب قنفذ تانى علشان واحدة قنفدة ، يعملوا إيه ؟ طبعا الاشتباك مستحيل بين الاثنين . يقفوا قدام بعض بالساعات . ما فيش حاجة بتحصل . ثبات مطلق . توازن ! لغاية ما واحد يزهدق أو يجوع أو أى حاجة ويمشى . توازن غير مستقر ! مع ذلك مجتمع القنفذ إالى يطبق القوانين دى ، ككل مجتمع مستقر عبر الزمن ، عارف إزاي يجل مشاكله ، وأكد القنفذ الفائز هو الأليق ، والتحيؤ دائما للأليق .

- صحيح ! أنت إنسان هايل ، والكتاب نفسه حافل بالأمثلة لما تقول ، لكنه لم يقل ما تقول بالضبط بالنسبة للإنسان ، وهذا ما أزعجنى . المشكلة أنى لا أرتاح لأى شىء يمكن أن يصور الإنسان كشىء فوق القوانين . هو توقع أو على الأقل تمنى له أن ينجو بفلسفاته الإنسانية . أنا موش عالم ولا باحث ، ولا متخصص حتى زيك ، علشان أقترح نظرية علمية . لكن إحساسى أن الأنانى موش هو الـجيين . فإكر لما قلت لك

المهم التقنية ، وأنت قلت المهم الجينيات . أنا موش موافق . الجينين خالد صحيح ، لكن هناك ما هو أخلد : التقنية ! هذه وجدت قبل تكون جزيئات الدى إن إيه الأربعة المشهورة ، إल्ली عاشت حتى اليوم بدون تغيير إطلاقا وبنيت فوقها كل أجسام النباتات والحيوانات . الطبيعة بنت المجات ، بنت الكريستال ، بنت الكهوف ، وكلها تقنيات عمارة متقدمة جدا . إذا كان فيه حاجة حية صحيح ، ولها روح صحيح فهي التقنية . كبشر ما زلنا بنستخدم تقنيات النمل والنحل في البناء وفي الإدارة وفي مبدأ التخصص . عشائر بيولوجية قد نراها بدائية جدا هي إल्ली اخترعت العدسات متغيرة البؤرة ، المرايا العاكسة ، الخلايا الضوئية ، التخاطب بموجات الصوت ، موجات الراديو ، الرادار ، السونار ، الموجات التصادمية ، كيمياء حفظ الطعام ، تكييف الهواء ، مجسات الحرارة والضغط ، التغذية الرجوعية ككل ، تصميم الغواصات ، هندسة الطيران ، تقنيات تخزين المعلومات ، التلقيح الاصطناعي ، ستراتيجيات الحروب . هذه ليست مجال مخترعات بشرية . تقريبا الإنسان لم يخترع شيئا يستحق الذكر . حتى تسجيل الصوت عرفته البيغاوات (!) . جاء فوجد كل شيء جاهزا . الخالد حقا هو التقنية ، وليس الجينيات . هذه معادلة لا تستثنى أحدا ، بما في ذلك الإنسان . (ثم صائحا :) إنما إزاي يا أخصائي الجينيات أنت ، هادي وساكت وما لكش رأى في مواضيع مثيرة زي دى ، وتقول لى ' عادى ' ، ' عادى ' ؟ يعنى إيه جاييز الإنسان ينقرض . هي دى حاجة فيها جاييز وموش جاييز . لازم نعرف رأسنا من رجلينا . أنت ليه دائما بتهرب من تكوين رأى ؟

ردود ضهرى تتراوح دائما ما بين التأييد المبالغ فيه ، والرفض المبالغ فيه . هذه المرة اختار شيئا ثالثا : اللا مبالاة المبالغ فيها : أنا مالى ومال انقراض البشرية ؟ لسه بدرى ع الكلام ده . علينا نصلح الواقع إल्ली إحنا فيه ، بدل ما نلحم زيك بواقع تانى كله روبوتات ، زيك كده !
- أنت ها تجننى ؟ قوم بينا حالا أديك الكتاب ، لما نشوف ها تحرب إيه تانى فيه ؟
وبعد لحظة حدجه بنظرة إعجاب باسمه في سؤال : العين بالعين والسن بالسن ؟ ! لك حاجات يا حاج !



كل حاجة عيب والفقر بس موش عيب

تجول الحاج في أرجاء الشقة ، وقال مجاملا : شقة جميلة وحلوة . في الحقيقة كانت أبسط بكثير مما توقع ، بل ربما تثير الشفقة إذا وضعنا في الاعتبار اسم وحيد الديب وتاريخه . لاحظ أن هناك ساعة على كل حائط وعلى كل سطح أفقى ، مكتب ، منضدة ، حتى مائدة الطعام عليها ساعة أثرية بأربعة أوجه . فعلق وحيد : عادة قديمة !

- الساعات دى معناها أنك عاوز تعمل حاجات كثير ، بس للأسف : دنيا براسين ورجل واحدة ومن غير إيدين !

واصل التجوال . تحسس البيانو الفخيم الأثرى الذى فهم على الفور أنه بيانو آمال نور الشخصى ، ولم يعلق ، على الأقل لأنه قد يثير مقارنة غير محببة بين أرستقراطية هذه القطعة وبساطة بقية الشقة . ثم لاحظ صورة لنجيب محفوظ وعلق قائلا : تصدق ، عندى واحدة زيتها بالظبط ؟ واحد صحفى حبيبي زيك كده ، جابها لى من الأهرام ، بعد وفاة نجيب محفوظ بتلات أيام .

وقبل أن يزج وحيد نفسه بتعليق علمانى ثقيل الظل حول كلمة وفاة التى لا يستخدمها أبدا ، لاحظ أن ضهرى تسمر أمام لوحة الاقتباسات :

'Heat cannot of itself pass from a colder to a hotter body'

'Work can only be obtained from temperature differences between systems in contact with each other. When work is done, such systems tend to even out; and that loss of heat occurs in the form of entropy.'

'The entropy of an isolated system not at equilibrium will tend to increase over time, approaching a maximum value.'

The second law of thermodynamics

—as the statement, originated and evolved, by *Rudolf Clausius*

'Every Roman was surrounded by slaves. The slave and his psychology flooded ancient Italy, and every Roman became inwardly, and of course unwittingly, a slave. Because living constantly in the atmosphere of slaves, he became infected through the unconscious with their psychology. No one can shield himself from such an influence.'

Carl Gustav Jung

—Contributions to Analytical Psychology (1928)

قرأها ، لكنه لوهلة تشكك في إنجليزته . قرأها ثانية ثم سأل حائما حول الموضوع : ' كنت متوقع حاجة لأرسطو ' .

- (ضاحكا :) ممكن برضه تعتبرها لأرسطو !

زهري مضييفا بما يعنى بأنه يعرف صاحب الكلمات : ' إشمعنى يونج ؟ ' .

لم يرد وحيد ، فاضطر هو لإعادة قراءة اللوحة ، حتى تيقن تماما من فهمها ، وسأل من جديد : ' انهيار الحضارات هو قضيتك ؟ صح ؟ أكيد قرئت إدوارد جيون ' اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ' ؟ ' . بهذا السؤال كان ذكاء زهري الخارق قد هيا وحيد بالفعل للخروج عن صمته .

- أنت أستاذ يا حاج . جيون ده آلاف الصفحات . عبارة يونج دى بتلخصها في ٣ سطور . العبارة رائعة أنها أحالت كلمة ' عبد ' لمصطلح نفسى أكثر منه شيئا يخص لون البشرة أو وجود أو عدم وجود صك ملكية ، ومن ثم - في رأيي - مددت صفة العبد لتشمل البلايين المليئة من سكان الكوكب الحاليين ، ممن نصفهم عادة بالأحرار وهم من الداخل أبعد ما يكون عن سيكولوجية السيد .

- (ضاحكا :) دى أنا عارفها كويس ، كانوا زمان بيكتبوها لنا على الكرايس : ' كلنا عبد في ظل الجمهورية ' !

- على فكرة أنا موش متيم ١٠٠ . / . بالعبرة . بعد ما عجبتي وبروزتها ، هى وقانون الديناميات الحرارية الثانى ، وده كان أكثر من ٢٠ سنة ، فضلت أتأمل فيها ، ووجدت فيها عيب . القائد الحق ، لا يتأثر بسيكولوجية العبيد بالطريقة الفورية إلى صورها يونج . المفروض فيه حاجة اسمها جينينات هى إلى خلته قائد . لازم تمر قرون قبل ما تخدم جذوة الحضارة بفعل طغيان العبيد على المسرح . لازم تيجى أجيال وأجيال ، وتتغير الجينينات عقد بعد عقد ، أو قرن لعد قرن ، لغاية ما تعتبر الأجيال الجديدة وجود العبيد في مركز الحضارة ، حقيقة مسلم بها . وتبتدى آلية الانتخاب الطبيعى تهمش أصحاب الجينينات القيادية الحقيقية ويندثرون ، ينقرضون . علشان كده بأقول عليك أستاذ ، لأن كتاب زى كتاب جيون ، يبين الفرق الدقيق ده . هو نفس النظرية لكن بتحليل وتركيب أدق من حيث التفاصيل . مع ذلك زى ما أنت شايف أنا ما زلت معتبر نظرية يونج ضرب من العبقرية ، وتفسر تاريخ الحضارات كلها . قصدى إمبراطوريات الخير الثلاثة ، الرومانية والبريطانية والأميركية ، وجايز أية حضارة أخرى مستقبلا ، المريخية أو غيرها .

- يعنى قصدك الإسلامية والفرنسية والسوفييتية حضارات شر ؟

- ما فيش حاجة اسمها حضارات شر . إما حضارة وإما لا حضارة . الحضارات ثلاث لأنه لا يوجد في التاريخ سوى ثلاث ثورات تقنية ، الزراعة والصناعة وما بعد-الصناعة . وفي مواجهتها أرى إمبراطوريات شر ، تنشأ للتطفل على منجزات الحضارة والإغارة عليها ، أو لو شئت تقسيمه أخرى قد يراها البعض أفضل لأنها تمثل صراع المادى ضد المعنوى : ثلاث ثورات تقنية في مواجهة ثلاث أيديولوجيات للعبيد ؛ المسيحية نخرت روما من الداخل والإسلام هاجمها من الخارج ، والاشتراكية الفرنسية حاربت ثورة الإنجليز الصناعية ، ثم الاشتراكية السوفييتية والصينية مع الإسلام مجتمعين يحاربان الآن حضارة ما بعد-الصناعة الأميركية . أنا أكثر مادية وأرى الصراعات دوما مادة ضد مادة ، هنا ثلاثة إمبراطوريات ضد ثلاثة إمبراطوريات ، وأرى كما أرى كفى يدى الآن أن إما حضارة وإما لا حضارة . إما حضارة وإما هجامة .

- تعرف منين كلمة هجامة ؟ فيه كمان مطايرد وجبلالوية وعويل ونور [بفتح النون] (ومفردها نوري) ونتاش ونهاش وهباش وهليب ومنسر وخط [بضم الخاء] ... إلخ ، طابور من مترادفات اخترعها المصريون لكلمة لص مسلح يهبط عليهم من خارج القرية ! ... لا ! ليسوا فتوات . فتوة وقبضاي وبلطجى ... إلخ ، لا تقال على العربانية ، إنما على أبناء ذات البلد ، وهؤلاء غالبا ما ينظر الناس إليهم باحترام ، واسأل نجيب محفوظ !

- لو كنت أرى الحضارة حضارة ، ثورة تقنية ، فالسؤال هو فقط أيهما البناء وأيهما قاطع الطريق ؟ قيصر أم هانيبال ، نيلسون أم نابليون ، أيزنهاور أم ناصر ، أى فلان أم أى علان ؟ الإجابة بسيطة : من منهما الذى أتى بالثورة تقنية ، ومن الذى يتطفل عليها ؟ من الذى له شرعية حكم العالم ، ومن هو الوحشى التوسعى الهجام القرصان قاطع طريق ؟ الإجابة بسيطة : من منهما الذى أتى بالثورة تقنية ، ومن الذى يتطفل عليها ؟ إنه الخلط الدائم بين مفهوم الحضارة وبين مفاهيم زى الثقافة والتراث . طبعاً عندنا ثقافة وعندنا تراث ، لكن ما عندنا حضارة . قد أجد فى كلمات كونفوشيوس وبوذا حكماً عظيمة وتأملاً عميقة ، وقد أجد فى كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة قصصاً وأساطير ساحرة جميلة واسعة الخيال ، لكن كل هذا شئ والحضارة شئ آخر . قد أجد فى نساء فرنسا إلهاماً ما أو جمالاً ما أو حبا مميّزاً للحياة ، لكن لا يمكن أن أنسى أن السيارات الأولى فى شوارع باريس كانت تسير يمينا -رغم أن مقودها لليمين ويمكن أن تتسبب فى حوادث- ذلك لأنها ببساطة سيارات مستوردة ، ثم بعد ذلك راحوا يغسلون أدمغة العالم أن الإنجليز هم من يسيرون فى الجانب الخاطئ للشارع . الحضارة ثورة تقنية ، لا أكثر ولا أقل . ثورة تقلب الطريقة التى يعيش بها البشر حياتهم اليومية رأساً على عقب ، فلا تعود نفسها الطريقة التى عاش عليها آباؤهم . إذا فشلت تلك الحكم والأساطير فى خلق ثورة تقنية ، تظل تراثاً مسلياً لطيفاً لا ضرر منه . أما إذا أدت هى أو غيرها لرفض ذلك التطور أو مقاومته ، فهذه قرصنة وقطع طريق ، وليس لدى ، ولا لدى التاريخ ، توصيف آخر لها !

- (الضفة تعدل من جديد :) بالعكس ، بالعكس . أنا موافقك على بعض حاجات . الخليفة المأمون إلى مسميين الشارع هنا على اسمه ، وأكبر واحد يضرب به المثل على زهوة حضارة الإسلام ، كان كافر وبيقول القرآن مخلوق ، وأغلب إلى أحاط نفسه بهم وأغدق عليهم من أطباء وعلماء ومترجمين كانوا مسيحيين ويهود . دى أنا فاهمها .

- معلومة جديدة . لعلمك جازي لولا أنه كافر ، ما كانش عمل حاجة من إلى عمله .

- أنا موش معاك فى دى . الدين لا يتعارض مع العلم .

- لأ ، يتعارض . الاختراع محتاج بيئة معينة لازم يعيشها الطفل من صغره . لازم تفهمه م البداية أنه موش شرط يسمع الكلام ، كلام بابا وماما ، كلام المدرس ، كلام رئيس الدولة ، كلام الكاهن . موش ممكن يطلع مخترع وكل الحاجات إلى حوالبه مقدسة . أنت لا يمكن أن تستعين بالتقنية ، وترفض العقلية التى أنجبت تلك التقنية . تقول آخذ من الغرب أفضل ما عنده ، وآخذ من نفسى أفضل ما عندى . الانتقائية شئ مقررز . الأخلاق التى نسميها منحلّة هى التى صنعت تلك المنجزات ، ولو كانت أخلاقهم ' قومية ' كأخلاقنا لما اخترعوا شيئاً . مارجاريت مييد قالت ذات مرة إن الثقافة كاللغة ، إما أن تأخذها كلها أو تتركها كلها !

- (ضاحكا :) نفس كلام روميو ' يا ريت كنا كلاب زيهم ، كنا أنتجنا واخترعنا زيهم ' . فى دى أنتم صح . المحرمات لا أول لها ولا آخر . عندنا كل حاجة عيب والفقير بس هو إلى موش عيب ! عندنا الشباب موش لاقى يأكل ، ومتعطر ع الشغل اليدوى . وإلى بتسرق وعند الجنس تعمل شريفة . العرب يحرقون أعلام إسرائيل وأميركا صباحاً مساءً بينما كان من الممكن استخدام القماش فى ستر مؤخرات أطفالهم العارية . الفلسطينيون يعطوننا صباحاً مساءً فى العزة والكرامة والشعب العربى الأبي ، بينما مصدر دخلهم الوحيد هو التسول . وغيره وغيره . أنت عارف ' أبى ' معناها إيه ؟ معناها الرفض ، عمرك شفت أى شعب -الأمريكان ولا الألمان ولا الإنجليز ولا اليابانيين ولا أى حد- بيقول على نفسه أنه الشعب الرفض ؟ !

يسلمه الكتاب ، ويتنهد قائلاً : ' هناك شئ لم أعرف كيف أقوله لك حتى الآن . هذا هو الكتاب الذى كنت قد اتفقت مع نبيل على ترجمته ! ' .

كالمتوقع يغوص ضهرى فى الذكريات والترجمات على نوبل . ويشرد وحيد متأملاً وجهه ، متفكراً فى أشياء أخرى غير هذه ، كل حاجة عيب والفقير موش عيب : جبتها إزاي دى ؟ ! ما هى دى نفس حوار آلاف السنين إلى بدأه أرسطو وأفلاطون ، واحد بيقول الماديات أهم ، والتانى المعنويات أهم ! أفلاطون نفسه إلى بيحتقر كل شئ مادى ، لو سمع كلمتك دى تيجى له سكنة قلبية ! كل حاجة عيب والفقير بس موش عيب ! لك حاجات يا حاج !



ما أردت قوله هو أنك ربما لا تدري بالضبط ما أنت مقبل عليه

باهتمامك بموضوع الجينيات هذا !

باختصار ، لقد أثار شيء محدد في الحاج ضهرى ، فضول وحيد . كيف يربط بين معلوماته الواسعة في الجينيات ، وبين أحكامه الكثيرة الواثقة عن الشعوب والناس والأديان . ثم بعد ذلك لا يهمه إلا أن يكون مصلحا اجتماعيا ، بسيطا هادئا متدرجا ، يلقن الشباب فوق الكوبرى كيف يكون جادا ، أو يقبض على قاتل نبيل بنفسه . لا يمكن أن يكون الأمر مجرد تجاور عشوائى بين ما كنت أسميه أنا أعماق الشعوب ، والطبقات الجيولوجية للأمم ، أو ربما أعدله إلى الجيولوجيا الجينية ، وبين بقية أفكار شخص هائل الخبرة بالحياة والبشر كضهرى . على الرغم من تحبته وتناقضه ، هو آلة تفكير جبارة ، لا يمكن أن أنكر . لقد استدرجته كثيرا للموضوع ، ولم أظفر بشيء محدد . ربما هذا الكتاب يكون فاتحة طيبة لهذا الاستطلاع الثرى . في غمضة عين خرج هذا اللعين بأفكار لا تخطر بالبال من قصة الطيور هذه . ثم ما هذا الاستخفاف الزائد بكل شيء عنده ؟ أهو ثقة بلا معنى أم أشياء خفية لا أفهمها ؟ الرائع الآن أن فكرة مناقشة كتاب ' الجينيات الأنانى ' سويا تبدو واعدة جدا . معجزة أن وجدت شيئا لم يقرأه هذا الضهرى ، وقطعا لن يتهرب بالتالى من مناقشته منى . ها قد عاد عقلى يشتغل ويستنتج ويبحث عن نظريات جديدة ، كما أيام شبابى اليافع . لكن ما عساي أكتشف بالضبط أكثر مما علمنى أرسطو عن الشعوب ؟ لا أعلم !

بالفعل لم يكن يعلم ، أو بالأحرى من كان أكثر استعدادا ساعتها لطرق الحديد وهو ساخن هو ضهرى وليس وحيدا . قال وهما يهبطان الدرج وقد بدا سعيدا وهو يحمل نسخة ذلك الكتاب تحت إبطه ومصر سلفا على دفع ثمن الغداء : ' أنت من أنصار سلام مصر مع إسرائيل (وبالكتير الأردن إذا حررت قرارها بعيدا عن العرب) ، لكنك ضد سلام الباقين معها ، صح ؟ ' .

- صح ! لطالما كتبت أن أى سلام تنجو معه جبهة الرفض العربية-الإيرانية هو سلام أسوأ من أى حرب ؟

- هكذا هل تعتبر نفسك من الحمائم أم من الصقور ؟

- ... !

- لا تتسرع في الإجابة ! الحمائم ليست سيئة جدا كما قد يبدو من اسمها ؛ لا تستهن بها يا صديقى ، فهى أكثر صقورية بكثير ، على الأقل مقارنة بالصقور . إنها مثلا من الكائنات القليلة جدا التى لا تعرف تعدد الأزواج أو الزوجات ، وإخلاصها هذا هو ما جعلها رمزا للحب . هذا غير صحيح ؛ في الواقع هى من أشرس الكائنات إطلاقا ، ومستعدة لقتلك لو استطاعت ، أو طبعا قتل جارها الحمامة الأخرى العقيم إن حاولت الاقتراب من أحد من أسرتها ، لسرقة أحد الأفرخ مثلا ، أو مجرد تقديم الطعام له (التفكير في سرقة الزوج شيء لم يخطر ببال أية حمامة أصلا !) . هى عنيدة للغاية ، ليس فقط فيما يخص الأسرة ، إنما لأنه لا يوجد كائن نعرفه يتمسك بمسكنه قدرها ، وهى مستعدة للسفر مئات الكيلومترات للعودة إليه ؛ تعلم أن الصقور تنتظرها في الطريق ، لكنها لا تخشاها وتتحداها . أيضا هى كفاء للغاية ، وتعرف جيدا قدر نفسها وقدر مهاراتها . تملك أعظم جهاز للملاحة في كل مملكة الحيوان ، طوال الوقت ترسم خريطة لا تنمحي أبدا من ذاكرتها لكل مكان مرت به في حياتها . في الأحوال العادية تستخدم ذاكرتها الحديدية هذه أو تستخدم الشمس كبوصلة ، لكن لو أخذتها وراء البحار ، سوف تخرج من جعبتها أعظم الأسلحة جمعاء : جهازا للتوجيه المغناطيسى لا يزال كنهه بدقة مجهولا لنا حتى اليوم ؛ جهاز يرتبط بمغناطيسية الأرض وكأن كل خريطة العالم كانت مطبوعة سلفا في جبيناتها ، وبيتها هو نقطة القطب الحمراء التى تندفع لها كما السهم . بمعنى آخر أضف لمعلوماتك أن الـ Global Positioning System ليس اختراعا إنسانيا هو الآخر ؛ يعنى الـ GPS الموجود في كل العربيات دلوقت وإللى بعد شوية ها يزرعوه تحت الجلد فينا ، هو

- ما ... !

- ما أردت قوله هو أنك ربما لا تدري بالضبط ما أنت مقبل عليه باهتمامك بموضوع الجينيات هذا !



